هذه ثورتي

محمد جلال

يوميات



هذه ثورتي

هذه ثورتي

(يوميات شاهد عيان)

المؤلف: محمد جلال

الطبعة الأولى: 2017

نون 4 للنشر والطباعة والتوزيع

المنشية القديمة – حلب – سورية

خليوي: 00963944889078

00905372864656

هاتف: 00963212121332

بريد إلكتروني: m-wahab45@hotmail.com

للتواصل مع المؤلف:

Facebook: https://www.facebook.com/mohammadjalalsyra
Twitter: https://twitter.com/mohammadjalals1
Email: mohammadjalalsyria@gmail.com

محمد جلال

هذه ثورتي

(يوميات شاهد عيان)

إلى كل من استشهد..
إلى كل من جُرح، وكل من عُذّب، وكل من اعتقل..
إلى كل من فقد عزيزاً، وكل من فقد منزلاً..
إلى كل من أُخرج من بلده وداره..
إلى كل من ساعد، وساند، ووقف، وتعاطف مع السوريين في ثورتهم..

(وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين)

"يوسف 81"

عشناها معاً

عشناها هناك في أرض ليست ككل أرض، وتحت سماء ليست كأيٍ سماء..
عشناها هناك حياة ليست كالحياة..
عشناها هناك حيث لا شيء كأيٍ شيء..
فلا البشر ولا القدر ولا الموت كانوا كأيٍ بشر أو قدر أو موت..
عشناها هناك حين ضاعت البدايات واختفت النهايات، وتفرّق الواحد، وتشتت المراد، وتهافتت الأسئلة، وانعدمت الإجابات.
عشناها هناك، حيث صحّ غير الصحيح، وصار الدم ماء، وبكى الرجال، ومات الناس من الجوع، رغم أنهم قالوا في الأمثال عكس ذلك.
عشناها هناك، قمة السعادة وقمة الحزن، قمة الأمل وقمة اليأس، قمة اليقين وقمة الشك، قمة القوة، وقمة الضعف، قمة الجهاد، وقمة العبث.
عشناها، حيث كان كل أمر خيراً وشراً، وكل قرار صائباً ومخطئاً، وكل كلام دعاءَ وكفراً، وكل رأي حلالاً وحراماً. لا أعرف الآن، أتراه ربنا يرحمنا أم يعذّبنا؟ أتراه يُدْخلُنا جنةً أم ناراً؟

رغم كل ذلك، عشناها وتعودنا، لكن عليكم أن تعلموا أننا إذا كنا تعودنا، فلا يعني أبداً، أنَّ الأمر عادي، وإذا كنتم لم تروا، فذلك لا يعني أبداً، أنَّ الأمر لم يحدث، وإذا كنتم لم تضغطوا الزناد، فلا يعني أبداً، أنكم لم تقتلونا.

الحروف الأولى

تماماً في الساعة الثالثة من صباح التاسع من شباط لعام 2012، وفي وقت أصبحت فيه الثورة السورية تحتل المركز الأول بين المواضيع التي تؤرّق هذا العالم. انتهيت من قراءة رواية سمرقند، وبدأت أولى كلمات هذه القصة. سمرقند ولسبب ما كانت الرواية الأكثر إلهاماً لي من بين الروايات التي قرأتها. فمنذ قراءة الصفحة الأولى منها ومتابعة أحداثها الساحرة، أدركت أنه قد حان وقت العمل الذي ترددت كثيراً بالبدء به، وهو أن أكتب قصةً تلخّص الثورة السورية كما شاهدتْه عيناي وسمعته أذناي.

نصحني بقراءة سمرقند قبل الإفراج عني من سجن حلب المركزي رجل يدعى أبو أحمد، لا أذكر اسمه، لكنه تاجر حلبي من عائلة قنواتي كان رئيس الغرفة التي أنزل بها. بعد نقاش حول الثورة ومسارها ومستقبلها وجدواها، والحديث المطوّل حول الروايات والكتب التي قرأناها.

لا أعلم على وجه التحديد فيما إذا كان أبو أحمد قد نصحني بقراءتها لمجرد أنّها أعجبته يوماً ما، أم إن هناك هدفاً قصده، وهو الإلهام الذي يمكن أن تقدِّمه الرواية لشخص مثلي يريد أن يفعل شيئاً، لكنه يشعر بعدم جدواه. ولا أعلم أيضاً إن كانت تلك الرواية قدمت لي الإلهام المطلوب للبدء بالكتابة الجدية، أم إن هذا ما كان سيحدث لو أنني أنهيت، ذلك الوقت، أيّ رواية أخرى، قد تكون مثل قطرة تفيض كأساً؟!

المهم الآن أني قد بدأت، بل انتهيت في حال كنتم تقرؤونها الآن، وإن لم يكن ذلك فستكون خيبة كبيرة لي. بالتأكيد لن يشعر بها سواي بعد أن أضغط على زريّ shift وdel معاً.

الهدف الأول من هذه القصة هو معرفتي أن هذه الثورة أصبحت بحاجة إلى مئات الكتب التي تتحدث عنها، وإلى عشرات الأفلام الوثائقية والتاريخية لتقدمها إلى العالم كما يجب أن تقدم، دون تدخل من أصحاب المذاهب السياسية والفكرية والأهواء الدينية في تصويرها. ودون أن ندع المنتصر

يكتبها حسبما يشاء، كما كان يجري عبر آلاف السنين من التاريخ الذي نعرفه اليوم. أردت أن يعرف كل متابع لهذه الثورة بعض التفاصيل الصغيرة التي عشناها، كي يضعها مع الأحداث العامة المعروفة خلال مجريات الثورة، ليتكوّن لديه جزء أكبر من الصورة التي يستحيل أن يراها أيّ شخص كاملة بنسبة مئة بالمئة.

لديّ رغبة كبيرة في أن أكون كاتباً للرواية وبطلاً من أبطالها كما حلمت دائماً. كانت الثورة بالنسبة لي أفضل ما يمكن أن أكتب عنه، وأفضل فرصة يمكن أن أستغلها.

رياح التغيير

حملت لنا الأيام الأواخر من عام 2010 أنباءَ لم نألفها من قبل. لم نكن لنفكر فيها أو في احتمال قيامها. بدأ كل شيء ذلك المساء، ولا أحد يعرف متى ينتهي. لا نعرف اذا كان ذلك الشيء واقفاً أصلاً، أم إنه كان يكمل مسيرته السرمدية. ربما زادت في ذلك الوقت سرعته لتفوق قدرتنا على فهمه. أيمكنني إيقاف الزمن قليلاً لأكتب لكم، آملاً فهم حقيقة ما جرى؟! وليمكنكم تقديمه في نصف ساعة يوماً ما، كحصة للتاريخ في مدارس المرحلة الابتدائية.

من تونس الخضراء كانت شرارة البداية التي نبهت كل من فقد حاسّة الأحلام. البداية التي ذكرتنا بأن هناك أحلاماً بانتظار أن تحلم بها هذه الشعوب التي فاحت منها ومن نشرات أخبارها رائحة العفن. لأول مرة لم تتحدث وسائل الإعلام عن الموت الذي يلف هذه المنطقة من كل جانب. لأول مرة خبر يحمل البشرى بمولود قادم، سيقودنا إلى معرفة أنفسنا بعد أن أضعناها في بطاقاتنا الشخصية، وكتب التربية الوطنية والقومية والدينية. وأخيراً وجه جديد سيطل علينا، لا يشبه سلفه، لا لجهة الطول أو لون العيون ولا لجهة الإجرام. ليس لأن أمه حملت به من غير أبيه، بل لأنه حقاً ليس ابناً لسلفه القائد.

هي إذاً ثورة شعب على واحد من طغاة العرب. نعم بكل بساطة لقد فعلها الشعب العربي أخيراً. هرب الدكتاتور وعائلته تحت جنح الظلام، بعد أن فقد السيطرة على الشارع قبل أن يفقد السيطرة على الجيش، هرب وهو يردد: "فهمتكم، أنا فهمتكم".

شيء ما عاد للحياة في داخلنا، لا أدري كيف خبأناه في قلوبنا رغم ضخامة حجمه. شيء قتله أهلنا فينا مع حليب أمهاتنا، أرضعونا الذل والخوف. نعم يمكن أن يفعلها أحد ما ذات يوم. هل سنعيش لنشهد كيف يصرخ الناس باسم الحرية في شوارع الشام؟! لا أظن، لكن بإمكاني أن أحلم قبل أن أنام بذلك.

السرور بدا واضحاً على الجميع بعد ما جرى في تونس، والتفاصيل بدأت بالتناقل. شاب غاضب تجاوز ما لم يتجاوزه أحد وقال:

لا.. ثمّ أحرق نفسه منارةً لطريق سوف يسير عليه كثيرون. مات البوعزيزي دون أن يعرف ما الذي أحياه في الموتى من حوله؟!

كنا كمن يعيش أول قصة حب في حياته، يلف ويدور ليعود بحديثه إلى محبوبته أو إلى أهلها أو حتى إلى جيرانها. الحديث كله بين أفراد الشلة كان يذهب إلى الوضع في سورية، واحتمال أن يكون هناك يوماً ما احتمال. لم نتطرق إلى أي تفاصيل أو نوايا، بل كانت مجموعة من النكات الساخرة نطلقها من وضعنا الميئوس منه.

كان هناك أيضاً بعض التكهنات حول هوية الدولة العربية التي ستتلقى الضربة التالية. العيون، والأصابع كلها كانت تشير إلى مصر لأسباب كثيرة تجعلها جاهزة لتكون المحطة التالية لثورات الربيع العربي. رجحتُ شخصياً ترشح جمال مبارك للرئاسة لتكون شرارة لتلك الثورة.

لكن بعد أقل من شهر أصر الشعب العربي أن يرمي بتوقعاتنا ويأسنا عرض الحائط، وأن يفاجئ الجميع بثورة في مصر، وبدون أن ينتظر تلك الشرارة التي افترضتُها. فبغضون أسبوعين كان الشعب المصري قد سطّر للعالم أروع الأمثلة في الثورة الشعبية السلمية، وبرهن أنّ الثورة لن تقف عند أحد، ولن يكون هناك استثناءات، ومن يريد أن يسلم منها فعليه أن يبتعد عن طريقها، وإلا سيتحطم ويسقط كما بدأ الزعماء العرب يتساقطون في ذلك العام الذي لن تنساه شعوب المنطقة.

الغبطة والسرور كانت مضاعفة للأخبار القادمة من مصر. ولعل أبرز الفرحين بهذا السقوط كان النظام السوري، الذي رحّب بالربيع العربي وبأمة بدأت تستفيق من غفوتها. لكن هل يصل الربيع العربي إلى سورية؟ هذا ما كان يستبعده أغلب الناس ومنهم أنا، وكذلك الرئيس السوري "بشار الأسد" الذي صرح لصحيفة "وول ستريت جورنال" الأمريكية بأنه مطمئن، فسورية بعيدة عما يحصل في البلدان العربية. لكن مجرد ذكر هذا الكلام كان مؤشراً هاماً لنا، فما يدور في رؤوسنا، هو في رؤوسهم. كان الحلم يكبر على مهل، والنور في آخر النفق يزداد توهجاً.

بعد ثورة مصر بدأت الثورة العربية بالانتشار في اليمن والبحرين وليبيا، وكان هذا مشجعاً وكاسراً لبعض الخوف الذي كان يعترينا، بدأنا بالحديث مع

الأصدقاء المقربين عن ثورة يمكن أن نقوم بها، وعن سورية التي هي من أكثر بلدان العالم بحاجة إلى ثورة تقتلع نظامها من جذوره، وتبني الدولة الحديثة التي تمكن المواطن من رفع رأسه. لكن رغم كل هذا مازلنا في طور غير المصدق بأن يحدث في سورية ثورة أخرى مشابهة، وكل ما كنا نقوله، لم يكن غير خيال نطلقه متصورين أحداث ثورة نشارك بها، رفعاً لمعنوياتنا لا غير.

قبل الميلاد

قبل ميلادنا في الخامس عشر من آذار من ذلك العام، كان الوضع في سورية مزرياً إذ أصبحنا، بعد أن أيقظنا الربيع العربي، نستغرب كيف أننا لم نقم بهذه الثورة من قبل، وكيف صبرنا عقوداً على هذا الواقع. والأسوأ من ذلك، كيف اعتدنا حياة القمع والظلم والمذلة؟ وكيف رتبنا حياتنا على أساسها؟ واخترعنا المبررات لطريقة الحكم في هذه الدولة؟!

كان الأمر سيئاً لدرجة لا تعرف، إذا سألك أحد ما لماذا قمتم بهذه الثورة، ومن أين تبدأ وأين تنتهي، فلا شيء لا يدفعك للثورة في سورية، هذا ما تأكدت منه مع مرور الوقت. فلا قيمة للإنسان في هذا البلد، والشعب بالنسبة للنظام مجرد كلاب، وحمير في حالة الخدمة في الجيش السوري. يمكن لأي عنصر أمن أن يفعل ما يشاء فيمن يشاء، وخصوصاً في حال تجاوزه خطوطاً حمراء كثيرة تحيط بالسوريين، وتهدف في مجملها لدوام بقاء النظام إلى الأبد.

الفساد هو القاعدة والاستثناء هو الاستقامة، المواطن يسرق برضائه بل وهو في كامل بسطه وانشراحه. الفساد معشش في نفوس الجميع ولا استثناء..! بعض مواقف النزاهة تجلب لصاحبها الشكوك والتهم والنظرات الحيرى من عامة الناس، فضلا عن غضب السلطات.

كلمة السر في هذا النظام كانت "الأمن" فكل شيء في هذا البلد تسيطر عليه قوات الأمن وتتحكم به كما هو معروف في الدول البوليسية. الأمن كلمة جميلة، والناس في مختلف بلدان العالم تسعى لأن يكون أحد أهم ثرواتها، إلا أن كل مشاكل هذا البلد ومعاناة الشعب فيه كانت تنتهي إلى هذه الكلمة، حيث كانت فروع الأمن في سورية هي الحاكم الفعلي للبلاد، فلا حكومة ولا مجلس شعب ولا حزب بعث ولا قائد للدولة والمجتمع. كان كل من يقال له: "أمن" أو يمتّ بصلة صداقة أو قرابة له، لا يغلق في وجهه باب ولا يرد له طلب ولا يجرؤ أحد أن يعترض على أي من تصرفاته.

الأمن في سورية كان قوياً جداً. وهذا الذي لم نكن لننتقده أبداً، فأي دولة تحترم نفسها يجب أن يكون فيها الأمن قوياً، لكنه في حالتنا كان قوياً على عامة الشعب، بينما يجلس اللصوص وكبار المجرمين في مجلس الشعب أو في مجلس الوزراء، وفي كثير من الأحيان في فروع الأمن. عملياً كانت كل فروع الأمن مهِمتها الحفاظ على بقاء النظام ومكتسباته واستمرار الوضع على حاله، وسُمح لهم في سبيل ذلك بكل شيء.

فلكي يحافظ النظام على قوته ومتابعة حكمه للدولة قام بزرع أقارب الأسرة الحاكمة قادة وضباطاً لهذه الفروع، بدون النظر لأي مؤهل مهني أو علمي. ونظّمها لكي تراقب كل ما يقوم به المواطن وأطلق يدها في البلد، وشرّع لهم المادة السادسة عشرة من المرسوم التشريعي رقم 14 للعام 1969، التي تعفي كل عناصر الأمن من أية ملاحقة قانونية عن الجرائم التي ارتكبوها. طبعاً هذه المادة تشكل إهانة لكل مواطن سوري، وخطراً دائماً يهدد وجوده وحريته وممتلكاته.

بعد انتفاضة الثمانينات رسّخ نظام الأسد مبدأ الخوف من الأمن بعد كل ما جرى من مجازر وحشية حصلت إبّان قمع هذه الانتفاضة، فجرى تصفية كل من يعتقد أنه يشكل خطراً على النظام، وكل من ناصره وساعده أو بقي متفرّجاً، كما أقصي كل من يشكل خطراً مستقبلياً عبر الإعدام أو السجن المؤبد أو النفي خارج البلد.

على مدى الأربعين عاماً، ونتيجة للسلطة، والنفوذ الذي تمتعت به قوات الأمن، أضحت مكاناً يجمع داخله أقذر الناس، وأحطهم وأقلّهم إنسانية، وأيّ شخص لا مبدأ له في الحياة يرغب في أن يطلق عليه هذا الاسم المرعب، لتطلق يده على الناس، ويتصرف على هواه بأحوال العباد، وأصبحت مباني هذه الفروع مركزاً لتصفية كل من يتصرف بتصرف من شأنه الإساءة للنظام الحاكم ورموزه. فلا يكاد المرء يفتح فمه حتى يراه يغلق على نحو وحشي.. إضافة إلى ذلك، أسست هذه الفروع شبكة من المخبِرين انتشرت بين الناس عبر تجنيد عدد كبير منهم طوعاً أو كرهاً، وأصبح تكتُم المواطن على معلومة وصلته مصادفة جريمة يعاقب عليها كفاعلها. كل هذا دفع الناس لعدم الحديث في الأمور المحظورة حتى مع أنفسهم، للشعور الدائم بأن كل الكلام

مراقب وخصوصاً في المؤسسات العامة وعلى الهواتف أو الإنترنت، وظنّ الناس أن كل شيء يمكن للأمن معرفته. وراح خيال الناس يحركه الخوف المحيط، فيظن أحدهم أنه يمكن سماعه عبر مأخذ الكهرباء، أو عبر الهاتف بدون أن تكون هناك مكالمة خلاله، واعتقد الناس أن كل عمال النظافة في هذا البلد وشحاذيه مخبرون للأمن.

في المؤسسات الحكومية ومع استمرار الوضع على ما هو عليه لسنوات طويلة، وجدت شبكات لحماية الفساد والفاسدين. فكل رجل مرتشٍ وناهبٍ لأموال الدولة مرتبط بحلقات من الفاسدين تنتهي بضابط أمن يحمي الجميع، ويضمن عدم وجود أي شخص شريف في حلقاتها. وأدى اعتياد الناس على مثل هذه الأمور إلى تشكيل بعض الأعراف الشعبية، والحكومية التي تسهِّل الفساد برمته، فكانت هناك تشريعات ضمنية تقدِّم الرشوة إلى كلِّ عمل يقوم به موظف. وانتشرت المحسوبية إلى درجة أصبح معيباً عليك كموظف، ألا تخدم أقاربك وأصدقاءك.

وفي سبيل ضمان الولاء المطلق من أفراد الشعب قام النظام بتفريغ أي شيء من معناه وغايته، إلا ليكون أداة تعمل لتكريس حكم عائلة الأسد. فقد همّش مؤسسات الدولة وألحق منظمات المجتمع المدني بحزب البعث، وبالتالي، بأجهزة الأمن، وكذلك همّش دور علماء الدين، إذ اقتصرت خطب الجمعة والدروس الدينية على مجرد زخرفات بعيدة كل البعد عن توجيه الناس ضد الوضع القائم في البلد. كما أنّ النظام حوّل العشائر إلى مجموعات بشرية خالية من أي عناصر النخوة والشهامة، وجعلها عصابات يتزعمها مجموعة من اللصوص تجار الأسلحة والمخدرات. وفي السبيل ذاته شلّ نظام الأسد الحركة الأدبية، إذ ربط نشر أي كتاب أو قصيدة بموافقة أحد أفرع الأمن. والأمر ذاته ينطبق على السينما والدراما إذ لا يُعرض أي إنتاج لهذه المؤسسات قبل أن يمر على أحد فروع الأمن.

أما الطامة الكبرى، فكانت في الجيش السوري الذي تحوّل من أحد أقوى جيوش المنطقة إلى مجموعة من المنتفعين والمرتشين، الذين أبيح لهم فعل كل شيء داخل هذه المؤسسة ما داموا يدينون بالولاء للقائد. فبدلاً من أن تكون الخدمة في الجيش شرفاً لكل مواطن، أصبح مكاناً للذل والعبودية ودفع

النقود، التي امتلأت بها جيوب الضباط، وفي أحسن الأحوال يكون العسكر خدماً لزوجات الضباط، وسائقين لأولادهم. كما أصبح الجيش مكاناً يتعلم فيه المواطن كل أنواع الشتائم وفنونها، ولا يستثني رب العباد الذي يؤمن به غالبية الشعب السوري، ويعدُّ أقدس مقدساتهم. فلم تكن تخلو أي كلمة يطلقها بعض أفراد الجيش من لفظ الإساءة للذات الإلهية.

باختصار كان كل شيء في البلد تسيره فروع الأمن. في الحقيقة كنا نعيش في فرع أمن يملك بلداً، وليس في بلد لديه تلك الفروع.

* * *

النظام السوري وبعد اطمئنانه على الجبهة الداخلية، قام بتثبيت نفسه في المنطقة وضمان عدم تفكير أحد ما بتغييره بدون دفع ثمن باهظ. فقام بالدخول في كل توازنات المنطقة، وربط نفسه بكل صراعاتها، بحيث كان جزءاً من مشاكلها وجزءاً من حلها في الوقت نفسه. فكان يتوجب على كل من يفكر باللعب مع النظام تحضير توازنات، ومعادلات سياسية لضمان استقرار تلك الملفات التي أدخل النظام نفسه فيها لاعباً أساسياً، على أساس المبدأ الذي كنا نستخدمه في مدارسنا الابتدائية لنضمن المشاركة في لعبة كرة القدم "يا خريبة يا لعيبة".

كان على كل القوى العالمية أو الإقليمية التي تفكر بإسقاط نظام دمشق التفكير بمعادلات جديدة لضمان استقرار كل من الصراع العربي الإسرائيلي، ولبنان وحزب الله وسلاحه، والعراق ومشاكله والقضية الكردية وتعقيداتها، والنزاع الخليجي الإيراني، والملف النووي الإيراني، وقضايا الإرهاب وتناقضاتها، وغيرها من الملفات التي يهدد النظام بنسفها في وجوه كل القوى التي تحاول إسقاطه. بالطبع هكذا مشاكل لم يكن ليهتم بها المواطن السوري حين فكر بالقيام بإسقاط النظام، إنما ستشكل أرقاماً كبيرة لكل دولة قد تنحو هذا النحو ضد النظام السوري. بالنسبة لي كان كل ذلك أسباباً إضافية نؤكد على ضرورة إسقاط هذا النظام.

سألني أحد الأصدقاء عن الأسباب الشخصية التي تدفعني لكره هذا النظام. بصراحة لم يكن الموقف من النظام قائم على دوافع شخصية، فقد كنت مواطنا يعرف القواعد جيدا، وماهرا في السير في حقل الألغام الذي زرعه

النظام في حياتنا. أحفظ غيبا الخطوط الحمر الكثيرة ولا أتجاوز أي منها. فلم أتعرض لما قد يكون حقدا شخصيا لي على النظام المجرم.

إلا اذا كان عشقي لهذا البلد ولهذا الشعب الطيب، ورغبتي الكبيرة بتحريره واستعادة مقدراته دافعا شخصيا. لم أكن أريد لابني الذي لم يولد أن يعيش في هذا الجو. أردته حراً لا تقيده القواعد التي تقيدنا. أردته آمنا لا تحيط به الأخطار التي تحيط بنا. أردته له أن يعيش في سوريا وأن لا يكون هناك احتمال لأن يولد أو يعيش بعيدا عنها. لم أرد له أن يكون سوريا من الدرجة الثانية أو الثالثة. أردت أن نكون جميعا سوريين من درجة واحدة لا ثانية لها.

بالطبع الوضع في الوقت قبيل انطلاق الثورة بحاجة إلى الكثير من الكلام عنه، إلا أنني لم أخصص هذا الكتاب للحديث عن تلك التفاصيل، وأرجو ألّا تغيب تلك الفترة في ظل ما يجري منذ انطلاق الثورة، فالأمور مترابطة إذ لا بد من ثورة حتمية عندما تصل البلاد إلى ذلك الوضع من الفساد والاستبداد، كما هي حتمية قلْع كل شجرة نخرها الدود من جذورها حتى أصغر عيدانها.

كانت الثورة على هذه الأنظمة، وعلى رأسها النظام السوري ضرورة قصوى، لا يجب الانتظار للقيام بها، وإلا فستكون الخسائر مضاعفة على الشعوب أفراداً وجماعات. فهذه المنطقة، ونتيجة لأوضاعها المتخلفة التي كرستها أنظمة الاستبداد، أصبحت عبئاً على العالم الإنساني لا تسهم بحضارته بشيء، وتسهم بمشاكله الكثير الكثير. فلا تشارك هذه المنطقة في رصيد العالم الحضاري إلا بمناسبات قليلة جداً، والتي تكون على شكل حالات فردية لا يمكن تعميمها. فلا نرى أعلامها ترتفع على صعيد معظم الأنشطة العلمية منها والثقافية والرياضية كذلك، بل كانت هذه المنطقة المصدر الرئيسي للإرهاب، بالمفهوم الغربي للكلمة، نتيجة السياسة المفرطة في القمع وكم الأفواه، إذ يجبر الكثير من الناس على التطرف واختيار طرق العنف وسيلة لعرض أفكارهم.

بالطبع الغرب يتحمّل مسؤولية كبيرة فيما آلت إليه المنطقة من تدهور، فهم الذين باركوا وصول هذه الأنظمة سدة الحكم واستمرارها، بل قاموا بتنصيب مباشر للكثير من الدكتاتوريين العرب، ضاربين عرض الحائط بكل

المبادئ والقيم الأخلاقية التي يتشدقون بها ليل نهار. وقد آن الأوان لشعوب المنطقة أن تقول لا لكل هذا، وأن تثور على هذه الأنظمة، وهذا الواقع مهما كانت النتائج، وأن تختار ممثليها بحرية وتنضم إلى العصر الحديث الذي تعيشه دول العالم المتقدمة، وتنهي العصور الوسطى التي تدور فيها حول نفسها بدون بوصلة تقودنا للعالم الجديد.

الشرارة الأولى

في واحد من أيام عام 2011 الأولى، وخلال جولة عادية على الشبكة العنكبوتية، لفت انتباهي صفحة على موقع الفيس بوك يدعو صاحبها إلى يوم غضب سوري، وبدء انتفاضة لإسقاط نظام بشار الأسد في الخامس من شباط. الموضوع كان مثيراً جداً ومفاجئاً للغاية. سارعت إلى النقر على الرابط، ففتحت صفحة "ترحيب" التي تدعو أبناء سورية إلى الانتفاض ضد النظام كما جرى في مصر وتونس، وكما كان قد بدأ وقتها في ليبيا والبحرين واليمن. الصفحة كانت ترحب كذلك بالشجاعة التي تحلينا بها لمجرد دخولنا إليها وقراءة ما كان مكتوباً فيها. وبالفعل، وعلى الرغم من أنني كنت وحيداً في المنزل، إلا أن خوفاً كبيراً فُطرنا عليه داهمني، وحاول منعي من التقدم. بدأت أقرأ الكتابات والردود، ألتهمهما التهاماً، كانت بمجملها تحث على الثورة والانتفاض، وتأكد لي بأن الوقت قد حان للتغيير. لم آخذ كل ما قرأته على محمل الجد، فكنت أتابع كل ما كتب بهذه الصفحة كما لو كنت أتابع فلماً من الخيال العلمي.

مرت أيام قليلة، ومرّ الخامس من شباط دون أن نشعر أنّ شيئاً غريباً قد حدث. إلا أن حمزة أحد أصدقائي المقربين من فرع اتحاد طلبة سورية في حلب، حدثني في إحدى جلساتنا عن المسؤول في الفرع الذي اجتمع بهم، وأبلغهم بضرورة وجودهم في ذلك اليوم في ساحة سعد الله الجابري، والاستعداد لأي مظاهرة قد يخرج بها "الأكراد" والاندساس بينهم، وخلق مشاكل لتتكفل، قوات الأمن بالباقي. بالطبع لم يحدث أي شيء يستحق الذكر سوى بعض الاستنفار الأمني.

بعد أيام قليلة مررت تحت جسر للقطار في منطقة الشيخ سعيد بالقرب من دوار جسر الحج، فأشار لي صديق كان برفقتي إلى كتابات على الجدران ممسوحة بطلاء أسود. لم يسبق أن سمعت بهذا الموضوع، رغم استغراب قريبي أني لم أعرف عمّ يتكلم، فسألت مستفسراً. هنا تدخل سائق سيارة

الأجرة التي كنا نستقلها ليقول: إنهم كتبوا "الشعب يريد". أجبت بأن جميع الناس تعاطفوا مع المصريين في ثورتهم. استدرك السائق بأن قال: "لا لا قصدهم على". هنا فهمت ما جرى تماماً. الكتابات كانت ضد الرئيس السوري. لم أستطع إخفاء سروري بمثل تلك الحادثة، وقلت للسائق بلسان غير مبال: "إي عادي، الله محي اللي كتبها". صُدم السائق بهذا الكلام، ولم يعد يعرف كيف يِنزلنا، ويتخلص من المصيبة التي قد تحدث له بسببنا.

مثل تلك الحوادث على قلّتها، وبساطتها، كانت تدفع نحو المزيد من الترقب وتوتير الجو العام.. بدأ الناس يتناقلون مثل تلك الأحداث، ويوغلون في تحليلها، ونفي أو تأكيد تفاصيلها. وكالعادة كانوا يختمون كل ذلك بعبارة:

"يا أخي نحن عنا الوضع غير، والشعب بحب رئيسه" وذلك ما جعلني ذات مرة انتفض في وجه زميل لي في العمل بالقول:

"يا أخي اسكت، نحن الوضع عنا أبشع من كل دول العالم". نظر زميلي إليّ بدهشة دون أن ينطق بأيِّ حرف، وبدا خائفاً عليّ، ومني في الوقت نفسه. مع مرور الوقت كان الحديث عن الثورة يزداد، إلا أنه لم يصل إلى المرحلة التي تجعلنا ننتظر شيئاً، فقد كنا نعرف في داخلنا ألّا مطر في تلك الغيوم، ولا أمل ترسمه تلك الوجوه.

على الصفحة ذاتها وفي موقع الفيسبوك التي تحدثنا عنها سابقاً حدِّد موعد جديد ليوم الغضب في سورية، وهو الخامس عشر من آذار، بعد فشل محاولة الخامس من شباط. عملياً لم يتغير أيّ شيء يمكن أن يجعل الموعد الجديد يختلف عن سابقه، وربما الشيء الوحيد الذي تغيّر هو إدماننا على كل كلمة تحملها تلك الصفحة من منشورات وتعليقات المعجبين، فكانت المتنفس الوحيد الذي يجعلنا نعيش ثورتنا الافتراضية، بعد أن كانت الثورة الواقعية بعيدة المنال.

قبل موعد انطلاق يوم الغضب بقليل، حدث أمر رغم بساطته إلا أنه لم يكن مسبوقاً في سورية، إذ ناقش تلفزيون المشرقOrient الذي كان له مكاتب ومراسلون في سورية ذلك الوقت تقريراً عن هؤلاء المتحمسين للثورة على الإنترنت، وعن إمكانية أن يحدث شيء ما على الأرض، وتطرقوا إلى واقع الفساد في البلد والحاجة إلى تغيير حقيقي، وأذكرَ أنّ أحد طلاب كلية الهندسة

الكهربائية في جامعة حلب قام بالاتصال بالقناة وإبداء رأيه. بالطبع اعتقلت قوات الأمن الطالب فوراً، لتفرج عنه لاحقاً. لكنّ هذا البرنامج كان إشارة جديدة بأنّ شيئاً ما يجري في البلد.

قبل يومين من الموعد المنشود، اجتمعت الشلة لوداع صديقنا المهندس بشار، الذي كان يحزم أمتعته للسفر إلى المملكة السعودية للعمل. وكان أبرز ما دار بيننا أمر ما سيجري يوم الثلاثاء. ماهر أكد أنّ هناك مفاجآت وتحضيرات، تجري في مكان ما، وتوقّع بأن أخباراً مباشرة سنسمعها. بعد أيام قليلة.

كانت الشلة تتكون من عدة شباب في منتصف العشرينات جمعت بيننا المدرسة، والحارة. كنا في ذلك الوقت في آخر سنواتنا في الجامعة بينما تخرج بشار وماهر حديثاً.

بشار الذي كان نسخة عن المدرب الإسباني غوارديولا من حيث الشكل كان فكره منحصراً بالتحضير للسفر دون أن يهتم لـ "ترهاتنا"، وأيده بذلك أبو عدنان الذي نصحه بعدم الالتفات لما نقوله. كان أبو عدنان الوحيد في الشلة الذي يملك عملا خاصا واستمر يسخر من كل ما نقوله حول الثورة ناظرا إلينا تلك النظرة التي يلقيها الأجداد على الأحفاد من فوق نظاراته الطبية.

كان ماهر الحديث التخرج من كلية الهندسة الميكانيكية، والموظف في القطاع العام صديقي منذ كنا في الصف الرابع الابتدائي، وأظنه الوحيد بيننا الذي كان يعارض النظام جهرا منذ أن التقيت به.

بينما رحنا أنا وزكريا ابن عمي نحضِّر الشعارات والفعاليات التي سنقوم بها في حال صدق المنجمون. طلبنا من بشار الذي كات يحاول تغيير موضوع أحاديثنا، أن ينتظر الأخبار القادمة من حلب التي ستضرب ضربتها القاضية ضد النظام. ولماذا لا تفعل وقد عرفت شوارعها، المجازر المروعة أيام مجزرة حماة الكبرى أوائل الثمانينيات.

الخامس عشر من آذار

إنه الموعد المنشود، الثلاثاء الخامس عشر من آذار.. كان ذهني وتفكيري وحواسي كلّها منشغلة بما قد يجري، رغم أني كنت لا أزال على قناعة بألا شيء سيحدث، وسيمر هذا اليوم كما مرت كل الأيام في سورية، ثقيلة بطيئة لا يختلف سبتها عن أحدها. وهأنذا أخرج من المركز في الساعة الثامنة صباحاً بعد أن انتهى دوامي باتجاه البلد، لأتوجه بعدها إلى المنزل حسب الطريق المعتاد. لم ألحظ أيّ شيء يستحق الإشارة إليه كما توقعت، والأمور كانت طبيعية للغاية، ولا يبدو أن أحداً ما قد سمع بهذه الثورة. تابعت المسير، وأنا أراقب كلّ تفصيل قد يلفت النظر. توقفت قليلاً عند موقف الحافلات لأراقب الوجوه والعيون، إلا أن أيّاً منها لم يُجب على تساؤلاتي. صعدت إلى الحافلة وتوجهت إلى المنزل للنوم بعد يوم عمل ليلي طويل، بدا ذلك أفضل من انتظار ما لا داعي لانتظاره.

في الحافلة والنعاس لا يستطيع أن يغلب هذا الدماغ المشغول بذلك الأمر الذي يصعب الغفلة عنه أو التفكير بغيره. شعرت بكثير من الإحباط. لقد كان ما أنتظره معجزة، فلماذا كل هذا الإحباط؟ صحيح أني كنت أنتظر معجزة، إلا أنها كانت أقصى ما يمكن أن أتمنى حدوثه يوماً. كنت أنتظر تلك اللحظة التي ستتغير فيها حياتي، ولا يبدو أن هذا التغيير قادم. شعرت يومها أني لن أستطيع أن أكمل حياتي في هذا البلد. كانت تلك فرصتي الأخيرة للبقاء في البلد، والآن علي التفكير بالمغادرة، فهي حياة واحدة أملكها، ولست مستعداً أن أهدرها تحت حكم عائلة الأسد. كان عليّ مواجهة فوبيا الهجرة التي كنت أعانيها منذ الصغر.

فكرت مجدداً، لماذا عليّ أن أنتظر هذه المعجزة من الآخرين، وأنا لم أخطط لصنعها. هل حياة الآخرين أغلى، أم إنهم يملكون ذلك الجنون المطلوب للقيام بمثل هذا الانتحار؟! هل من سلامة المنطق أن أقول للناس هيّا شاركوا في الثورة، هيّا ارموا بأنفسكم إلى الموت، وضحوا بماضيكم

وحاضركم ومستقبلكم، وحاولوا تغيير شيء بحاجة إلى قوى عالمية أو تدخل رباني لتغييره. كيف لشعب أن يفعل ذلك، ولم يشاهد عُمْره مظاهرة، ولم ير طوال حياته منشوراً ما ضد النظام، ولم يقرأ عبارة تمرد على جدار؟! والآن يأتي أمثالي ممن قرؤوا كتاباً هنا أو مقالاً هناك، ليقول لهم: هيا أسقطوا هذا النظام وابنوا غيره خلال أسبوعين أو ثلاثة، متناسين أنّ النظام مترسخ على مدى أربعين عاماً.

بدأت القناعات بالتشكل كعادتها في أوقات الصباح. علينا، إذا كنا نريد التغيير فعلاً، أن نبدأ الآن.. أن نعبئ الناس، دون أن ننتظر نتائج ما، فجيلنا، ببساطة لن يراها. فإن لم تُكتب لنا التضحية هذه الأيام فلعلنا نجهِّز من هو بعدنا. كنت أتمنى يكون هذا الأمر بدون تضحيات، إلا أنه، وللأسف، على أحد ما أن يضحي..

لم يطُل الأمر حتى وصلت إلى المنزل، ورميت بنفسي على السرير، لعلّني أجد في النوم راحة من كل هذا. شعرت بضرورة وجود زر ما يوقف عمل الدماغ، في مثل هذه المواقف، للدخول في النوم مباشرة.

* * *

كعادتي استيقظت متأخراً ذلك اليوم، كانت الساعة تمام الثانية والنصف عصراً عندما ذهبت مسرعاً إلى الكمبيوتر لأرى ما يمكن أن يلفت الانتباه. على الفور دخلت إلى الفيسبوك لأجد منشوراً لأحد أصدقائي مكتوب فيه "شو اللي عمبيصير؟" مرفق معه مقطع فيديو مرفوع على اليوتيوب كُتب في عنوانه "انتفاضة الغضب في سورية". فتحت المقطع لأشاهد وانتظرت حتى حمل المقطع بالكامل، وكي لا يقطع عليّ بطء النت ذلك الحدث. شاهدته وأعدته مرة بعد أخرى، وقشعريرة تسري في كياني. كانت مظاهرة لأناس بمنطقة الحميدية في دمشق تهتف "وينك يا سوري وينك" "الله سورية حرية وبس" "سلمية سلمية". كان شخص ما يتحدث بلهجة أهل الساحل، ويشرح فيها أنها بداية الانتفاضة ضد النظام السوري.

إنها حقاً مظاهرة، وفي دمشق بالذات، ولم تهتف بحياة أحد بل هي عبارات نسمعها للمرة الأولى. الخبر كان له وقع صاعق لا أعرف ماذا أفعل، هل أصرخ؟ هل أقف على الشرفة وأنادي الناس في الشارع؟! هل أتصل بكل

من أعرفهم وأخبرهم؟! فالحلم أصبح حقيقة. إنه أول حلم يغدو حقيقة. علّقت على ذلك المنشور بـ:

"اقتربت الساعة، وانشق القمر" ومضيت أرصد ردود الأفعال على ما حدث.

توجهت مسرعاً إلى منزل ماهر القريب من منزلي. فوجدته على حال مشابهة لحالي من الاستنفار. كان يراقب عدد المعجبين بصفحة الثورة السورية الذي بلغ حينها أكثر من أربعين ألف معجب.

- مرحباً
- جاهز؟
- طبعاً جاهز
- يمكن في مظاهرة بحلب!
- "وين؟ منشان نروح عالسريع"
- "عم يقولوا بالجامع الأموي، وهلق مجد راح لهناك ليشوف إشفي ما في؟!"
- "عم تحكي معو عالمسنجر؟"
- "إي وعم أستنا يجيني الرد منو بأي لحظة"

بعد قليل يأتي الرد من مجد بكلمة: "في شي.."

يا الله لم أتخيل أن يكون الأمر بهذه السرعة. على الفور توجهت إلى المنزل وغيرت ملابسي، واتصلت بزكريا ليكون جاهزاً على الفور دون أن أتوسع في الشرح، فالكلام على الهاتف بهذه الأمور ممنوع. بعد قليل من الانتظار أمام منزل ماهر، أخبرني أنّ هناك شيئاً مرتباً باستاد حلب الدولي الذي كان سيشهد لقاء بين فريق الاتحاد السوري وفريق القادسية الكويتي. التقينا نحن الثلاثة، وانتظرنا عبد الرحمن صديق ماهر وتوجهنا إلى الملعب حالمين بأن تنفجر المظاهرات انطلاقاً من هناك. بالطبع لم أنس توفيق صديقي وزميلي في العمل فقد يحدث ما لا يمكن تفويته. اجتمعنا عند الملعب بمجد الذي لم أره منذ أكثر من سبع سنوات، وتجددت منذ ذلك اليوم علاقتنا، وهو بدوره كان معه عدد

من الأصدقاء المتحمسين الحالمين بأن تكون حلب مركزاً لأحداث ذلك اليوم.

جلسنا في الملعب نراقب ونراقب. شجعنا الفريق الكويتي، ودعونا الله أن يخطئ الحكم ضد فريق الاتحاد، لأننا نعرف كيف ستتأزم الأمور. انتهت المباراة، وأخطأ الحكم أشنع الأخطاء، وحدثت هناك حالات شغب بسيطة، لكن لا شيء يدل على مظاهرة داخل الملعب. وحتى بعد خروجنا انتظرنا، ولم نحصل على شيء مما في مخيلتنا. عدنا إلى المنزل دون أن نعرف على وجه الدقة مدى وكيفية تسارع الأحداث في المناطق الأخرى..

الجواب كان على صفحة الثورة. بالفعل لم يكن هناك سوى هذا التحرك البسيط، وفشلت دعوة للتظاهر بعد صلاة العصر في الجامع الأموي بدمشق. لكن هناك دعوة في اليوم التالي الأربعاء السادس عشر من آذار لاعتصام أمام وزارة الداخلية للمطالبة بالإفراج عن المعتقلين السياسيين.

بطبيعة الحال لم أفوّت ما تناقلته وسائل الإعلام ذلك اليوم، فقضيت بقية يومي متنقلاً بينها، وأكثر ما لفتني طريقة متابعة قناة المشرق للأحداث، إذ بدت وكأنها تنطق باسم الثورة، فتوسعتْ في تحليل ما جرى ذلك اليوم، إذ التقت عديد من المعارضين في الخارج ممن كان لهم الحراك أملاً وحيداً للعودة إلى الوطن بعد أن هجروا قسراً بسبب كلمة أو موقف ما.

في اليوم التالي كان هناك، كما أعلن مسبقاً اعتصام أمام وزارة الداخلية لناشطين سوريين للمطالبة بإطلاق سراح معتقلين سياسيين، لكن، وبطبيعة الحال، فإنّ الاعتصام لم يؤد إلى إطلاق حرية أي سجين، بل أضاف نزلاء جدداً منهم المفكر الطيب تيزيني، والناشطة سهير الأتاسي التي برزت للواجهة من خلال حديثها مع الإعلام يوم الخامس عشر من آذار.

لفتني ذلك اليوم ظهور معاون وزير الداخلية ليعلق على الاعتصام. وليؤكد أنّ هذا الاعتصام شيء روتيني ويحدث في سورية، لكن الإعلام قام بتضخيمه في هذه الحالة. لكن الذي لفت انتباهي أكثر هو أمر اعتدنا عليه في سورية، وهو صورة باسل الأسد التي تظهر في مكتب معاون الوزير. لعل القليل من التفكير بتلك الصورة تعطيك الدليل القطعي بأننا نعيش في مزرعة آل الأسد، فإذا سلّمنا أن حافظ الأسد هو الأب القائد وباني سورية الحديثة، وبأن بشار الأسد رئيس الجمهورية، فما الذي يبرر وجود صورة باسل الأسد

خلف مسؤول رفيع وفي وزارة مهمة؟! الجواب واضح.. وهو أن لصاحب المزرعة وضع صور من يشاء على جدرانها. الأمر لم يقتصر على صور باسل الأسد، إنما يمكن أن نجد صوراً لباقي أفراد العائلة، ولـ: "حسن نصر الله" وللرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد، وغيرهم من حلفاء النظام، وأصدقائه. على العموم هذا الأمر يعد تافهاً إذا ما قورن بباقي سلبيات النظام.

* * *

في مساء السادس عشر من آذار كان هناك اجتماع في منزلي لمجموعة من الأصدقاء، وخطرتْ على بال أحدنا أن نقوم بشراء بخاخ للجدران ونقوم بكتابة بعض العبارات في الحارة. كان الأمر مثيراً للاهتمام ومرحّباً به من الجميع. على الفور ذهب صديقي ماجد القادم حديثا من مدينته جسر الشغور، وأخي ليشتروا البخاخ بعد أن جمعنا ثمنه. وبعد أقل من نصف ساعة أحضروا بخاخين، أحدهما أسود والآخر أحمر من منطقة قريبة، فقد فضلنا جميعاً ألا نشتري من منطقتنا، وعلى الفور قررنا البدء بأول عملية لنا من هذا النوع.

كانت العملية مثيرة، ومرعبة رغم بساطتها، فكنت أمشي في الشارع، وأنا خائف، ممن يمر بجانبي، ومن كل سيارة تسير في الجوار، وشعرت بأن الحرارة قد انخفضت إلى ما دون الصفر إذ لم أستطع منع جسمي من الارتعاش، وكم تمنيت ألا يسمع أحد دقات قلبي، وقد ظننتها تصم الآذان ذلك الوقت.

المكان الذي وقع اختيارنا عليه هو جدار أبيض في منطقة قريبة، مكانه مناسب لرؤيته من السيارات التي تمر على الطريق العام. في الساعة الثانية عشرة ليلاً، انقسمنا إلى مجموعتين لمراقبة الطريق، ماهر وماجد مجموعة، وأنا وصديقي حمزة مجموعة. طلبتُ أن أقوم بهذه العملية فلم أجد أي معارض لهذا الطلب. تقدم ماهر وماجد ليكشفا الطريق أمامنا، وذهبنا نمشي في مكان قريب مصطحبين معنا البخاخ الأحمر الذي وضعته داخل سترتي. وبعد مراقبة مكان العملية تبين لنا أن هناك سيارة متوقفة في المكان، ما دفعنا للانتظار وقتاً أطول، فمشيت في شارع موازٍ لمكان العملية، حاملاً البخاخ، وكأني أحمل جبلاً على كتفي خوفاً من الجريمة التي أريد الإقدام عليها.

بعد مرور إحدى أطول عشرين دقيقة في حياتي، تحركت السيارة وأصبح

المكان خالياً، وبالفعل توجهنا إلى المكان وتقدمني حمزة ليكشف الطريق من الأمام، بينما أنا اخترت عبارات مناسبة لأملأ بها الجدار كله، فكنت أريد أن أكتب: "يسقط الأسد"، "الثورة قادمة" وذلك لأعلم الناس أن هناك ثورة قادمة ليحضروا أنفسهم للمشاركة فيها، أو عدم الوقوف في طريقها على الأقل، وبالطبع كلمة: "حرية" رمز ثورتنا بينما كان ماهر وماجد يراقبون الطريق من بعيد.

توكلت على الله وفتحت الغطاء وكتبت بخط كبير "يسقط الأسد"، وعندما بدأت بكتابة أول حرف من "الثورة قادمة" فاجأني شخص يمشي باتجاهي فأغلقت البخاخ وهرولت بالاتجاه الآخر. التقيت بحمزة في الطرف الآخر وتوجهنا بعدها إلى المنزل، وفي الطريق توقفنا بالقرب من أحد الجدران، وكتبت مرة أخرى:

"يسقط الأسد" بعد أن تأكدنا أن لا أحدا يلحق بنا.

وصلت إلى المنزل، ونسبة الأدرينالين بدمي، في أعلى معدلاتها، مانحة لي ذلك المزيج من الفرح والخوف والجنون. كان ذلك أول عمل ثوري أقوم به، جعلني أشعر أني أحلق فوق السحاب. أخبرني ماهر، بعد وصوله لاحقاً، أن الشخص الذي فاجأنا نزل صدفة من سيارة أجرة واتجه إلى منزله، وأنه ما إن رأى ما كان مكتوباً على الجدار حتى بدأ بالركض مسرعاً وكأنه كارل لويس. بالطبع لم يكن الأمر غريباً فربما يراه أحد ما في تلك المنطقة، فيلصق فعلتنا بظهره.

كانت تلك إحدى أبرز لحظات حياتي، فها نحن ندخل في الثورة في يومها الثاني ولو بعمل بسيط كهذا، بعد أنْ ظننت قبل يومين فقط أننا نحتاج إلى أعوام للقيام بها. والآن علينا الانتظار ومراقبة تطور الأمور وخصوصاً في حلب.

في اليوم التالي ذهبنا أنا وماهر لمعرفة ما جرى بالعبارة التي كتبناها. عرفت ساعتها كم يرغب الجاني في زيارة مكان الجريمة. مررنا بجانب المكان المقصود دون أن نجرؤ على الالتفات إلى أن ابتعدنا بمسافة كبيرة. التفتُ إلى الخلف مباشرة ورأيتُ ما كتبته ممسوحاً بكمية كبيرة من الدهان الأسود.

سافرت، يومها، إلى القرية، وكلّي عزم على متابعة شحن الناس، ودفعهم للثورة في القرية.

* * *

في تلك الأيام بدأ السوريون حياة جديدة غير الحياة التي اعتادوها على مدى أربعين عاماً. إذ سيبدؤون الآن بالاستماع إلى أخبار لم يسمعوها قبلاً، وسيرون أحداثاً لم يروها سابقاً، وسيعرفون أشخاصاً غير الأشخاص الذين عرفوهم منذ عقود في بلادهم. منذ الآن سيكون كلُّ يوم مفصلياً، وسيغدو كل خبر هاماً وعاجلاً، وسيصبح كل صوت مريباً، وستغدو الأحلام والكوابيس حقيقة يومية. إنه اليوم الذي بدأ فيه السوريون ميلادهم من جديد.

من كان يتوقع أن شهر آذار من تلك السنة سيحمل معه ربيعاً غير الذي نعرفه يزورنا كل سنة ثلاثة شهور ويمضي؟! إنه الربيع العربي، لا أدري من أطلق عليه هذا الاسم، إلا أنّه بدا اسماً مناسباً، حل ضيفاً على سورية كما حل سابقاً على بلاد عربية أخرى. ربيع بدأ كأي ربيع في نصف الكرة الشمالي في شهر آذار، لكن لا أحد يعرف أين ومتى سينتهي؟! هل سيأخذنا إلى الجنة الموعودة، أم إن الشعوب العربية مكتوب عليها الشقاء على مدى فصول التغيّرات السياسية والاجتماعية. ذلك مرهون بالكثير من الأمور التي لم نكن نعرف أكثرها في تلك الأيام.

كانت حياتنا قبل الخامس عشر من آذار تافهة بلا معنى ولا هدف، والآن أصبح لدينا حلم نعيش لأجله ونموت لأجله. شيء نحلم به عندما ننام، ونخاف عليه كأم تخاف على أطفالها. حلم يشغل حديثنا حتى مع أنفسنا.. حلم يفرحنا ويحزننا، يضحكنا ويبكينا، يرفعنا عند بعضهم وينزلنا عند آخرين.

إنها سورية الجديدة التي نستعيدها للسوريين كافة وطناً لكل أبنائه.. وطناً يستعيد الإنسان قيمته ويعود لوطنه من تغرب وهو فوق ترابه، ويعود "حماة الديار" حماةً حقيقيين، ويعود هذا الشعب عظيماً، كما كان على مدى تاريخه، يختار قادته ورموزه، ويحدد أصدقاءه من أعدائه.

سورية الجديدة لن يكون فيها للحيطان آذان، ولا للشمس مكان.. خلفها يذهب الناس إليه إذا ما عدُّوا أنفسهم بشراً، ولن يكون شعار الشعب فيها "الحيط.. الحيط، ويا رب السترة" ولن يكون هناك "شباب طيبة" ولا "بيت خالتك" ولا "واسطة" ولا "رشوة" ولن تكون تلك الأصنام التي اعتدنا رؤيتها منذ الولادة. لن يكون هناك سليمان قداح ولا أحمر ولا مخلوف ولا معلا ولا شاليش ولا بشار الأسد ولا ابنه أو حفيده وابن حفيده ليحكموا بلادنا. في

سورية الجديدة لن يكون ابن القاضي قاضياً، ولا ابن الضابط ضابطاً، ولا ابن عضو مجلس الشعب عضوا.

سورية الجديدة لن تكون الجنة بطبيعة الحال، لكن قد يكون حلماً مجرد الوصول إلى الصفر. سيكون هناك مخطئون لكن سيكون هناك قانون يحاسبهم، وسيكون هناك مجرمون، ومقصرون لكن ستكون هناك سلطة تردعهم. وبالمقابل سيكون هناك مبدعون، تشرف عليه مؤسسات تصون إبداعهم وتقدره..!

زمن التغيير

رحنا بعد ذلك اليوم نكثف دعواتنا ضد النظام بين الأصدقاء والعائلة، وحشد أكبر عدد ممكن من المعارضين. كنا نركز على بيان حقيقة النظام للناس كافة، والتأكيد على أن سورية ستكون أفضل بكثير بدونه، وأن استمراره في الحكم يمثل إهانة لكل سوري، وبأن هذه المرحلة هي مرحلة حتمية في الحياة السياسة للدول، وكلما أسرعنا بعملنا وفّرنا الكثير على الأجيال القادمة، دون نسيان التأكيد على تمنياتنا بأن يستجيب النظام لدعوات التغيير مبكراً، ويجنب البلد مرحلة شاقة قد يمر بها، فالتغيير جاء اليوم، لأنه لم يأتِ البارحة، وإن لم يأت اليوم، فسيأتي غداً، ومن لا يغير نفسه ستغيره الظروف رغماً عنه. وأظن الآن أن هذه التمنيات كانت مجرد "فض عتب"، فكلنا كنا نعلم كيف يفكر النظام، وكيف ستكون ردة فعله، إلا أن انطلاق الثورة السورية جعلنا نعيد التفكير بقائمة المستحيلات الطويلة.

* * *

مساء الجمعة الثامن عشر من آذار كنت في المركز عندما فوجئت بأحد الزملاء يخبرني عن صديق له في مدينة درعا جنوب سورية أن هناك أربعة قتلى سقطوا بعد مصادمات مع قوات الأمن. عرفت أن هناك أخباراً مهمة قادمة من الجنوب! بينما كنت منشغلا بأمور تافهة. عرفت من خلال شبكة الإنترنت أن مظاهرة في الجامع الأموي في دمشق، واعتصاماً في مدينة بانياس، إضافة إلى ما جرى في درعا البلد كان أهم أخبار ذلك اليوم. لم أستطع الانتظار فتوجهت إلى المنزل على الفور، إذ كان بانتظاري مجد وماهر.

تطورت الأمور على نحو كبير وكان علينا أن نشارك في أي ردة فعل على ما جرى من الممكن أن يحدث. لكن، ومنذ البداية، الرسالة كانت واضحة من النظام، فالموت هو مصير كل من سيمضي في هذا الطريق، وعلى من يعد العدة ليقوم بثورة ضده أن يعلم أن الموت مصيره، وأن القمع هو الحل الذي لا يعرف سواه، وبأن سورية ليست مصر أو أية دولة أخرى بالفعل كما رددوا

باستمرار، فالنظام الذي يحكمها أسوأ أنظمة المنطقة وأشدهم بطشا وفساداً، لا يتوانى عن استخدام أية وسيلة كي يبقى حاكماً، حتى لو اضطره ذلك إلى تدميرها كلياً، والحاجة إلى الثورة فيها أولوية قصوى.

تلا ذلك اليوم أسبوع مليء بالأحداث في مدينة درعا بعد استمرار النظام على حله الأمني واستمرار المظاهرات وخصوصاً الاعتصام في المسجد العمري، ما أدى إلى سقوط مزيد من الشهداء على يد قوات الأمن. عرفنا وقتها أن سبب هذا التحرك المفاجئ في درعا هو احتجاز قوات الأمن لعدد من الأطفال لكتابتهم شعارات مناهضة للأسد على جدران مدرستهم، ورفض تسليمهم لذويهم، وإهانة أهالي المدينة ووجهائها بكلام مذل لدى مطالبتهم بالأطفال.

* * *

يوم الجمعة الخامس والعشرين من آذار من ذلك العام كان موعدنا الجديد. أطلق على الجمعة "جمعة العزة" إذ تجددت الدعوة للخروج ضد النظام في كل المدن ومن كل الشوارع بعد صلاة الجمعة، وخصوصاً بعد ما حدث في الأسبوع الفائت في درعا وريفها من انتفاضة شعبية لاقت قمعاً، من عناصر النظام، ومجازر. وكانت التوقعات كبيرة والآمال عريضة، عما سيحدث في أنحاء البلاد ذلك اليوم.

اجتمعت قبل صلاة الجمعة بابن عمي زكريا وأصدقائي ماهر وماجد. قررنا التوجه إلى الجامع الأموي، لعل وعسى يحالفنا الحظ، ونشارك بأولى مظاهرات حلب، فالإشاعات كانت كلها ترشح ذلك الجامع ليشهد أوّل المظاهرات ضد النظام. ذهبنا بسيارة أجرة إلى مكان قريب من قلعة حلب، لنتابع سيرنا داخل سوق المدينة القديمة إلى أن وصلنا أمام المدخل الجنوبي للجامع الأموي الذي يوصلنا إلى الصفوف الأولى، في منتصف خطبة الجمعة تقريباً، جلسنا نستمع إلى خطبة الدكتور محمود عكام مدير أوقاف حلب، والمدرس في كلية الحقوق.

جو من الترقب المخيف كان يسيطر على الموقف، وخصوصاً بعد مقاطعة أحد الأشخاص للخطيب العكام طالباً منه الحديث عن الفساد في البلد، لكن هذا الطلب لم يلق أي استجابة من الخطيب. بعد انتهاء الصلاة وقفنا للخروج لأفاجأ بصوت قريب جداً لشاب قصير القامة يصرخ بأعلى صوت: "وينك يا

سوري وينك" تماماً كالتي سمعناها في دمشق عبر مقاطع الفيديو، ليردد خلفه مجموعة من أصدقائه "وينك يا سوري وينك" وبعدها بدؤوا بالهتاف "حرية، حرية" بطريقة جعلت الجميع يشعر بالذهول بما فيهم أنا، وعناصر الأمن الموجودون في الجامع.

لم يخطر ببالي المشاركة مع الشباب الذين كانوا عشرين شخصاً أو أكثر بقدر ما فكرت بضرورة تصوير هذا المشهد الفريد. حملت موبايلي وبدأت تصويرهم، فسجلت مقطع فيديو امتد لـ 27 ثانية، بينما كان المتظاهرون يصرخون "لا اله إلا الله". بعدها اختلط الحابل بالنابل، وبدأ الضرب بالأيدي في كل مكان، وراح أحدهم يجعر بأعلى صوته في قلب المسجد "بالروح بالدم نفديك يا بشار". خرج المتظاهرون إلى ساحة المسجد بينما كنت أبحث بعيني عن رفاقي الذين أتيت معهم فلم أجد غير ماجد، فخرجت برفقته إلى الساحة لأرى حشداً عظيماً من الناس يهتفون ويرقصون بقلب المسجد. للوهلة الأولى خطر ببالي أن المظاهرة تطورت إلى ذلك الحجم، لكن خاطري تبدد لدى رؤيتي صور بشار الأسد تحملها أعداد الشبيحة الذين توافدوا على المسجد تحسباً للمظاهرة.

على الفور أخرجت بطاقة الذاكرة من الهاتف ووضعتها في جيب مخفي، وذهبت لأخرج من الباب الذي دخلنا منه، لأفاجأ بضياع الحذاء الذي أتيت به، وحصل الأمر نفسه مع ماجد. عدنا نبحث عن الأحذية ونشاهد ردة فعل الناس على تلك المظاهرة. بدت لنا مسيرة الـتأييد الكبيرة التي وقفنا أنا وماجد نراقبها من بعيد، بينما التصق بنا أحد الرجال ليستمع إلى حديثنا. حوّلنا الحديث إلى أحذيتنا الضائعة قبل أن يظن أننا من المشاركين في المظاهرة، وأسرعنا بالخروج منتعلين "شحاطات" الجامع فرحين بهذه الغنيمة الكبيرة التي كنت أبحث عن زكريا وماهر لأخبرهما بها.

وجدتهما بانتظارنا عند القلعة، وبعد قليل وافانا توفيق الذي جاء متأخراً عن الحادثة، وبدأ كل منا يروي ما شاهد في الجامع دون أن نغفل أي تفصيل، إذ ذكر توفيق الذي لم يجرؤ على رمي صورة لبشار الأسد أعطاه إياها أحد الشبيحة، بأنه اعتقل نحو عشرة أشخاص خارج المسجد، بعد أن ضربهم عناصر الأمن وشتموهم. الخبر السار والقنبلة المدوية التي فاجأتهم بها كانت امتلاكي مقطع فيديو للمظاهرة. والآن علينا الإسراع إلى المنزل لإرساله.

كان تسارع الأحداث ذاك يشعرني بنشوة النصر، وفرحة تحقيق الحلم، فبعد ما فعلت بي مظاهرة شاهدتها على الفيديو من دمشق، كان حضوري لمظاهرة حقيقية شيئاً لا يوصف ولا يصدق، والأفضل من كل هذا أني صورت مقطع فيديو للمظاهرة، وهو بحوزتي، وقريباً سيشاهده الجميع على قنوات "الفتنة". كنت بحاجة باستمرار إلى تذكير نفسي كل دقيقة بأني لست في حلم. فكل هذا يحدث في أسبوع ونصف وعلى هذا التسارع يمكن أن يسقط النظام بعد شهر واحد. فهل هذا مستحيل؟! الآن نعم مستحيل.. لكن ما جرى ذلك اليوم كان مستحيلاً قبل أيام.

علمنا وقتها أن مظاهرة مشابهة خرجت من أحد مساجد منطقة الشعار في حلب، ما جعلنا نستبشر بأن انتفاضة حلب الكبرى قد اقتربت كثيراً، وعلينا أن نزيد من حشدنا للناس وتهيئتهم.

أكثر الأمور التي دفعتني للتفاؤل ذلك الوقت أني لا أعرف من نظّم هذه المظاهرات لا من قريب ولا من بعيد، وأن وجودي هناك جاء بالصدفة! ومن حسن الحظ تأكدي، ساعتها، أن غيرنا في هذه المدينة يفكر فيما نفكر ويحلم بما نحلم، والأيام ستكشف لنا حراكاً ثورياً عظيماً، وكان علينا أن نكثف أعمالنا في جمع الشباب المتحمس للثورة ووصل بعضهم ببعض، وألا يفلت الوقت منا، فثورة حلب قادمة.

كنت أتمنى أن أعرف هؤلاء الشباب الذين قاموا بهذه المظاهرة الصغيرة بحجمها، والعظيمة بمعانيها لكي أذكر لكم أسماءهم، لكن لحينِ كتابة هذه الأسطر بعد أكثر من سنة من تلك الحادثة لم أتعرف على أيٍ منهم. هم بالتأكيد لم يخرجوا لتُسطّر أسماؤهم في الكتب، ولا ليفاخروا بما قاموا به، وأكبر جائزة ينتظرونها هي أن تنتفض مدينة حلب، وباقي المدن في وجه النظام، وألا يذهب ما قاموا به هباء منثوراً.

مع وصولي إلى المنزل دخلت لأتابع ما يجري في باقي أنحاء سورية، فوجدت المظاهرات قد انتشرت في العديد من المدن والقرى بأحجام متفاوتة. لا يمكن أن يحدث كل ذلك في يوم واحد، فلم أعد أحتمل أو أستوعب هذا الكم الهائل من الأخبار السارّة في الوقت نفسه، وخصوصاً أنّ بحوزتي الدليل على أن حلب لم تكن غائبة عن تلك الجمعة، جمعة العزة.

أبرز ما تناقلته وسائل الإعلام ذلك اليوم كان تسجيل فيديو لمظاهرة في مدينة حمص يظهر فيها شاب فوق بوابة نادي ضباط حمص يقوم بركل صورة لحافظ الأسد، والناس تهتف له، وتسجيل آخر يظهر شباباً من مدينة درعا يقومون بتحطيم تمثال لحافظ الأسد، في وسط المدينة، الأمر الذي كان بالنسبة لنا محمّلاً بالمعاني، ومليئاً بالدلالات. كان منظراً غاية في الروعة يخبرنا بأن هذه الثورة تسير على خير ما يرام، فما كان كفراً قبل أيام سيكون شيئاً عادياً وربما واجباً، وما كان محرماً أصبح مباحاً وربما مفضلاً، وستصبح منذ الآن مشاهد تمزيق الصور وتحطيم الأصنام مشهداً يومياً من يوميات الثورة السورية.

ذلك الوقت كانت مسألة نشر مقطع الفيديو الذي صورته معضلة كبيرة، فلم نكن نملك الآلية التي تتيح لنا أن نوصل هذا التسجيل إلى المكان الذي يجب أن يكون فيه، فقد كنا نخشى مراقبة الأمن لمثل هكذا نشاطات. وضعت تسجيل الفيديو على الحاسب لأبحث عن طريقة لرفع المقطع. وبعد وقت قصير، اتفقت أنا وأسامة ابن عمتي، الذي يعمل في قطر على أن أرسل التسجيل له عبر البريد الإلكتروني، وأتركه يكمل باقي المهمة برفعها على موقع اليوتيوب وإرسالها إلى من يهمه الأمر، وبعدئذ أمسح التسجيل من بريدي، فيكون بذلك مصدر كل هذه الأخبار والمقاطع هو قطر وليس حلب أو أي مكان يمكن ملاحقتنا به.

تتوّج ذلك اليوم بظهور تسجيل الفيديو على قناة فرنسا 24 ضمن خبر يتحدث عن الاحتجاجات التي خرجت ضد النظام ذلك اليوم. لم أستطع أن أحتفظ بذلك السر بعد أن وصلت إلى العمل، فأخبرت الكثير من الأصدقاء بما جرى. نبّهني غالبيتهم ألا أتكلم بمثل هذه الأمور أمام أحد، فالمخبرون، والـ"فسافيس" يملؤون الأمكنة كلها، وخصوصاً المراكز الحكومية.

انتشار المظاهرات

تغيرت الحياة لدى السوريين منذ الشهر الأول من الثورة. كانت المظاهرات تنتشر في المدن والقرى على نحو لافت، وفي حلب كانت الأمور مختلفة. اذ أصبحنا نشهد انتشاراً واسعاً لظواهر غير متوقعة على الأقل بالنسبة للمتحمسين لثورة حلب الكبرى. فمسيرات تأييد النظام انتشرت يومياً وعلى نحو غير معقول، وغالباً أعدادها كبيرة، وخصوصاً تلك التي يرتبها النظام في ساحة سعد الله الجابري. صحيح أن الموظفين كانوا شبه مجبرين على المشاركة في المسيرات، إلا أنّ أحداً لا ينكر حقيقة المشاركة الشعبية الواسعة فيها، وخروج الكثير من المسيرات عفوياً.

سيّر النظام عبر فروع الأمن وشُعب حزب البعث مسيرات سيارات، جابت شوارع حلب حاملة صور رموز النظام وأعلامه، وأعلام حلفائه وتهتف بشعاراته، وتكفل النظام بوقود سيارات المشاركين إضافة إلى سيارات القطاع العام. أصبح منظر هذه "الزفّات" معتاداً في شوارع حلب، وعلى نحو يدعو للقرف واليأس، خصوصاً إذا ما قورن بما يحدث في المدن السورية الأخرى.

وانتشرت الصور والأعلام في مختلف الأماكن العامة والخاصة وعلى السيارات الخاصة، وكان يصعب على العين أن تقع في شوارع حلب على مكان لا توجد فيه مثل هكذا صور. ووجِدت حالة من التنافس بين الناس في إظهار الوطنية بعلم أطول، أو صورة أكبر، أو عبارة أفصح.

ازدادت هذه الظاهرة بشكل كبير بعد صدور قرارات بتخفيض الخدمة الإلزامية في الجيش إلى سنة ونصف، بالإضافة إلى زيادة مرتبات العاملين في الدولة. جرى ترويج لهذه القرارات على إعلام النظام، وصور الأمر وكأنّ أحلام المواطنين قد تحققت، وظنوا أنهم اشتروا صمت الناس على مجازر ارتكبوها في درعا مهد الثورة على مدى الفترة السابقة. ترافق كل هذا بظاهرة بيع "الوطنيات" بين الناس إذ أصبح الكثيرون يتسابقون في عبارات التأييد، والشعارات الوطنية التي ملؤوا بها أفواههم، وصفحاتهم الشخصية على مواقع التواصل.

بعيداً عن حملات التأييد والتشبيح، وليس بعيداً عن الثورة. ظهرت في المدينة حملة كبيرة للبناء والتعمير في غالبية أحيائها، وخصوصاً في مناطق السكن العشوائي. كانت عملية "إعادة إعمار" كبرى، كما كنا نطلق عليها. فأصبحت المدينة مسرحاً لحركة أدوات ومواد البناء ورائحتها وعمالها. في البداية استغل الناس البسطاء هذه الفترة لبناء غرف أو شقق صغيرة فوق أماكن سكنهم، لتخفيف الضغط السكاني الذي كانت تعانيه العائلات الفقيرة، ثم ما لبث أن تدخل التجار كعادتهم ليستغلوا كل أزمة تمر بها البلد، وتحويلها إلى كميات كبيرة من الأموال. فبدأت ورشات البناء بالعمل بشكل متواصل على أسطح المباني وفي الأراضي غير المستخدمة للبناء، حتى وصلت نسبة البناء في بعض الأحياء كصلاح الدين، والسكري إلى 100% إذ ازداد كل بناء طابقاً أو اثنين. كانت ثورة حقيقية للتعمير أثارت لدينا الكثير من التساؤلات، هل سكان مدينة حلب يعرفون ما يجري في المدن الأخرى؟

الأمر في حلب كان غاية في الإحباط بعد الوقع الأولي لانطلاق الثورة، ففي حين ساد غضب واسع في كل المدن على ما يجري في درعا ولاحقاً في اللاذقية، كانت حلب ترقص وتغني على وقع انتصارات النظام على المواطنين العزل، وتؤكد التفافها حوله وحول قيادته. المشهد كان يزداد سوءاً، ونحن نرى تتالي سقوط الشهداء في باقي المحافظات، بينما نرى شوارع حلب، وكأنها لبلد آخر. **الشعور بالهزيمة والانكسار ساد بين الشباب المتحمس لثورة حلب، وصلت بهم حد اليأس من شعب أدمن الذل والقمع. فلماذا نريد أن نثور ونرفع الظلم عنه؟ ولماذا نضحي أمام شعب لن يكمل الطريق؟! لماذا نموت من أجل شعب يفضل الأمن على الحرية؟ ولماذا نعطي من لا يريد أن يأخذ؟**

عاد لي الهاجس الذي ظل يداهمني في مثل تلك الحالات. وخشيت أني قد أصبحت قريباً من اتخاذ ذلك القرار الذي كنت أهرب من اتخاذه طوال حياتي السابقة، وهو أن أترك البلد وأسافر إلى أي بلد يكون فيه الإنسان إنساناً يعيش إنساناً ويموت إنساناً، إلى بلد لا يكون فيه الرئيس رباً ولا البلاد كوناً هو من خلقها!

في الجامعة

بعد تلك السابقة في التظاهر التي حدثت في الجامع الأموي في جمعة العزة مرت الأيام دون أحداث تذكر، وطال انتظارنا لتحرك الوضع في حلب ودون أن نسمع خبراً يعيد إلينا الأمل. إلى أن جاء ذلك اليوم الذي اتصل خلاله زكريا ليخبرني أن هناك "لعبة" تُحضّر في الجامعة، وأن عليّ أن أبلغ الشباب لنجمع أكبر عدد ممكن، في العاشرة صباحاً في كلية العلوم حيث يدرس أخي فادي. على الفور أبلغت كل من يحتمل مشاركته في هذه المظاهرة، وتهيأت للتحول إلى حلب من القرية. شعرت بشعور المقدم على أمر خطر، ولم تفارقني فكرة أنني قد أعيش آخر أيامي ذلك المساء، فالأخبار التي تصل من باقي المدن تعطينا صورة واضحة عن كيفية تعامل النظام مع المظاهرات، فلا غاز مسيل للدموع، ولا خراطيم للمياه، ولا هراوات، بل إطلاق رصاص مباشر من البواريد الروسية.

توجهت إلى حلب باكراً، وأنا لازلت أشعر بأني ميت يسير بين الأحياء. رحت أنظر إلى الأشياء نظرتي الأخيرة، وللأشخاص كأني سأراهم مستقبلاً في عالم آخر مجهول.. عالم الأموات والشهداء، كنا على قناعة لا تقبل الشك بأن الأموات في سبيل هذه القضية شهداء كلمة حق أمام سلطان جائر.

وصلت إلى الجامعة باكراً كعادتي في كل مواعيدي، واتجهت إلى مقصف "عجيب" إذ كنت سألتقي بماهر بعيداً عن كلية العلوم موعد اللقاء التاريخي. شربت عصيراً، وأكلت شيئاً أسكت معدتي، وجلست أنتظر ماهراً بعد أن كلمته عبر الهاتف، وقال لي:

إنه قادم، وقد وصل فعلاً بعد التاسعة. جلسنا قليلاً، ثمّ توجهنا إلى كلية العلوم، الخوف وحده كان يتكاثف كلما اقتربنا من مكان اللقاء. كنت مستغرباً للغاية من شعوري بالخوف، تلك اللحظة، فالأمور بدت ساعة الفعل مختلفة عن ساعة الكلام. بالطبع لم أشعر بذلك الشعور في تلك الجمعة المشهودة في الجامع الأموي، لأني لم أتوقع حصول أيّ من ذلك. لكن لم يكن

لي بد من المضي قدماً، لم أكن أرغب بالظهور بمظهر الكاذب، أو المنافق بعد كل تلك الوعود التي قطعتها، والدعوات التي وجهتها للأصدقاء الذين لم يأت منهم إلا أربعة.

في كلية العلوم اجتمعت بكل من ماهر وزكريا وفادي أخي وتوفيق صديقي. جلسنا بانتظار الإشارة المطلوبة، شاغلين أنفسنا بالسخرية، والضحك وبأحاديث جانبية كيلا نلفت الانتباه. حوالي الساعة والنصف مضت، ولم يحدث شيء، ولم يتصل منظم المظاهرة الذي كان أحد زملاء فادي، وبقينا نحن على جلستنا وحديثنا السابق، إلى أن أخبرنا فادي بأن مكان المظاهرة نقل إلى السكن الجامعي ويجب علينا التوجه لنكون هناك بأسرع وقت. لكن بعد دقائق أخرى، عاد فادي ليخبرنا أن المظاهرة ألغيت، وعلينا العودة إلى المنزل. على غير الطبيعي لم يحزن أو يغضب أحد منا على إلغاء المظاهرة، وشخصياً شعرت براحة كبيرة، وكأن هماً ثقيلاً زال عن صدري، فخوفي من عواقب المظاهرة كان كبيراً رغم إقدامي عليها دونما تردد.

رغم عدم خروج المظاهرة إلا أننا استفدنا كثيراً من التجربة، وخصوصاً فيما يتعلق بتنظيم الشباب، ودعوتهم للتظاهر.. أما الملاحظة التي يجب أخذها بالحسبان هي أنّ حضور المتظاهرين لا يزيد عن 10%. ممن يعدون بالحضور، فساعة الجد غير ساعة الهرج.

* * *

يوم الأربعاء من الأسبوع الثالث عشر من شهر نيسان، كنت في باص حلب الجديدة متجهاً إلى المنزل عندما لفت نظري مع وصولي إلى القرب من كلية الآداب حركة غريبة في المنطقة، وخصوصاً عندما شاهدت بعض الطلاب في السكن الجامعي المقابل لكلية الآداب يحملون هواتفهم الجوالة ليصوروا شيئاً ما سيحدث في تلك الكلية. لم أر أي شيء مما كنت أتمناه في نفسي عندما تابع الباص باتجاه ساحة الجامعة. لكن عندما وصلت إلى المنزل بعد أقل من ساعة فوجئت بخبر عاجل على قناة الجزيرة يتحدث عن خروج مظاهرة في كلية الآداب في جامعة حلب مناهضة للنظام. على الفور توجهت إلى الكمبيوتر لأتابع تفاصيل الخبر عبر شبكة الانترنت المصدر الأساسي لنقل المعلومات بسرعة تفوق الوسائل الأخرى.

بالفعل كانت مظاهرة من عشرات الأشخاص لا أعتقد أنهم تجاوزوا المئة هتفوا "بالروح بالدم نفديك يا درعا" فمجازر النظام هناك بلغت ذروتها. دامت المظاهرة دقائق معدودة، وبعدها هاجمها الشبيحة والطلاب المؤيدون للنظام وهم كثر أنذاك، خرجت بعدها مباشرة مسيرة كبيرة تؤيد النظام وتغطي على مظاهرة المعارضة. لكن مهما كان حجم المسيرة المؤيدة للنظام ومدتها، لم تكن لتغطي على تلك المظاهرة مهما قلّ عدد المشاركين فيها!

انتشر خبر المظاهرة في حلب والمدن الأخرى، ونقلتها وسائل الإعلام مركّزة على أنها المظاهرة الأولى المناهضة للأسد متجاهلة مظاهرة الجامع الأموي في جمعة العزة.

كان وقع خبر المظاهرة مدوياً في الداخل والخارج، وراح الجميع يتحدث عن دخول حلب على الخط، وبأنّ الثورة تتقدم أفقياً وعمودياً. فاجأني وجود فادي أخي في المظاهرة، فهجمنا عليه بالأسئلة والدهشة من عدم إبلاغنا موعدها لنشارك بها. علل فادي بأن المظاهرة لم تكن مؤكدة، وبأنه لم يكن يريد أن يقع في حرج مماثل لما جرى في الدعوة الفاشلة في الأسبوع ذاته. طلبنا منه أن يوصلنا بمنظمي تلك المظاهرة لتزداد الأعداد وفرص النجاح في المحاولات القادمة. وكان لنا ذلك وأخذنا ننسيق معاً استعداداً لمظاهرة تقام يوم الأربعاء 20 نيسان في جامعة حلب. أعددنا العدة وأبلغنا الأصدقاء الموثوقين، ليكون حجم المظاهرة، وزخمها ما يمكن أن يعوّل عليه.

* * *

قبل يوم من موعد المظاهرة التي يجري التخطيط لها في الجامعة، علمت بالموعد والمكان من مصدرين مختلفين، صديقي في العمل عابد وزكريا. كان المكان المحدد أمام كلية الطب. كلا المصدرين أكد أن أعداداً كبيرة ستشارك، وأن هذا اليوم سيكون حاسماً.

صباح الأربعاء، وعلى غير عادتي استيقظت مبكراً، وتوجهت إلى الجامعة التي لم أعتد الذهاب إليها إلا وقت الامتحانات. أبي عرف أن هناك أمراً غريباً يدفعني لذلك، لكنه لم يعلق بأي شيء، على ادعائي بأنني ذاهب للحصول على وثيقة دوام من كلية الحقوق.

في الجامعة كان هناك العديد من الأصدقاء ينتظرون بدء المظاهرة التي كان مكانها يتغير كل فترة، فمن كلية الطب انتقل إلى كلية العلوم، ومن العلوم إلى كلية الزراعة، وكل فترة قصيرة كان التوقيت يتغير ليستقر عند الحادية عشرة أمام المكتبة المركزية على مقربة من كلية الحقوق. ذهبت أنا وتوفيق لنشرب شيئاً في كافتريا "عجيب". كان توفيق طالب هندسة كهربائية وزميلاً لي في العمل. جلسنا هناك، وبدأنا حديثنا المعتاد عن الثورة فليس لدينا ما أهم منه. كنت أظن أنّ هذه المحاولة لن تنجح وسنواجه ما واجهناه في المظاهرة التي لم تحدث في كلية العلوم، فالظروف تبدو متشابهة للغاية، باستثناء ما جرى في كلية الآداب قبل أسبوع ما بعث على التفاؤل.

بعد اقتراب وقت المظاهرة توجهنا إلى المكان المتفق عليه لأجد عابداً الذي كان يعرف منظمي المظاهرة، ونواتها. طلب مني النظر إلى شباب يقفون بالقرب من سيارة مركونة، وأكد أنهم من سيبدؤون المظاهرة، وطالبني باستدعاء جماعتي. بالفعل كان هناك مجموعة من ثمانية أو تسعة شباب يشكلون مجموعتين يجلسون قريباً من بعضهم. اتجهت في الاتجاه المعاكس باتجاه كلية الحقوق لأبلّغ بقية الشباب بالأمر عندما هزّ المكان صوت شخص يصرخ بكل ما له من قوة "واحد واحد واحد.. الشعب السوري واحد". نظرت إلى الخلف لأشاهد الشباب الذين أشار إليهم عابد قبل ثوانٍ قد بدؤوا المظاهرة.

بدأ الطلاب يركضون بسرعة للانضمام إليهم، وكأنّ قوة جاذبية عظمى تجذبهم إلى المركز.. جريت مسرعاً رافعاً ذراعي عالياً وهاتفاً بأعلى صوت. وصلت إلى مقدمة المظاهرة، ثمّة لافتة يحملها طالبان لم أستطع تمييز ما كتب عليها من شدة الانفعال. أعداد كبيرة من المشاركين انضموا. تراجعت لأكون في مؤخرة المظاهرة كي أستطيع أن أصور قبل أن يبدأ هجوم الأمن والشبيحة. الأعداد بدأت بالتزايد على نحو كبير، لنصل إلى أكثر من مئتي شخص خلال ثوان معدودة. والصوت بدأ يهز الجامعة هزاً:

"الله سورية حرية وبس". في هذا الوقت بدأت بتسجيل مقطع الفيديو الثاني لأفاجأ بشخص ما يهجم عليّ من الخلف، ويمسكني من ذراعي بشدة ويصرخ:

"طب الموبايل، طب الموبايل".

حالة من الهلع أصابتني بعد هذه المفاجأة، ففي تلك اللحظة القصيرة تصورت المعتقل، وبأقل من ثانية، فكرت بمستقبلي الجامعي وبشعور أبي وبردّة فعل الناس. يبدو أن هذا الشعور كان مخزّنا مسبقاً في عقلي ليمر برأسي بمثل تلك السرعة، قبل أن أنتفض لأفلت من تلك اليدين وأدخل في قلب المظاهرة وأنا أصرخ: "يا شباب، يا شباب". واستطعت التحرر بسهولة بعد مساعدة المتظاهرين. جريت مسرعاً في قلب المظاهرة، وحولها كي أستطيع تضليل من حاول الإمساك بي دون أي أحد آخر.. كنت أحمل موبايلي وأصور، وهذا أكبر إزعاج يواجه النظام، في ذلك الوقت، إذ أصبح كل ما يجري موثقاً ومصوراً.

خرجت من المظاهرة تاركاً الشباب خلفي، كي أهرب بمقطعي الفيديو اللذين صورتهما، وخلعت السترة التي كنت ألبسها، كي لا يتم التعرف علي، وملاحقتي، اتجهت مبتعداً عن رفقة توفيق الذي تبعني على الفور خشية أن أكون قد عُرِفت وأتابع. وقفت أمام كلية الحقوق لأتابع ما يجري، فمازالت المظاهرة مستمرة، رغم هجوم الطلاب المؤيدين عليها مع عناصر الأمن الذين قاموا بتنظيم مسيرة مؤيدة للنظام كالعادة للتغطية على أي مظاهرة. شاهدت عناصر الأمن يقومون بسحب بعض الطلاب واقتيادهم إلى فرع الحزب في الجامعة. المسيرة بدأت تكبر تدريجياً لتغدو ضخمة جداً، ولترتفع فيها صور رموز النظام التي لا يعرف أحد من أين خرجت بتلك السرعة الكبيرة. مشيت مبتعداً وبدأت أجري المكالمات لأطمئن على كل من كان معنا في المظاهرة. لم يعتقل أحد ممن أعرفهم واتفقنا على لقاء بمدخل السكن الجامعي الجنوبي.

بدأنا بالتجمع شيئاً فشيئاً والكل يطمئن على أصدقائه والخبر السار كنت أحمله لكل وافد جديد، بأن تسجيلات الفيديو بحوزتي وسيتم نشرها في أقرب وقت.

صديقي مصطفى الذي كان هو الآخر طالبا جاميا في قسم الرياضيات وزميلا لي في العمل يحمل تسجيل فيديو، صوّره بموبايله عن طريق ثقب في جيب سترته. وكان لدى زكريا مقاطع للمظاهرة ولعملية اعتقال بعض الطلاب المشاركين. شاهدنا المقاطع بعد أن ابتعدنا قليلاً عن الجامعة. كانت

جيدة، إلا أن المقطعين اللذين صورتُهما كانا واضحين للغاية لأني لم أكن أصوِّر سراً، فقد رفعت هاتفي بشكل يتيح لي التصوير بكل راحة. توجهت إلى المنزل حاملاً تسجيلات الفيديو بعد أن قمنا بنشر الخبر باستخدام الـ "مسنجر" لينشر على صفحات الثورة، ففي ذلك الوقت كان العمل الإعلامي، وخصوصاً في حلب، ضعيفاً للغاية، ولا يبدو أن لصفحة الثورة السورية أو شبكة شام مراسلين في المدينة لمواكبة الأحداث.

لدى وصولي إلى البيت سألني أبي عن وثيقة الدوام التي ذهبت لجلبها. كان جوابي بالنفي، ولدى السؤال عن السبب قلت له:

"علقتْ بالجامعة وهرب الموظفون" وكنت أقصد خروج مظاهرة هناك. لعن والدي "أبو الجامعة" وبدت عليه علامات الغضب، فهو متيقن من أني كنت أعرف بأنها سوف "تعلق" هناك، وهذا سبب استيقاظي في الثامنة صباحاً، وذهابي إلى الجامعة مخالفاً عاداتي بهذا الخصوص. على الفور قام أبي بالاتصال بفادي ليطمئن عليه، ويطلب منه القدوم إلى المنزل فوراً.

على الإنترنت كان خبر المظاهرة ينتشر، إلا أن أحداً لم يؤكده على صفحات الثورة، والكل كان بانتظار الدليل الذي كنت أحمله معي. أرسلته إلى أسامة وجلسنا بانتظار تحميله على اليوتيوب ليتم تناقله على مواقع الثورة كما جرت العادة، وهذا ما كان بعد دقائق عندما ظهر مقطع فيديو بعنوان "مظاهرة في جامعة حلب والاعتداء على المصور". رغم أن المقطع كان بحوزتي إلا أني كنت أفضل مشاهدته عبر موقع يوتيوب. شاهدت التسجيل مراراً.. أطربتني الجموع بهتافها العالي، وخصوصاً صوتي الواضح خلف الكاميرا: "الله سورية حرية وبس"، لتتجه بعدها عدسة الكاميرا باتجاه الأرض بحركة عشوائية، وصوتي يصدح طالباً المؤازرة من الشباب.

كان يوماً مثالياً لي وللأصدقاء، إذ انتشر خبر المظاهرة في مدينة حلب كلها، وعلى وسائل الإعلام المهمة كافة، دون أن يلتفت أحد للمسيرة المؤيدة العملاقة التي خرجت بعدها بقليل. استمرّ مقطع الفيديو يظهر في كل نشرة أخبار، ولمدة يومين متتاليين، وأنا لا أكاد أصدق نفسي، وأمنعها عن الكلام وعن إخبار أهلي بأن الصوت الذي يسمعونه على قناة الجزيرة، أو العربية أو غيرهما.. هو صوتي. كذلك عُرض الفيديو الذي سجله زكريا، ويظهر فيه

عناصر الأمن يجرّون أحد الطلاب، وهو يصرخ: "هي كلابك يا بشار".

بدا واضحاً للجميع في ذلك اليوم أن جامعة حلب سيكون لها دور كبير في هذا الحراك، وخصوصاً عندما تسترجع الذاكرة حماسة الطلاب وشجاعتهم، واندفاعهم في الاتجاهات كلها للمشاركة في المظاهرة.

أبلغني فادي بعد عودته من الجامعة، بخروج مظاهرات صغيرة في أكثر من كلية، وفي السكن الجامعي. بعد ذلك كان لزاما على التفاؤل أن يصل إلى مستوى قياسي.

* * *

موعدنا القادم كان يوم الجمعة التالية الثاني والعشرين من نيسان، لنكون على العهد ونرى حلب تفي بوعودها الثورية لكل سورية ومدنها. باب الحديد هي التي اقترحها علينا مصطفى لتكون هدفنا التالي، حيث يحضِّر أصدقاؤه مظاهرة هناك، فطلب منا تحضير أنفسنا للذهاب إلى تلك المغامرة. كان لدينا وقت قليل للقيام كالمعتاد بنشر الخبر إلى أكبر عدد ممكن من الشباب، والتوجه بعدئذ إلى باب الحديد.

لكن ظهر يوم الخميس فاجأنا خبر خروج مظاهرة في منطقة باب الحديد وفرّقتها قوات الأمن والشبيحة بوحشية. بعد دقائق بدأت تصل مقاطع الفيديو عن تلك المظاهرة التي كانت مفاجئة للجميع. هتف المشاركون لدرعا وبقية المدن الثائرة، وشجعوا الجميع على المشاركة في الثورة. بعثت برسالة قصيرة، على الفور، لمصطفى لأستفسر عما جرى. فجاء الرد بأن مظاهرة الجمعة في باب الحديد قد ألغيت لخروجها الخميس. ومهمتنا الآن أصبحت البحث عن مظاهرة تخرج يوم الجمعة، لنشارك بها، ونشهد حلقة جديدة من حلقات الثورة السورية التي بدأت تلك الأيام، ولا يبدو أن نهايتها تلوح في الأفق ساعة كتابة هذه السطور.

* * *

"جامع صلاح الدين في حي صلاح الدين، بعد صلاة الجمعة" جاء الخبر متأخراً مساء الخميس عن طريق ماهر. قمت، على الفور، بنشر الخبر، وحضّرت نفسي ليوم مشهود كيومي الأربعاء والخميس الماضيين.

اختيار حي صلاح الدين لانطلاق المظاهرة بدا لنا اختياراً موفقاً للغاية،

بسبب الكثافة السكانية الكبيرة فيه، ولوجود شوارع كثيرة وأزقة يتقاطع بعضها ببعض لتشكل ما يشبه المتاهة، كما أنها كانت قريبة من سكننا، أما الأهم فتوقعنا حصول استجابة شعبية كبيرة.

يوم الثاني والعشرين من شهر نيسان كان يوم "الجمعة العظيمة". هكذا أطلق على اسم الجمعة لتزامنها مع يوم الجمعة العظيمة لدى المسيحيين. اجتمعنا قبل وقت الصلاة بقليل وانطلقنا على الفور إلى صلاح الدين برفقة ماهر وزكريا وفادي أخي. ساد، كالعادة، نوع من التوتر والترقب لصعوبة تأكيد المظاهرة، وخصوصاً بعد فشل خروجنا بمظاهرة جامع سعد بن أبي وقاص في صلاح الدين قبل أسبوع، رغم الأخبار التي كانت تشير إلى ذلك الجامع.

وصلنا إلى باب الجامع الخارجي لتبدو لنا الأعداد الكبيرة من المصلين في ساحة المسجد الخارجية. كان الجامع مكتظاً بالناس، ما جعلنا نتفاءل، إلا أنّ تفاؤلنا ذهب أدراج الرياح بعد سماع خطبة إمام المسجد، التي كانت تحذر من المخربين المدعومين من الخارج، ومن الفتنة التي يحملونها، هذا بالإضافة إلى دعائه لقوات الأمن بالتوفيق، وبتسديد ضرباتهم ضد "شراذم المرتزقة والمارقين"، الأمر الذي أثار الدم في عروقنا. كنت على وشك ترك الصلاة، والخروج من الجامع، فلم يبق لي رغبة في الصلاة خلف هكذا إمام. الأمر الذي جعل "ماهر" وزكريا و"فادي"، يخرجون إلى الشارع وينتظرون أمام الجامع. بدأت الصلاة بصعوبة كبيرة وبسبب الازدحام الشديد. وقفت لأخرج، بعد تأكدي من عدم خروج أي مظاهرة بعد تلك الخطبة الرنانة. وعندما أوشكت على الخروج، سمعت أصواتاً من داخل المسجد، رأيت الناس تركض بسرعة في الباحة الخارجية لتخرج، وعلى وجوهها رعب الهارب من الموت. هرج ومرج ساد في الجامع، ولم أعرف تحديداً ما الذي جرى حتى رأيت رجلاً أربعينياً يصرخ "الله أكبر" ويطلب من الناس أن يكبروا معه على الأقل. وصل الرجل إلى حيث كنا نقف أنا وفادي وزكريا في باب المسجد المطل على الشارع، لنبدأ عندها بالتكبير معه بأعلى صوتنا، والناس منهم من يهرب مسرعاً ومنهم من يراقب من بعيد. كنا فقط أربعة أشخاص وكان كل شخص منا يهتف هتافاً مختلفاً عن الآخر، فبينما بدأت أصرخ "بالروح بالدم نفديك

يا حمص" راح فادي يهتف "بالروح بالدم نفديك يا درعا" وزكريا يصرخ "بالروح بالدم نفديك يا شهيد" وغاب ماهر في تلك اللحظات.

كانت المظاهرة مستمرة داخل الجامع عندما جاء شخص مسرعاً إلينا، ليطلب دون أن يعلم سبب وقوفنا على باب الجامع أن نهتف بحياة بشار الأسد، فكان الرد صاعقاً له عندما صرخ فادي "يلعنك ويلعن الأسد". عدنا جميعنا للتكبير، عندها بُهت الرجل وتركنا واتجه إلى غيرنا. ما هي إلا لحظات حتى رأيت أحد الشبيحة ممسكاً بعصا ويجري نحونا مسرعاً. على الفور جريت لأبتعد عنه، إلا أنه اتجه نحوي مباشرة وقام بضربي بعصاه على ظهري وتركني، وتابع جريه إلى داخل الجامع، بينما أنا ابتعدت عن باب الجامع إلى مكان لا يستطيع فيه أحد معرفة أمر مشاركتي بالمظاهرة. لم تكن تلك الضربة مؤلمة لأن عصاه كانت من النايلون الرقيق.

بعد وقوفي قليلاً، عدت باتجاه الجامع، ومع اقترابي منه، رأيت ذلك الرجل الذي قام بضربي يستقل سيارة ويهدد ويتوعد شخصاً لم أعرفه. اقتربت من الجامع لأشاهد بعض الناس بدؤوا بالتجمع مشكلين مسيرة التأييد المعتادة بعد كل مظاهرة، يقودها ذلك الرجل الذي دعانا لنهتف معه للأسد. بعد لحظات قليلة وصلت سيارة الأمن العسكري تحمل العناصر المدججين بالسلاح للقبض على من شارك بالمظاهرة. وقفت لأشاهد ما يجري مع الجمهور الكبير من المتفرجين والهاتفين بتأييد النظام عندما بدؤوا يجرون رجلاً إلى سيارة الأمن وسط هتافات الناس، فمنهم من يشتم، ومنهم من يلعن، ومنهم من يحاول أن يفوز بضربة للمعتقل ليفاخر بها. الرجل كاد يموت من كثرة ما تلقى من ضربات قبل وصوله إلى سيارة الأمن، كانت شاحنة متسوبيشي متوسطة الحجم يبدو قسمها الخلفي كصندوق لوضع المعتقلين بينما يقف العناصر عادة على باب الصندوق. أتوا بعده برجلين اثنين بنفس الطريقة. حاولت أن أصور عملية الاعتقال إلا أني لم أفلح، وسط هذا الزحام من المؤيدين، لكني قمت بتصوير سيارة الأمن وهي تجوب الشارع في أول يوم يلي رفع حالة الطوارئ في البلد.

بعد انتهاء الحفل العصيب ابتعدت عن المنطقة باتجاه المنزل، وبدأت بالاتصال للاطمئنان على الشلّة التي كانت معي، وتأكدت على الفور بأنهم

بخير، وبدورهم اطمأنوا على سلامتي. اجتمعنا قبل أربعة المفارق لأكتشف أن زكريا قام بتصوير بعض اللقطات التي يمكن بثها عن المظاهرة خارج الجامع وداخله برفقة ماهر. كنا نتجه نحو المنزل عندما اتصل بي مصطفى الذي أصرّ أن أنتظره لأنه يريد رؤيتي. تركت الشلة وبقيت بانتظار مصطفى الذي أخبرني بتصويره لقطات مدتها عشر دقائق، وهي دقائق المظاهرة، والاشتباكات التي تلتها عبر كاميرته السحرية في جيب سترته. كانت عبارة عن صور غير واضحة وخليط من الصراخ، وعمليات الهروب والتكبير وهتافات التأييد، لكن أكثر ما لفت انتباهي في ذلك المقطع، هو الشاب الذي قام بضربي على باب الجامع، إذ رأيته يضرب أحد الشبان المتظاهرين، ويرد الشاب على الفور بضربة ثم ليجتمع أصدقاء الشاب ليلقنوا الشبيح درساً جيداً. الأمر الذي كان مشجعاً ومفرحاً ومبشراً بأن الأمور تتقدم إلى الأمام.

* * *

كانت الأخبار في تلك الجمعة تصل تباعاً إلى وسائل الإعلام.. الثورة تزداد انتشاراً في أغلب المحافظات، والصور تنقل لنا مظاهرات عملاقة في درعا وحمص وإدلب واللاذقية وحماة ودمشق وريفها. حلب وحدها كانت تغرّد خارج السرب، فباستثناء تلك المظاهرة الخجولة لم يكن هناك أي أثر للثورة في حلب أو ريفها ما زاد في حيرتنا وحزننا، ومن سخط المتظاهرين في باقي المدن، فحلب وريفها يشكلان أكبر تجمع للسكان في البلاد، ورغم هذا استمرت على حالها السابقة، فلا مظاهرات ولا اعتصامات إلا ما هو خجول لا يقارن أبداً بما في المدن الأخرى التي يزداد عدد المشاركين فيها مع كل جمعة وتنضم إليها مدن وقرى جديدة.

في حلب، يجري العكس تماماً إذ لم تتوقف طوال الأيام الأولى من الثورة المسيرات المؤيدة المستفزة، ما كان يضع على كاهلنا مسؤولية كبرى في ضرورة تحريك الوضع في حلب، واللحاق بركب الثورة. كانت غالبية نقاشاتنا تدور حول هذا الأمر ومع الشباب الذين يبدون عجباً كبيراً من الموقف الغريب وغير المتوقع من حلب التي لم تلفت الثورة انتباهها.

بعض الأصدقاء أخبروني قرارهم بالسفر إلى حمص يوم الجمعة للمشاركة في مظاهراتها، فالانتظار طال دون تحقيق المراد. حذرتهم من هذه الفكرة،

ونبهتهم إلى أن تاريخ حلب وسمعتها، هو مسؤولية أبنائها، وعلينا التحرك للحاق بالثورة وعدم انتظار الآخرين، وأهل حمص وباقي المدن سيكونون أسعد بكثير لو شاهدوا أبناء حلب يتظاهرون في شوارعها وساحاتها لا في شوارع مدن أخرى. وهدفنا، في النهاية، إسقاط النظام، وهذا لن يكون إلا بمشاركة غالبية الشعب السوري، وبتحرك المدن كلها، فعلينا العمل لتنظيم أنفسنا أكثر فأكثر دعماً لثورة حلب الموعودة.

قوس قزح

مع مضي الزمن ومرور أيام الثورة، كان علينا أن نجمع أكبر عدد ممكن من الأصدقاء المعارضين للنظام. فحاولنا التواصل مع كل شخص نعتقد أنه معارض أو يحمل أفكاراً تحررية. كنت أعلم حينها، كم كان الشعب يخاف من التكلم، لكني تصوّرت أن الأمور لابد أن تختلف بعد انطلاق الثورة، ولم يخطر ببالي أبداً أن يكون العدد قليلاً في البداية.

تلقائياً تطورت علاقاتنا مع الأشخاص الذين كانوا يدورون في فلكنا. فمن كان يوماً ما صديقاً أصبح أخاً، ومن كان صديق صديقٍ أصبح من أعز الأصدقاء. راح كل شخص يشكل حوله شبكة من الشباب المعارضين والمتحمسين للثورة، بحيث كان يصل كل شخص أصدقاءه ببعضهم حتى لو لم يكونوا على علاقة مسبقة. فكنت أنا على سبيل المثال أشكل محور شبكة تضم أصدقائي في العمل والحارة وأقاربي وأخوتي والأصدقاء الذين تعرفت عليهم عن طريق الإنترنت. تلقائيا توسّعت هذه الشبكة لتضم أصدقاء أصدقائي، فما كان يصلني، يصلهم والعكس صحيح. كان كلُّ شخص منا محوراً لشبكته الخاصة لنقل المعلومات وتبادل الأصدقاء، فعندما كان أحد ما يعلم مكان مظاهرة ووقتها، كان ينقل هذه المعلومة إلى الشبكة التي كان محورها، ولتنتقل لبقية الشبكات، تماماً كما تعمل السيالة ضمن الخلايا العصبية. هذه الشبكات الافتراضية مع مرور الوقت أخذت بالتضخم ليصبح بالإمكان التعويل عليها لتنظيم المظاهرات أو المشاركة بها. كما تطور الكثير منها لاحقاً لتشكل شبكات إعلامية وكتائب مقاتلة.

بالطبع كنّا نواجه الكثير من المشكلات تتعلق بالثقة بالمعلومة التي تصلنا ودقتها، فكلما كان مصدر المعلومة أقرب إلى محور الشبكة كانت موثوقة ودقيقة وسريعة الانتشار والعكس صحيح.

استخدمنا للتواصل الوسيلة الأكثر سهولة والأقل كلفة والأبعد عن عيون رجال المخابرات وفروع الأمن، وهي برامج الدردشة التي تعمل على الموبايل،

وتتيح استخدام المسنجر والسكايب والفيسبوك. مع العلم أن تلك البرامج كانت منتشرة كثيراً بين الشباب. بالطبع كنا نستخدم وسائل أخرى كالمكالمات والرسائل القصيرة عن طريق الموبايل، إلا أننا كنا نضطر أحياناً لاستخدام شيفرات أو رموز معينة لتبديل المعلومة كالحفلة واللعبة والامتحان والعزيمة..

لم يدربنا أحد على هذه التقنيات، ولم نقرأ عنها في أيّ كتاب، إلا أنها كانت وليدة الحاجة، فحتى الناشط العادي كان يحتاط لأموره، وكأنه قائد للثورة، أو أنّ النظام لا يراقب سواه. هذه الأمور تبدو أحياناً ذكية للغاية، وأحياناً غريبة ومضحكة، وربما غبية. بالإضافة إلى أنّه من كان علينا الخوف من علمه بأمرنا لم يكونوا فقط رجال النظام ومخبريه، بل كنا نخشى أن يشعر أهلنا بنشاطنا لئلا يشكلوا عائقاً أمامنا.. وكنا نخفي أمرنا عن أصدقائنا المؤيدين للنظام، وعن غير المتحمسين لما نقوم به. بالطبع لم تكن أساليبنا ناجحة دوماً، فكثيراً ما دخل بيننا بعض المخبرين والمشبوهين أو المتحمسين غير الملتزمين بقواعد الأمان المعروفة، ما أفقد بعض الأشخاص الكثير من المصداقية سواء أكان ذلك بنية حسنة أو سيئة.

* * *

النقاشات العاصفة حول ما بدأ يجري في البلد بدأت تضرب كل مكان، في المنازل وأماكن العمل والمدارس والجامعات. أعداد كبيرة من الآراء ووجهات النظر سيطرت على الجو. الثورة كانت شيئاً عظيماً، إذ يستحيل على أي سوري ألا يخوض في نقاش متعلّق بها. في البداية كان أنصار النظام أكثر منا بفارق كبير، لكنّا لم نكن نتهرب من أي نقاش، ونتكلم بصوت مرتفع متجاهلين الأخطار التي قد نتسبب بها لأنفسنا جراء ذلك، وخصوصاً في مكان العمل. كنا نظن أن الحق المطلق معنا، وقوة الحق لا تترك مجالاً للخوف أو التردد.

كان النقاش في البداية يدور حول النظام هل هو جيد، مقاوم، شرعي؟ هل ستكون هناك انتفاضة عارمة ضده؟ ماذا ستكون ردة فعله؟ هل يتمتع برصيد شعبي؟ من يقوده؟ ويتخذ القرار فيه؟ الكثير من التساؤلات تتركز على النظام دون الثورة لقلة أحداثها. ومع مرور الوقت، تحولت النقاشات إلى الروايات التي كانت تصلنا من المدن الأخرى فلا شيء في حلب عدا المسيرات المؤيدة وما سبق ذكره مما قمنا به.

كانت النقاشات تتميز بالحدة مع المؤيدين والمعارضين على السواء، ولكل أسبابه تأييداً أو معارضة.. هناك من يدافع عن النظام مهما اقترف، ومهما ارتكب، يجد له المبررات، كان هؤلاء يحملون عقلية النظام نفسها، فلا دين يردعهم ولا منطق يقنعهم، والأفضل عدم الخوض معهم. إذ يتحدثون بلغة الأقوى، فأنا قوي فيجب أن أطاع، ومن يقف بوجهي أدعسه بالحذاء.

وهناك صنف آخر يُعدّ أن النظام لا يقوم بما نتهمه به، وبما كانت تتناقله وسائل الإعلام، فقوات الأمن لا يمكن أن تطلق النار على أشخاص عزّل، ويعدون رئيس النظام رجلاً مميزاً وعبقرياً، ولا يمكن أن نجد أفضل منه مهما بحثنا، وأن الشعب السوري يعيش بسعادة غامرة تحت قيادته، ومن يحاول التظاهر والقيام بالثورة هو جاحد وناكر للجميل، بل هو متآمر على البلد. وهؤلاء أناس بسيطون مأخوذون بالإعلام السوري ويفاخرون بقيادة النظام الذي تحسدنا عليه كل شعوب العالم، فهو الذي حقق الانتصارات على الأعداء، ووفر الحياة السعيدة للشعب، ويجب أن نقف بجانبه وضد من يريد المساس به.

بعض الأشخاص كانوا يدركون أن النظام فاسد ومستبد، ويجب تغييره، لكن كانوا يطلبون إعطاء الفرصة للنظام للقيام بإصلاحاته الموعودة، وبمكافحة الفساد، والبدء بعملية انتقالية، ويرددون دوماً: "الرئيس كويس بس اللي حواليه هم عاطلين" يجب منحه المزيد من الوقت، وبالطبع كانوا يعرجون على ممارسات قوات الأمن المسيئة، كي لا يظهروا بمظر الغبي الذي يريد أن يحجب الشمس بالغربال.

آخرون كانوا يرون أن النظام مجرم ومستبد وظالم، ومن الأفضل للبلد زواله والانتقال إلى الديمقراطية، ومحاكمة الفاسدين والمجرمين، وتحقيق العدالة والمساواة بين المواطنين، وبقية المطالب التي كنا نطالب بها، لكنهم يؤكدون أن النظام لن يتزحزح عن الحكم، إلا بعد أن يدمر البلد، وأن لا ثورة سلمية، ولا مسلحة سوف تطيح به، وبأن ما نقوم به سيجر الويلات والدمار على الشعب، وأنه لا قدرة لنا أو للشعب على إسقاطه، علينا العدول عن رغبتنا، ولننتظر فرج الله.

وصنف آخر كان متفقاً معنا قلباً وقالباً، ويعرف ما نعرف، ويظن ما نظن

بالنظام، ويتابع أخبار الثورة باهتمام كبير، ويكره النظام ورموزه، ويحب كل من يعارضه، لكنه يريد إسقاط النظام دون القيام بأي عمل، بل قرر أن يبقى متفرجاً على ما جرى ويجري وسيجري قريباً. كانت مسألة حمل هؤلاء على المشاركة في الثورة مشكلة كبيرة عاناها الثوار، فخوفهم الكبير من بطش النظام يعني أن من بدأ هذا الحراك قد لا يجد من يكمله معه يوماً من الأيام.

بعضهم كان يظنّ أن النظام على باطل، والمتظاهرون مثله، وقوات الأمن مجرمة، أما الشعب فلا يستحق الحرية التي لا تناسب العرب. وأنّ ما يجري في البلد هو مؤامرة تقودها القوى الكبرى في العالم. فإن سقط النظام فتلك مؤامرة، وإن بقي النظام فتلك مؤامرة، وإن خرجت مظاهرة فهذه مؤامرة، وإن قمعت فذلك جزء من المؤامرة، وليس للشعب أي محل من الإعراب. أما المعارضون والمؤيدون، فلن يغيروا، بأفعالهم، ما خطط له الغرب. فأمريكا والغرب في تصورهم عندهم غرفة فيها شاشات عملاقة، وأزرار كثيرة، يضغط الأمريكي على الزر فتقوم ثورة، ويضغط الأوربي على آخر فتندلع حرب، وأعتقد أن مثل هؤلاء يظن وجوده في هذه الدنيا مؤامرة خطط لها الغرب ونفذها أبوه وأمه.

بالطبع كان جزء كبير من هذه النقاشات والجدالات يخوضها معارضو النظام فيما بينهم حول جدوى العمل، أو نجاح فكرة ما، كما يناقشون وأنا منهم أخطاء الثوار أنفسهم.

بالطبع هذه التصنيفات ليست محددة بقوالب، فليس من الضروري أن يحمل كل شخص صفات صنف معين دون الآخر. بل كانوا كألوان قوس قزح، يعرف منها سبعة، لكنها عدد غير منته من الألوان، تتدرج بين البنفسجي والأحمر. فكل لون يحمل نسبة معينة من الألوان الأساسية. وبمرور الوقت، كانت غالبية الناس تتنقّل بين هذه الألوان، وفي الغالب باتجاه يعاكس توجهات النظام. فبدأ عدد المعارضين يزداد باضطراد، ومن كان متعصباً للنظام، بدأ يتراجع، ومن كان مؤيداً تحول إلى محايد. بالطبع مثل هذا الأمر كان يزيد ثقتنا بأنفسنا، وبعدالة قضيتنا. شخصياً أعرف الكثير من المؤيدين الذين أصبحوا معارضين، لكني لم أعرف أبداً من كان معارضاً وأصبح مؤيداً.

تغيرات

أدى استمرار حراك المجتمع السوري، إلى ظهور أمور لم نعتد عليها أو نسمع بها سابقاً، ساهمت الثورة في إظهارها، وتحويلها إلى مصطلحات تقليدية روتينية لا يستغربها السوري، رغم غرابتها، وحاجتها للدراسة والتحليل. أريد هنا أن أسلّط الضوء على بعض هذه الأمور تباعاً علّني أقدم بعض المعلومات تفيد المهتم، رغم أن بعضها أصبح شائعاً ولا حاجة للخوض في تفاصيله، فبعضنا عايش تفاصيله، وقد يكون ما أورده هنا مجرّد أمور سطحية، وعامة بالنسبة له.

* * *

الشبيحة كلمة يعرفها السوريون جيداً قبل بدء الثورة، لكن مع الأشهر الأولى أصبحت هذه الكلمة معروفة عالمياً، وإحدى أكثر الكلمات التي قد يعرضها علينا محرك البحث "غوغل" إذا ما حاولنا الحصول على نتائج تتعلق بالثورة السورية، وذلك للدور الكبير الذي لعبته هذه المجموعة من الناس في أحداث الثورة.

قبل الثورة كنا نعرفهم جيداً، إذ كانوا ينشطون في مختلف مناطق البلد، وتعد منطقة الساحل السوري أبرز معاقلهم. وهم عصابات لا تخضع لأي قانون، وتشكل نوعاً من المافيا التي ترتبط بعصابات خارج البلد، وتقوم بعمليات التهريب غير المشروع غالباً، ولا أدري لماذا نضطر أن نسمي ما يقومون به تهريباً، إذ كان يجري في العلن وأمام كل ذي عين. إضافة إلى مواجهتهم، بالتصفية، لكل من يقف بوجههم، فلا أحد يحاسبهم. كانوا غالباً يتنقلون في سيارات غير مسجلة، أرقامها عبارات كـ: "سورية الأسد" أو "هكذا تنظر الأسود" وصور حافظ الأسد وعائلته.

كانت سلطتهم تفوق سلطة أي مسؤول في الدولة، وغالباً ما كان هؤلاء يعينون المسؤولين الذين يبذلون ما بوسعهم لكسب رضا زعماء تلك المجموعات. فكل مجموعة تشبيح ترتبط بشخص ما من عائلة الأسد أو العائلات المقربة منهم، ونفوذ كل مجموعة يعتمد على مدى قرب هذا

الشخص من عائلة الأسد. في الحقيقة كان الشبيحة هم نظام الأسد على حقيقته، وبعد إزالة مساحيق التبرّج وعمليات التجميل. لا أعلم تحديداً من أين أتت لهم هذه التسمية فالروايات كانت مختلفة، لكن كنت أظن أن هذا شيء غير مهم أمام حجم الأزمة وعظمة التجاوزات التي قاموا بها وفظاعة المجازر التي ارتكبوها مع بدء الثورة.

أولى تدخلات الشبيحة في الثورة السورية كانت في مدينة اللاذقية، حين قاموا بالهجوم على الحارات التي تخرج منها المظاهرات، فارتكبوا مجازر مروعة بحق أهالي اللاذقية وبانياس والقرى المحيطة بهما فهاتان المدينتان انتفضتا ضد نظام الأسد. ولا أعرف تحديداً هل زجّ بهؤلاء لمواجهة أهالي اللاذقية، أم هم من فعل ذلك تطوعا دفاعاً عن مصدر سلطتهم، وعن امتيازاتهم..

استفاد النظام من تجربة اللاذقية، وبدأ بتعميمها على المدن كافة. فبدأ بتنظيم بعض الناس تحت مسمى اللجان الشعبية التي منحت سلطات واسعة، وأموالاً وأسلحة، ووزعت على مناطق خروج المظاهرات، لتقوم بقمعها، ومقابلتها بمسيرات مؤيدة.

في حلِب انتشر الشبيحة بكثرة بسبب الغالبية المؤيدة للنظام في ذلك الوقت، فبُدئ بتشكيل لجان لا نهاية لعددها مع حالة الانضمام اليومي. على الفور ضمت اللجان الشعبية خليطاً من اللصوص والمجرمين والعاطلين عن العمل والمنتفعين، إضافة إلى الحزبيين الذين ينشطون في شعب حزب البعث، ما أوجد أعداداً كبيرة من الشبيحة، وقوة لدى النظام في حلب، فلم يعد بحاجة إلى الزج بقوات الأمن، إلا لأعمال قليلة ونوعية كاستلام المعتقلين، وتنظيم عمل الشبيحة، فهؤلاء كانوا يقومون بقمع المظاهرات والأنشطة الثورية. لضمان ولاء مجموعات الشبيحة أطلقت أيديهم في المدينة فصارت لهم سطوة تشتد وسلطة تتعاظم ونفوذ يتضاعف، وراحوا يتحكمون بمفاصل مهمة في المدينة، لتحقيق مصالح شخصية لهم، مقابل تحقيق مطالب النظام.

شيئاً فشيئاً بدأت تبرز أسماء لامعة من الشبيحة لدورهم الأكبر من غيرهم في هذا العمل، وأذكر منهم آل بري الذين انتشر اسمهم في كل سورية. هذه العائلة كانت تشتهر بأشخاص ينتمون إليها يقومون بتجارة الممنوعات

كالمخدرات والأسلحة وتهريب الدخان، وكانت هذه هي الفرصة المناسبة لهم لضمان غض الطرف عنهم إلى الأبد.

ولعله من البديهي أن نذكر عدم مشاركة كل أفراد هذه العائلة بعمليات التشبيح، وأنا شخصياً أعرف زميلاً لي في كلية الحقوق من آل بري، كان معارضاً للنظام ومشاركاً بالمظاهرات التي كان يقمعها أقاربه، إلا أن اسم العائلة السيئ طغى على كل هذه الأمور. بالطبع لم تكن تخلو أي عائلة من فرد أو أفراد في اللجان الشعبية، إلا أن قادتهم كانوا عائلات مثل آل بري وغيرهم ممن لا أريد أن أذكر أسماءهم حذر التشهير بهم، وإنما ذكرت عائلة بري لأنها اشتهرت في طول البلاد وعرضها، ولا يعد ما أكتبه تشهيراً بهم، فقد نالوا عقاباً مضاعفاً على ما ارتكبوه من تشبيح قبل كتابة هذه السطور. وكم كنت أخشى مصير أشخاص أبرياء كزميلي الذي ذكرته..

* * *

النظام السوري ومع بداية "الأزمة" كما يحب أن يطلق عليها هو ومؤيدوه، جنّد القنوات الفضائية الرسمية، وشبه الرسمية، ومحطات الراديو لتقوم بنفي كل ما يتردد عبر وسائل الإعلام الخارجية، والتركيز على تكذيب كل ما يذكر حتى لو كان واضحاً وضوح النهار، والتداول برواية النظام حول الثورة على مدار ساعات البث التي تتحدث عن دولة مقاومة تتعرض لمؤامرة تحيكها قوى الشر والطغيان، وعن حياة نعيشها في سورية، هي ما يتمناه كل إنسان على هذه الأرض، وعن شعب سوري يحب قيادته. فلا وجود بينهم لا يرضى بهذا النظام، والكل يحب رئيسه الذي هو أفضل وأذكى، بل هو أجمل رجل في العالم، وأقربهم للإله.. إنه لا يخطئ، ولا يخشى أحداً!

إعلام النظام كان يعكس تفكير رؤوس النظام، وكيفية تعاملهم مع الأزمة. ففي البداية أنكروا كل شيء، فلا وجود لمظاهرات، ولا مطالب لدى الناس، وكل ما يذكر على القنوات المضلِّلة محض هراء، واستهداف لسورية المقاومة وقائدها. ثم وصلوا للمرحلة التي لم يستطيعوا فيها الإنكار، فقاموا بالسخرية مما يجري، وتحدثوا عن الأمر وكأنه يجري خارج البلد، وعملوا جاهدين على تشويه صورة هذا الحراك. ففي بداية كل نشرة أخبار يذكرون أن عشرات المواطنين تجمعوا بعد صلاة الجمعة، وانفضوا تلقائياً، بينما كان إعصار

المظاهرات يضرب غالبية المدن والقرى. أو يذكرون أن مظاهرة خرجت لأسباب مثل غلاء الأسعار، أو للمطالبة بالإصلاحات أو حتى فرحاً بنزول المطر، أو أنها في الحقيقة مسيرات تأييد أو أعراس أو جنازات جرى إدخال الصوت عليها. وفي إحدى مراحل الثورة خرج علينا إعلام النظام ببدعة مبتكرة، وهي أنّ هذه المظاهرات كانت تجري في قطر داخل مجسمات كبيرة تماثل الساحات، والحارات في المدن السورية. كما لم يغبْ عن إعلام النظام وصف "المندسين" الذين كانوا يلازمون المشاركين في المظاهرات. باختصار كانت سياستهم الكذب والكذب، إلى أن أصبح صدقهم كذباً، فحتى لو قال الإعلام: إن اللبن أبيض، فلا أحد يرغب بتصديقه.

ولكي يبرر النظام العدد الكبير من القتلى الذين كانوا يسقطون يومياً وليهيئ الجو لعناصر الأمن والشبيحة للضرب بكل وحشية، راح الإعلام يتحدث عن مسلحين ملؤوا البلد، وعاثوا فيه فساداً، وعن مهمة "الدولة" وحقها الطبيعي في الدفاع عن نفسها وعن مواطنيها. كما قام يومياً ببث تسجيلات فيديو بدائية تمثِّل مسلحين يقومون بالتخريب وانتهاك حرمات الناس، ومقاومة الجيش والأمن.

من الأمور الملفتة لدى الإعلام السوري إصراره على أن ينقل كوارث العالم كلها في نشراته الإخبارية، مصوّراً أن الكوكب يعيش في حالة اضطراب ومشاكل، فيما يسود الهدوء والسكينة أرجاء الوطن. فلا تمر نشرة أخبار دون ذكر خبر مقتل عدد من جنود حلف شمال الأطلسي في أفغانستان. مثل هذا الخبر أصبح تقليداً في نشرات الأخبار، ويصعب الاستغناء عنه في أية نشرة سواء كان القتلى للحلف أم لغيره. وكانت أخبار القمع الذي يتعرض له إخواننا الفلسطينيون على يد الاحتلال الإسرائيلي، رغم أن ما كان يجري في فلسطين يعد نزهة أمام ما يتعرّض له السوريون تلك الأيام. كذلك لا بد من التركيز في النشرة الاقتصادية على هبوط الدولار الدائم مقابل باقي العملات، وكأن انهيار الاقتصاد الأمريكي قاب قوسين أو أدنى. هذا بالفعل ما سمعته يوماً من أحد المحللين على الراديو، إذ أكّد أن سبب المؤامرة الأمريكية على سورية هو الانهيار الوشيك للاقتصاد الأمريكي. كانت تحليلاتهم تثير السخرية أكثر مما تثير العجب والاستغراب، وهي في الحقيقة ليست أكثر من جرعات تخدير لمؤيديه تثبيتاً لموقفهم.

هذا الإعلام كان سبباً رئيسياً لنفور الناس من النظام عبر كذبه المتواصل وإساءته للعقل البشري بكل ما ينقله. وتكررت كثيراً الأخطاء الغبية التي كانت تحمل بصمات رجال الأمن. ففي إحدى المرات خرج المواطنون فرحاً بالمطر في حي الميدان الدمشقي، ومرة أخرى خرجوا فرحاً بفوز برشلونة على ريال مدريد، بينما تصر قنوات "الفتنة" على أنها مظاهرات. وكثيراً ما حدث مع المذيعين أو المراسلين مواقف محرجة كتجرؤ أحدهم من حماة على الاتصال بقناة الدنيا والقول على الهواء مباشرة "الله يخلصنا من بشار الأسد" لينقطع الخط بسرعة أمام دهشة المذيعة وضحكتها الخفية. والجميع يذكر الشاب الذي ضرب مراسل التلفزيون السوري في حلب شادي حلوة بالشحاطة الزرقاء المشهورة، وقال: "الإعلام السوري كاذب" ثمّ أطلق ساقيه للريح.

في حلب ومع بداية الثورة كان للإعلام السوري دور كبير في الحفاظ على نسبة المؤيدين الكبيرة، وذلك بسبب بعدهم عن مواقع الأحداث الساخنة، فكان الكثير منهم مصرين على تصديقه إلى أن رأوا كل شيء بأعينهم. وأكثر من ذلك عندما اتبعت قنوات النظام سياسة استفزازية للتفريق بين أبناء المحافظات، ففي كل يوم جمعة يركّز على حلب وشعبها المنشغل كثيراً بالتنزه والمأكولات، بينما كانت المظاهرات تعم والشهداء تسقط في مختلف المدن، ما ساهم بزيادة النقمة على حلب وأهلها، فبدأنا نسمع الانتقادات من هنا وهناك، وراح بعض المتسرعين يتطاولون على أهالي المدينة، ما عرقل محاولات التأثير بآراء الناس، وكسبهم إلى صفوف الثورة.

إعلام النظام مع انطلاق الثورة كان يشنّ هجوماً يومياً على القنوات التي تنقل أخبار المظاهرات في سورية، فوصفها بقنوات الفتنة، والمغرضة والشريكة في سفك الدم السوري. وكان برنامجه اليومي يتضمن محاولات كشف كذب تلك القنوات، فيراقب ما تبثه تلك القنوات لتصيد زلاتها، ليقوم بالتطبيل والتزمير لها.

هذه القنوات لم يكن مسموحاً لها بالعمل في سورية التي أحكم إغلاق مصادر الأخبار فيها، ما دفعهم إلى نقل أخبار الناشطين عبر الإنترنت من المصادر الموثوق بدقّتها وصدقها، طبعاً دون أن ينسوا نسب هذه الأخبار إلى مصادرها لتوخي الدقّة الإعلامية. فتكفّل السوريون بالقيام بالمهام الصحفية

من تصوير للأخبار ونقلها إلى الشبكات التي أنشأها الناشطون على الإنترنت لتتحوّل إلى وكالات أنباء شبه متكاملة. بالطبع هذه القنوات كانت تقع بأخطاء عديدة يتسبب بها عدم عملها على الأرض، وعدم توفّر المصدر المستقل.

* * *

إضافة إلى القنوات التي كانت تنطق باسم النظام كان لديه مجموعة من الأشخاص دائمي الاستعداد للدفاع عنه على القنوات الأخرى والتحدث المستمر، بوجهة نظره وتبرير أفعاله. "الأبواق" هكذا كنا نطلق عليهم لأنهم كانوا مجرد أبواق لما ينفخ به النظام، ولم يجرؤوا يوماً على التحدث بكلمة لا يريدها النظام، وفي الحالات القليلة التي تجرؤوا فيها على ذلك.. كان الردّ قاسياً وعنيفاً، كما جرى مع سميرة مسالمة رئيسة تحرير جريدة تشرين، عندما تأثرت، وهي في لقاء مباشر مع قناة الجزيرة بما كان يجري في درعا، فأرادت انتقاد قوات الأمن على أخطاء ارتكبوها هناك متحدثة بصدق أمام المستمعين، إذ إن رواية النظام لا تصدّق، فأقيلت فوراً، ونعتت بأبشع الأوصاف واتهمت بأسوأ التهم.

هؤلاء الأبواق كانوا يشغلون مناصب كأعضاء مجلس الشعب أو وزراء أو معاوني وزراء، ولم يكن الإعلام ليأتي على صفاتهم الرسمية، بل يطلق عليهم مسميات كخبير في الشؤون الإستراتيجية، أو محلل سياسي، أو كاتب وباحث، وغالباً ما يكون لهم وظائف أمنية. طريقة الدفاع التي يتبعها الأبواق لم تختلف كثيراً عن طريقة إعلام النظام، فكانت رواياتهم كاذبة وحججهم غير مقنعة وأساليبهم غبية، وكثيراً ما أثاروا سخرية المشاهدين. وعندما كان أحد المذيعين يحرجهم بسؤال تبدأ زلات اللسان والأخطاء البدائية. كانوا يعتمدون غالباً سياسة الهجوم للدفاع عمّا لا يمكن الدفاع عنه، فيتحولون بحديثهم فوراً إلى أشياء لا علاقة لها بالأسئلة الموجهة لهم فيشرقون ويغربون بمواضيع أخرى، أو يقومون بالهجوم على الطريقة التي يتعاطى بها الإعلام مع الأزمة السورية بغية تمرير وقت السؤال لا أكثر ولا أقل.

النظام كان يخرج علينا بكل فترة بأبواق جديدة، معروفة أو غير ذلك. بعضهم أفلس لكثرة ما ظهر على شاشات القنوات وكثرة زلاته وأخطائه وبعضهم الآخر فضح تاريخه على نحو أو آخر، فما عاد باستطاعة النظام الزج

به أمام معارضين وناشطين هوايتهم النكش في دفاتر قديمة. بالطبع، وتماهياً مع إحدى أهم صفات النظام، لم تخل إطلالات هؤلاء من التطاول والشتم لتصل أحياناً إلى أقوال تعد كفراً لدى الجمهور الإسلامي.

مبدأ إحداثيات النظام وإعلامه وأبواقه في الدفاع عن هذا النظام كان يرتكز على مؤامرة تحاك ضد سورية تهدف إلى النيل من مواقفها الثابتة. فسورية حسب هؤلاء هي من الدول القلائل التي وقفت في وجه المشروع الأمريكي والإسرائيلي في المنطقة، ويجب إركاعها بأي طريقة. بالطبع هذه الرواية لم تعد تصلح لكثرة استعمالها واجترارها، ولكثرة الأمثلة التي تنسفها من أساسها، فكلنا نعرف أن النظام قتل من الشعب السوري أكثر بكثير مما قتله الإسرائيليون، وحمى حدود إسرائيل من تسرّب المقاتلين، وسحب الجيش السوري من لبنان، بعد أن سمع كلمة جدية واحدة من الغرب. ولو كانت هناك نية للغرب بعد انطلاق الثورة للنيل من هذا النظام، فلن يجدوا أفضل مما قام به لحد الآن مبرراً للتدخل، وهي التي طالما تدخلت لتحقيق مصالحها بحجج لا تقارن مع الذي يجري في سورية.

* * *

في ظل الضغوطات التي تعرض لها النظام من المظاهرات المتواصلة، ومن تصريحات ومواقف الدول الغربية التي بدأت تكثر حول الأزمة السورية تدريجياً، حاول النظام القيام بالإصلاحات التي صورها إعلامه على أنها الحلم الذي ينشده الشعب السوري. فبعد أحد عشر عاماً من مسيرة التطوير والتحديث، بدأنا نشهد مرحلة الإصلاح الشامل التي سيقوم به النظام. هذه الإصلاحات رغم أنّ السوريين تجاوزوها مع سقوط أول شهيد في درعا البلد، لم يكن يلمسها أحد أو يرى نتائجها على أرض الواقع، بل على شاشات التلفاز فقط، وكانت كلها في وادٍ ومطالب الشعب، الذي يسمع جعجعة ولا يرى طحناً، في واد آخر.

بدأ النظام إصلاحاته بزيادة غير مسبوقة للرواتب، منذ وصوله إلى السلطة، وكأنّه يعتقد أن الجوع أو الفقر هو ما حرك الشعب. وخفّض كذلك خدمة العلم ثلاثة أشهر علماً أنّ المشكلة ليست في مدتها، إنما في الخدمة التي تحوّلت، من خدمة للعلم، إلى خدمة الضباط وأسرهم.

وبعد فترة قصيرة استبدل بمحمد ناجي عطري، عادل سفر كرئيس للحكومة

الجديدة، واعداً بتحقيق أحلام المواطن السوري. لكنّ الكل يعلم أن من يدير البلد ليس الحكومة ولا الوزراء، فهؤلاء بيادق بأيدي الشبيحة، ودورهم مقتصر على تمرير مصالحهم، ومصالح بقية المسؤولين.

في الإطار ذاته، وفي سعيه للظهور بمظهر المصلح، رفع حالة الطوارئ المفروضة قبل خمسين سنة على أساس أنه اتخذ الخطوة الجريئة التي يستطيع فيها إسكات منتقديه، إلا أننا رغم انتقادنا لحالة الطوارئ المفروضة سابقاً، كنا على يقين أن ما كان معمولاً به عبارة عن عمليات مافيوية غير خاضعة لأي قانون. ورأينا كيف أصبح الوضع بعد رفع حالة الطوارئ، فلم تتوقف الاعتقالات بدون مذكرات التوقيف، ولا محاكمات المدنيين أمام المحاكم العسكرية تحولت إلى المحاكم المدنية. بل على العكس تماماً، فالأيام الأولى لرفع حالة الطوارئ شهدت مستويات قياسية من أعداد الشهداء الذين سقطوا على أيدي قوات الأمن.

وبعد عدة أشهر من انطلاق الثورة شكّل النظام لجنة لصياغة دستور جديد ينقل البلد نقلة نوعية منشودة، فأجرى تعديلات جوهرية عليه، كإلغاء المادة الثامنة التي تنصّ على أن حزب البعث قائد في الدولة والمجتمع. إلا أن هذا الدستور يعيبه ما يعيب إصلاحات النظام السابقة. فالمشكلة ليست في مواد الدستور السابق بل في عدم الرجوع إليه عند الضرورة، ومع ذلك لم نلمس أيّ أثر لإلغاء المادة الثامنة، إذ ظلت منظمات البعث، تعمل في الدوائر الحكومية مستفيدة من مبانيه وآلياته وموظفيه، وكانت رواتبها من الدولة لا من حزب البعث.

هذه الإصلاحات وكثير غيرها كانت لتلقى الصدى الإيجابي المطلوب، لو أجريت قبل بدء الثورة، أو لو أجريت على نحو جدِّي، فالنظام لم يكن يدري أن ما يقبل به الشعب الثائر اليوم لن يقبل به غدا، وبأن الإصلاح الحقيقي الذي سيقبل به هو تنحي بشار الأسد عن السلطة، وإبعاد عائلته عن حكم البلاد، ومحاكمة القتلة والمجرمين الذين أمروا أو ارتكبوا مجازر في طول البلاد وعرضها. تأخرت إصلاحات النظام كثيراً، أما الفجوة بين الشعب والنظام (تحدث بشار في أحد خطاباته عنها)، فقد كانت واسعة جداً، إذ عمقها رصاص الجيش والشبيحةُ المطلق على الشعب!

كنتيجة لاستمرار الثورة وتوسعها، والإشاعات التي كانت تنتشر تكراراً. كان النظام مجبراً على عرض رموزه التي تدور حولها الإشاعات ليثبت استمرار ولائها للنظام، وعدم حدوث أي مكروه لها، وعلى رأس تلك الرموز كان بشار الأسد مجبراً على الظهور كل فترة بخطاب أو مقابلة صحفية أو كلمة يلقيها في مكان ما للأسباب السابقة، إضافة إلى بعث التفاؤل في مناصريه وإظهاره لهم انتصاره الدائم، وثباته على موقفه في البقاء إلى الأبد كي لا ينفضّ من حوله من يقاتل معه، والقيام بإرسال رسائل معينة إلى الداخل والخارج.

الكثير كان يقارن تلك الخطابات بخطابات الرؤساء العرب الذين أطاح بهم الربيع العربي، حيث خرج كل رأس لتلك الأنظمة بعدة خطابات لتخفيف حجم الضغط الشعبي، لكنهم في كل خطاب خرجوه زادوا الطين بلّةً، وانقلب عليهم من بقي معهم لتلك اللحظة. وبشار الأسد في خطاباته لم يكن يشكل استثناء عن أقرانه، فكلما خرج بخطاب ما، كان يفقد العديد من مناصريه، وخصوصاً أولئك الذين كانوا يرون فيه الرجل المصلح والمحب لوطنه، وأن من يقوم بالقتل والاستبداد هم الأشخاص الذين يحيطون به وليس هو.

أولى خطابات بشار الأسد كان أمام مجلس الشعب، بعد أقل من شهرين على الثورة. كان مجلس الشعب الذي من المفترض أن يمثل السلطة التشريعية في البلاد، منتدى لمجموعة شخصيات يمثل كل منها قوة شعبية تعود لحزب أو عشيرة أو عائلة كبيرة أو مدينة تمثّل فيه بزعامتها إضافة إلى كبار التجار ومهربي الدخان والأسلحة والمخدرات. هذا الخطاب رُوّج له كثيراً على أنه سيحمل أخباراً مفرحة للشعب السوري، ولا أعرف عن أي شعب يتكلمون؟! فالخطاب جاء تاريخياً بكل معنى الكلمة، فلا أعرف أن رئيساً خرج يوماً ما على شعبه بمثل ذلك الخطاب.

مع دخول الأسد قاعة مجلس الشعب بدأ التصفيق الهستيري الذي يرافق ما يفعله المراهقون المعجبون بجستن بيبر أو مايلي سايرس لدى دخولهم حفلاً ما. بدأ الخطاب الذي كان يتميز كعادة ملقيه بالتنظير وإعطاء الحكم البعيدة عن واقع الحياة. كان كلامه كلام الخارج من معركة ما منتصراً على أعدائه، ويبدو أن المسيرات التي أخرجت طوال تلك الفترة أعطته ذلك

الشعور. فلا يكاد يقول بضع كلمات إلا يقاطع بسيل من تصفيق وهتاف المتملقين كمديح حاشية الملوك في العصور الوسطى، رغم أن هذه القاعة خصصت لأمور أهمها استجواب ومساءلة السلطة التنفيذية الذي يشكل هو رأس هرمها. وبدأت تنهال منظومات الشعر وكأنهم في سوق عكاظ. لم يكن ينقص الأعضاء إلا طبلة ومزمار وبعض الزغاريد ليهزّ هؤلاء خصورهم.

كان من أكثر الأمور اللافتة ذلك اليوم حين تدخل أحد الأعضاء ليقول:

"العالم العربي قليل عليك يا سيادة الرئيس، أنت لازم تقود العالم كله". يبدو من المسلّم به أن هذا الرجل هو قائد للوطن العربي، ويجب أن يقود العالم، وعلى الشعوب في كل بقاع الأرض أن تنزل بمسيرات عفوية لتتويجه بذلك على منصب لم يحظ به الإسكندر ولا قيصر أو كسرى ولا حتى فرعون أو هتلر. أعتقد أن مثل هذا العضو كان يطمح للحصول على رضا بشار الأسد ليكون له امتياز خاص لدى رئيسه، كذلك فعل قبلاً عضو مجلس الشعب إذ قال لحافظ الأسد:

"إلى الأبد إلى الأبد، يا حافظ الأسد" فنال بذلك ميزة الوجود الدائم في مجلس الشعب، وهذا نموذج اختيار ممثلي الشعب في سورية.

انتهى الخطاب ولم يسمع المواطن السوري أي كلمة تسعده، كما هو مرجو، بل كان مجموعة من التحليلات والتصورات أظهرت وكأنّ الرجل رئيس لبلد غير الذي يعيش فيه. كان للكلمة أثر عكسي لدى الناس، بعد ذلك تغيرت آراء الكثيرين أدركوا أنّ انتظار الفرج من هذا النظام مضيعة للوقت.

تلا ذلك الخطاب خطابات ومقابلات عدة، لم تكن لتختلف كثيراً، فهو يقول دائماً إنه ماض في الحل الذي اختاره، منذ البداية، مع كلام كثير لا دور فيه للشعب.

التنبيه الأول

التحركات الثورية كانت قليلة وضئيلة في مدينة حلب، لكن رغم ذلك لم نكن أنا ورفاقي نكلّ من التفاخر بها أمام الآخرين. بغية تشجيع الغالبية الصامتة من أصدقائنا على تغيير مواقفها والانضمام إلى الثورة، وتعجيل مشاركة الشباب المعارضين المكبلين بخوفهم القديم. لم نكن نأبه بالأخطار التي كانت تحدق بنا بسبب مثل هكذا أحاديث، وخصوصاً التي كانت تجري في المركز باعتباره مركزاً حكومياً. وبالفعل في المركز جاءنا التنبيه الأول عبر أحد الزملاء المقربين الذي اتخذ دور الناصح، فاجتمع ببعض الشباب، وأنا منهم، كل على حدة، لينبهنا إلى خطورة اللعبة التي نلعبها، وبأن هناك من سمعنا نتحدث مطولاً ضد النظام، وعن المظاهرات التي شاركنا بها، وذكر تحديداً قيامنا بتصوير المظاهرات، وبثها على النت، الأمر الذي كنا نفاخر به أمام زملائنا. تلك التنبيهات كانت فرصتنا لمعرفة المزيد عن المتحمسين للثورة. أخبرنا زميلنا بأن كل هذا كان مجرد تصفية حسابات، وبأننا لا يمكن أن نقوم بهكذا أعمال، وأنّ من يريد التبليغ عنا، يبغي تشويه سمعتنا، وقررنا زيارة المدير المسؤول عن المركز للتحدث معه..

بعد يومين توجهنا أنا وتوفيق لنقابل رئيس المركز الذي كانت تربطنا به علاقة جيدة جداً. في غرفة رئيس المركز كان الاجتماع، وفتح الموضوع مباشرة وأمام العديد من المعاونين والزملاء كي تكتمل الفضيحة. كنا مجبرين على لعب المسرحية المعهودة. أكد المدير أن ما يدور من حديث في المركز خطير، ويجب وضع حد له مباشرة، وبأن هناك أشخاص قاموا بتقديم تقارير عنا إلى الفرقة الحزبية، وبأن الجميع يعرف أننا شباب واعٍ لا يمكن أن نقوم بمثل تلك الأعمال، وبأننا يجب أن نركز على دراستنا ونحافظ على وظائفنا. منعت نفسي من الضحك مما يجري، فالكل يعرف أننا قمنا بالأعمال المذكورة في التقارير، بل وفاخرنا بها. لكن لا بأس بهذه المسرحية حالياً، كي لا نجر على أنفسنا وعلى غيرنا ضرراً لا فائدة منه. في نهاية اللقاء قال رئيس المركز: كل ما

ذكر نفيته، ولا مشكلة الآن، ودعانا لزيارة الفرقة الحزبية لشرح وجهة نظرنا، وإزالة أيّ لبس متبقٍ.

بعد أيام قليلة توجهنا أنا وتوفيق إلى الفرقة الحزبية لنقوم بالمسرحية ذاتها لكن مع ممثلين أكثر حرفية وتمرساً. جلسنا في غرفة أمين الفرقة الذي كان أحد أشقائه ذا دور فاعل في الثورة كما كنت أعلم وقتها. كانت غرفته كالعادة تعج بصور حافظ وبشار وباسل. بدأ الحديث المعتاد عن الأزمة التي تمر بها البلد وعن ضرورة تجنب أية خسائر ممكنة، وعلينا التركيز على مستقبلنا الجامعي، ووظيفتنا، وألا ننساق خلف التفاهات التي تدور في البلد. أثناء تلك المسرحية دخل شخص ثلاثيني، جلس إلى جانب أمين الفرقة، فعرّفه علينا، وأشار إلى أنني جار له، وبدا أنه من قرية قريبة لقريتي. استفسر الرجل عن سبب وجودنا، فأجاب أمين الفرقة: الشباب يشتمون البعث، ما دعا الرجل إلى التحديق بنا مطولاً ربما ليحفظ وجوهنا.. عرفت لاحقاً أنه عنصر في أمن الدولة.

بعد ذلك كانت المفاجأة، إذ تبين أن السيد أمين الفرقة على علاقة صداقة مع أحد أقاربي، الأمر الذي كان مشكلة كبيرة بالنسبة لي، ويعني أن اجتماع اليوم سينقل بتفاصيله إلى أبي في أقرب وقت. أنهينا الاجتماع القصير، وخرجنا ساخرين من طريقة نظرة هؤلاء لنا، فنحن مازلنا على اعتقادنا أننا لم نقم بعمل نخجل منه، إلا أنه توجب علينا التظاهر بالخجل تماشياً مع هؤلاء الناس الذين يريدون حمايتنا فعلاً إذا ما تفاقمت الأمور ضدنا.

* * *

خلال ذلك، ومنذ انطلاقة الثورة، كان أبي يراقب بقلق شديد هذه الصرعة الجديدة التي بدأت تشغل عقلنا، وتأكل وقتنا. فما كان لنا أيّ حديث سوى حديث الثورة، ولم نكن نتابع من التلفاز غير أخبار الثورة، وأي كلام بيننا يتحول سريعاً إلى الثورة. لم تعد تلفتنا أخبار الرياضة أو الأفلام أو المسلسلات أو الأصدقاء غير المصروعين فيما نحن فيه.

كان ذلك مصيبة بالنسبة له، ولغالبية جيله الذين عاشوا فترة الثمانينيات من مجازر ومآسٍ لحقت بكل من وقف في وجه النظام فعلاً أو كلاماً، أو حتى لمن كان قريباً لشخص ما تجرأ وقام بذلك، إضافة إلى عهود الرعب التي عاشها البلد بعد ذلك.

ما كنا نقوم به بالنسبة لوالدي كان لعباً مع الشيطان، ودخولاً في الجحيم.. بالتاكيد لن تقتصر نتائجه علينا فقط، بل ستمتد إلى أي صديق أو قريب أو متعاطف.. فالخوض في هذا الموضوع يعني الوصول إلى نتائج قد لا يستطيع أحد تحملها، ويعني أن كلّ عمل قام به، أو حلماً سعى للوصول إليه قد انتهى، وأن السنوات الطويلة التي قضاها يربي ويعلّم فينا ذهبت أدراج الرياح، وأنّ لا شيء بعد ما سيحصل يستحق الحياة لأجله. تماماً هكذا كان الواقع قبل الثورة. في الحقيقة كانت هذه العقبة أكثر ما سيؤثر على قراراتنا لاحقا، فكانت مسألة خوف الوالدين على أبنائهم هي الحاجز الذي على الشباب تجاوزه، على الأقل في الوسط الذي كنت فيه.

في البداية التزم والدي الصمت حيال هذا الاهتمام الذي بدا علينا في مثل هكذا موضوع مميت بالنسبة له. لكن كانت علامات عدم الرضا تبدو واضحة عليه وهو يراقبنا عن قرب، لعل وعسى تنقشع هذه السحب المظلمة التي بدأت تقترب من البلاد. إلى أن تطرّق معي بشكل حازم ودونما حاجة للتكرار، إلى أنه لا يريد أن يرى كلمة الثورة السورية على الكمبيوتر أبداً. فهو كلما أراد فتح النت كان المستعرض يقدمها خياراً رئيساً، إذ كانت الصفحة الأكثر دخولاً إليها من هذا الجهاز. "مابدي بعد هالعمر يجي عنصر أمن يهيني قدام العالم ويزاود عليّ بالوطن والوطنية. ما بدي أشوف هالعلاك على هالجهاز أبداً"

قال ذلك بطريقته المعتادة عندما لا يريد أي جدال أو استئناف في الموضوع، وأنا ما كان مني إلا الاستجابة مباشرة. فقمت بتنبيه إخوتي بضرورة التحول من استخدام برنامج موزيلا إلى برنامج الأوبرا لنتخلص من المشكلة ببساطة ودونما مواجهة مع الأهل.

لم أكن أرد على كلام أبي إلا بالصمت، لأني كنت أعرف أن ما يقوله صحيح، لكن القضية غدت قضيتي، ولن أتخى عنها ولو كان الثمن حياتي. كنت أترك المواجهة الكبرى بيني وبين أبي للمستقبل، لعل مستجدات هامة تطرأ فتسهل مهمتي، وتقوي حجتي.

ما كنت أخشاه بعد اجتماع الفرقة الحزبية حدث بالفعل بعد أيام قليلة. كنت جالساً في البيت عصراً عندما ناداني أبي وطلب مني مرافقته للذهاب

إلى مكان ما. عرفت مباشرة أن لدى أبي الكثير من الكلام الذي قد لا يكون عندي رد مناسب له في ذلك الوقت. ركبنا السيارة وتوجهنا إلى مكان قريب عندما أطفأ أبي المحرك ليبدأ الاستجواب. كنت أتمنى أني لم أولد أبداً كيلا أعيش تلك اللحظة. بدأ بالسؤال عن شيء قمت به استدعى أن يكون اسمي موجوداً عند فرع أمن الدولة. على الفور بدأت بالدفاع. وأخبرته الرواية التي ألفّتها للتو، والتي كان يجب أن تضمن أن يصدقني أبي، وأن تخفف من مخاوفه الكبيرة. كان عليّ أن أعترف بشيء ما كي أحافظ على أكبر قدر ممكن من المصداقية، وخصوصاً أن لا دخان بدون نار، بالنسبة له.

بدأت الحديث عن أحد ما في المركز قام بكتابة تقرير عني، وعن نحو تسعة من زملائي، كان علي أن أزيد العدد لتوزيع الخطورة. أكدت بأنها كانت تقارير كيدية، وكلها ملفقة، وبأن ما كنا نقوله هو كلام عادي لا يشكل أي خطورة، ولا يستدعي أية مساءلة، ويجري تداوله في كل مكان، وبأني لم أخرج في أي مظاهرة "أساساً ما في مظاهرات بحلب أبداً، ولو كان في مظاهرات كنت شاركت فيها، بس ما في شي بحلب". تابعت بأننا أثناء وجودنا في الفرقة الحزبية وجد رجل من أمن الدولة، ويبدو أن الأمور تضخمت. أسمعني أبي بعض الكلمات القاسية التي تضمنت التحذير الكبير والتهديد، ولم تتضمن على غير العادة أي نوع من كلمات الترغيب ومحاولة الإقناع. عدنا إلى المنزل دون أن يقتنع أبي بما قلته، ودون أن أحيد عمّا عزمت عليه. كنت موقناً بأنَّ مواجهات مشابهة ستتكرر في المستقبل.

اجتماع مماثل حصل في المنزل مع بعض الأقارب الذين نصحوني كثيراً وطلبوا مني أن أغلق فمي وخصوصاً في المركز. أكد لي أحد أقاربي أن أحداً لا يستطيع تغيير شيء مقتنع، أنا به، إنما عليّ أن أضع في حسابي العديد من الأمور. حدثني بلغة المنطق التي لا أستطيع في الحقيقة الصمود أمامها. كان يريد أن يقنعني أن ما نقوم به يعد انتحاراً وخراباً للديار، وأن من نتعامل معهم "أبشع من اليهود"، وأنّ هذا الوضع لا بد أن ينتهي يوماً، والخطأ يستحيل أن يستمر للأبد، وعلينا انتظار فرصة ما أو تغيّر الظروف ليكون هذا التغيير. ثم تلا ذلك سلسلة طويلة من القصص عن ممارسات عناصر الأمن الحقيرة، والجرائم التي يرتكبونها يومياً، والتأكيد بأني لست وحيداً من سيدفع

الثمن في حال وصلت إلى مرحلة يجب أن أدفع فيها الثمن. وكأني لا أعرف قوات الأمن وتصرفاتهم، بل كل هذا كان شيئاً يزيد إصراري وتمسكي بهذه الثورة، إلا أن مسألة التسبب بالضرر لأهلي كانت سبباً يجب ألا يغيب عن ذهني أبداً. الجميع أكد أن أكون أكثر حذراً من مثل هذه المواضيع الخطيرة، وبأن الموضوع قد يكون انتهى بسلام لكن المرة المقبلة قد تتكسر الجرة.

نتيجة كل هذه الضغوط ولتجنب صدام أكبر مع والدي كنت مضطراً لأن أقلل من نشاطي قليلاً بغية مجاراته في آرائه، وانتظار تغيّر الأوضاع في حلب قليلاً ومشاهدة مظاهرات عارمة يشارك فيها غالبية أهل حلب فتتضاءل أخطار الاعتقال أو الإصابة، وهذا ما اتفقنا عليه ضمنياً مع والدي والأقارب، وأوجب علينا تجنب المثول في واجهة الأحداث وتحمّل العبء الأكبر من العواقب. لكنّ تحمّل الأمر كان في غاية الصعوبة، فبعد كل صلاة جمعة أتابع الأخبار القادمة من باقي المدن، دون أن أكون في شوارع حلب أشارك في ثورتها، رغم أن لا ثورة في شوارعها. فالثورة في باقي المدن بدت كما حلمنا بها قبل البداية، فأضحت المظاهرات العملاقة منظراً اعتيادياً، رغم أن عدد الشهداء كان يزداد يوماً بعد يوم، وجمعة بعد جمعة.

موعد جديد

وجهتْ لنا دعوة من بعض الأصدقاء للمشاركة في موعد جديد للثورة. تحديداً يوم الجمعة، "جمعة الغضب"، في التاسع والعشرين من نيسان في منطقة طريق الباب/شرق حلب. حدِّد جامع عروة بن الزبير مكاناً لانطلاق المظاهرة المنشودة. ماهر كعادته أكّد أن أعداداً كبيرة ستشارك بالمظاهرة، إضافة إلى أهل المنطقة الذين هم على علم مسبق بها. اجتمعنا قبل الصلاة مع زكريا ابن عمي وماهر، فكانت المفاجأة أن من سيقلنا إلى مكان المظاهرة هو الحاج محمد، والد ماهر، بسيارته. وجدت بذلك عملاً شجاعاً يندر القيام به، وخصوصاً أني دائماً كنت مضطراً إلى تحضير سلسلة غير منتهية من الأكاذيب، لأقدمها لوالدي لتأمين خروجي كل يوم جمعة.

بعد نحو ربع ساعة وصلنا إلى المكان المطلوب. كانت منطقة شعبية تبدو أقرب للريف منها للمدينة. لا وجود فيها للبنايات الشاهقة إنما اقتصر الأمر على طابق أو اثنين في كل بناء. دخلنا لنحضر الخطبة التي لم أستطع التركيز في موضوعها بسبب التوتر المعتاد في مثل تلك اللحظات. انتهت الخطبة، وبدأ المصلون بالخروج دونما حدوث أيِّ شيء. مشيت أنا وماهر قريبين بعضنا من بعض، بينما ضاع زكريا وسط الزحام. حملنا أحذيتنا ووقفنا في الطابور العريض على باب المسجد. عندها سمعت الهتاف قادماً من خارجه بصوت عال:

"بالروح بالدم نفديك يا درعا" هتفت من داخل الجامع بالهتاف ذاته، ما أعطى الشعور لدى المصلين الخارجين بأن المتظاهرين عددهم كبير فلم يجرؤ أحد أن يعترضنا، أو هذا ما ظننته على الأقل. خرجنا من المسجد لننضم إلى المتظاهرين الذين لم يتجاوز عددهم الأربعين شخصاً عندما بدؤوا بالمسير باتجاه دوار الحلوانية. كعادتي وقفت خلف المتظاهرين، وبدأت أصور قبل أن يصرخ رجل خمسيني، قصير القامة مربوع الشكل، بصوت مرعد "ليش عمتصور؟"، لم أرد عليه لكني، أوقفت التصوير، وكنت حصلت على مقطع جيد يمكن نقله إلى الشبكة. أهل المنطقة وقفوا مذهولين أمام المشهد، إذ إنّ

غالبيتهم أو كلّهم لم يروا مظاهرة من قبل، لكن صراخ ذلك الرجل وزعيقه على المتظاهرين شجّع عدداً منهم للهجوم، وفضّ المظاهرة. وقفت على الرصيف عندما بدأ كل ذلك ولاحظت المتظاهرين يتفرقون إلى آخر الشارع، ورأيت بعض الشبان المتعنترين يحملون السواطير، ويملؤون المكان بصراخهم، وكفرهم بعد تفرّق المظاهرة.

المهم أنني قمت بالتصوير. لم يكف الرجل عن الصراخ، وبدأ يتهم أحد الواقفين بأنه كان مشاركاً معنا، وطالب بالإمساك به. تدخل عندها والد ماهر ليوقفه عند حده، وأكد للجميع أنه من أهالي الحي ولم يكن مشاركاً في المظاهرة. اقترب الرجلان من بعضهما وعلا الصراخ، وبدأ أقارب الرجل بالتدخل، وقفت وماهر مع الحاج محمد. حال أهل الحارة المجتمعين بيننا وبينهم، ومنعوا وقوع مشاجرة كادت أن تكون كبيرة، وقد لا نخرج منها سالمين إذا ما وصل الأمن. إذ ستلصق المظاهرة بنا، لذلك ابتعدنا عن المكان. كان من بين المشاركين الصديق الشهيد يحيى زكريا الحاجي، الذي استشهد بعد سنتين على أحد الخطوط الأمامية للثورة التي كان دائماً فيها.

بعد أن تواصلنا مع زكريا وافانا إلى مكان قريب. توجهنا جميعاً إلى منزل أحد أقارب ماهر، الذي لم يكن بعيداً عن مكان المظاهرة، هناك التقينا بالحاج أبي أمين الذي كان يقطن في الحارة نفسها، فقام باصطحاب ولديه للمشاركة في المظاهرة تماماً كما فعل أبو ماهر. وأذكر هنا أنّ "أبا أمين" قد حكمت عليه محكمة عسكرية، لاحقاً، بالسجن مدة خمس سنوات بسبب نشاطه المساند للثورة. بدأنا إجراء الاتصالات لنعرف باقي أخبار المدينة. يومها خرجت مظاهرة من جامع آمنة في منطقة سيف الدولة كانت الثانية على التوالي أمام الجامع ذاته، ومظاهرة في الفرقان قام بها طلاب جامعة حلب القاطنون في السكن الجامعي. عدنا إلى المنزل بواسطة سيارة أجرة، وخلال العودة شاهدنا عناصر الأمن يتجولون مكان المظاهرة. في المنزل أرسلنا إلى أسامة مقطع الفيديو الذي صورته إضافة إلى مقطع آخر صوّره زكريا ابن عمي، وقد نشر على أوسع نطاق.

* * *

في عصر ذلك اليوم وصلت إلى المركز شديد اليأس والإحباط من الثورة التي لم تولد في مدينتي حلب حتى ذلك الوقت. لم أر في الشارع أثناء قدومي

ولدى غالبية زملائي في المركز أي رغبة بالمشاركة فيما يجري في سورية، بل كانوا يراقبون الأحداث منتظرين نهايتها الحتمية لصالح النظام في أية لحظة. لم أرغب أن أكلم أحداً، فجلست منفرداً لبدء العمل ومن ثم قررت العودة إلى المنزل. وفي المنزل رنّ الهاتف فجأة وظهر على الكاشف رقم من مدينة حمص. أجبت على المكالمة، فأجابني صوت فتاة قدرت عمرها بالعشرينات:

- مرحباً
- أهلاً
- كيفك؟
- الحمد لله، أنت كيفك؟
- ماشي الحال
- مين معي؟
- لا مافي داعي بس حبيت أتطمن على حلب
- أي، وكيف شفتيها؟
- شفتها بترفع الراس..!

قالت الجملة الأخيرة بطريقة تتهكّم فيها عليّ وعلى أهل حلب. سمعت بين حروفها معاناة أهل حمص وفخرهم بثورتهم، وسخطهم على حلب. الإهانة كانت كبيرة إذ إني لم أملك أي كلمة للإجابة. لا أعرف لم من بين كلّ سكان مدينة حلب لم يجب على هذه المكالمة إلا أنا. فبعد كل ما جرى بعد صلاة الجمعة، وبعد كل ما جرى منذ انطلاق الثورة أظنه كان جزاء قاسياً لي. كلّ ما كنّا نقوم به كان يبدو بدون أي قيمة، وتلك الفتاة ظنّت أنها تريد أن تحرّك شيئاً ما في داخلي، شيئاً قد تحرّك بالفعل يوما ما، فقامت بدلاً من ذلك بتوجيه إهانة كبيرة لي دون أن تدري ما فعلتْ. شعرت بضرورة أن تعرف تلك الفتاة مع من تحدثت ذلك اليوم وما الذي كان يفعل يومها.

مثل تلك الحوادث التي انتشرت في بداية الثورة كانت عديدة تجاوز بعضها حد التهكّم والإساءة إلى كل أهالي حلب نتيجة النقمة التي بدأت بالتشكل ضدها وضد سكانها. في تلك اللحظة بالذات أحسست بضرورة كتابة

كلّ ما جرى معي خلال الثورة التي لم تصل إلى حلب، وضرورة أن يقرأ الجميع وخصوصاً أمثال تلك الفتاة تفاصيل ما كان يدور في حلب وقت انشغالهم بثوراتهم الخاصة، وضرورة أن يعرف الجميع أنّ هناك أشخاصاً من حلب عملوا ما بوسعهم لكن لم يكن مقدوراً لثورة ما أن تولد. قررت ساعتها أنني يجب أن أكتب كلّ ما جرى معي في هذا الكتاب الذي تقرؤونه الآن، ليعرف الجميع ثورة حلب والأسباب التي منعت ولادتها.

قد يكون كل ما شعرت به تلك الساعة مجرد وهمٍ نسجه خيالي وإحباطي، وقد تكون تلك المتصلة لم تكن تريد السخرية مني، أو من حلب بتلك الطريقة التي ظننتها، بل كانت مجرد شخص ما يبحث عن التسلية. لكن تلك الحادثة نبهتني إلى ضرورة أن يكتب أحد ما عن هذه الثورة، فإن لم تُوثق كل تلك الأحداث فستكون وكأنّها لم تكن، ولم تحدث أبدا.

* * *

بعد أسبوع وفي جمعة جديدة صادفت السادس من أيار التي أطلق عليها "جمعة التحدي". كنّا على موعد جديد للمشاركة في المظاهرات المنتظرة ذلك اليوم في كلّ البلد. اجتمعت مع الشباب بعد سلسلة متناسقة من الأكاذيب، لكي لا يشكل غيابي عن المنزل مشكلة أو صداماً مع الوالد. كان ينتظرني كالعادة ماهر وزكريا إضافة إلى فادي أخي. الموعد كان في جامع الزبير في صلاح الدين بالقرب من المفارق الأربعة، حيث خطط لخروج المظاهرة. إضافة لمظاهرة أخرى تخرج من جامع صلاح الدين القريب، ليلتقي الجمعان في منتصف المسافة بينهما.

كان الجامع يغصّ بالمصلين وهذا شيء طبيعيَ بسبب الكثافة السّكانية الكبيرة في صلاح الدين. جلسنا لنستمع إلى إمام المسجد الذي هاجم بخطبته طلاب الحرية ووصفهم بأنّهم يريدون حرية أميركا التي ترتكز على انحلال الأخلاق، وتجاوز الحدود والتقاليد والمحرمات، وأكّد بأنّنا نريد القيام بالزنا في الشوارع دون أن يحاسبنا أحد، ونريد أن ينتشر اللّواط وغيرها من الأفعال المقززة، التي لا أعرف من أين أتت إلى مخيلته أو مخيلة عنصر الأمن الذي كتبها له. باختصار كانت خطبة الجمعة ترفع الضغط لدرجة أنّي بدأت أفكّر بترك المسجد، فهكذا إمام لا تقبل الصلاة خلفه، وليسامحني ربي.

فجأةً وبطريقة غير متوقعة، وقف أحد المصلين أمامي بعدد قليل من الصفوف، وهو رجل يبدو أنه في آخر الثلاثينات ليصرخ بأعلى صوته، ما جعل الخطيب يتوقف عن كلامه، والناس تضع يدها على قلبها خوفاً من انفجار الوضع. صرخ الرجل "إيش عمتقول يا شيخ؟! إيش عمتقول؟! اصدح بالحق يا شيخ اصدح بالحق" وحمل نفسه وخرج من الجامع. سادت حالة من الهرج والمرج بين الناس فمنهم من وقف ليخرج من الجامع خوفاً من خروج مظاهرة فيه، وآخرون وأنا منهم وقفنا ظنّاً منّا أن المظاهرة قد بدأت. رجوت أن يضيع ذلك الشخص بين المصلين فلا يُقبض عليه. نظرت إلى ماهر وزكريا في الطرف الآخر من الجامع لأرى نظرات الترقب على وجهيهما. خطيب الجامع طلب من المصلين الجلوس لإتمام الخطبة، وطلب منهم أنْ يتركوا الرجل وشأنه، وهذا ما كان بالفعل.

أكمل الإمام الخطبة التي مرّت بلحظات عصيبة مليئة بالتوتّر والترقّب حتى نهايتها. بدأنا صلاة الجمعة، ونحن بانتظار انتهائها بسرعة لكي نعرف ماذا سيحدث في الخارج، لكن على عكس تمنياتنا قام إمام الجامع بإطالة الصلاة متعمّداً وقام بالدعاء في الركعة الثانية لمدة طويلة جعلتنا نتأخّر كثيراً عن باقي الجوامع. لدى خروجنا وجدنا عناصر الأمن ينتشرون بكثافة أمام المسجد ما جعل أيّ فرصة لخروج مظاهرة معدومة. بدأت كعادتي بالتصوير، لكن هذه المرة بدأت أصوّر قوات الأمن والشبيحة بأسلحتهم. وعلمت لاحقاً أن مظاهرة خرجت من جامع صلاح الدين القريب وقمعت كالعادة.

رحتُ أتجوّل بين الناس الواقفين بشكل متفرّق على أطراف الطريق وعناصر الأمن التي كانت تطلب منهم الانصراف. وقفت أنا وزكريا وماهر وفادي وأبو عدنان بالقرب من إحدى سيارات الشرطة، عندما رأيت عدداً من العناصر يجرّون أحد الأشخاص، ويضربونه برفقة عدد من الشبيحة. الأمر كان لافتاً للغاية ويستحق المخاطرة للتصوير. حملت الموبايل وبدأت التصوير فظهر في التسجيل سيارة الشرطة التابعة لقسم السكّري والعناصر، والشبيحة، وهم يضربون الرجل ويشتمونه قبل أن تنطلق السيارة مسرعة. عدت إلى المنزل وأنا أحمل غنيمة كبيرة قد تعزيني عن عدم المشاركة بأي مظاهرة

ذلك اليوم، متمثلة بهذا المقطع الذي تمّ إرساله وبثّه على غالبية صفحات الثورة ومواقعها.

عند وصولي إلى المركز ذلك اليوم سألني أحد الأصدقاء :

- "شفت مقطع الفيديو اللي بيطلع فيه الشبيحة والشرطة عميضربو واحد بصلاح الدين؟!"
- "أنو مقطع؟ وين شفتو؟"
- على الجزيرة.
- "بربك؟ بتطلع فيه سيارة شرطة تابعة لمخفر السكري؟"
- أي
- وشو قالوا عنو؟
- أظهر تسجيل فيديو بثّه ناشطون على الانترنت..

لم أستطع تمالك نفسي من الفرحة بعد أن عادت مقاطعي لتظهر على التلفاز وعلى قناة الجزيرة تحديداً. لم أستطع أن أكتم السر وألا أخبر الأصدقاء بما جرى اليوم، فأخبرتهم بأنّي من صوّر ذلك المقطع شارحا بأدق التفاصيل ما جرى معي ذلك اليوم، والدنيا كلها لا تكاد تسعني من فرط فرحتي وغروري.

محاولات

كانت هناك العديد من المحاولات التي تجري في حلب للحاق بركب الثورة ولم يحالفنا الحظ في المشاركة فيها. العديد من التجارب الناجحة والفاشلة كمظاهرات وغيرها، بالإضافة إلى حملة كبيرة من عمليات الكتابة على جدران المدينة بشعارات مناهضة للأسد ومؤيدة للثورة. كان الشباب يلعبون لعبة القط والفأر مع عناصر الأمن، الذين أنهكتهم عملية مسح ما يكتبه الثوار على جدران المدينة. عبر قنوات الأخبار ومواقع الإنترنت كانت تصلنا أخبار الكثير من المظاهرات وصورها، تلك التي كانت تخرج في فترات متقطعة في مناطق متفرقة من المدينة، كتلك المظاهرة التي ذكرناها في باب الحديد، وكذلك الاعتصام الذي قاده عبد العظيم منجونة أمين عام حزب الإتحاد الاشتراكي العربي يوم عيد الجلاء في الحديقة الصغيرة حيث ضريحي إبراهيم هنانو وسعد الله الجابري، إضافة إلى شهيد مجهول الهوية من مناضلي الاستقلال الوطني. عرفنا لاحقاً أن تلك المظاهرة كان مرخصاً لها، ومع ذلك حاولت بعض مجموعات الشبيحة الاعتداء على المعتصمين، إضافة إلى العديد من المظاهرات التي كانت تخرج هنا وهناك، وخصوصاً في منطقتي سيف الدولة وصلاح الدين.

الحراك الثوري في مدينة حلب تركّز لفترة طويلة في جامعة حلب، وتحديداً في السكن الجامعي الذي يسكنه طلاب من خارج المدينة. المظاهرات الكبيرة بدأت تجوب شوارع السكن بشكل متكرر، وكانت أكبر من أي مظاهرة خرجت في حلب، الأمر الذي استدعى تدخل قوات الأمن بعنفهم المعتاد ضد الطلاب، فقاموا بقمع المظاهرات بكل الوسائل، من الغاز المسيل للدموع وصولاً إلى الرصاص الحي في بعض الأحيان، كما اعتقل وفصل عدد كبير من الطلاب بغية القضاء على هذا الحراك في مهده. إلا أن النتيجة لم تأت إلا عكسية، كما هو معتاد، فازداد عدد المظاهرات وعدد المشاركين فيها ولم تتوقف إلى أن انتهى العام الدراسي. ومن المؤسف بالنسبة لي إذ لم

أشارك في أي من مظاهرات السكن الجامعي، رغم أنها كانت إحدى الخطوات النوعية، والعلامات الفارقة في الحراك الثوري في حلب.

مرة وحيدة في العاشر من حزيران تواجدت في إحدى المظاهرات دون المشاركة بها، لأني كنت خارج أسوار الجامعة بعد أن قامت قوات الأمن والشبيحة بمحاصرتها. المظاهرة تجددت في السكن الجامعي بعد أن خرج الطلاب في جامع قريب بعد صلاة الجمعة. وقفنا عند المدخل الجنوبي مع مجموعات كبيرة من الشبيحة الذين كانوا يتحضرون لاقتحام المدينة الجامعية، منتظرين وصول تعزيزات أمنية. لم يكن بيدي سوى أن أصور هذا التجمع والسلاح الأبيض الذي كانوا يحملونه، وهتافاتهم التي لم يكن ينقصها الشتم والكفر. وبالفعل حصلت وقتها على تسجيل هام لما يقوم به الشبيحة في المدينة الجامعية، نشرته على شبكات الثورة.

الحراك في جامعة حلب كان يعطي صورة واضحة ومثالاً مصغراً عن الثورة السورية ورد فعل النظام السوري، فكل تحرك سلمي، جميل وبريء، ومتقدم قابله النظام بوحشية وبربرية وتخلف. فالطلاب الذين لم يحملوا سوى أقلامهم ومحاضراتهم قوبلوا بالمجرمين وخريجي السجون وتجار ومروجي الممنوعات. اقتحم السكن الجامعي وكليات الجامعة أكثر من مرة ليتم تدمير كل ما وصلت إليه أيديهم كأسراب الجراد، على عكس ما نطق به "الشبيح الأول" في إحدى مقابلاته بأن ما يجري ثورة على العلم والتعليم.

* * *

كذلك كان أحد أهم العلامات البارزة في الحراك الثوري بمدينة حلب، جامع آمنة بنت وهب، حي سيف الدولة، الذي بعد تتالي خروج المظاهرات منه أيام الجمعة، أصبح مركزاً هاماً للحراك الثوري مستقطباً المتحمسين للثورة، خصوصاً من لم يكن لديهم الوسيلة للتواصل مع منظمي المظاهرات التي كانت تخرج. جامع آمنة والحراك الذي كان يجري أمامه كان عامل جذب كبير للناشطين، وفي الوقت نفسه لقوات الأمن والشبيحة، فكما هو معروف لم يكن بالإمكان الخروج بمظاهرة معلنة في حلب، فما إن ينتشر خبر الدعوة إلى مظاهرة ستخرج من مكان ما حتى تجد الشبيحة وقوات الأمن بانتظارك، وهذا ما حدث معنا مراراً.

أمام جامع آمنة سقط أوّل شهيد في مظاهرات حلب، وهو الشهيد محمد أكتع الذي استشهد بعد أن تهاوت على جسده العصي والهراوات من الشبيحة الموجودين. لم يجرؤ مسؤولو مستشفى النايف القريب على استقباله خوفاً من بطش النظام فسقط مغشياً عليه. بالطبع كان أول شهيد في مدينة حلب بعد انطلاق الثورة هو الطبيب صخر حلاق الذي اختطفه عناصر الأمن بعد عودته من ألمانيا ليوجد مرمياً على مشارف حلب ميتاً، لكن محمد أكتع كان أول شهيد يسقط في مظاهرة. قامت قوات الأمن بتهديد عائلة الشهيد في حال خروج أي مظاهرة في التشييع الذي حصل بشكل سري وبحضور وفود كبيرة من قوات الأمن والشبيحة.

أوّل وثاني مرة أذهب فيها إلى جامع أمنة كانت بعد خروج المظاهرة وفضّها من قبل قوات الأمن، وذلك في إطار جولات كنّا نقوم بها بواسطة شاحنة صغيرة من نوع سوزوكي كنا نستعيرها من "أبو عدنان" كل يوم جمعة، وكنّا نطلق عليها سيارة الثورة، وذلك بعد أن نفشل في المشاركة في إحدى مظاهرات يوم الجمعة، ولو علم مدير الشركة صاحبة السيارة بالأماكن التي كانت تتجوّل بها يوم الجمعة لقام بإحراقها والتخلص منها بأيّ طريقة.

في المرّة الثالثة وتحديداً في الرابع والعشرين من حزيران، الجمعة التي أطلق عليها اسم جمعة "سقوط الشرعية" قررنا الذهاب قبل انتهاء الصلاة لنشاهد الحدث من بدايته. وصلنا إلى المنطقة برفقة الشلّة ماهر وزكريا وأبو عدنان عند انتهاء الصلاة تماماً. كان الشارع الرئيسي يغصّ بعدد كبير من البشر، أعتقد أنّه كان يفوق ثلاثة الآلاف. إضافة إلى الشبيحة وقوات الأمن، مجموعة كبيرة من الناس لا أجد سبباً لوجودهم هناك سوى الخروج في المظاهرة، لكن أظنّ أنّ غالبيتهم كان ينتظر أن يشعر بالأمان قليلاً، وأنْ يشاهد أمامه مظاهرة كبيرة إذ يصعب على قوات الأمن تفريقها.

بدأنا المسير بين الحشود مقتربين من مدخل الجامع الذي يتركّز وقوف الناس أمامه. شرفات المنازل تحولت إلى ما يشبه شرفات دار الأوبرا، فامتلأت بالمتفرجين الذين لم أعرف إذا كانوا يبحثون عن الحقيقة أم عن المتعة والإثارة. بدأت تسود حالة من الترقب فلا أحد يعرف ماذا يفعل، فقوات الأمن تعرف أنّ هذا الحشد قد جاء لمظاهرة محتملة سوف تخرج من المكان

لا يرى أي شخص ينسحب ليعود إلى بيته، بينما الناس تنتظر أن تنطلق المظاهرة ليشاركوا بها، ولا أحد يعرف تحديداً من سيطلق تلك الشرارة، لأنّ العاقبة ستكون الضرب المبرح والإهانة والاعتقال. فمن سيجرؤ ويضع نفسه في "بوز المدفع" ؟! لم أكن شخصياً أمتلك الشجاعة للقيام بذلك، وقفت مع الواقفين بانتظار تتالي الأحداث.

ما هي إلا لحظات حتى سمعت صوتاً لعدد من الشبان لا يتجاوز عددهم العشرة، يصرخون بأعلى صوت "الموت ولا المذلّة". لا أعتقد أنّه مضى خمس ثوان حين انقضّ عليهم الشبيحة وكأنّهم ينتظرون تلك الشرارة. بدؤوا بالهتاف بالعبارات المؤيدة للنظام وهم يجرون باتجاه هؤلاء الشباب. قاموا بسحلهم بالشارع وضربهم بالأيدي والهروانات بالطريقة المعتادة، لم يجرؤ أحد على إظهار التعاطف لأنّ من يفعل ذلك سينال مصيراً مشابهاً. في تلك اللحظات ساد الهرج والمرج في المكان. حاولت تصوير ما يجري من ضرب للمتظاهرين دون أن أحصل على لقطة جيّدة ذلك الوقت، وفجأةً رأيت الجميع يجري باتجاه الجنوب في شارع سيف الدولة الرئيسي حيث خرجت مظاهرة أخرى بذلك الاتجاه، فهرع الشبيحة للقمع، والناس لاحتمال المشاركة. جريت خلفهم وأنا أمسك الموبايل بيدي محاولاً تصوير أكبر قدر ممكن مما يجري. ضاع الحابل بالنابل في تلك اللحظات، فكان الشبيحة يغيرون اتجاه جريهم كل لحظة.. وأخذ المتظاهرون يلعبون بهم، فما إن يذهب الشبيحة إلى مكان ما حتى تبدأ المظاهرة في مكان بعيد عنه. حوالي الساعة من الكرّ والفرّ انتهى بعدها التجمّع تدريجياً، وبعد ازدياد كبير في عدد عناصر الأمن والشبيحة. يومها طلب مني أحد الشبيحة أن أنتبه إلى من يمكن أن يصور ما كانوا يقومون به، دون أن ينتبه أني كنت أحمل الموبايل بيدي وأسجل ما كان يأمرني به. أجبته بألا يقلق من هذه الناحية فعيناي مفتوحتان "عشرة على عشرة".

اجتمعنا في المكان الذي ركنا فيه السيارة وعدنا إلى المنزل حاملين معنا الكثير من التفاؤل بما رأيناه ذلك اليوم أمام جامع آمنة، فمع استمرار المظاهرات هناك كان حجم الخوف يتناقص، وعدد المتظاهرين بازدياد. على هذا النحو ستميل الكفّة لصالح المتظاهرين مع مرور الوقت، بحيث من الممكن أن نجرّب الغاز المسيل للدموع في الأسبوع القادم. هذا ما توقعه

زكريا وهذا فعلا ما حدث بعد أسبوع، لكن دون أن يقدّر لنا أن نشاهد ذلك بأعيننا لسبب مهم سوف يمر معنا لاحقا.

استمرّ الحراك في تصاعد أمام جامع آمنة أشهراً عديدة دون أن يفلح النظام في منع الناس من التجمّع حوله بعد كلّ صلاة جمعة، إلى أن تم إغلاق المسجد بحجة الصيانة لمدّة أسبوع واحد، فكانت بذلك اللحظة التي انتهى فيها مسلسل المظاهرات المتواصلة، أو على الأقل محاولات التظاهر التي شكلت صداعاً طويلاً لدى قوات الأمن على مدى ثلاثة أشهر تقريباً في مدينة حلب. فكانت خيبة أمل كبيرة لنا ذلك الوقت بعد أن عقدنا الآمال على تطور الأمور أمام هذا الجامع ليشكل نقطة تحول هامة في أحداث ثورة حلب.

الجدار المثقوب

التعتيم الإعلامي الكبير والمعتاد في سورية أوجب على الناشطين القيام بالعمل الصحفي لإيصال صوت الثورة وصورتها إلى خارج العالم، فكلّ مظاهرة تخرج تكاد تفقد قيمتها، إن لم تصوّر وتعرض على مواقع الإنترنت وشاشات التلفزة. هذا ما واجهناه فعليّا مع أوّل مظاهرة صوِرت في جامع بني أمية يوم جمعة العزّة، فمع وصولنا إلى المنزل كان يتوفر لدينا الكمبيوتر وخط الإنترنت في المنزل بسرعة 256 كيلو بايت في الثانية، وهذه ميزة كانت لا تتوفر إلا لدى القليلين في ذلك الوقت. قد تستغربون أنّ مثل هذه السرعة تعد امتيازاً، إلا أنها فعلاً كانت كذلك حتى ساعة كتابة هذه السطور، وأظن أنه ومع التقدم التكنولوجي في بلاد العالم في هذا المجال لن تبقى هذه السرعة ميزة عندما تقرؤون هذا الكتاب كله.

كما ذكرنا سابقا، الحيرة كانت كبيرة تلك اللحظة، فكيف سنقوم بإيصال هذه الصور إلى مواقع الثورة وإلى وسائل الإعلام بدون أن يتمّ الوصول إلينا من قبل عناصر الأمن، وخصوصاً أننا لم نكن نظنّ أننا سنصل إلى هذه المرحلة في الثورة بتلك السرعة. الحلّ الأمثل كان عن طريق إرسال تسجيل الفيديو إلى شخص خارج البلد، والذي بدوره سيقوم بباقي المهمة. الفكرة كانت عفوية إلا أنّها أثبتت نجاحها على الفور. كان كل ما نحمّله من صور و"فيديوهات" يرسل عبر البريد الإلكتروني إلى أسامة الذي يعمل في قطر. الناشطون خارج البلد مثل أسامة كانوا يشكلون ذراعاً للناشطين داخله، وستاراً يحميهم من ملاحقة قوات الأمن وتجسسهم معلوماتياً، يفوق بجودته وفعاليته برامج تغيير الآي بي، وكسر البروكسي الذي أصبح لدى الجميع خبرة في استخدامها للضرورات الأمنية.

مع مرور الوقت كانت الثورة تنتشر أفقياً وعمودياً بين المدن السورية. ازداد في كل مدينة عدد المشاركين بالثورة، إضافة إلى رفدها بمدن وقرى وأحياء جديدة يومياً. لذلك تحتم على الناشطين إنشاء شبكات إخبارية لنقل

الأخبار والصور و"الفيديوهات" أولاً بأول، فكل مدير لإحدى هذه الشبكات ينقل كل ما يصله من أصدقاء أو أقارب له، وينشرها لتصل إلى وسائل الإعلام وشبكات الأخبار المماثلة. شيئاً فشيئاً أخذت هذه الشبكات تعمل على محو أكثر احترافية، رغم افتقار القائمين عليها إلى الخبرة الصحفية غالباً، فشبكة شام كانت أولى الشبكات التي عملت في هذا المجال، وأكثرها مصداقية، وهي إحدى أهم مصادر أخبار الثورة مع شبكات كثيرة، يتفاوت عدد متابعيها حسب مصداقية أخبار كل شبكة ودقتها. انتشرت هذه الشبكات كثيراً إذ بات من الصعب إحصاؤها أو متابعتها، فكان لكل مدينة أو حي أو منطقة شبكة خاصة بها.

العدد الكبير من الشبكات ومصادرها المفتوحة أفرغت أي محاولة من النظام وشبيحته لإغلاق أو قرصنة أي شبكة أو موقع من مضمونها. خصوصاً أن الخبر أو الفيديو أو الصورة كان ينقل من الشبكة صاحبة السبق به إلى الشبكات الزميلة كافة، فغدا الشعب كله بين مراسل ومصور ومحرر، يستخدم ما توفر لديه من التكنولوجية البسيطة، إنما الشديدة الفعالية ككاميرات الموبايلات وشبكة الإنترنت. عندئذ أخذ النظام يلجأ إلى قطع النت عن البلد كله، إلا أنه لم يستطع منع السيل العارم من الصور والتسجيلات والأخبار من الخروج، لوجود أجهزة إنترنت بديلة: فضائية أو أجهزة ثريا أو خطوط الهاتف الجوال من الدول المجاورة في المناطق الحدودية.

كان النظام وأجهزته الأمنية متخلفين جداً لجهة تكنولوجيا الاتصالات، والمعلومات والحواسيب، فما كان عليك أن تكون خبيراً في هذا المجال لترسل الأخبار إلى خارج البلد، فأي شخص عادي يمكنه فعل ذلك. كان الناشطون يتواصلون مع قنوات الأخبار بسهولة، ومباشرة وعلى نحو متفوق على النظام. فنقلت المظاهرات على الهواء وتحدث الناشطون عن أحداث الثورة بالصوت والصورة مع قنوات الأخبار ولم تجد محاولات النظام منع الصحفيين دخول مناطق الحراك الشعبي، وظلّ يكذب حول ما يدور فيها وتردد أبواقه كالببغاوات.

إضافة إلى كل ذلك استخدم الناشطون في الداخل غرف الدردشة لتبادل المعلومات والأخبار فيما بينهم، فكانت برامج السكايب والميغ 33 وغيرها، تنتشر على موبايلات غالبية الشباب السوري كوسيلة هامة تستخدم لأغراض

تخص الثورة. شخصياً استخدمت برنامج الميغ، عبر غرف كثيرة أنشئت، أبرزها غرفة "سيريا رفليوشن" إحدى الوسائل الكثيرة التي أتيح فيها نقل الأخبار إضافة إلى النقاشات الباردة والساخنة في أمور تتعلق بالثورة. باختصار كان من المستحيل على النظام أن يعزل سورية في ظل هذا التقدم التكنولوجي الذي يعيشه العالم. وظلّ النظام يصر على روايته العقيمة بأن لا شيء يجري، بينما الجدار الذي بناه حول البلد كان مليئا بالثقوب.

خيبة أمل

مرّ نحو أربعة أشهر من عمر الثورة دون أي تغيير يذكر في مدينة حلب، وكل المحاولات لتغيير موقف المدينة والرأي العام، بغية الزج بها مع المدن المنتفضة كانت تبوء بالفشل. بدأ الجدال والنقاش يطول حول هذا الموضوع، لماذا حلب لم تنتفض؟ لماذا لم تصل الثورة إلى شوارعها وقلوب سكانها وعقولهم؟ ما أوجه الاختلاف بين حلب وسكانها عن باقي المدن؟ كانت أسئلة كثيرة تدور في عقول الشباب حول هذا الأمر. ولكل شخص أسبابه التي يقترحها فيوافق بعضهم أو ويرفض. كانت هناك دوامة لا تنتهي من التحليلات والتوقعات والأسباب. لكن مهما كنت المبررات كثيرة أو قليلة، صحيحة أو مخطئة، محقة أو مجحفة، مبررة أو غير مبررة، كانت الصدمة كبيرة من مدينة حلب وخسارة الثورة لهذا التكتل السكاني لا تقدر في سباق الضربات الميدانية أو الإعلامية التي كان يتبادلها الثوار مع النظام.

خلق هذا الواقع الجديد فجوة بين حلب وباقي المدن. أخذت عبارات التهجم والتطاول والسخرية من مدينة حلب تنتشر بشكل متزايد، وأخذ النظام يطبل ويزمر لهذا النصر الشعبي، فهو يملك إلى جانبه أكبر تجمعين سكانيين في البلد حلب ودمشق. لا أعرف فيما إذا تم إسكات دمشق رغما عنها بسبب الكثافة الأمنية المعروفة في العاصمة، أم كان وضعها مشابهاً لوضع حلب التي حافظ سكانها على موقفهم المعارض للثورة، والرافض الانضمام إليها، وهذا ما كان فعلاً على الأرض، وليس كما أحب تصويره بعض المعارضين من أن حلب تنتفض كما بقية المدن، إضافة إلى اختلاق الأعذار غير الصحيحة من هنا وهناك، فالحقيقة كانت واضحة لا يستطيع أحد إنكارها. وسكان هذه المدينة بغالبيتهم رفضوا الاشتراك في الثورة رغم ما شهدته من محاولات صغيرة، خصوصاً إذا ما قورنت بباقي المدن.

استغل النظام حالة النقمة على حلب وريفها وأوقد في نارها. فراح يركز إعلامه على إظهار المسيرات المؤيدة وخصوصاً بعد صلاة الجمعة، وعدم مبالاة

الحلبيين بما يجري في المدن الأخرى من مجازر. فبينما كانت قنوات الأخبار تنقل المظاهرات في مختلف المدن، كان التلفزيون السوري وباقي قنواته ينقلون المسيرات المؤيدة في حلب. زاد في تعقيد الأمر أنّ أيّ حراك حلبي كان يأتي متأخراً على الدوام، ويظهر هزيلاً مثيرا للسخرية إذا ما قورن بغيره، رغم أنّ أعمالاً جبارة اجترحها الناشطون.

حالة من الإحباط سادت بين الناشطين في مدينة حلب وخارجها، رغم أن الكثيرين منهم كانوا يتعمدون عدم إظهار هذا الإحباط، والجميع أكد أن ثورتنا سوف تنتصر بدون مدينة حلب، وبأن حلب ستنال حسابها بعد سقوط النظام تلقائياً، وعندها سيشعر سكانها كم قصروا في حق بلدهم؟! وسيلاحقهم نوع من الخزي والعار! ولم يكن واضحاً في ذلك الوقت دقة هذا الكلام.

يوماً بعد يوم كان الوضع يزداد تعقيداً وصار مبدأ النقد الساخر سارياً إلى درجة التشكيك بالأعمال الجدية.. فكثيراً ما سمعنا عن مظاهرات في حلب يخرج بها أهل إدلب، وأن الحراك في جامعة حلب يقوده طلاب من خارج المدينة، وإلى ما هنالك من التحليلات التي تكون واقعية، إلا أن أكثرها كان ظالماً لحلب وأهلها، وخصوصاً أولئك الشباب الذين كانوا دائماً يقومون بما يقترب من المستحيل للحاق بركب الثورة، ولا يسمعون إلا كلاما يزيد في إحباطهم. كانوا واقعين بين مطرقة سكان حلب الرافضين للاشتراك بالحراك الثوري، وسندان تهجم وتهكم وسخرية الكثير من الناشطين الحانقين على حلب، الذين كانوا يقولون كلاماً لا يعرفون أنه لا يصل إلا إلى الشباب الثائر في المدينة دون غيرهم من السكان.

* * *

وهنا أريد أن أروي ما دار بيني وبين أحد الشباب من مدينة أوغاريت في ريف حماة. أبدى الشاب استغرابه من كوني من مدينة حلب، وفي الوقت نفسه أعارض النظام، وأتحمس للثورة. كنت أشعر أحيانا بالفخر بهذه الوضعية بعد أن يبدي الأصدقاء من المدن الأخرى إعجابهم بموقفي. لكن غالباً ما كنت أشعر بمزيد من الخيبة من موقف حلب بعد مهاجمة بعض الأشخاص لي وللمدينة واتهامنا بالجبن، وعدم نصرة المدن الأخرى.

حكى لي ذلك الشاب كيف كانوا في إحدى مظاهرات يوم الجمعة العارمة،

عندما أتاهم خبر يفيد أن "حلب قامت" كما كان الجميع يسأل ويتمنى. انتشر الخبر في المدينة لتتحول المظاهرة إلى ما يشبه الجنون. فارتفع التكبير، وعلت الزغاريد مترافقة بدموع الفرح.. وهناك من راح يسجد شكراً لله، ويبارك هذا النصر، فحلب قامت والنظام على وشك السقوط. انتهت المظاهرة وعاد الجميع ليتابع أخبار تلك الجمعة وتحديداً الأخبار الآتية من حلب، ليتلقوا الصدمة الكبرى بأن لا شيء يستحق الذكر قد حدث، وبأن الخبر السابق كان مجرد إشاعة ساهم في نشرها تعطّش الشعب للنصر والحرية، والشوق الكبير لدى كل المدن لمشاركة الشقيقة الكبرى حلب..!

هذه القصة حمّلتني الكثير من الهمّ والمسؤولية، لكني كنت أظن أننا نقوم ما بوسعنا لتنضم هذه المدينة للثورة، إلا أنني كنت على يقين أن من سيدفع حلب للانتفاضة ليس نحن، فليس لدينا ذلك التأثير والشعبية، ومن كان يملك نوعاً من التأثير على سكان المدينة من كبرى العائلات وشيوخ الدين أو الفنانين أو شخصيات اجتماعية لا يبدو أنهم يبالون بما يجري في البلد، وربما استطاع النظام تدجينهم، إذ لا يوجد بينهم من يحاول المخاطرة والإفلات من قبضته.

أخبرت ذلك الشاب بأن حلب لن تقوم بكبسة زر، بل ستمر بمراحل كثيرة، حتى تنمو ثورتها وتشتد وتساند بشكل حقيقي بقية المدن. لم أكن أريد أن أخيب أمله لكن كان عليّ الإقرار بأن حلب لن تثور في المدى المنظور، وعليهم في هذا الوقت المضي قدماً، وبإذن الله سيجدونها إلى جانبهم في الوقت المناسب.

قبل البركان

على شبكات الثورة وصفحاتها بدأنا نشهد إعلانا عن يومٍ حاسم في حلب أطلق عليه اسم بركان حلب. لم نهتم بداية لتلك الدعوات التي كانت تأتي عادةً من صفحات الثورة على مواقع التواصل الاجتماعي، لاستحالة القيام بمظاهرة معلنة في حلب، لأننا ببساطة سنجد قوات الأمن والشبيحة أمامنا. لكن شيئاً فشيئاً بدأت تأخذ هذه الدعوة نوعا من الجدية وراح الحديث عنها يتواصل وينتشر إلى صفحات الثورة كافة حتى وصل إلى صفحة الثورة السورية وشبكة شام، والكثير بدأ يتوعد بمليونية حلب التي سيفجرها ذلك البركان. الموعد المنتظر كان يوم الخميس الثلاثين من حزيران. بدأت الدعوة لهذا اليوم قبل شهر بشكل بسيط ومقتضب ليصبح تدريجياً حديث كل الناشطين والثوار في حلب وخارجها.

بالنسبة لي لم أنتظر الكثير من هذا البركان، فأنا على الأرض وأعرف الواقع ويستحيل خروج مليونية أو حتى ألفية في حلب ذلك الوقت، لكن الكلام الكثير عن هذا اليوم دعاني بعض الشيء للتفاؤل أو ربما للتساؤل عن شيء ما يجري التحضير له ربما يعاكس توقعاتي، فهذه الثورة قد انفجرت أصلاً مخالفة لكل توقعاتنا. تمنيت أن يكون ما أتوقعه مجرد تشاؤم يرسخ فينا زمن الاحتلال الأسدي.

لم أعرف على وجه التحديد ماذا سيجري ذلك اليوم، هل هناك من ينظم لهذا الحدث على الأرض؟ أم إنّ الموضوع تُرك للانتفاضة الشعبية العفوية التي لم أجد أيّ مقوّم من مقوماتها. لم أر بين أصدقائي ممن ينشطون في الثورة أي دليل على تحضيرات لهذا اليوم، بل اقتصر الأمر على دعوات على شبكات الثورة وإعلامها. كانت أكبر نقاط ضعفنا في حلب أن الجميع ينتظر تنظيم المظاهرة للمشاركة بها دون أن يجرؤ غالبيتنا، وأنا منهم، على تنظيم مظاهرة ما، والدعوة لها بين أصدقائه ورفاقه. نقطة الضعف هذه لم تتدارك وقت الدعوة إلى بركان حلب، وهذا أبرز سبب لعدم التفاؤل لما سيجري ذلك

الخميس. مخاوفي نقلتها لأسامة الذي حاول على شبكته كما باقي الشبكات تكثيف الدعوة لهذا اليوم. "أنت متأكد أنو في بركان رح ينفجر بكرا؟" أجاب بالإيجاب وأكد أن التحضيرات قائمة على قدمٍ وساق، وبأن أعداداً كبيرة من أهل ريف حلب قد وصلوا المدينة للمشاركة.

لم يكن لدينا سوى تحضير أنفسنا معنوياً للمشاركة بأي حدث سيجري ذلك اليوم، فلا دعوة لمظاهرة وجهت لنا من أحد الأصدقاء ولا خبر وصلنا عن تحضير عمل ما يجري على الأرض. فقط حدد أماكن ثلاثة على شبكات النت للتجمع فيها ومن المرجح أن تخرج المظاهرات فيها أو منها ذلك اليوم، وهي ساحة الجامعة ودوار باب الحديد، ومكان آخر ضاع في مكان ما من ذاكرتي في تمام الساعة الثانية والنصف بعد الظهر. الأمر الذي لم يكن يحتاج لكثير من الخبرة لنعرف أن قوات الأمن والشبيحة ستبيت ليلتها في تلك الأماكن.

كان البركان يمثل الفرصة الأخيرة لحلب للحاق بركب الثورة بالنسبة للكثير من الناشطين، وفي حال فوتت الفرصة فستثبت على المدينة تهمة تأييد النظام المجرم، والتخلي عن أخواتها المنتفضات، وهذا أكثر ما أثار قلقي من هذا البركان الذي لم نعرف على وجه التحديد من دعا إليه، إلا أنّه قيل لنا إن ناشطين من داخل المدينة هم الذين أصروا على هذا البركان رغبة منهم في تكثيف عمل الناشطين، وتركيز الإعلام على حلب بغية الدفع بالحراك إلى مراحل متقدمة.

أنهيت امتحانات الفصل الثاني من السنة الثالثة لكلية الحقوق في التاسع والعشرين من شهر حزيران أي قبل يوم واحد من البركان.

كانت دراستنا وامتحاناتنا أكثر ما تضرر، فكنا ندرس بالحد الأدنى الذي يكفل عدم رسوبنا في كلياتنا، وكثيراً منا لم يستطع الترفّع ذلك العام بسبب الانشغال الدائم بالثورة. كنا متأكدين أن أي شهادة جامعية لن يكون لها قيمة في ظل هذا النظام. كان الحديث يتركّز على بركان حلب بين الطلاب وعن الرغبة الكبيرة في المشاركة، فجميع المتحمسين للثورة أعدوا العدّة ليوم حاسم في ساحة الجامعة. الشعور بانتهاء الامتحانات يعطينا الكثير من الراحة، في الحالة الطبيعية، إلا أنه هذه المرة أكثر راحة والحرية مضاعفة إذ خفف عني الكثير من ضغط الأهل ورقابتهم.

مساء ذلك اليوم دعانا ماهر للمشاركة بمظاهرة في منطقة السليمانية/رعاية الشباب. من يعرف تلك المنطقة يعلم جيداً أنها لا تبعد سوى بضع مئات من الأمتار عن فرع الأمن السياسي، ما يجعل المهمة غاية في الصعوبة، لكن في ذلك الوقت لم يكن لدينا وقت للتذمر بعد أن فشلت دعوات كثيرة للتظاهر في أماكن أخرى، وخصوصاً أنه علينا ألا ندع الأمن يخلد للراحة قبل خميس البركان.

اجتمعت بماهر وزكريا وأبي عدنان لننطلق بالسوزوكي، إضافة إلى بشار الذي انضم إلى المتظاهرين بعد عودته من تجربة عمل فاشلة في السعودية، والذي كان بالأمس القريب من غير المهتمين أو المتحمسين لهذه الثورة. انطلق الموكب بعد الغروب باتجاه المكان المحدد، يحملنا شعور بالراحة بعد انتهاء الامتحانات، وتلفنا الإثارة من هذه المغامرة التي كنا نتجه إليها قبل يوم غد المنتظر. وصلنا إلى منطقة رعاية الشباب ووقفنا في شارع يمتد ليشكل سوقاً طويلة من المحلات التجارية. السليمانية كانت ذات أغلبية مسيحية كما نعرف، ولا أدري إذا كان لهذا العامل دور في تحديد مكان المظاهرة. بدأنا بالمشي حول المكان الذي ستنطلق منه المظاهرة بمجموعات تضم كل واحدة شخصين بانتظار الساعة الحاسمة.

سادت لحظات الترقب والخوف ذاتها التي اعتدنا عليها قبل كل مظاهرة، إلى أن بدأ صوت يصدح بالتكبير في وسط شارع يبعد عنا حوالي الثلاثين متراً. بدأنا بالجري للمكان المطلوب فوجدنا حوالي خمسة عشر شخصاً بعد انضمامنا إليهم يتظاهرون وسط الشارع. توقفت السيارات خلفنا، والناس أوقفوا كل ما كانوا يقومون به ليشاهدوا هذا المشهد الفريد. شخص ما كان يهتف بالمقدمة ونحن نهتف خلفه بكل جوارحنا: "إسلام ومسيحية وحدتنا وطنية" "يا بشار لا برا سورية بتبقى حرة" لاحظت "أبو عدنان" وبشار إلى جانبي يهتفان بحماس لافت، تذكرت قبل أن تبدأ الثورة كيف كانوا يحذروننا من هذه الحماقة التي سنقدم عليها، وهاهم معنا يقومون بذات الحماقة. تحولنا إلى الهتاف الذي كنّا نحلم به منذ زمن بعيد "الشعب يريد إسقاط النظام". كانت تلك المرة الأولى التي تصدح به أصواتنا في شوارع حلب رغم أن غيرنا سبقنا إليه منذ زمن بعيد في باقي المدن، وحديثاً في مظاهرات لم

نشارك بها في حلب. المظاهرة استغرقت أقل من دقيقة دون أي زيادة في العدد، فلا أعتقد أن عددنا تجاوز العشرين شخصاً.. ما جعلني أفكر بالإحراج الكبير والموقف المضحك الذي نحن فيه، فما كنا نقوم به انتحار..! فكل من يقف في وسط الشارع عرفت ملامحه بطريقة لا تقبل اللبس، ويبدو أننا في طريقنا جميعاً إلى الاعتقال.

صوت ما جاء من خلفنا يظهر صاحبه حانقا، ويبدو أن الهجوم المعتاد على المظاهرة قد بدأ. لم نكن نملك وقتاً للالتفات بعد سماع الصوت لمعرفة من كان يصرخ، أو فيما إذا كان هناك عدد كبير من الشبيحة أو الأمن. بدأنا بالجري بشارع فرعي بسرعة كبيرة، وكأننا في سباق مئة المتر في الألعاب الأولمبية، اعتقدت وبسبب من الخوف الذي لازمني أنه باستطاعتي مواصلة الجري بهذه السرعة إلى منزلي على بعد عدة كيلومترات. ابتعدت عن المظاهرة نحو خمسمئة متر عندما بدأتُ تخفيف سرعتي، والمشي بطريقة هادئة لا تلفت الانتباه محاولاً الابتعاد قدر الإمكان.

كان أمامي كل من ماهر وزكريا يتبعهما بمسافة بعيدة بشار وبعدهم كنت أنا أمشي وحيداً إلى أن وصلنا إلى نقطة بعيدة اجتمعنا فيها، ولم نتمالك أنفسنا فانفجرنا ضاحكين على ما جرى.

لاحظت أن إبهام يدي اليمنى يؤلمني بشدة دون أن أعرف بماذا اصطدمت وأنا أجري. ظننت أنها قد كسرت لكثرة ما شعرت به من ألم، وبسبب تحول لونها إلى الأزرق. قيل لي لاحقاً أن شخصاً واحداً اعتقل! إنه من كان يهتف في مقدمة المظاهرة. لحظات قليلة، بدأنا نسمعِ أصوات سيارات الأمن تتجه مسرعة إلى مكان المظاهرة التي لم أشأ أن أصورها لقلة عددنا الذي كثيراً ما أتذكره وأضحك على موقف أثرنا فيه سخرية وعجب من شاهدونا، أكثر من أن نثير فيهم الرغبة بالانضمام للمظاهرة، إضافة إلى أنها لم تعطنا أي تفاؤل عمّا سيجري يوم الخميس يوم البركان المفترض أن ينقل المدينة من حضن النظام إلى صف المدن المنتفضة.

البركان

الخميس الثلاثون من حزيران لعام 2011 كان اليوم الموعود الذي سنزلزل به حلب، ونجعل عاليها سافلها، ونقلب الطاولة على النظام، ونلحق حلب لتركب قطار الثورة المنطلق بالسرعة القصوى ذلك الوقت. كنت صباح ذلك اليوم غاية في الحماس ليومٍ كنت متأكداً أني لن أنساه أبداً وسيكون أحد الأيام المشهودة في ثورة حلب. كنت متفائلاً جداً بعد أن رميت خلف ظهري كل التكهنات والتوقعات والتحليلات حول هذا البركان، فلا مجال في الأيام الحاسمة إلا للتفاؤل. كان عليّ أن أجهز سلسلة متناسقة ومتصلة من الأكاذيب تبرر غيابي عن المنزل ليومٍ كامل، فالبركان سيبدأ ظهراً لكن بالتأكيد لن ينتهي ظهراً. أخبرت أبي قبل يوم أننا سنقضي يومنا في قرية ماهر الذي دعانا لنقضي اليوم عنده مع بقية الشلة بعد انتهاء شهر الامتحانات الطويل. أبي أراد أن يأخذني إلى القرية ذلك اليوم لسماعه بعض الكلام حول البركان من هنا وهناك، لكن حجتي كانت مقنعة بالنسبة له.

حوالي الساعة الواحدة ظهراً ركبت الباص واتجهت نحو الجامعة، حيث كان ينتظرني هناك مجموعة من الأصدقاء على رأسهم ماهر وزكريا بالإضافة إلى مجد الذي رافقنا أول أيام الثورة إلى استاد حلب الدولي. اجتمعنا داخل الجامعة، وبدأنا الحديث عن الأخبار والتوقعات. كنت على اتصال مع غالبية أصدقائي وخصوصاً أسامة عن طريق الموبايل لنقل الأخبار أولاً بأول عمّا يجري في ساحة الجامعة وعمّا يجري في المناطق الأخرى. في تمام الساعة الثانية توجهنا إلى ساحة الجامعة التي لم يكن فيها ما يوحي بشيء غريب سوى كثافة قوات الأمن.

كانت ساحة الجامعة تغص بعناصر الأمن من الفروع كافة، العسكري والجوي والسياسي وأمن الدولة والشرطة والنجدة وكتيبة حفظ النظام وعدد كبير من الشبيحة، ولاحظت توقف سيارة إطفاء بالقرب من مدخل الساحة، وكذلك كان هناك حافلة صغيرة تقلّ عدداً من عناصر الأمن النسائي لم أرهم

من قبل ولا بعد هذه المظاهرة. وقفنا نتأمل وجوه بعضنا بعضاً، بانتظار اللحظة الحاسمة التي بدأت تقترب شيئاً فشيئاً، والأعداد الكبيرة من الناس بدأت تتوافد إلى الساحة من الجهات كافة. وبدا واضحاً أنّ الازدحام كان يزداد كلما اقتربت الساعة من الثانية والنصف.

مع حلول الموعد المرتقب بدت ساحة الجامعة تغصّ بالطلاب، وغير الطلاب ممن استجابوا لدعوة البركان، إضافة إلى الأعداد الكبيرة من الأمن والشبيحة. على المسنجر قال لي أسامة:

إنّ مظاهرة خرجت في سيف الدولة، وفي مكان آخر ما زاد نسبة التوتر ارتفاعاً، وخصوصاً بعد رؤيتنا لسيارة شرطة تنطلق بسرعة كبيرة من الساحة إلى مكان ما. كان أكبر تجمع أمام كلية الهندسة الكهربائية ما دفعنا للاقتراب منهم فوضعهم لافت.

وقفت على الرصيف المثلث حيث يفصل بيننا شارع واحد عندما رأيت أحد ضباط الشرطة، أظن أنه كان برتبة عميد يطلب من الطلاب المتجمعين بالتفرق فوراً.

تحرك الطلاب على مهل باتجاه شارع أودونيس المجاور. راقبتهم وهم يتوجهون إلى ذلك الشارع وعندما وصلوا إلى بدايته، ولم يتجاوزوا بمشيهم عشر الخطوات بدأ التكبير. لم يكن لدي سوى ثوان لأخبر أسامة ببدء المظاهرة، لكن يدي اليمنى التي استخدمها للكتابة كانت تؤلمني بعد ليلة أمس وبدت لي كلمة "بلّشتْ" في غاية الصعوبة والتعقيد. في الثواني ذاتها، مرّ أمامي طيف سريع لزكريا الذي استطعت تمييز بلوزته البيضاء، وخلفه جرى الخليط الموجود إلى نفس المكان، المتظاهرون والشبيحة وعناصر الأمن اتجهوا إلى مكان التكبير. ضاعت "الطاسة" ولم أعرف ماذا جرى في ذلك الشارع. حاولت اللحاق بالمتظاهرين عندما فوجئت بوجود خمسمئة ليرة سورية على الأرض. حملتها ووضعتها في جيبي لأجد على الفور خمسمئة ليرة أخرى لحقت أختها إلى نفس الجيب. لم أعرف هل وقعت من أحد المتظاهرين، أم إنّها كانت أجرة أحد الشبيحة. إلا أني في كل الأحوال لم أخبر أحداً بهذا الأمر سوى أصدقائي المقربين، فلم يكن ينقصنا تُهم العمالة لأعداء الوطن، والتظاهر مقابل مبالغ من المال أو صندويشات الفلافل.

تركت اللحاق بالشباب إلى شارع أودونيس عندما رأيت عدداً من الشبيحة يجرّون أحد الطلاب وينهالون عليه بالضرب المبرح، والشتم الذي، كالعادة، طال ربِ العباد، ويسوقونه باتجاه الجهة الأخرى من ساحة الجامعة حيث توجد سيارات الشرطة. لم أستطع مشاهدة ما يجري دون أن أصوره، فأخرجت موبايلي وبدأت بالتصوير لعلي أستطيع التقاط بعض المقاطع الهامة للبث على مواقع الثورة. تجمّع المزيد من الشبيحة لضرب الشاب بأقدامهم وأيديهم، وأحدهم وهو رجل أربعيني حمل عصا غليظة وبدأ ينهال على رأس الشاب، الذي غاب عن الوعي وتضرج بدمه ولم أستغرب أن يسقط شهيداً في تلك اللحظة. وُضع الشاب في سيارة الشرطة التي كانت منجاة له من ضربات الشبيحة. لم تمر عشر ثوان وأنا أسير بالاتجاه المعاكس لأعرف ما جرى في المظاهرة أو محاولة التظاهر، حتى رأيت مشهداً مماثلاً لشاب آخر يتلقى من الأشخاص أنفسهم ضربات وإهانات ولكلمات. عدد كبير من الشبيحة كان موجوداً ومشاركاً بالقمع. لازلت أذكر وجوه الكثير منهم، وخصوصاً شبيحاً شاباً في العشرينيات من عمره، يرتدي قميص ريال مدريد الأسود رقم سبعة الخاص بكرستيانو رونالدو. بينما لم ألحظ أي عنصر أمن يضرب أو يعتدي على أحد المتظاهرين الذين بدؤوا يساقون إلى سيارات الشرطة واحداً تلو الآخر حتى غصت بهم سيارات الشرطة والأمن.

اتجهت باتجاه شارع أودونيس لأعرف ما جرى هناك أو لأحصل على مقطع فيديو يمكن أن يبث على القنوات الإخبارية ويكون بذلك أفضل مساعدة لهؤلاء الشبان الذين تم الاعتداء عليهم بطريقة العصور الوسطى في العالم، والعصر الحديث في سورية الأسد، دون أن يجرؤ أحد، وأنا منهم، على إظهار أيٍ بادرة أو كلمة تعاطف كانت كفيلة بوضعنا معهم في الموقع والموقف نفسهما. الجدير بالذكر، ولمصداقية ما أنقله، أشير إلى أنني رأيت العقيد "حسن جيرود" رئيس كتيبة حفظ النظام يصرخ على عناصره لمنع الشبيحة من ضرب أيٍ طالب أو أحد المعتقلين.

بعد أن قام الشبيحة بمهامهم الحيوانية، بدؤوا بتنظيم مسيرة تأييد لرأس النظام حاملين صوره وأعلامه إضافة للعصي التي كانوا يستخدمونها في عمليات القمع. واصلت المسير في الشارع وسط الزحام الكبير. لا يحتاج المرء

الكثير من التمحيص ليعرف أن ما جاء بهذا العدد الكبير من الناس هو المشاركة في مظاهرة محتملة. شاهدت كيف كدس عناصر الأمن والشبيحة عدداً من المعتقلين في سيارة الشرطة، وعندما قام أحدهم بإغلاق الباب أطبق على يده، فعلقت في السيارة التي راحت تجره خلفها بينما راح هو يصرخ من الألم، ضحكت كثيراً على ذلك الشبيح الذي نال ما يستحق، فعندما تحركت السيارة في البداية لم يغلق بابها الخلفي، ما كان يسمح للمعتقلين بالهروب لكنه صرخ ليوقفها، ويقوم بإحكام إغلاق الباب. كان الشبيحة في ظل تلك الظروف يراقبون شرفات المنازل وأسطحها، ليقوموا بالهجوم كالكلاب المسعورة على كل من كان يحمل جهاز تصوير، وهذا ما حدث لشخص كان يجلس في مطعم "شهبا روز" المقابل لساحة الجامعة، ولآخر كان يقف على إحدى الشرفات.

في الشارع المقابل لنزلة أودونيس بالقرب من كلية الهندسة المدنية رأيت بعض عناصر الأمن يجرون أحد المعتقلين، الأمر الذي بدا لي مشهداً مهماً وسهلاً للتصوير، فاقتربت من مكانهم وبدأت التسجيل.. إذ لاح لي معتقل آخر يجره عناصر الأمن محاولين وضعه في سيارة الأمن، ومنع الشبيحة الذين تجمعوا لضربه من الوصول إليه. في تلك اللحظة نزلت الصاعقة التي لم أكن أتوقع حصولها، وهي أن المعتقل الذي كنت أصوره لم يكن سوى زكريا.

شهقت شهقة المذهول والمفجوع. ومازلت أسمع تلك الشهقة كلما شاهدت مقطع الفيديو الذي كنت أصوره. أوقفت التسجيل، وجريت باتجاه زكريا الذي وضع في سيارة بيجو ستيشن سوداء اللون أظنها تتبع لفرع الأمن السياسي مع عدد كبير من المعتقلين، وقد حشروا في القسم الخلفي من السيارة بينما لم يعد هناك مكان لزكريا، فأجلسوه بين عناصر الأمن في المقعد الخلفي. بدأت أحاول يائساً أن أقنعهم أن زكريا لم يكن في المظاهرة إنما وُجد هناك بالمصادفة، وعليهم تركه، لكن لم يبدُ أن شكلي وكلماتي لفتت انتباه أحد من العناصر. ذهبت للجهة المقابلة وانخفضت قليلاً لجعل زكريا يعرف أني قد رأيته. مازلت أذكر تلك النظرة التي لم أرها طوال حياتي على وجهه وعينيه. كانت مزيجاً من الغضب والندم والرعب، أعطتني الانطباع أنها ستكون النظرة الأخيرة، وأني لن أشاهد هذا الوجه مرة أخرى في حياتي.

ابن العم الذي ذهبنا إلى المظاهرات كلها معاً، لم يغب عن مظاهرة كنت فيها، ولم أغب عن أي مظاهرة كان فيها، إضافة إلى الوقت الطويل الذي كنا نقضيه معاً، فهو إضافة إلى كونه ابن عمي كان زميلي في كلية الحقوق وجاري في الحارة حيث يسكن على بعد ثلاثين متراً من منزلي. انطلقت السيارة وجلست إلى الرصيف لأفكر بهذه المصيبة التي نزلت بنا نحن، وأقصد هنا أنا وفادي بقدر ما نزلت بزكريا، الذي لا يعرف أحد تحت أي أرض سيبيت اليوم.

عدت أدراجي باتجاه ساحة الجامعة حاملا جبالا من الهموم ودوامات من الأفكار حول هذه المصيبة غير المتوقعة، رغم أننا في كل المظاهرات التي خرجنا بها كان احتمال الاعتقال فيها كبيرا. قمت بالاتصال بماهر ومجد لأطلب منهم عدم الاتصال بموبايل زكريا لأنه وقع في قبضة الأمن. صدمتهم الكبيرة دلّت عليها كلمات ماهر وأسئلته عبر الهاتف. على الطريق شاهدت فادياً وأحد أصدقائه فأخبرته بما جرى وقرأت في عينيه كلاماً ومخاوف هي ذاتها التي كانت تدور في خلدي. حكيت لهم تفاصيل الاعتقال، ونقلت لهم استغرابي الشديد لاعتقاله بعد ربع ساعة من انتهاء المظاهرة التي سارت بعدد قليل في شارع أودونيس. لم أعرف ماذا أفعل وهل علي إخبار أحد ما ليفعل شيئاً لمساعدته. طلب ماهر مني أن أبلغ أحد الأقارب ليقوموا بما يستطيعون لمساعدته. رفضت مطلقا هذا الأمر كي لا ينقطع حبل الكذب الطويل الذي لازلت أتشبث به، فأنا خارج مدينة حلب كما قلت لأبي. كان القرار أن يتكلم مجد مع أحد الأعمام. طلب مجد الرقم، وأبلغ عمي أنه صديق زكريا الذي تم اعتقاله عن طريق الخطأ عندما كان يبحث عن علامة إحدى مواده في الجامعة. غضب عمي جدا لما سمع وبدأ بالصراخ والتوبيخ لمجد، وصفنا بالأولاد القليلي المسؤولية والمتهورين والأغبياء وقال "خليه بركي بيتربى مزبوط" ويقصد بذلك التعذيب الذي من البديهي أنه سيتعرض له.

لم يكن لدي شك بأن أقاربنا لن يدخروا جهداً لمعرفة مصيره وإطلاق سراحه، لكن ستكون لدينا الآن مواجهات ساخنة، وحروب كلامية طاحنة مع الكثيرين، بعد اعتقال زكريا، بالتأكيد سيصبح اللعب على المكشوف. توجهنا إلى المنزل حيث وجدت فادياً وحيداً، فأبي توجه إلى الأقارب، لم يكن لدينا سوى الانتظار لعله يأتينا خبر عن زكريا الذي أصبح محور اهتمام العائلة

والقرية بأكملها. فاعتقال زكريا في مظاهرة كان صادماً لأهل القرية جميعاً. فذلك الجزء من العائلة الذي يشكله أعمامي يتميز بأن الغالبية الساحقة من أفراده عاملون في الدولة، وبينهم ضباط في الجيش، وتحديداً عمي أحمد والد زكريا العميد الركن، فكيف يجرؤ هؤلاء على معارضة النظام أو الدولة كما ظلوا دائماً يرددون.

الكثير من أقاربنا وقفوا إلى جانب النظام في مواجهة الثورة، فأظهروا التأييد له، والتعاطف مع رموزه، لكن دون أن تصل بهم الحماقة إلى حمل السلاح تشبيحاً له. كان ذلك خطأ ارتكبته عائلات كثيرة في حلب وريفها، ونالت الجزاء القاسي عليه. كان هناك حالة من الغضب تسود أجواء العائلة بعد أن سوّد الشاب تاريخها ناصع البياض تجاه "الدولة". لا أريد أن أخرج عن الموضوع الأساسي لكن أريد أن يعرف الجميع أنّ اقتراف زكريا بما نجم عنه، يعدُّ جرماً شائناً يجلب العار وخراب الديار، ولا يستطيع أحد منهم تبرير ما قام به دون أنْ يرميه بشيء باطل، فهو إما مجنون أو مضحوك منه، ولعلّه قبض مبلغاً من المال ليقوم بذلك. كنا نحن في واد وهم في واد آخر، نحن في زمن، وهم في زمن آخر.

عاد أبي من الاجتماع دون أن يحمل خبراً عن زكريا ودون أن يعلم، حتى الآن، أني كنت معه لحظة اعتقاله، الأمر الذي خفّف توتري قليلاً، لكن مصير زكريا كان لا يزال يشغل بال الجميع. كانت الهواتف الأرضية والخلوية لا تتوقف بحثاً عن خبر يبرّد الصدور. الكل لديه مئات الأسئلة وعشرات التحليلات والتأويلات والنظريات، إضافة إلى ما يبدونه من تعاطف مع عمي وزوجته في هذا الموقف. عاد أبي للاجتماع في بيت عمي أحمد، وجاء الأصدقاء إليّ ينتظرون خبراً عن زكريا. كنت أعاود الاتصال بأبي كل فترة، لعله يبلغني خبراً ما يريحنا مما نحن فيه ولا يزيد حجم المشكلة في حال تعقّد أمور زكريا داخل فروع الأمن.

الجواب جاء حوالي العاشرة ليلاً حين أبلغني أبي أن زكريا في فرع الأمن الجنائي الذي يعد أقل الفروع خطراً على المعتقل، وطلب مني أن أحضّر نفسي وفادي للسفر إلى القرية. أحسست بأن العائلة تعتقلني، وسأحجز أنا وفادي هناك، فلا وجود لمظاهرات أو ما يوجع الرأس.. لم يكن لدي خيار، لكنني

بدأت أشعر بالحسد لما جرى لزكريا، سيسجل له التاريخ الآن أنه كان معتقلاً وأسيراً لدى قوات النظام، وسيفتخر بهذا الأمر طويلاً هو وأبناؤه. الجميع يرى أن الخسارة كبيرة إلا أنا..

كنت أرى الخسائر والمكاسب لا تقاس بشهر أو شهرين. كنت أظن أن أي شخص شارك في الثورة على النظام في تلك الفترة رابحاً. قد لا يرى بعضهم هذا الأمر من المكاسب، أو يعده جنوناً، إلا أنها أشياء لا تشترى كما قال أمل دنقل. بالتأكيد هو شعور مرّ سريعاً في لحظة عاطفية، فلا أحد في العالم يرغب في زيارة أي فرع من فروع الأمن في سورية ذلك الوقت.

ما جرى ذلك اليوم أنسانا، لبعض الوقت، بركان حلب وما حدث فيه، فهل انفجر البركان وعمّت حممه مدينة حلب؟! لا يبدو الأمر كذلك. لم تخرج في ذلك الوقت إلا تلك المظاهرة الصغيرة في جامعة حلب ومظاهرة أخرى في باب النصر وثالثة في المشارقة، إضافة إلى مظاهرة كانت الأكثر نجاحاً لحد ذلك الوقت في حلب وريفها جرت مساءً في منطقة الجميلية إذ وصلت الأعداد فيها لأكثر من ألف متظاهر. لم يكن لها ذلك الصدى الذي انتظره الجميع من البركان الذي لم ينفجر فعلياً إلاّ على قنوات الأخبار. فشكّل ذلك مزيداً من الإحباط وصدمة أخرى لباقي المدن، ففوتت ذلك اليوم حلب رسمياً آخر فرصة لها للانضمام للثورة. فبدلاً من أن يكون يوم البركان هو اليوم الحاسم الذي ستعلن فيه حلب ثورتها على النظام، منتقلة إلى صف الثوار. كان البركان تكريساً لموقفها البعيد كلياً عن الثورة، إذ توقفت المظاهرات التي كانت تخرج بشكل متزايد قبله.

بسبب هذا الكم الكبير من الإحباط، باتت التهمة التي رميت بها حلب ثابتة لا تقبل الشك، إذ ازداد الحنق على أهلها، وتراجعت ثورتها ذلك الشهر خطوات كثيرة، وتفاخر النظام ومؤيدوه وإعلامه بذلك النصر، وتلك اللطمة التي تلقيناها.

في القرية كسر اعتقال زكريا حاجز الصمت لدى الجميع، إذ أُصبح للنقاشات صوت يرتفع، وبدأ الجميع يتخذ موقفاً مما قام به زكريا، ومما كان يجري في البلد، بعد أنْ كان هذا الأمر لا يعنيهم إلا كما كان يعنيهم أي حدث في إفريقيا أو أمريكا الجنوبية. فالغالبية رأت أنّ ما نقوم به حماقة لا يعرف

أحد عواقبها، ويجب أن يوضع لنا حد قبل أن يتفاقم الأمر ونجرّ على القرية والعائلة ما لا يستطيع أحد دفعه. بالمقابل كان هناك عدد قليل يعدّون اعتقال زكريا شيئاً يفاخر به أمام الناس، فعائلتنا الآن رسميا مشاركةً بها، ولدينا الآن معتقل في سجون النظام، وشارك مشاركة فعالة بالثورة. مع مرور الوقت راح كل طرف يتمسك برأيه ويرسّخ قناعاته إلى أن أصبح الجو دائم التوتر بسبب النقاشات التي لا تنتهي حول الثورة، فلا يكاد أحدٌ يتحدث بموضوع ما حتى يتحول تلقائياً إلى الثورة وأخبارها وتبعاتها. حاولت كثيراً التهرب من هذه النقاشات لأني كنت دائم التطرف لصالح الثورة، ولأن الحجج والشهادات كثيرة لديّ ولا أحد يصمد أمامها، فقد كنت موجوداً في غالبية الأحداث القليلة التي جرت في حلب، وأستطيع إنكار كل ما يدور من ترهات وأكاذيب يتناقلها الناس والمؤيدون خصوصاً، لا همّ لهم فيها إلا تشويه الثورة الطاهرة والمحقّة بكل المقاييس. كل هذا دفع الكثير منهم للتقليل من حدة الدفاع عن النظام، والتحول إلى لهجة الناصح والعارف ببواطن الأمور، فأصبحوا يؤكدون عدم دفاعهم عن النظام، وتأييدهم له، لكنهم يخشون بطشه، فهو لن يرحم لا المذنب ولا البريء. في العموم لم أكن أطلب من أهل القرية أي شيء قد يجر عليهم الويلات التي لا طاقة لقرية بحجم قريتي بها، لكن كنت أطلب منهم قول كلمة الحق لا غير، فلا أحد لا يعرف أنّ ما يأتينا من أخبار يصرون على إنكارها من باقي المدن، هو أقل ما يمكن أن يقوم به النظام إذا تجاوز أحدهم سقف الوطن.

علمنا بعد فترة قصيرة أنَّ زكريا نُقل إلى سجن حلب المركزي، ريثما ينظر قاضي التحقيق بأمره. يعد الوضع في السجن المركزي ممتازاً مقارنة بفرع الأمن الجنائي، وبقية فروع الأمن، ومجرد نقل المتهمين بالتظاهر إليه يشكل نصراً كبيراً حققته الثورة السورية، فاستمرار الثورة في غالبية المدن السورية أجبر النظام على التنازل والتعامل مع المتظاهرين بطريقة مختلفة عن السابق. طريقة تعد سيئة ومزرية وتنتهك كل حقوق الإنسان لا شك في ذلك، إلا أنها بالمقارنة مع كيفية التعامل مع المعتقلين بمثل هذه التهم التي تمس النظام، تعد طريقة ممتازة ويحسدنا عليها كل معتقلي الرأي والسياسة في البلد قبل الثورة.

كان استمرار الثورة في المدن السورية يشكل حماية كبيرة للمعتقلين في الداخل، بالإضافة إلى أن النظام كان يعامل المعتقلين من سكان حلب وريفها معاملة خاصة تضمن عدم حدوث ردة فعل ضده في هذه المدينة، فتجاوز بذلك الحماقات الكبرى التي ارتكبها في باقي المدن بعناده وغطرسته التي قلبت الغالبية الكبرى من مؤيديه ضده.

في بداية الأمر بدا أن زكريا سيخرج بسرعة كونه سيق إلى فرع الأمن الجنائي مباشرة، ومن الوعود التي كانت تقطع على من يتابع وضعه من أقاربنا، فكلٌّ يوم كنا نُوعد بخروجه قريباً، لكن "القريباً" هذه لم تكن تحمل موعداً محدداً. بعد معرفتنا مصير زكريا الذي لن يطول بقاؤه في السجن، كان أكثر ما يؤرقنا هو موقف المخابرات من عمي أحمد العميد في جيش النظام. كانت الرقابة على ضباط الجيش مضاعفة عن المواطن العادي، وعند أيِّ شك بولاء أحد الضباط أو الجنود كان التعامل معه بحزم كبير. استدعي والد زكريا للتحقيق في فرع المخابرات الجوية حول اعتقال ابنه في مظاهرة مناهضة للنظام. أظن أن عمي أكد لهم أنّ ابنه قد اعتقل عن طريق الخطأ، وأنه لا يمكن أن يقوم بمثل هذا العمل، وأظن كذلك أن قوات الأمن كانت تصدق هذا الأمر كوننا من محافظة حلب. فهذه المدينة كانت تحمل الولاء للنظام، هي وأهلها، في ذلك الوقت. كان كل هذا مجرد ظنون عمّا جرى في التحقيق فلم أجرؤ أن أسأل عمي، وخصوصاً أني كنت أشعر بأني أتحمل كبير المسؤولية عن هذا الموقف المحرج للعم مع ابنه زكريا.

الجميع أكد أن عمي أصبح من الضباط المشكوك بأمرهم، ووُضع بجانب اسمه إشارة تمنع عنه أيّ ترفيع أو ترقية في المناصب والامتيازات.

عموماً كان هناك غضب كبير بسبب الحماقة التي ارتكبناها دون أن نحسب عواقبها، فالعائلة بكاملها سوف تتدهور سمعتها لدى النظام، وإلى آخر هذه الترهات. بالنسبة لي كان الوضع منتهياً والنظام ساقط لا محالة، وأنّ أيّ شخص كان يعوّل على بقائه يراهن على فرس خاسرة، وأنّ زمننا زمن الثورة والحرية لا زمن المناصب والفساد الذي ولى إلى غير رجعة مع أوّل صرخة في شوارع الحميدية في دمشق منتصف شهر آذار.

أطلق سراح زكريا بعد سبعة عشر يوماً من اعتقاله بقرار من قاضي

التحقيق، الذي أفرج عنه مقابل كفالة مالية قدرها خمسمئة ليرة، فأصبح بذلك حسب أحد الأصدقاء ثائراً حقيقياً فهو أحد أسرى الحرية، كما أسميت إحدى الجمع تقديراً لتضحياتهم. بالنسبة لي كان اعتقال زكريا خسارة كبيرة، إذ فقد أبي ثقته بي بعد أن عرف أني كنت معه لحظة اعتقاله، وأنا سبق وادعيت لأكثر من يوم أني خارج حلب عند أحد الأصدقاء، فأصبحتُ بعد كل ذلك بحاجة إلى سبب مقنع لكل خروج من المنزل. فما إن أفتح باب البيت وأخرج فأنا بالتأكيد ذاهب إلى مظاهرة بالنسبة إلى أبي، فلم أعد أستطيع أن أبقى لفترات طويلة خارج المنزل، وفرضت رقابة كبيرة على تحركاتي، وصار هاتفي يرن كل خمس دقائق عندما أكون خارج المنزل، والمكان الوحيد الذي كنت أستطيع الذهاب إليه هو القرية حيث كانت معزولة بالكامل عن كل ما يجري في البلد، وتشكل مكاناً آمناً ومنأى عن أي تحركات ثورية قد نشارك بها. لم يكن بمقدوري سوى الرضوخ لهذه الرقابة وعدم التصعيد مع الأهل بانتظار تطور الأحداث في حلب أكثر من ذلك.

الجيش السوري

مع انتشار الثورة واشتداد عودها في مختلف المناطق، فقدت الأجهزة الأمنية السيطرة على الكثير من القرى والمدن السورية، فلم يكن في يد النظام إلا استخدام الجيش المؤسسة الأقوى والمعبأة عقائدياً لضمان الحفاظ على نظام الأسد.

الجيش العربي السوري الذي يستأثر بسبعين بالمئة من موازنة الدولة، في مواجهة أفراد الشعب المنتفض، والذي يشكل أبناؤه عناصر الجيش السوري وضباطه. عندما يقرأ أي واحد هذا الكلام متجرداً من أي موقف مسبق، سوف يعتقد أن هذا الجيش سينزل إلى المدن لحماية السوريين المنتفضين، لكن الأمر يختلف عندما يتعلق الأمر بالجيش السوري. فهذا الجيش الذي جربه السوريون يوماً في حماة عندما قامت مدفعيته على مدى أكثر من شهر ونصف الشهر بقصف عنيف للمناطق السكنية، فقتل من السكان السوريين يومها عدداً لا يستطيع أحد حتى اليوم معرفته بدقة، إلا أنه بالتأكيد يفوق الثلاثين ألفا، ويصر سكان حماة المدينة على أنهم فقدوا ذلك الوقت سبعين ألفا من أبنائهم وبناتهم. كيف جرى ذلك؟ لم أكن قد ولدت يومها، لكن ما رشح لنا من معلومات عن تلك الفترة يكفي لأن يقوم هذا الشعب بألف ثورة وثورة.

الجيش السوري، وعلى مدى أربعين عاماً من حكم الأسد أعدّ لهذا اليوم، الذي سينتفض فيه السوريون. كان ضباط الجيش غالبيتهم من العلويين الموالين للنظام، فلا يترفع على سلم الرتب ليصل إلى المراكز العليا إلا أشخاص مضمونو الولاء، إضافة إلى اختصاص أكثر من جهاز مخابرات كالأمن العسكري والأمن الجوي والشرطة العسكرية بكل ما يتعلق بالجيش من عناصر وضباط فكانوا يخضعون إلى ما يخضع له الشعب السوري من رقابة أمنية، لكنها تكون شديدة التركيز على أفراد الجيش. إذ لا مجال للتهاون بهذا الأمر، فكل من يُشك بعدم ولائه، مصيره الإعدام الميداني أو النفي الأبدي تحت الأرض، وهذا ما جرى مع كل من تعاطف ولو قليلاً مع سكان المدن المُقتحمة.

وإضافة إلى الفساد الذي كان ينتشر في كل مفاصل الدولة ومؤسساتها، كان الفساد مضاعفاً عشرات المرات في الجيش. فموارد الجيش ينهبها بعض ضباطه دونما خجل، حتى إنها لم تعد أمراً معيباً أو مزعجاً لدى الشعب السوري. كما كان الضباط يتلقون مبالغ كبيرة من المجندين وغيرهم مقابل أشياء بسيطة كالإجازة أو نقل العسكري من مكان إلى آخر، إلى أن وصل بهم الحد إلى "تفييش" العساكر الذي ظهر مؤخراً في الجيش، لينتشر ويصبح أمراً عادياً وروتينياً من أمور الخدمة العسكرية. كان العسكري يدفع مبلغاً يختلف من ضابط لآخر ومن موقع لآخر، مقابل أن يقضي فترة خدمته في البيت.

أخطر ما كان يتعرض له العسكري في الجيش الذي تم وصفه بالجيش المقاوم هو تجريده من أي مبادئ أو أخلاق أو قيم كان يحملها قبل أن يلتحق بالخدمة. فكل ما يتعلق بالممارسات الدينية منبوذ، ومكروه وفي غالبية الأحيان كان ممنوعاً. كانت الكلمات البذيئة وعبارات الكفر هي السائدة في الجيش بحيث يشكل غيابها استثناء نادراً ما يحدث، وكأن التطاول على الذات الإلهية أمر عادي جداً. كذلك كانت تعطى مبررات للعسكري للسرقة من زملائه ومن المدنيين بحجج كثيرة وخصوصاً أيام اقتحام المدن.

مع انطلاق الثورة أحيط الجنود بتعتيم إعلامي غير مسبوق، فلم يكد غالبيتهم يعرفون سوى بعض الأكاذيب عن مؤامرة تحاك ضد سورية يقوم بها إرهابيون وإسرائيليون وغيرهم، ويجب على الجيش الاندفاع لحماية البلد من المسلحين الذين انتشروا فيه. رغم أنّ كل ما كان يجري ذلك الوقت مظاهرات تُحمل فيها الورود، واعتصامات سلمية يقوم بها أناس أحبوا بلدهم أكثر من غيرهم، فكان نصيبهم من النظام الحاكم أكثر قمعاً وعنفاً وإجراماً.

هل سيقف هذا الجيش مع النظام بعد كل ما عرفناه عنه؟! كنا بانتظار أوّل اختبار له لنعرف الجواب الذي كان محبطاً للغاية رغم أنه كان متوقعاً للجميع. أعطانا موقف الجيش من النظام الانطباع بأنه سيبقى إلى جانبه حتى آخر عسكري فيه. هذا يعني أنّ ما سوف نعيشه ليس ثورة وردية تجلب هتافاتها عهد الحرية، بل ثورة حمراء ستتجه حتماً إلى السلاح في مرحلة ما من اليأس من جيش النظام.

الجيش السوري اقتحم درعا بعد أقل من شهرين على الثورة واضعاً نصب

عينيه قمعها في مهدها، وضرب رأس الانتفاضة ضربة قاصمة تدفع بقية المدن للتراجع خشية المصير المشابه. حوصرت المدينة وفُصلت عن العالم الخارجي، فلا كهرباء ولا ماء ولا اتصالات. لا أحد عرف يومها ما يجري في درعا البلد، إلا بعض المعلومات البسيطة التي كانت ترشح من هنا وهناك. بدا للجميع أننا على موعد مع حماة أخرى. لكن هذه المرة قطع الشعب السوري الطريق على النظام، فخرجوا بالآلاف يهتفون "بالروح بالدم نفديك يا درعا" وعمت المظاهرات المدن السورية كلّها.

غرق النظام بالحل الأمني، وخيار العنف، بحيث ما إن تعم الثورة في مدينة أو منطقة، حتى تسارع الدبابات والمدرعات وآلاف الجنود والشبيحة لاقتحامها رفقة ماكينة إعلامية لم تكف عن وصف عمليات الجيش في المدن بالبطولية، أتت استجابة لطلبات المواطنين بتخليصهم من المجموعات الإرهابية المسلحة. كان لدى المقتحمين الضوء الأخضر لكي يفعلوا ما يحلوا لهم، فتسابق الجنود لسرقة كل ما تصل أيديهم إليه، فلم يوفروا شيئاً، حتى الملابس الداخلية والستائر سرقوها في بعض الأماكن.

لم ينس الجنود الرقص ابتهاجاً بهذا النصر الذي حققوه على المدن السورية، بينما لا تكاد تبعد كثيراً الحدود السورية عن الأراضي المحتلة في الجولان. كم كان صعباً على الجيل الذي أنتمي إليه أن يرى الدبابات التي دفع الشعب ثمنها تقتحم مدننا وهي ترقص وتهتف لرأس النظام مع الكثير من شركائنا من الشعب السوري للأسف. بينما لم نر أيّاً منها تتوجه باتجاه الأراضي المحتلة، بل إننا لم نسمع يوماً أزيز رصاصة واحدة تتجه باتجاه تلك الحدود. على العموم هذه القصة أصبحت أمراً يومياً ساعة كتابة هذه السطور في بداية شهر تشرين الأول من سنة 2012، ولم يعد يجد أحد أيّ صعوبة في مشاهدة تلك الدبابات بتلك الوضعية.

في صباح يوم الثلاثاء السابع من حزيران ذلك العام، وبعد انصرافي من دوامي في المركز أردت أن أتصفح أخبار الثورة قبل النوم. أول ما وقعت عيني عليه في شبكات الثورة هو خبر انشقاق ضابط من الجيش السوري. كان الخبر موثقا بتسجيل فيديو بطريقة لا تقبل الشك أو التكذيب. ارتجفت الأطراف وتوسعت الحدقة وتسارعت ضربات القلب وطار النعاس. هاهم شرفاء

الجيش وأحراره يقولون كلمتهم ويرفضون بطريقة صريحة وضع الجيش في مواجهة الشعب. قد يكون رجلاً واحداً من بين مئات الآلاف، لكنّ هناك دائماً قطرة أولى تصل إلى الأرض قبل ملايين قطرات المطر.

الملازم أول عبد الرزاق طلاس ابن مدينة الرستن هو أول ضابط أعلن انشقاقه عن الجيش السوري في بيان مصوّر على مدى اثنتي عشرة دقيقة تحدث فيها عن أسباب انشقاقه، وعما عرفه وشاهده من ممارسات النظام في محافظة درعا حيث يخدم هناك، ولم يغفل دعوة زملائه الضباط وصف الضباط والأفراد إلى الانشقاق عن هذا النظام المجرم.

أظن أن هذا الشاب وما قام به في ذلك اليوم يماثل ما قام به يوماً سليمان الحلبي أو يوسف العظمة أو جول جمال وغيرهم من الأبطال الذين عبروا بخطوة واحدة من عالم النكرات إلى عالم العظماء. لا يوجد مسمى لما قام به سوى الانتحار، فلا مصير له إلا الموت في حال وقوعه بين أيدي قوات النظام. خصوصاً إذا عرفنا أنه لم يغادر البلد منذ انشقاقه، وأن الفاتورة التي سيدفعها لن تتوقف عليه، فهو في سبيل موقفه هذا لم ينتحر وحده، بل خاطر بحياة كل أفراد عائلته. لم يكترث عبد الرزاق بالخطر البديهي المحدق به، بل اتخذ الموقف الذي رآه صحيحاً بغض النظر عن عواقبه، فاتحاً بذلك الباب على انشقاقات أخرى في صفوف النظام أسهمت وتيرتها المتزايدة في إضعافه كثيراً، وتوجيه الصفعة الأكبر للنظام رغم استمراره بالسخرية من منذ بداية حصولها. لكنّ هذه الانشقاقات وصلت إلى الحد الذي لم يعد ممكنا للنظام إنكاره فبدأ يجد لها مبررات تافهة لا تقنع إلا بعض الأغبياء، وقام بالتقليل من أهميتها ووصفها رأس النظام في إحدى مقابلاته المتكررة بأنها عملية تنظيف ذاتية للدولة.

أتمنى الآن وأنا أكتب هذه الفقرة أن يتاح لي مقابلة عبد الرزاق طلاس يوما ما، وأن أقبل رأسه، لا لأنه أول من انشق عن جيش النظام، وليس بسبب ما قام به من أعمال بطولية مع الكثير من الثوار الأبطال في الرستن وفي حمص وغيرهما من المناطق، فعبد الرزاق كان الأول وليس الأول كالتالي. بعد معرفتي بقيمة انشقاق أول ضابط في الجيش السوري، وسابقاً معرفتي قيمة خروج أول مظاهرة في البلد ضد نظام الأسد، عرفت لماذا أخبر سيدنا محمد

نبي الإسلام أصحابه بأنّ إيمان صاحبه "أبو بكر" يوازي إيمان الأمة كلها ويزيد، فأبو بكر أوّل من آمن بدعوة محمد من الرجال. ربما مقاربتي خاطئة إذ هناك الكثير من أبطال سورية قدموا بطولات لا مثيل لها فيما ترويه الكتب والأفلام، ولكن.. لا شيء يماثل المرة الأولى.

تلا انشقاق الملازم عبد الرزاق طلاس انشقاق المقدم حسين هرموش مؤسس حركة الضباط الأحرار، ثم العقيد رياض الأسعد مؤسس الجيش السوري الحر، لتتالى الانشقاقات من مختلف الرتب والمراكز في الجيش والمخابرات ومن المناصب الحكومية والسياسية لاحقاً.

بالطبع لا يجب أن ننسى مئات الجنود الذين رفضوا بشكل عفوي الانصياع للأوامر في بداية عملية زج الجيش ضد السكان العزل. فسقط الكثير من الشهداء بينهم دون أن ينالوا ما يستحقونه من تكريم على عملهم البطولي، وأرسلوا إلى أهاليهم على أساس أن الإرهابيين قد قتلوهم. فالإرهابيون هم من قاموا بذلك لكن لم الأهل بتعرفوا على الجهة التي كان يقف فيها الإرهابي القاتل. استطاع القليل منهم الفرار من تصفية النظام ليخفيهم السكان. النظام استفاد من الدرس ولم يعد يزج بالجنود كيفما اتفق، بل قام بإخضاع عناصر الجيش إلى رقابة صارمة من الشبيحة وقوات الأمن ومن العناصر المضمون ولاؤهم للنظام، ولم يبق للجندي الخيار في أن يقتل أو يُقتل.

إشكاليات

النظام البعثي. كثيراً ما وصف الثوار والمعارضون وسواهم النظام السوري بهذه الصفة وحملوا حزب البعث وأيديولوجيته مسؤولية الاستبداد في سورية وفي العراق. إلا أنني أقف كثيراً عند هذه التهمة، فرغم الثغرات والانتقادات الكثيرة الموجهة لحزب البعث. لكني أرى أن ربط هذ االنظام بحزب البعث كسبب مباشر ووحيد فيما وصل إليه من انحطاط وإجرام تعد تهمة مجحفة بحق الحزب. فلم يكن للأفراد ولا لقيادة الحزب نفوذ كبير يقارن بالسمعة الملحقة به، على الأقل في السنوات الأخيرة. بل كان أحد الأسلحة أو المطايا أو الأقنعة الكثيرة التي يرتديها النظام ليخفي حقيقة العصابة التي تقود البلد.

الدستور السوري قبل تغييره كان ينصّ في مادته الثامنة على أن حزب البعث هو القائد في الدولة والمجتمع، فكانت منظمات الحزب كافة تعمل في مرافق الدولة، ويتلقى أفرادها مرتباتهم من الدولة، حتى بعد إلغاء هذه المادة، إضافة إلى الإشراف نظرياً على كل مؤسسات الدولة. وفي الواقع فالحزب والدولة يخضعان للأجهزة الأمنية، إذ تحول حزب البعث ومنظماته إلى ما يشبه الأفرع الأمنية مهمتها فرض المزيد من الرقابة على الناس، وخصوصاً العاملين منهم في الدولة، فأصبحت المناصب في الحزب هدفاً لكل من يرغب في أن يكون له بعض النفوذ، عبر الكثير من الشعارات والتملق، وتصفية الحسابات التي تظهر في إطار عملية ديمقراطية.

حزب البعث كان مؤسسة وحزبا منخورا بالفساد، ومجردا من الهدف الذي أنشئ لأجله، كما هو كل شيء وصلت إليه أيدي عصابة النظام، كالدولة ومؤسساتها ومراكز الأمن وقوات الجيش. ولا شك بالنسبة لي أن مؤسسي الحزب والمؤمنين بمنطلقاته النظرية سيغضبون أشد الغضب لو عرفوا ما قام به النظام باسم حزبهم، ولا شك كذلك أن البعثيين الحقيقيين والمؤمنين بمبادئه ونظرياته هم أول من يجب أن يثور على النظام ليستعيدوا حزبهم، كما هب الشعب السوري لاستعادة سوريتهم من يد هذه العصابة.

الطائفية هي صفة أخرى يوصف بها النظام. ولعلها أبسط وأول ما يمكن أن يوصف به. فمع تلك التوليفة التي أخضع الدولة لها، كان النظام بحاجة إلى مجموعة من الموالين ليسيطر عليها ويضمن عدم تراجع فعاليتها بالتقادم. الخيار الأسهل كان لدى النظام هو استخدام طائفة رئيسه للقيام بهذه المهمة، فوزعهم على كل المفاصل والمراكز الحساسة في الدولة، بحيث أصبحوا عصب النظام، وكل من كان يعمل معه من الطوائف الأخرى كان يتلقى ولا يلقي في المواضيع التي تمس النظام.

حاول النظام جاهداً منذ انطلاق الثورة جرّ الثوار إلى اللعب بقواعده التي لا يمكن أن يستغني عنها كونها من شروط انعقاده، فدفع منذ البداية الثورة لتتجه إلى العنف والفساد، وبطبيعة الحال إلى التفكير الطائفي، لكنه فشل بذلك إلى حد ما في تلك الفترة التي وصلناها من تسلسل أحداث الثورة.

لكن يجب أن نوضح للجميع أن محاباة النظام للعلويين وتمييزه لهم بكل شيء، لم تكن أبدا حبا بهم، بل لحاجته لهم ولكي يجعل العلويين أحد أسلحته لترسيخ حكمه، وجنوداً في مواجهة الثورة التي كان يترقب وقوعها أكثر منا نحن الذين شاركنا فيها. النظام حقق نجاحا باهرا وأقنع العلويين بأن الثورة قامت ضدهم و أنه هو من يحميهم وباقي الأقليات. إعلام الثورة كان يصر دائماً على أن العلويين مختطفين لدى النظام وأنهم يتعرضون لما يتعرض له الشعب السوري، وبأن انقلابا وشيكا سيقومون به على نظام الأسد. إلا أن هذا الكلام كان يعبر عن تمنياتهم أكثر من تصوراتهم، فالعلويون وقفوا مع النظام منذ البداية إلى آخر لحظة، وقرروا أن يكونوا جنودا في معركته، وشكلوا الخزان البشري الذي يزود النظام بالمقاتلين الموالين والموثوقين. بعضهم دفاعا عن امتيازات ستنتهي مع انتهاء حكم الأسد وبعضهم مجبرين لا مخيرين. ولكم أنتم أن تحددوا نسبة أولئك من أولئك فأنا ليست لدي المعلومات الكافية لأحددها.

استخدم النظام ما تحويه هذه الطائفة من أشخاص موتورين ومشبعين بالحقد الطائفي كأي طائفة أو فئة من المجتمع، للقيام بالمجازر لا يمكن تخيل فظاعتها في المدن الثائرة. فازداد الحقد ضد العلويين تدريجيا وخصوصاً في مناطق الاحتكاك معهم. ومن جهة أخرى ومنذ بدء العمل الثوري المسلح

كحالات فردية بداية إلى أن أصبح يحمل صفة الحرب الحقيقية، كانت غالبية خسائر النظام البشرية من العلويين كنتيجة طبيعية لتواجدهم المكثّف في فروع الأمن وقطاعات الجيش. مما زاد التوتر والحساسية بين العلويين والشعب السوري المنتفض.

من يتحمّل مسؤولية هذا التوتر الطائفي البغيض بالتأكيد هو النظام. فأي نظام دكتاتوري في العالم سيستخدم الأقلية الموالية له من طائفته أو عشيرته لتكون خط الدفاع الأول عنه، كما فعل صدام حسين في العراق، ومعمر القذافي في ليبيا. بالإضافة إلى أن أي فئة من المجتمع طائفة أو عشيرة أو مدينة أو عائلة تضم نسبة من المرتزقة والمجرمين واللصوص وغيرهم. فيقوم المستبد باستخدام هذه الفئة لتثبيت حكمه بها. لكن الغالبية البسيطة من الناس قد لا تقيس الأمور بتلك الطريقة. ففي سورية يقولون إن من قام بالمجازر هم العلويون، بدل أن يقولوا أن شبيحة من العلويين قاموا بذلك، فنسب كل ما قام به النظام أو جله إلى العلويين.

بالطبع لا يجب أن نغفل أن شبيحةً من كل طوائف سورية شاركوا في عمليات النظام كما قام شبيحة العلويين بذلك. لكن باعتبار أن النسبة الأكبر من الشبيحة كانت من العلويين. وباعتبار أن كل المفاصل الحساسة في النظام مسلّمة لهم، فإن الإشارة إليه وإلى طائفته ستكون مميزة عن الإشارة إلى غيرهم من الشبيحة. ساهم في كل هذا التوتر مجموعة من القنوات الفضائية ووسائل الإعلام ذات النفس الطائفي، والتي كانت تركز على كل فعل يقوم به أي شبيح علوي أكثر بكثير من ممارسات شبيحة باقي الطوائف، والإصرار على أن النظام والطائفة شيء واحد، إضافة إلى خطاب طائفي على مدارات ساعات البث، زاد في شعبيته ممارسات النظام الذي كان إجرامها يزداد مع تقدم الثورة بخطواتها.

العلويون وقفوا مع النظام وهذا ما لا يستطيع أحد أن ينكره، لكنهم لم يفعلوا ذلك كونهم علويين، فلا شيء في دينهم ينص على مناصرة الظلم أو القتل أو غير ذلك من الأمور التي مارسها النظام، بل لأن رأس النظام ينتمي إليهم، ولو كان رأس النظام مسيحياً أو درزياً أو غير ذلك، لكان موقف طائفته مطابقاً لموقف العلويين. وأنا هنا لا ألوم العلويين بعامتهم، لكن أضع اللوم

على المفكرين والمثقفين والنخب العلوية، التي لم توضح الخدعة الكبرى التي قاد النظام العلويين إليها. فلم تلعب أي دور في وقوع هذه الكارثة التي أبعدت الشعب السوري عنهم بتمييزه لهم على مدى عقود حكمه، وعاد ليهدم ما لا يمكن إصلاحه إذ زج أبناءهم في معركة ليست معركتهم. كذلك يقع بعض اللوم على تعامل الثوار العفوي الذي بدا كردات فعل غير محسوبة على مجازر النظام، فاتّهم العلويين بمجازر النظام بدل اتهام النظام بكل ما ارتكب من مجازر، وما تسببه من عنف، وعنف مضاد. إلا أني أظن أن حجم المجازر اليومية كان لا بد لها من أن تدفع باتجاه الاستقطاب الطائفي. فبعد عدّة أشهر من الموقف المعادي للطائفية الذي حملته الثورة، بدأنا نسمع همساً تلك العبارات والتهم البغيضة التي علا صوتها شيئاً فشيئاً بسبب العلاقة الطردية بين الطائفية وحجم المأساة، إلى أن وصلنا إلى هذه الدوامة من الحقد الطائفي التي بدأت ولا أحد يعرف متى تنتهي.

مفارقة جميلة جرت وأنا أكتب السطور الأخيرة، وهي أن موسى العمر الإعلامي السوري المحبوب كان يتحدث عن الموضوع على قناة سورية الغد التي تهتم بالثورة السورية، ما دفعني للتوقف كثيراً لأتابع كلام هذا الإنسان الذي أراني متفقاً معه في الآراء والطروحات التي كنا نتابعها على الإنترنت أو على الإعلام.

* * *

بالإضافة إلى كل ذلك كانت إحدى أهم الإشكاليات التي اعترضت طريقنا في ثورة حلب هي المشكلة الكردية. الأكراد هم جزء كبير من الشعب السوري يشكلون نسبة كبيرة من تعداد سكانه. وهم بطبيعة الحال لم يشكلوا استثناء عند النظام، فكانوا من أكثر فئات الشعب تأثراً ببطشه منذ استلامه السلطة في هذه البلاد. فإضافة إلى الظلم الذي كان يتعرض له كل أفراد الشعب، كان هناك عقوبات ووسائل ظلم إضافية تُفرض على الأكراد. فهناك غالبية كبيرة منهم لم تُمنح الجنسية السورية، ولم يتم احتسابهم كمواطنين في الجمهورية. فلم يحق لهم الانتساب للمدارس الحكومية، ولا العمل في الدوائر والشركات العامة، ولا حمل البطاقة الشخصية التي يحملها كل مواطن سوري، والذين تم منحهم هذه الامتيازات ومساواتهم بأفراد الشعب ومعاملتهم على أساس

أنهم عرب. فمحا بذلك النظام أحد شعوب المنطقة الموجود على هذه الأرض منذ آلاف السنين.

جريمة أخرى ارتكبها النظام بحق الأكراد بطريقة زادت كثيراً من الفرقة بين سكان هذه المنطقة، وهددت بنهاية مئات السنين من العيش المشترك. إذ نزع ملكية بعض الأكراد لمساحات كبيرة من الأراضي، ومنحها إلى ملاك جدد من العرب في إطار ما سماه الإصلاح الزراعي الذي حارب الإقطاع وأعطى الأرض لمن يعمل بها وغيرها من الشعارات.

مع انطلاق الثورة كنت لأصدق أن يكون هناك مؤيدون للنظام في أي منطقة، ولأي سبب وما، لكن كان مستحيلاً علي تصديق أن كردياً يؤيد نظام الأسد، فهذا لم يقبله عقلي أبداً، وخصوصاً إذا عرفنا أن الأكراد انتفضوا عام 2004 ليقولوا للظلم كفى، بعد ما جرى في إحدى مباريات كرة القدم في دير الزور. تطور الأمر لتنتشر الانتفاضة إلى المناطق الكردية في الحسكة والقامشلي وحلب، عانى خلالها الأكراد قمعاً مشابهاً لما يتعرض له عامة السوريين هذه الأيام، إلا أن أحداً من العرب لم يتعاطف معهم لأسباب تتعلق بتعاطف العامة من أي طائفة أو قومية مع الدكتاتور الذي ينتمي لهم. وهذا ما أسوقه دائماً كمثال لتبرير موقف الأقلية العلوية ووقوف عامتهم مع النظام بهذه الطريقة.

حاول النظام مع الأشهر الأولى للثورة رشوة الأكراد في إطار الإصلاحات التي كان يقوم بها بغية منعهم من الانضمام لثورة الشعب السوري. فقام بمنح عديمي الجنسية من الأكراد الجنسية السورية، بعد عقود من إهمالهم وإنكار مواطنيتهم. لكن الأكراد أبوا إلا أن يكون لهم مشاركتهم الفعالة بالحراك الثوري، فنُظمت المظاهرات الحاشدة المطالبة بإسقاط نظام الأسد في كل من القامشلي وعامودا والدرباسية وعين العرب ورأس العين وغيرها من المدن ذات الأغلبية الكردية، وقدم الأكراد شهداءَ على مذبح الحرية وعلى رأسهم الشهيد مشعل تمّو.

في مدينتي حلب هناك وجود للأكراد بأعداد كبيرة وخصوصاً في منطقة عفرين، وعين العرب (كوباني) والريف المحيط بهما، وفي مركز المدينة في منطقتي الأشرفية، والشيخ مقصود. كان الشباب الأكراد في المنطقتين حذرين

جداً من الانضمام إلى الثورة وخصوصاً في ظل تعثّر خطواتها في حلب وتأخرها كثيراً عن الحراك الثوري في سورية. كنا نعول كثيراً على الأكراد لتحريك الوضع في حلب، فهم منظمون للغاية على عكس ناشطي مدينة حلب القليلين والمشتتين والمجهولين نسبة بعضهم إلى بعض. لكن لم نر أي تحرك جدي في الأشرفية أو الشيخ مقصود مثلما لم نر أي شيء يذكر في حلب.

أحد الأصدقاء الأكراد، وكانت علاقتي جيدة بالكثيرين منهم، أكد أنهم لن يضعوا أنفسهم في وجه المدفع، فهم عانوا كثيراً من بطش النظام. وأضاف أن انتفاضة العرب في المدينة سيشترك فيها الكرد بكل ما لديهم من ثقل في الشارع. لا ألومهم أبداً على هذا الموقف في ذلك اليوم. لكن كان علينا الانتظار لمعرفة إذا ما كان التحام العرب والكرد للوقوف في وجه النظام حقيقة أم مجرد تمني.

بعض التنظيمات والشخصيات الكردية كانت تقف ضد النظام، لكن لها أجنداتها الخاصة والمتمثلة بالانفصال عن سورية، وتشكيل كيان كردي مستقل. على رأس هؤلاء كان حزب الـ PYD الذي يحمل أجندات ومنطلقات حزب العمال الكردستاني، وهو الذي قام بقمع المظاهرات التي خرج بها الناشطون الأكراد، لأنها كانت تتعارض مع أجنداتهم الخاصة التي ذكرناها. أنا هنا لا أنكر حق تقرير المصير للأكراد ولا لأي شعب آخر، لكن فكرة الانفصال كانت فكرة مرعبة تعني أننا بدلا من تخليص البلد من النظام الأسدي قمنا بتقسيمها. تلك الفكرة ستؤدي إلى تراجع كبير في زخم الثورة السورية بسبب طرحها في مثل هذا الوقت الحساس. ونحن بالتأكيد في هذه المنطقة لا يمكننا تجاوز الأكراد في أي محاولة للانتقال بالمنطقة إلى العصر الجديد.

* * *

تعقيباً على كل ما ذكرته سابقاً أريد أن أشير إلى أننا عندما كنا نتحدث عن الوحدة والترابط والتنوع الذي كنا نعيشه في البلد، لا يعني أنه مجرد كلام للتسويق الدرامي أو السينمائي. فهذه الوحدة ليست بحاجة إلى تلك الطريقة المبتذلة التي تقدمها المسلسلات السورية عن الحالة التي كنا نعيش فيها، فمجرد تقديمها بتلك الطريقة، ومحاولة التركيز على التعايش تعني أن هناك فوارق في الواقع. كلامي حول الموضوع يؤكده ابتداع النظام لوزارة

اسمها وزارة المصالحة الوطنية، ليؤكد لي أن المصالحة واللحمة الوطنية قد تأثرت كثيراً بنتائج هذه الثورة وتعنت النظام واستخدامه للأساليب القذرة لإبعاد الأقليات عنها.

لا أريد أن أكرس الحالة التي استدعت إحداث وزارة المصالحة الوطنية، إنما هذا هو الواقع والمشكلة ولا يجب أن نتهرب منها. فأفضل حل لمعالجة أي مشكلة هو مواجهتها وعدم الهروب منها، وإحدى أصعب مهام النظام الجديد الذي سيحل بعد نظام الأسد هي تضميد الجراح العميقة التي سببتها الثورة، وردم الهوة المتسعة بين طوائف الشعب وتوحيد الشعب السوري ومساواتهم ببعضهم للانطلاق نحو سورية جديدة وعدم الوقوع بأخطاء الأنظمة الدكتاتورية بتمييز سوري عن سوري آخر. هذا في حال تغير النظام، أما إن بقي، لا سمح الله، فلا حاجة له بذلك. فما حاجة من جرح بأن يداوي؟!

* * *

في السياق ذاته، كثيراً ما حدثت نقاشات وجدالات مع بعض الأصدقاء بخصوص هذا الموضوع، وخصوصاً بعد تمني بعض الثوار أن يكون صدام حسين موجوداً في هذا الوقت. إذ كان دعمه للثورة السورية مؤكداً، وسيكون وجوده مانعاً من تسرب المقاتلين الشيعة إلى سورية ليعملوا شبيحة ومرتزقة لدى النظام، بالإضافة إلى أنه كان سيقطع طريق الإمداد الرئيسة للنظام من إيران عبر العراق. أوافق جداً على هذا الكلام فوجود صدام حسين سيكون مفيداً للثورة السورية. إلا أنني أؤكد أنَّ صدام حسين هو النسخة العراقية عن حافظ الأسد، فقد كان دكتاتوراً ومجرماً وطائفياً، وتحكم عائلته البلد كما يحكم آل الأسد سورية، ومن غير المستغرب ثورة شعب العراق على شخص مثله. وكنت أستغرب كثيراً موقف شخص يطالب بالحرية والكرامة، ويمجد شخصاً مثل صدام حسين ويعظمه، في الوقت نفسه، والذي تسبب، وحافظ الأسد بمقتل عدد كبير من الشعب العربي، يفوق بكثير ما قامت به إسرائيل.

الموقف من صدام حسين يقودنا مرة أخرى إلى الطائفية البغيضة التي تجرنا إليها أطراف كثيرة بعفوية أحياناً وبتخطيط في أحيان أخرى. فغالبية من يمجد صدام حسين يقوم بذلك كرهاً بالشيعة، وما تسببوا به للمنطقة حسب رأيهم. فعندما كان موجوداً "كان يدوس على رأسهم ولا يُسمع صوت

أحد منهم"، ولا أعرف حقيقة كيف يخرج هذا الكلام من إنسان مهما كانت ثقافته ضحلة، إلا أنه، على ما يبدو، ونتيجة لما تعرض له الناس من استبداد وظلم ومجازر إبان الثورة، جعلهم يتمسكون بأي وسيلة تخلصهم من النظام، وبأي قشة تنقذهم من الغرق الذي هم فيه، وهنا يظلُّ سؤالان يطرحان نفسيهما علي، هل الغاية تبرر الوسيلة دائماً؟ وهل دائماً عدو عدوك صديقك؟

* * *

استتباعاً لكل ذلك لا يجب أن نغفل أثر الصراع السني الشيعي في المنطقة على الثورة وأثرها عليه. فالكل يعرف أن هناك صراعاً بارداً بين السعودية وإيران يقف خلفه صراع شيعي سني في المنطقة أساسه يعود إلى قرون قديمة. لا أعرف حقيقة لماذا يصر بعضهم على أن يحمل الجيل الحالي والأجيال القادمة وزر صراع وصدامات دموية لم يرتكبوها قبل حوالي ألف وخمسمئة سنة. فبغض النظر عن صاحب الحق في هذا الصراع الذي يرى كل طرف أنه معه. فبكل تأكيد لا مصلحة لشعوب المنطقة بصراعات مهما كان سببها ومصدرها، والأفضل للجميع العيش معاً دون النظر إلى ترهات الآباء والأجداد، التي لو استمرت بالاستماع إليها باقي شعوب العالم لما وصلت لما وصلت إليه من تقدم وحضارة على مستوى احترام الإنسان ومعتقداته.

بدأت الثورة السورية وأراد كل من السعودية وإيران أن يضعاها في إطار هذا الصراع البارد حالياً بينهما، فوقفت إيران بكل قوتها العسكرية والبشرية والمالية إلى جانب النظام. بينما لم يقدم السعوديون إلا الكلام للشعب السوري، وبعض المساعدات الإنسانية، ومساعدات عسكرية كانت محدودة بالكثير من الخطوط الحمر، ولا يمكن أن تقارن بما كان يقدمه الإيرانيون إلى النظام.

ما تقوم به هاتان الدولتان ومن يواليهما ويفكر في الطريقة نفسها، هو شأن خاص بهم، لكن كوني أحد المشاركين في الثورة السورية لم أرد أبداً أن تُوضع الثورة في إطار هذا الصراع. لأن ذلك يعني في حال الوصول إليه ألا نهاية للثورة السورية إلا بحرب تشعل المنطقة بين السنة والشيعة، يكون الجميع فيها خاسرين، بما فيهم الشعب السوري المنتفض وتذهب تضحياته أدراج الرياح. أو أن يقرر مصير النظام بعد الثورة السورية بتسوية كبرى في المنطقة لا تكفل إسقاطه ومحاكمة رموزه والقصاص من القتلة والمجرمين. لا

أجد في أي من الاحتمالين مصلحة للشعب السوري المنتفض. وعليه يجب العمل على تحييد الثورة عن هذا الصراع ووضعها في إطارها كصراع بين، بين طائفتي الشعب والاستبداد، طائفة الحرية والاستعباد، طائفة الكرامة والطغيان، وإلا سيذهب دم شهداء الثورة وتضحيات السوريين هباء منثوراً.

رمضــان

في الأول من تموز من ذلك العام، أي بعد يوم واحد من بركان حلب كانت الجمعة التي أطلق عليها جمعة ارحل. خرجت علينا مدينة حماة بمظاهرة غير مسبوقة في الثورة السورية، وتستحق أن يطلق عليها لقب المليونية في ساحة العاصي أكبر ساحات المدينة طالبت بإسقاط نظام الأسد. المظاهرة هتفت بكل وضوح ضده وحيّت مدينة حلب وتضامنت معها بعد يوم من البركان، بفعل الهالة الإعلامية التي أحاطت به. لا وسيلة لتقدير الأعداد بدقة إلا أنه بدا واضحاً أن حماة قد خرجت برجالها ونسائها كبارها وصغارها. وبالتأكيد العدد كان يفوق نصف مليون متظاهر. جُنّ جنون النظام، ولم يعرف بماذا يتصرف مع هذا الإصرار العجيب على التظاهر. فبعد أن سقط مئات الشهداء من الحمويين وهم في طريقهم إلى ساحة العاصي، لم يكن بيد النظام إلا الرضوخ والسماح لهم بالوصول إلى ساحة العاصي، لئلا تشكل ضغطاً عليه.

حماة كانت أشد امتحان يواجهه النظام ذلك الوقت، فكيف له أن يستمر في تكذيب خروج المظاهرات، أو التأكيد على أن أعداد المتظاهرين قليلة جداً، ونحن الآن نرى مظاهرات عملاقة كالتي خرجت في مصر وكانت تخرج في ذلك الوقت في اليمن. إضافة إلى أنّ هذه المظاهرة ناقضت تأكيد النظام الدائم على أن الجيش كان يقتحم المدن بطلب من الأهالي الذين روعتهم عصابات إرهابية، وهاهم أهالي المدينة يرفضون بشكل صريح تدخل الجيش في مدينتهم. حملت تلك الفترة أكبر عدد من المتظاهرين منذ انطلاق الثورة، ففي حين كانت حماة تخرج بأكثر من نصف مليون كانت دير الزور تخرج بعدد مقارب، إضافة إلى المظاهرات العملاقة الأخرى في حمص وإدلب وريف دمشق ودرعا. كانت سورية كلها، عدا حلب وريفها، ينبض بالثورة.

الجميع عرف بعد جمعة ارحل أن الدبابات ستقتحم حماة عن قريب، كما اقتحمت حمص في موقف مشابه قبل أشهر، حين اجتمع المتظاهرون الحماصنة في ساحة الساعة، لكن في ذلك الوقت لم يتم توثيقها ونشرها كما

حصل مع مظاهرات حماة بسبب الضعف في التقنيات الإعلامية. ترقب العالم ما سيجري في حماة خصوصاً أن لها تاريخاً مع إجرام النظام، وأبدى الكثير خشيته من مجزرة قادمة بعد هذه الجمعة، فتجارب الجميع مع النظام تؤكد تلك المخاوف.

قبل الجمعة التالية بأيام بدأ الناس بالترقب، فهل سنشاهد هذا المظاهرة العملاقة من جديد؟ هذا ما سيسعى النظام جاهداً كي لا يحصل. لكن النظام تلقى صدمة مفاجئة قبل يوم الجمعة، بإعلان السفير الأمريكي في سورية روبرت فورد نيته الذهاب إلى حماة صباح الجمعة ليشاهد بعينه ما يجري. بالفعل في الجمعة التالية جمعة "لا للحوار" وصل السفيران الأمريكي والبريطاني إلى حماة وحضرا المظاهرة المليونية هناك، فما عاد باستطاعة النظام إنكار خروج مثل تلك المظاهرات، ولم يكن بيده سوى الزعيق والصياح حول تدخل سافر للغرب في الشؤون الداخلية.

زيارة السفيرين حمتْ حماة من مجزرة كانت وشيكة، إلا أنهما لن يستطيعا الوجود في كل الجِمع، فلم يستمر هذا المشهد إلا لشهر واحد إذ اقتحم الجيش مدينة حماة في نهاية شهر حزيران، وقام بمهاجمة من حاول التصدي لهم بوسائلهم البسيطة كبعض الحواجز التي لم تكن لتقف أبداً في وجه الدبابات. لكن رغم هذا الاقتحام، لا يزال مشهد تلك المظاهرات العملاقة التي شهدها شهر تموز من ذلك العام أحد أبرز مشاهد الثورة السورية، وأحد أهم الأمثلة على الحراك السلمي الهادف لإسقاط النظام.

* * *

مع اقتراب شهر رمضان كثّف الثوار دعواتهم لتعزيز النشاط الثوري في هذا الشهر مستغلين الطابع الروحي الذي يحمله، إضافة إلى فرصة صلاة التراويح اليومية والتي ستشكل نقطة زمنية مناسبة لانطلاق المظاهرات. فأصبح لدينا صلاة جمعة يومية على مدى هذا الشهر. آمال كبيرة عُلّقت على شهر رمضان ورجح بعض الثوار سقوط النظام في هذا الشهر فشُحنت الهمم وكُثفت الدعوات، وراح الثوار ينتظرون بدء رمضان بفارغ الصبر. كنا في حلب نعيش حالة من الترقب من كل دعوة ليوم أو عمل ثوري، فتجاربنا مع الزخم الثوري في حلب كانت فاشلة لحد الآن وآخرها كان البركان الذي لم ينفجر.

فتفاءلنا بقدوم رمضان لكن بحذر شديد كي لا تتكرر خيبة التفاؤل المفرط.

قبل حلول شهر رمضان بأيام قليلة توجهت إلى حي الجميلية القريب من ساحة سعد الله الجابري برفقة أحد أصدقائي لأشتري بعض الحاجات. ومع اقترابي من ذلك المكان عرفت أن احتفالاً كبيراً يقام في ساحة سعد الله لتأييد النظام. توجهت إلى الساحة لأشاهد ما يجري، وأول ما رأيته كان الممثلة المصرية السورية الأصل رغدا تلقي قسماً يردده خلفها عشرات الآلاف من المجتمعين. كان المشهد مقرفاً لشخص مثلي، فبينما تشهد المدن الأخرى انتفاضة عارمة يسقط فيها العشرات من الشهداء، كان هذا الحشد في مدينة حلب يغني ويرقص على أنغام أغاني العديد من المغنين، الذين لم يقلوا إجراماً عن الشبيحة كفارس كرم وشهد برمدا، وعلي الديك وغيرهم. قد يكون المبلغ الكبير الذي قدمه النظام لهم هو الذي دفعهم للمشاركة في هذا الاحتفال، إلا أننا نتساءل دائماً عن الإنسانية ومكانها في هذا العالم. كان الحشد يضمّ خليطاً كبيراً من داخل المدينة وخارجها. إلا أنه في النهاية يظهر على إعلام النظام بأنهم أهل حلب الأوفياء. لم أتمالك نفسي لدرجة أن أحسست بحاجة للبكاء من شدة القهر.

في تلك الأثناء خطرت ببالي فكرة لم أعرف مدى أهميتها، إلا أنني عرفت أني سأشعر براحة كبيرة لو قمت بها. حملت موبايلي وبدأت أصور جزءاً من الاحتفال وخصوصاً الألعاب النارية التي كانت تُطلق فوق مبنى البريد وقرّبت الموبايل من فمي ليكون صوتي واضحاً من بين الأصوات الكثيرة في ذلك المكان وبدأت أتكلم "باسمي وباسم كل ثوار حلب، وأقدم اعتذاري للشهداء وأهالي الشهداء عن هذه المهزلة الجارية هنا، وعن الرقص على جثث الشهداء، وهنا من وسط مظاهرة التأييد أقول عاشت سورية ويسقط بشار الأسد، عاشت سورية ويسقط بشار الأسد". بالفعل أعطاني هذا الأمر الصغير شعوراً كبيراً بالراحة أزال أثر تلك المهزلة بل الجريمة التي كانت تجري في أهم ساحة من مدينة حلب، كانت بالتأكيد تزيد الهوة بين سكانها وباقي الشعب المنتفض. في المنزل سارعت إلى إرسال مقطع الفيديو إلى أسامة كالعادة لينتشر في العديد من صفحات الثورة وسط ردود فعل داعمة ومعجبة من معارضي النظام، وشتائم وتهكمات مؤيديه وشبيحته الإعلاميين.

* * *

قام النظام باقتحام مدينة حماة ليخمد الثورة التي بلغت أوجها قبل تلك الفترة، فارتكب فيها جرائمه المعتادة من قتل وتخريب وسلب ونهب وترويع لأهالي المدينة. ساد غضب عارم جراء هذا الاقتحام وما ارتكبه النظام ذلك اليوم، فشهد أول يوم من أيام رمضان مظاهراتٍ غير مسبوقة تضامناً مع حماة وطلباً لإسقاط النظام. حلب لم تكن استثناءً عما جرى ذلك اليوم. فبعد التراجع في المظاهرات في الفترة التي تلت بركان حلب، شهدت صلاة التراويح أربع مظاهرات في وقت واحد في المدينة، إضافة إلى المظاهرات التي خرجت في الريف الحلبي. زادت الأخبار القادمة من المدن الأخرى، ومن حلب تفاءلنا بتحقيق خطوات ثورية متقدمة، فهاهو أول يوم من أيام رمضان يشهد تقدماً نوعياً في أعداد المظاهرات والمتظاهرين على امتداد البلد.

في ذلك الوقت كان يجب استئناف المشاركة في التظاهر إذ بدا أن الثورة استعادت في شهر رمضان زخماً جديداً ولم يكن علينا أن نبقى متفرجين. ذهبنا في اليوم التالي إلى صلاح الدين حيث كانت تتركز المظاهرات، لكن لم نوفّق بالمشاركة في المظاهرة. خرجت مظاهرة في صلاح الدين لكنها بعيدة عن مكان وجودنا. وفُضها كالعادة هجوم عناصر الأمن والشبيحة الموجدون بكثافة في تلك المنطقة. خرجت خمس مظاهرات في حلب ثاني أيام رمضان مع انتشار أكبر للمظاهرات في الريف الحلبي.

تتالت أيام شهر رمضان واستمر خروج المظاهرات في مدينة حلب بمعدل أربع مظاهرات يومياً، وانتشرت الثورة في ريف حلب بشكل غير مسبوق، إذ أصبحت مظاهرات تخرج على نحو مستمر في كل من عندان وتل رفعت ومارع والباب ورتيان وغيرها. كان لي الشرف وقتها بأن أشارك في نشر مظاهرات مدينة عندان على الإنترنت عندما طلب أحد الأصدقاء وسيلة لإرسال مقاطع المظاهرات، فأعطيته بريدي الإلكتروني على الفور لإرسال مقاطع مسائيات عندان ونشرها بالطريقة المعتادة. بالطبع أهل عندان وجدوا الكثير من الطرق لنشر مظاهراتهم، لكني كنت سعيدا وفخورا بأن أكون أحد تلك الطرق التي اعتمد عليها أشخاص لا أعرفهم ولا يعرفونني لكن يجمعنا هدف وحلم مشترك.

صلاح الدين لم يغب عنها النشاط الثوري أبدا، فكانت في رمضان مع

مناطق أخرى في حلب تشهد نشاطاً ثورياً تحمل لواءه كل فترة إحدى الحارات فتصبح قبلة للمتظاهرين إلى أن يسيطر الأمن على الموقف فينتقل التجمع إلى منطقة أخرى. نقاط التجمع كانت تنتقل من منطقة لأخرى، إلا أنها كانت في صلاح الدين مستمرة دون انقطاع، فلم يمض أي أسبوع إلا وكانت تخرج فيه مظاهرة هناك.

في شهر رمضان بدأ الثوار يتجمعون أيام الجمعة في حي الصاخور شرق حلب، بطريقة مماثلة لما كان يحدث أمام جامع آمنة في سيف الدولة، فبدأنا نشهد هناك مظاهرات كبيرة وصلت إحداها إلى أكثر من ألف متظاهر ما شكل قلقاً كبيراً لدى النظام، فتحرّك في إحدى الجُمع بكل وحشية لقمع الحراك هناك مستخدماً عناصر المخابرات الجوية، الذين يتميزون بوحشية وإجرام يفوق عناصر باقي فروع الأمن.

سقط ذلك اليوم أربعة شهداء في حدث غير مسبوق في حلب ما استدعى استنفار وسائل الإعلام لهذا الحدث الجلل، إذ توقع الكثيرون ردة فعل الشارع الحلبي على عنف غير مسبوق. طبعاً كان هناك ردة فعل كبيرة وتشييع عظيم للشهداء لكن ذلك اقتصر على يوم التشييع. شهدت تلك الجمعة آخر مظاهرة من سلسة مظاهرات حي الصاخور، فخسرت حلب فرصة مهمة لتوسيع النشاط الثوري فيها بعد انعدام استجابة الأحياء المجاورة للثورة المنتشرة لدى الجوار، ولأن غالبية المتظاهرين كانوا يتوافدون من مختلف الأحياء، ولم يكن يشكل سكان الحي منهم أي نسبة تذكر.

في السابع عشر من رمضان ذكرى غزوة بدر. دعي إلى مظاهرات عارمة فيما يسمى بدر حلب. نجح الثوار يومها بالخروج في أكبر مظاهرة تعم مدينة حلب، إذ انطلقت من أمام إحدى الجوامع بالقرب من مستشفى الحياة لتصل إلى حدود ساحة سعد الله الجابري في سابقة خطيرة بالنسبة للنظام، وحدث هام بالنسبة للثوار، وخصوصاً إذا عرفنا أن المظاهرة سارت مسافة كبيرة فشل الشبيحة في قمعها أو تحويل مسارها، ما استدعى إحضار تعزيزات كبيرة من قوات الأمن الذين شنوا حملات اعتقال كبيرة في المنطقة التي وصلت إليها المظاهرة وتفرقت فيها.

خرجت في غالبية أحياء مدينة حلب مظاهرات في ذلك الرمضان. فالثوار

كانوا يتنقلون من حي إلى آخر معتمدين على التنسيقيات التي كانت تسهل العمل بنشر الدعوات للمظاهرات ولزيادة عدد المتظاهرين. كان تغيير مكان المظاهرات يومياً طريقة ناجحة إلى حد ما، فكان في ذلك تشتيت لتركيز قوات الأمن، وفرصة لتأخذ المظاهرة وقتها قبل وصول الأمن والشبيحة.

لم أوفق بالمشاركة في أيٍّ مظاهرة في ذلك الشهر، فذهبت أكثر من مرة إلى صلاح الدين دون فائدة. ومرة ذهبنا للمشاركة في مظاهرة بمنطقة الميسر، لكن وجدنا أعداداً كبيرة من الشبيحة وعناصر الأمن في مكان المظاهرة بعد انتشار خبر المظاهرة في حلب، فعدنا أدراجنا كما فعل الكثير من المتظاهرين الذين كانوا يتجولون في تلك المنطقة منتظرين خروجها. يومها كان معي زكريا الذي استأنف الخروج في المظاهرات فور خروجه من السجن، كما رافقنا أحد أصدقائه في السجن، أظن أنه من بيت غزال من قرية كللي. كان مؤشراً جيداً إصرار المعتقلين السابقين على مواصلة التظاهر رغم كل ما عانوه في المعتقل. وجدير بالذكر أنّ هذا الشخص قد استشهد في وقت لاحق من الثورة.

في منتصف شهر رمضان حدث أمر هام في هذه الحكاية، وهو اعتقال صديقي المهندس بشار في إحدى المظاهرات التي خرجت في منطقة الأعظمية. بشار كان أحد المؤيدين للنظام، قبل سفره إلى السعودية، وقد عاد إلى البلد ليشاركنا تدريجياً أحداث الثورة. كنت أنتظر بشار ذلك اليوم قبل أن يصادفه أحد الأصدقاء الذي دعاه للمظاهرة، فرافقه للمشاركة في تلك المظاهرة. عرفت لاحقاً بأمر اعتقاله بعد إقفال موبايله وعدم وصوله إلى المنزل.

* * *

إضافة إلى الأحداث المثيرة التي كان يشهدها ذلك الشهر، عادت قضية التقارير التي كانت تكتب لشعبة الحزب مجدداً إلى الواجهة. لكنها هذه المرة بيد أحد فروع الأمن. المشكلة في كل هذا الموضوع أني لم أعرف به إلا عن طريق أبي، الذي وصل به الغضب إلى مستوى لم يصل له من قبل، فأراد تفسيراً سريعاً لما يجري ولما أقوم به من "علاك" في المركز. أكدت له أني لم أسمع عن شيء مماثل، ويبدو أن الموضوع القديم أعيد طرحه. طلب مني أن أراجع أمين الفرقة الحزبية الذي أخبر أبي بما يدور حول هذا الموضوع، بعد أن أجاب أبي على الهاتف. ذهبت في اليوم التالي للمقابلة في الفرقة

الحزبية مع شعور كبير بالغضب، لا لأن هذا الموضوع أعيد طرحه، لكن، لأن أبي كان على علم تام بما يجري قبل أن أعرف أنا.

في الفرقة الحزبية جلست لأستمع إلى نصائح رئيس الفرقة التي تعودت عليها من الجميع. أكد لي أن "العلقة" مع الأمن لا يمكن الخروج منها بدون خسائر كبيرة، وأني سأقع بما لا يحمد عقباه إن واصلت بهذه الطريقة. وأضاف أنّ مجرد الدخول إلى أحد فروع الأمن تعني ورطة كبيرة، وهاهم الآن بالفعل يقومون بالاستفسار عني لدى الفرقة وشعبة الحزب. التقارير رفعها أحد الزملاء في العمل، ووصلت إلى فرع الأمن العسكري تشير إلى حديث دائم ضد النظام، إضافة إلى تشغيل مقاطع المظاهرات على حاسبي المحمول وعرضها أمام الجميع. لم أكن أملك محمولاً ذلك الوقت، إلا أنني أخذت في إحدى المرات جهازاً إلى المركز قبل أن أعيده إلى صاحبه دون أن أشتريه، ويبدو أن من رفع التقرير قد شاهده معي ذلك اليوم. إلا أنّ الجميع يعرف أني لا أملك حاسباً محمولاً، ما ساعدني في الدفاع عن نفسي. خطأ آخر ساعدني في الدفاع عن نفسي هو توقيت دوامي الذي كان ليلياً على عكس ما هو موجود في التقرير..

انتقلنا لمقابلة أمين شعبة الحزب الذي كان للمصادفة مدرساً لي يوما ما، بالإضافة إلى كونه صديقاً مقرباً من عائلتنا. كان رجلاً طيباً للغاية وأنا متأكد أنه لم يؤذ أحداً يوما من الأيام، إلا أنهم على ما يبدو قرروا أن يضعوا الرجل المناسب في المكان المناسب، لكن في الوقت غير المناسب. رئيس الشعبة دافع مستميتاً عني أمام ضابط الأمن، وأكد له أن هذا التقرير كيدي حتماً ويحتوي على الكثير من المغالطات وأضاف إنّ تربيتي بعثية، وجلّ عائلتي منتسبون لحزب البعث. أزعجني هذا الكلام كثيراً رغم أنه كان يعني أني بريء من التهم الموجهة لي. طلب مني أن أنتبه إلى كلامي وتصرفاتي في المركز فهناك الكثير من الحاقدين، وضعاف النفوس الذين يريدون أن يكونوا وطنيين على حسابي، وأن أركز على مستقبلي الدراسي والوظيفي.

شرحت لأبي كل ما دار في تلك المقابلات، دون أن يهدئ ذلك من غضبه. طلب مني أن أحذف كل ما يتعلق بالثورة على الكمبيوتر تحسباً لأي طارئ.

* * *

كنت في ذلك العام أدرس في السنة الثالثة في كلية الحقوق في جامعة حلب وعلى مشارف الدورة التكميلية. وبحاجة لثلاث مواد من السبع التي أحملها للترفع إلى السنة الرابعة. الأمر الذي لم يكن غاية في الصعوبة رغم تأثير اهتمامنا بالثورة وأخبارها على دراستنا. أول مادة من برنامج الامتحان كانت بتاريخ الثامن عشر من آب. المواريث التي كنا سنبدأ بها امتحاننا ذلك اليوم كانت أصعب مادة في تلك السنة.

بعد الخروج من قاعة الامتحان، لم يبد لي ما كتبته حاسماً في نجاح المادة أو رسوبها. قابلت صديقي رامي الذي كان يدرس في السنة الثانية، وكان أول من اعتقل في مظاهرة يوم جمعة العزّة في الخامس والعشرين من آذار الماضي. كان رامي أحد الشباب الذين نذروا كلّ وقتهم وحديثهم وتفكيرهم للثورة. كنت لا أملّ هذا الحديث مع هكذا أشخاص بمثل هكذا موضوع. رغم كون الجو شديد الحرارة، ورغم أني كنت صائماً! إلا أننا بقينا نتحدث عن الثورة في إحدى حدائق الجامعة لمدة طويلة. أكد رامي أنه يريد من حلب أن تثور على النظام ليس من أجل تعجيل سقوطه فحسب، بل ليعرف أهل هذه المدينة قيمة الثورة. فالثورة مرحلة هامة من مراحل تطور المجتمع، ولا يجب أن تنتهي دون أن تشهدها حلب، إذ سيفوتها الكثير مقارنة بالمدن الأخرى، ما يعني أنّ الهوّة كبيرة بينها وبين بقية المدن.

كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد الظهر عندما توجهنا إلى ساحة الجامعة ليعود كلٌ منا إلى بيته. على بوابة الجامعة شاهدت العديد من عناصر الأمن العسكري، وعناصر حفظ النظام يتجمعون هناك. خطرت لي فكرة ملعونة بأن أقوم بتصوير هذا المشهد المثير والقابل للنشر على صفحات الثورة. بالفعل أخرجت الموبايل وبدأت التصوير كعادتي. اقتربت من العناصر ووقفت بجانبهم ودرت حولهم لمدة قصيرة، وابتعدت بعد إيقافي التصوير. بدا لي أنه سيكون تسجيلاً ممتازاً للنشر. قبل أن نبتعد عن عناصر الأمن أصر رامي على أن يشاهد مقطع الفيديو قبل أن نفترق، فقمت بتشغيله لنشاهده في ساحة الجامعة عند موقف الباصات القادمة من البلد. وقبل أن نبدأ بتشغيل الفيديو قام أحدهم بوضع يده الثقيلة على كتفي وهو يقول:

"هات الموبايل".

تدفّق الأدرينالين من غدة قشرة الكظر لينتشر في دمي حاملاً معه ذلك المزيج من المشاعر. فجأة غدت الدنيا حمراء اللون والجو شديد الحرارة، وتحوّل الناس من حولنا إلى تماثيل حجرية. كان شاباً يبدو في عمري أو أصغر قليلاً من عناصر الأمن العسكري يريد أن يرى ما كنا نشاهد في هذا الموبايل. خطرت لي فكرة الهرب السريع، لكنني لم أجرؤ على ذلك. شاهد العنصر مقطع الفيديو، وعلى الفور طلب بطاقاتنا الشخصية وأخذ موبايلاتنا وصرخ لرفاقه لاعتقالنا. وقفنا على باب الجامعة بانتظار أن تأتي سيارة الأمن لتأخذنا على أكثر مكان يخشاه كل مواطن سوري. اختلطت علي المشاعر وراحت الأفكار في دماغي تشرّق وتغرّب بشكل عنيف، رغم الهدوء الكبير الذي كنت أظهره. شعرت بالندم على تلك الحماقة التي قمت بها، وعلى الطريقة الغبية التي شاهدنا فيها الفيديو أمام عناصر الأمن، وشعرت بالخوف الكبير مما سيجري في الأيام القادمة، وبالحزن على رامي الذي ورطته معي، وخصوصاً أنه معتقل سابق، وعلى أمي وأبي اللذين سينزل عليهما الخبر كالصاعقة. أحسست بالقهر وأنا موقن أني لم أقم بغير التصوير، الأمر الذي لا يمنعه أو يعاقب عليه أي قانون أو تشريع أو دين أو منطق أو عقل. إضافة إلى شعوري بالجوع والعطش بسبب الصيام، والتعب الكبير بسبب استيقاظي مبكراً على غير ما أنا معتاد عليه. كان كل شيء يوحي بنهاية مأساوية لذلك اليوم. بدأت بتقدير الخسائر التي سيكون ضياع الامتحان وأولها البقاء في السنة الثالثة.

تجمّع حولنا العناصر وبدأ كل واحد منهم يُسمعنا ما تجود به قريحته. سألنا أحدهم عن سبب التصوير، فقلت إني شاهدت هذا المظهر الغريب فأردت تصويره. لم يقتنع العنصر بما قلته، وأنا لم أكن أنتظر اقتناعه به. قال العنصر "أنت تريد الإرسال إلى الجزيرة وأورينت، على أنه اقتحام للجامعة". وآخر بدأ بمحاضرة لم تكن غريبة علي، حين بدأ يسأل "أمريكا بتعملّك مدارس ببلاش؟!" "أمريكا بتداوي الناس ببلاش؟!" الى آخر هذه السيمفونية الغبية التي لم أجاوب على أي منها، لأن أي جواب كان سيغضب العناصر أكثر فأكثر. وختم إنّ من حظنا الجيد أنّ الباص ليس هنا وأننا في ساحة الجامعة، في إشارة إلى ما يمكن أن نناله من ضرب وإهانة، لو لم نكن في مكان عام يمكن أن يصورنا فيه أي شخص. سأل آخر عن بطاقتي الشخصية المكسورة من

طرفها بحيث أصبح ينقصها كلمة الجمهورية، التي كانت على القطعة الصغيرة التي كنت أحتفظ بها مع الهوية، وراح يسأل "ما عاجبتك الجمهورية؟ لكن شو بدك؟ إمارة؟ شو؟ ليش ساكت؟" أكدت أنها قد كسرت بالصدفة وأني أحتفظ بالقطعة الناقصة في محفظتي. بعض العناصر كان ينظرون إلينا بشفقة وتعاطف كبيرٍ، وأحدهم قال لي: "إش لك بهالصرعة؟" لم يكن لدي جواب سوى أن أحرك وجهي وكتفي بطريقة تزيد شفقتهم علي. أصبحنا فرجة لكل من يدخل ويخرج من الجامعة، والكل كان ينظر إلينا بأسى على هذه الورطة التي أوقعنا أنفسنا بها.

تأخر وصول الضابط المسؤول بعد أن اتصل به أحد العناصر ليقوم بالتصرف معنا. فهم كانوا في مهمة وسوف يتوجهون إلى بلدة عندان حسبما أذكر. وصل الضابط بعد فترة ليست بالقصيرة مرتدياً نظارته الشمسية، وبدأ بالاستفسار من العناصر عن تفاصيل الموضوع، وشاهد تسجيل الفيديو. وبعد إجراء بعض الاتصالات التي أظنها كانت تسأل عن سجلٍّ لنا لدى فروع الأمن. قال بصوت مسموع بعد أن كان حديثه مع العناصر غير مفهوم "مين منكم محمد؟" قلت بأني أنا هو، متظاهراً بكثير من الخوف الذي لم أحتج إلى الكثير للتظاهر به، فقد كان موجوداً في كل خلية من خلايا جسمي.

- إنت من الخان؟
- نعم سيدي.
- من إدلب؟
- لا، أنا من الخان بريف حلب.
- وأنت يا رامي من حمص؟
- لا، أنا من البياضة بحلب، مو من حمص..
- ليش كنت عمتصور يا محمد؟ قمت برواية الكذبة التي ألفتها في تلك الدقائق بصوت عالٍ كي يسمعها رامي ويكررها.
- شفت أنا ورامي العناصر وراهنته إذا بحسن صورهم بدون ما يحسوا ولّا لا، واللي صار أنو الشب هون شافنا وما قدرنا نصوركم.

لا أعرف إذا كان كلامي مقنعاً لأحد، لكن كان أفضل من السكوت الذي يثبّت علينا التهمة. كرّر رامي كلامي عن مسألة الرهان. طلب الضابط أن نكتب كل ما قلناه على ورقة مرفقة بكل المعلومات الشخصية والتعهّد بعدم تكرار هذا الأمر مع توقيعنا على ذلك. تعجب الضابط من سوء خطي الذي طالما ميّز كل ما أكتبه، وأشكر الله على وجود برنامج وورد، الذي وفر علي مشاكل سوء الخط، ولولاه ما خطر لي أن أكتب لكم أي شيء مما تقرأون.

بعد أن أخذ الورقتين بدأ بمحاضرة طويلة جداً، كم كنت أشعر بالإرهاق والجوع والعطش، إضافة إلى الخوف والقلق من المجهول القادم بعد قليل. يبدو أن ذلك الضابط "ابن حلال" فهو لم يوجه إلينا أي كلمة نابية بحجة شهر رمضان ولأنه كان صائماً كما قال. وصفنا بالأطفال المتفذلكين بينما الشباب يقومون بواجبهم في هذا الحر الشديد. تابع كلامه إلى أن وصل إلى جملة أثارت انتباهي، فقد أكد أنه ما إن يرى أيّ مقطع فيديو يخرج على الإعلام من الجامعة فسيأتي بنا على الفور. هل سيتركنا حتى يأتي بنا؟ يبدو أن الأمر كذلك، فكل المخاوف والمصائب التي فكرت بها لا أساس لها.

هل أتقنا الكذبة؟ هل قام الضابط بتركنا على مسؤوليته؟ هل شفع لنا كوننا من مدينة حلب؟ هل هذا أمر ممنهج يقوم به النظام؟ لا أظنّ ذلك. المهم أننا خرجنا من الموقف بسلام ودونما اعتقال. والأجمل من ذلك أنّ الأمر لن يصل إلى والديّ. أعيدت لنا بطاقاتنا الشخصية وموبايلاتنا، وطُلب منا الانصراف. دون أن ننطق أي كلمة سرنا باتجاه موقف الباص ونحن في حالة صدمة من تلك الساعة العصيبة التي عشناها من رعب وخوف لم أمر بمثله قبلاً. افترقنا ليتوجه كل منا إلى منزله، وأنا أفكر فيما لو حصل غير الذي حصلِ، وخصوصاً بقاء أبي وأمي بعيدين عن الموضوع، وكيف أنهم على غير عادتهم لم يتصلا بي على موبايلي بينما كنا في عهدة عناصر الأمن ليعرفا سبب تأخري عن المنزل.

التدخل الخارجي

عندما انطلقت الثورة السورية كان قد سبقها عدّة ثورات في المنطقة العربية في مصر وتونس وليبيا والبحرين واليمن. وكان واضحاً أن سورية ليست أياً من هذه الدول التي مرّ بها الربيع العربي رغم أنّ ثورتها كانت في نفس السياق. ليبيا كانت الأقرب إلى سورية لجهة تعنّت النظام الحاكم، والإصرار على استخدام الحل الأمني لقمع الانتفاضة السلمية. أو ربما كانت لدى النظامين السوري والليبي الوسائل الكافية للاستمرار في هذا الخيار. في ليبيا تدخل المجتمع الدولي بسرعة كبيرة لحسم الصراع، الذي أصبح مسلحاً بعد وقت قصير، وانحسم الموقف لصالح القوى المعارضة لنظام القذافي. لن أدخل في تفاصيل تلك الثورة. إلا أننا يجب ألا نغفل كيف سيطر على أذهاننا وقراراتنا ما كان يجري في ليبيا. فبعد انطلاق الثورة توقع الجميع التدخل، فمع تواصل الثورة السلمية، وتواصل مجازر النظام لا بد في النهاية للمجتمع الدولي من التدخل وفرض حظر جوي على سورية، ما سيدفع عناصر الجيش السوري للانشقاق والانضمام إلى الثورة الشعبية. لكن متى كان سيأتي هذا التدخل؟ هذا السؤال الذي بدأنا بطرحه على أنفسنا دونما جواب واضح..

كان ديبلماسيو الدول الغربية والعربية يخرجون علينا بتصريحات شبه يومية عن ضرورة وقف العنف ضد المتظاهرين، وعن ضرورة السماح للإعلام المستقل بالدخول للبلاد، وضرورة تحقيق الإصلاح السياسي الذي ينشده الشعب. التصريحات مع مرور الوقت بدأت تأخذ شكلا أعلى صوتا وأكثر حدة، حتى وصلت إلى الطلب من الأسد الرحيل بعد فقدان شرعيته. على مدى عام تكررت هذه التصريحات، وتسابق المسؤولون الغربيون والعرب لاختراع مصطلحات وجمل تعبّر عن إدانتهم واستنكارهم، وامتعاضهم، وصدمتهم، وحزنهم، وغضبهم لما يجري للشعب السوري، دون أن يقوم أحد بالخطوة التالية، وهي القيام بتحرك جدي للإسهام برحيل الأسد الذي فقد شرعيته بالنسبة لهم كما كانوا يبدون..!

وضح بعد فترة من انطلاق الثورة أن أحداً لم يكن ليتدخل وينقذ الشعب السوري، وكل ما صدر عن المجتمع الدولي حجج واهية لا تبرر عدم التدخل لإنقاذ المدنيين في سورية. كنا جميعاً نتساءل لماذا لا يريدون التدخل؟ بسبب عدم وجود كميات كبيرة من النفط في الأراضي السورية؟ بسبب الموقف الروسي؟! بسبب إسرائيل؟! الوضع الإنساني ليس بالسوء الذي يدفعهم للتدخل؟ لا أعرف حقيقة ما دفعهم لعدم التدخل، إلا أنه من المؤكد قد تدخلوا في أوضاع أقل أهمية وخطورة، وتدهوراً من الوضع السوري. على العموم هذا شأنهم.

رغم قسوة هذه الحقيقة إلا أننا نوعاً ما عرفنا كيف تدار الأمور بين قوى المجتمع الدولي. فالاعتبارات الإنسانية تأتي في مرحلة متأخرة بعد اعتبارات المصلحة لكل دولة التي لا يمكن فك شيفرتها. المسألة الدولية غاية في التعقيد والغموض وكان على الشعب السوري أن يتقن كل قواعدها أملاً بأن يتدخل المجتمع الدولي.

ظننا في إحدى المراحل أن على الشعب السوري دفع فاتورة كبيرة جداً لا يعرف أحد كم ستبلغ حتى تجعل الاعتبار الإنساني يحتل الأولوية الأولى لدى المجتمع الدولي. أو أن نجعل من مصالح الدول العظمى التدخل في سورية عن طريق تقديم تنازلات لا نعرف إذا كانت الطاقة الإنتاجية للبلد تكفيها. كان شيئاً محبطاً لما توصلنا إليه، عندما عرفنا أننا سنكمل المشوار وحدنا أمام آلة القتل اليومية التي يحتكرها النظام، وأننا نقوم بعملية جراحية دونما مخدر، ورغم ذلك فالشعب السوري اتخذ قراره. وهنا تحديداً تكمن نقطتا قوتنا وضعفنا، وفيها نجاتنا ومصائبنا.

كنا نعتقد أنها مؤامرة دولية تشابه ما تعرض له الشعب الفلسطيني على مدى عقود. ولا أعرف إذا كان من المصادفة أن يستعصي على العالم بهذه الطريقة دولتان فقط هما سورية وإسرائيل. لم يستطع مجلس الأمن إدانة مجازر النظام بفعل الفيتو الروسي والصيني الجاهزين على الدوام. لا أعرف تحديداً ما الذي دفع روسيا إلى الوقوف مع النظام السوري وتأمين الغطاء السياسي له، ودعمه عسكرياً باستمرار. هل تريد روسيا الآن استعادة مكانتها كقطب عالمي بعد أن شعرت بانتعاشة اقتصادية غير مسبوقة منذ أيام الاتحاد السوفيتي؟! هل

هدف موقفها من النظام السوري هو مجرد معاندة الولايات المتحدة والأوربيين؟! هل سورية تشكل آخر منطقة نفوذ لروسيا في المنطقة وتخشى خسارتها؟ فلماذا لا تدعم الشعب السوري وتحافظ على امتيازاتها في المنطقة إلى الأبد؟ قد يكون هذا هو الدب الروسي الذي عودنا ألا يرى أبعد من أنفه، أو ربما هو يرى أبعد من ذلك بكثير، لكن علينا أن نكون ضحايا لنظرته الجديدة.

فمع انطلاق الثورة في مصر الذي كان نظامها أهم حليف للأمريكان في المنطقة. عرف الأمريكيون كيف يتعاملون مع الشعب المصري، فهم خسروا النظام لكنهم لم يخسروا الشعب، الذي لن يحقد عليهم كما نحقد الآن على الروس. الأمريكان تخلوا عن كلبهم في المنطقة بأقل من أسبوعين، ولا أدري كم من الوقت يحتاج الروس ليتخلوا عن كلبهم في المنطقة، هذا إذا كان من الممكن أن يتخلوا عنه، ويحافظوا على أقل الخسائر كعلاقة طيبة مع الشعب السوري. على العموم الروس قد خسروا الشعب السوري إلى الأبد، وضاع الوقت عليهم لاستعادة الود معهم.

لم يكن موقف الإيرانيين مختلفاً، إلا أنه متوقع، نظراً للنظام الطائفي الذي يحكمه. فقد قامت حكومة إيران بدعم النظام بالسلاح والمقاتلين والمال إذ أصبحنا نعتقد أن الاقتصاد السوري والإيراني واحد. وأن إيران تدير وزارة الداخلية السورية، بينما يدير الروس وزارة الخارجية، إذ صرت أشك أن هناك قضية أخرى يمكن أن تهتم بها هاتان الدولتان..!

الكلام ذاته ينطبق على حزب الله، الذي فقد شعبيته ورموزه في سورية، بعد أن كانت أعلامه وصور أمينه العام تنتشر في كل المدن السورية، بعد حرب 2006.

انقلبت المفاهيم وتغيرت المعطيات بعد أن وجه الحزب بندقيته إلى السوريين. كنت أتمنى أن يدرك حزب الله أن من دعمه هو الشعب السوري لا نظامه، فيقف بجانبه عندما خرج صارخاً "الموت ولا المذلة" الشعار ذاته الذي يردده أنصار حزب الله على الدوام "هيهات منا الذلّة". عموماً أي كلام موجه لحزب الله ومثله النظام في العراق ليس له أي أهمية كونهم وكما أثبتت التجارب جزءاً من إيران وسياستها في المنطقة، ولا حاجة لمخاطبة الوكيل في حضور الأصيل.

إحدى أكثر الحجج التي اختبأ خلفها المجتمع الدولي لتبرير عدم تدخله لإنقاذ الشعب السوري هي عدم توحّد المعارضة السورية. وعلينا أن نفرق ونحن نتحدّث عن المعارضة بين الشعب الثائر والمعارضة السياسية. ففي الأنظمة الاستبدادية لا وجود إلا لنظام دكتاتوري وشعب، والمعارضة لا مكان لها على الساحة. فعلى مدى حكم نظام الأسد لا وجود لمعارضة أبداً، فتهمة المعارض هي الخيانة، وحكم الخيانة الإعدام أو الاعتقال الأبدي. وفي عديد من الأحيان استطاع بعض معارضي النظام التسرب إلى خارج البلد ليعيشوا على أمل العودة إلى الوطن في يوم قد يأتي، وفي كثير من الأحيان يأتي ملك الموت ولا يأتي.

المعارضة السورية تتشكل من كل من استطاع الخروج من البلد قبل أن تطوله آلة النظام القمعية، استقر هؤلاء في الخارج دون أن يشكلوا تنظيمات سياسية أو أحزاباً، فغالبيتهم أشخاص غير سياسيين، بل كانوا مثقفين أو أدباء، فنانين أو رجال أعمال، لم يستطيعوا العودة إلى سورية لأسباب مختلفة في الشكل وموحدة في المضمون. كانت جماعة الإخوان المسلمين تقريباً تشكل التنظيم السياسي الوحيد خارج البلد الذي يحمل هيكلية قيادية وتنظيمية واضحة وأيديولوجية معلنة يعمل على تحقيقها. أضيف إليهم بعض الشخصيات التي خرجت من البلد بعد بدء الثورة ليكون لها الحرية في الكلام والعمل، وخرج الكثير من المنشقين عن النظام ليشكلوا ما يسمى بالمعارضة التي يطلب منها المجتمع الدولي التوحّد، وكذلك يحملها الشعب السوري الكثير من المسؤولية على الوضع المأساوي الذي وصلوا إليه.

بالطبع إحدى أكبر نقاط ضعف الثورة السورية كونها لا تملك ذراعاً سياسياً قوياً يوازي ما وصلت إليه الثورة في الداخل. وجدت هذه المعارضة نفسها مجبرة على التوحد، ولا أدري كيف سيتوحد هذا الخليط الذي تكلمنا عنه وغالبية المعارضين العظمى لا تستطيع تشكيل تكتلات سياسية واضحة المعالم، بسبب عدم وجود أي ثقافة سياسية لدى غالبتهم الذين لم يتقنوا إلا الظهور على شاشات التلفزة للقيام بالتحليل، والتعليق على الأخبار، والندب، والنواح على ما وصل إليه الشعب السوري.

النظام وإعلامه سوّق كثيراً للمعارضة، لا أدري أين كانت قبل انطلاق

الثورة، وأطلق عليها "معارضة الداخل". هذه المعارضة طبّل لها النظام وزمّر ليبرهن أن هناك حرية وحياة سياسية في سورية. كانت تضم شخصيات غالبيتها مجهول بالنسبة لنا، ولا أريد أن أظلم أحدهم باتهامهم جميعاً بالعمالة للنظام، إلا أن النظام على الأقل يستغلهم لتلميع صورته في الخارج. طالب هؤلاء بالحوار مع النظام للانتقال إلى عصر الديمقراطية، ولا أعرف كيف سنحاور العائق الوحيد ضد الديمقراطية للوصول إليها. ألم يرد النظام على أول مبادرة للحوار في درعا بأن أهان شيوخها وعائلاتها بطريقة فجرت الوضع. كان يمكن أن تكون مطالبهم مقبولة ولها شعبية كبيرة، لو كنا نراهم ونسمعهم يتحدثون بتلك الطريقة قبل انطلاق الثورة وقبل ارتكاب المجازر، وسقوط هذا العدد الكبير من الشهداء ببنادق النظام، واعتقال مئات الآلاف من المطالبين بالحرية وإسقاط النظام. المتابع لتصريحات هذه المعارضة يتأكد أنهم معارضة للمعارضة لا معارضة للنظام، فلا نراهم إلا وهم يكيلون التهم لشخصيات المعارضة، وللثوار على الأرض ويطالبونهم بالقدوم للحوار مع النظام، وكأن أحداً منهم يستطيع القدوم ولا يريد ذلك. الشعبِ السوري كان يردّ عليهم، ويفنّد أي تمثيل لهم للشعب السوري، ويطلب من أيٍ شخص يريد الحوار أن يذهب ويحاور الأطفال الذين قتلتهم عناصر النظام وشبيحته.

في مرحلة ما من مراحل الثورة السورية وصل الجميع إلى قناعة تفيد بأن الوسيلة الوحيدة لإجبار المجتمع الدولي على التدخل هي تشكيل هيئة تدير البلاد بعد سقوط نظام الأسد. فقامت المعارضة بتجميع أكبر قدر ممكن من الشخصيات المعارضة المتفقة على إسقاط نظام الأسد كحل للأزمة السورية، والمختلفة وغير المتجانسة سياسياً لتشكيل المجلس الوطني السوري الذي يمثل السوريين الذين خرجوا في إحدى أيام الجمعة ليعلنوا دعمهم لهذا المجلس تحت شعار "المجلس الوطني يمثلني". شكِّل المجلس وأبدى الثوار دعمهم له، لكن لم يبدُ أنّ تدخلاً دولياً يلوح في الأفق. مع مرور الوقت بدأ يتأكد القول الذي يتحدث عن أن أحداً لن يتدخل حتى لو أشعل السوريون لهم أصابعهم العشرة، وعرف الجميع حجم الخطأ الذي ارتكب بتوجيه خطواتنا بحيث تجعل المجتمع الدولي يتدخل كما سبق وفعل في ليبيا قبل وقت ليس بالطويل.

الحقيقة كانت غاية في الصعوبة، فهذا النظام لن يتنازل حتى لو بقينا نتظاهر مئة عام. بالمقابل يمتلك هذا النظام آلة عسكرية كثيرة العدد، وافرة العدّة، فكيف ستطيح به ثورة مسلحة، والشعب السوري لا يملك من الأسلحة إلا القليل من الذي لا يجوز بأي شكل من الأشكال مقارنته بعتاد النظام، وأسعار الأسلحة في ذلك الوقت كانت أكبر بعشرات المرات من سعرها قبل الثورة. وحتى لو كانت أسعار السلاح لم تتغير فالفرق لا يزال كبيراً ولا مجال للمقارنة. الخيار المسلح كان يشكل انتحاراً، لكن ألم يكن الخروج في المظاهرات انتحاراً؟!

بدأ يزداد عدد أنصار الثورة المسلحة بشكل كبير، بعد تواصل خروج المظاهرات وتواصل إطلاق النار عليها وسقوط عدد كبير من الشهداء، وبعد التيقّن من حقيقة هذا النظام الذي لا علاقة له بالحضارة لتؤثّر به المظاهرات السلمية. وبعد عدم تدخل أحد من الخارج على الأقل بالطريقة التي نتمنى. أظن أن القرار قد أتخذ بالكفاح المسلح لإسقاط النظام لدى كل شخص خرج في مظاهرة، وأطلق عليه الرصاص. إلا أن الشعب بشكل عفوي أو ربما لعدم توفر السلاح كان يؤجل هذه الخطوة لحين استطاعته القيام بها، ولحين توسّع الثورة لتصل إلى أكبر قدر ممكن من المدن والقرى، فالنظام لا يسقط إلا بالقوة، إلا أنَّ هناك أموراً كثيرة لا يمكن للسلاح أن يقوم بها.

خفافيش الليل

في ساعات الصباح الأولى من يوم السبت العشرين من شهر آب ذلك العام، بدأت إنهاء التحضير لامتحان مادة القضاء الإداري بعد أن استيقظت منتصف الليل. استلقيت على الكنبة في غرفتي كالمعتاد للاستعداد لهذه المادة التي كانت غاية في الصعوبة، وسبق أن رسبت بها. اقتربت الساعة من الثالثة صباحاً عندما أنهيت حلّ أسئلة الدورات الخاصة بهذه المادة، وعرفت أني بحاجة إلى حظ كبير للنجاح بها. فجأة رنّ جرس الباب. من سيأتي في هذا الوقت المتأخر ويرنُّ الجرس بتلك الطريقة المزعجة؟! فتح أخي فادي الباب فوصل إلى مسامعي بعض الكلام غير المفهوم والأصوات الغريبة التي دفعتني للارتياب كثيراً، فقمت لأستطلع الأمر. وقفت في الممر القصير المؤدي إلى باب المنزل فرأيت أربعة عناصر أمن مدججين بالسلاح. قال أكبرهم الذي يبدو مسؤولا عنهم:

- أنت محمد؟
- نعم.
- محمد تعال معي.

بدون أن أبدي أيّ ردة فعل أو أقول أي كلمة توجهت باتجاههم، دون أن أجلب معي أي شيء حتى موبايلي تركته على الطاولة في غرفتي، لم أغير ملابسي. كنت مرتدياً بيجامة وقميصاً قطنياً. سألني العنصر عن بطاقتي الشخصية، فقلت:

إنها ليست معي، فطلب على الفور من فادي إحضارها. آخر ما فعلته وأنا خارج إلى المجهول هو طلبي لفادي أن يوقظ أبي. حمدت الله كثيراً أنّ أمي لم تكن في المنزل ذلك اليوم.

شبك اثنان من العناصر أيديهم بيديّ، وتقدَّمَنا واحدٌ منهم لنصلَ إلى مدخل البناء، لاحظت عدداً كبيراً من العناصر المسلحين ينتشرون في الحارة، وانتبهت إلى أن أنوار الشارع كلها مطفأة على غير العادة. كان بانتظارنا سيارة

المتسوبيشي البيك أب التي سبق وشاهدتها تحمل عناصر الأمن القادمين لقمع المظاهرة في جامع صلاح الدين. لاحظت وجود سيارة "كيّا ريّو" ترافقهم أعتقد أن الضباط كانوا فيها.

بدأت ألعب دور اللا مبالي الذي أتقنه جيداً، رغم أن ما يجري لم يكن أبداً بالعادي. أدخلت إلى القسم الخلفي من السيارة، التي كانت تحتوي على كرسيين طويلين متقابلين. جلست في آخر أحدهما عندما طلب مني أحد العناصر الجلوس على الأرض، فعارضه زميله طالباً مني البقاء مكاني. بدأت أفكر عن السبب الذي جعلني أقع بين أيدي هؤلاء. الأسباب التي تدفعهم لاعتقالي كانت كثيرة، وخشيت ألا يقف الأمر عند اعتقالي. رجحت أن يكون السبب له علاقة بضبطنا أنا ورامي قبل يومين، ونحن نصور عناصر الأمن، وخصوصاً بعد أن جاء أحد العناصر ليسألني عن "اللابتوب" الذي أملكه. بالطبع أجبت أني لا أملك أي محمول، فعاد بعد قليل حاملاً الكمبيوتر الذي تستخدمه كل العائلة. الموقف تطور بشكل مفاجئ عندما جاء عنصر من الدورية وبرفقته ماهر ومعه كمبيوتره. أشعر بالإثارة الآن، وأنا أكتب ما جرى ذلك اليوم وبالكاد أستطيع السيطرة على أناملي على لوحة المفاتيح، رغم مضي أكثر من سنة على ذلك.

بدا لي الأمر في تلك اللحظة أكثر خطورة، ويبدو أنه لن يقتصر عليّ وعلى ماهر، ويبدو أن الشلة كلها سترافقنا. جلس ماهر مقابلاً لي وأمامه كمبيوتره، وأنا كذلك كان بين يدي كمبيوتري. صعد باقي العناصر الذين ضاقت بهم السيارة وانطلقوا بنا. في تلك اللحظة بدأت أقدر خطورة الوضع الذي نحن فيه وبدأ الخوف يتسرب إليّ بعدما كنت متماسكاً. بدأت كذلك أقدر الخسائر التي كان أولها هي مادة القضاء الإداري التي لا يبدو أن الأمر سيقتصر عليها، وسيكون مصيري البقاء في السنة الثالثة. بدأ العناصر بالحديث معنا فيما كنا نتوجه إلى مكان ما. حاولت التزام الصمت قدر الإمكان بينما تحث ماهر قليلاً مع العناصر الذين تبجج أحدهم بأن الوطن غال. كان الوطن غالياً جداً إلا أننا نحن كنا غاية في الرخص. على الطريق فوجئنا بعودة السيارة التي تقلنا أدراجها، حتى وصلنا إلى المكان الذي انطلقنا منه. خشيت أن يجلب معتقل آخر من أصدقائنا أو زكريا الذي خرج قبل شهر من السجن أو فادي

أخي، بينما ظن ماهر أن هناك خطأ ما وسنعود إلى المنزل. الموضوع لم يكن كما فكر أحدنا، وبالطبع لم يكن برنامج الكاميرا الخفية، فالدورية عادت لاستعادة أحد العناصر الذي نسيته هناك.

عادت السيارة لتنطلق بنا إلى حيِ الأعظمية لجلب مزيد من المعتقلين، كان اثنان منهم غير موجودين في المنزل، بينما اعتقل رجل عمره قريب من الأربعين هو وكمبيوتره، ركب معهم في السيارة السياحية. أغاظني كثيراً أحد باعة الخضار، ونحن بانتظار المعتقل الثالث، عندما تحدثِ مع العناصر وحياهم وقدم لهم الكثير من الموز ليأكلوه. توجهت بنا السيّارة إلى الفرع 291 المعروف بفرع الأمن العسكري أو المخابرات العسكرية الذي يضاهي قلعة حلب بحجمه ويعمل فيه الآلاف من عناصر الأمن.

من تحت أقدام بشار الأسد مررنا لداخل فرع الأمن العسكري. هكذا بدا لي الأمر عندما عرفت أن الباب الذي سوف نمر منه يقع تحت صورة عملاقة لبشار الأسد يظهر فيها واقفاً ببذلته الزرقاء التي طالما نظرت إليها، وأنا في طريقي في تلك المنطقة، دون أن أعرف ما الغرض من هذا المبنى العملاق. دخلنا إلى ما بدا لي مرآباً للسيارات تحت الأرض، إلى أن وصلنا إلى باب من الحديد، طرقه ذلك العنصر الذي بدا قائداً للمجموعة. لحظات قليلة حتى ظهر أحد الحراس من الشباك الصغير الموجود في الباب. تأمل الحارس وجوهنا قليلاً ليعود ومعه المفاتيح ليدخلنا إلى غرفة الموظف المسؤول عن استلام المعتقلين. دخلنا إلى غرفة لا يبدو عليها الترتيب، يجلس فيها شخصان، يبدو أحدهما قريباً من عمري ليقوموا باستلامنا نحن الثلاثة. قاما بأخذ بياناتنا ومعلومات البطاقة الشخصية. كان مهندساً من بلدة عندان هو الشخص الثالث الذي اعتقل معنا، والذي قال للموظف إنه مريض وأجري له عملية في القلب قبل شهر، وأنهم أخذوا أحد الشرايين من ساقه ليوضع في مكان آخر. هذا ما فهمته من العملية التي بدت خطيرة جداً، وخصوصاً عندما أكد أنه بحاجة إلى أدويته ولا يستطيع الاستغناء عنها.

سئلنا عن كل ما يتعلق بنا، وخصوصاً عملنا وأكد زميلنا، أنه يعمل في مكتب هندسي فيما أجاب ماهر بأنه موظف. لم أقل لهم بأنني موظف، بل أخفيت ذلك، وقلت إني طالب في السنة الثالثة في كلية الحقوق. لم أعرف

جدوى إخفائي هكذا أمر، وفضلت متابعة ما أخفيت. في تلك اللحظة التفت إليّ الموظف الذي كان يقوم بالكتابة ليتفحص وجهي جيداً، ويقول: إنه لا يريد أن يراني يوماً في كلية الحقوق. فهمت من كلامه إنه طالب حقوق كذلك. بعد أن انتهوا من تثبيت المعلومات طلبوا تسليمهم كل ما بحوزتنا من موبايلات أو نقود أو ألبسة لا يجوز إدخالها للزنزانة خشية استعمالها للانتحار. لم أكن أحمل ذلك الوقت سوى القلم الذي كنت أستخدمه في دراستي، والذي احتفظت به في جيبي. أعطيته إلى الموظف فرماه على الطاولة دون أن يضعه مع الأغراض الشخصية.

صرخ الموظف على شخص اسمه أبو سعيد الذي بدا عندما وصل شاباً عملاقاً أصلع الرأس يلبس بذلة عسكرية، ليقوم بتفتيشنا. هذا التفتيش بالطبع يتضمن أن نخلع ملابسنا بالكامل ونجلس القرفصاء، كي لا نستطيع إخفاء شفرة في مؤخراتنا، خشية أن نستعصي بها كما قيل لي. في تلك الأثناء سمعت أذان الفجر يعلن بدء فترة صوم العشرين من رمضان. حاولت أن أنظر إلى كل شيء في تلك الغرفة وأن أحفظ في ذاكرتي كل ما تقع عليه عيني، إلى أن نبهني ذلك العنصر بقوله: "حاج تتلفت ولا..". أكثر ما أزعجني قبل تحويلنا إلى الزنزانات أن الموظف أخذ نظارتي الطبية ووضعها مع الأمانات خشية أن أستخدمها في الاستعصاء داخل الزنزانة. فأنا لم أتعود على خلعها إلا وقت النوم، ولا أستطيع النظر جيداً بدونها. فكرت في تلك اللحظة داخل الفرع بما قام به أهل جسر الشغور في مفرزة الأمن العسكري هناك، وشعرت أنه من غير الطبيعي ألّا يقوموا بذلك.

انتهت عملية الاستلام وسوقنا إلى الزنزانات التي بدت في صفين، في الأول خمس أو ست زنزانات انفرادية يقابلها حائط وفي آخر الصف زنزانة كبيرة في صدر الممر، وفي الصف الآخر عشر أو اثنتا عشرة زنزانة متقابلة، وزنزانة مفردة في الصدر تماثل التي في الصف الأول. وضعت في الزنزانة الكبيرة الأولى بينما وضع ماهر والمهندس الآخر في الزنزانة الكبيرة الأخرى. وفي لحظة دخولي إلى الزنزانة المظلمة عرفت أن الكابوس قد بدأ.

الكابوس

عندما دخلت الزنزانة لاحظت قبل أن يغلق الباب ويحل الظلام وجود ثلاث أشخاص نائمين على الأرض. بعد ذلك ساد الظلام والصمت الكثيف ليبدأ بعدها الكابوس. كنت أخاف أن أخاف، فأفقد ما أملكه من عقل أو رزانة وشدة بأس. كيف لي ألا أخاف وأنا أنتظر المجهول؟ جلست أمام باب الزنزانة ثم تحولت إلى الزاوية البعيدة محاولاً أن أنام. كيف لا أشعر بالأرق؟ وأنا لا أعرف ماذا ستحمل لي الساعات القادمة. كيف أنام؟ وكنت قد استيقظت بعد منتصف الليل. ومن أين يأتي النوم؟ ولا يوجد في الزنزانة أي شيء يمكن أن أفترشه سوى الأرض الصلبة. خلعت البلوزة القطنية ووضعتها تحتي ووضعت "الشحاطة" تحت رأسي كوسادة. كم شعرت بالأنس بتلك "الشحاطة" التي وضعت خدي عليها. كانت لأبي، وهي الشيء الوحيد الذي حملته معي من تلك الدنيا التي خرجت منها إلى هذا القبر.

انقطع الاتصال مع أي شيء في الخارج، وبقي الاتصال الوحيد الذي يربطني بربي. شعرت بالنبي يونس عندما كان داخل ثلاث ظلمات، ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر العميق، وظلمة الليل البهيم. دعوت ربي بما دعاه يونس ذلك الوقت "لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين" لكن هل كنت ظالماً نفسي في ذلك الوقت؟ شعرت في تلك اللحظة بالندم على ما قمت به ولعنت الساعة التي فكرت فيها بالمشاركة في الثورة. ظننت أنني ظلمت أبي وأمي أكثر مما ظلمت نفسي، وبأنني كان يجب أن أقوم بمزيد من الحساب قبل أن أقوم بهذا العمل، الذي بدا ذلك الوقت أنه أكبر مني بكثير. كانت تلك المرة الأولى والأخيرة التي أفكر فيها على تلك الطريقة، لأنفض بعدها هذا الفكرة من رأسي، وأحاول التركيز على ما سيجري بعد ساعات، فما جرى قد جرى، ولا يمكن تغييره الآن.

كان لدي في ذلك الظلام الكثير من الأمور التي يجب أن أقلق لأجلها. كان علي أن أخاف مما يعرفونه عني ليقوموا باعتقالي بتلك الطريق من المنزل،

فلو عرفوا كل ما أعرف فبالتأكيد المصيبة سيكون لها أبعاد مضاعفة. كذلك كان علي أن أقلق حول عملية التحقيق التي ستشهد بكل تأكيد تعذيباً جسدياً ونفسياً. شعرت بالقلق كذلك على من يمكن أن أورطهم معي من الأصدقاء، لو ذكرت اسم أحدهم في التحقيق. قلقت على ما يحتويه جهاز الكمبيوتر من مقاطع فيديو كثيرة من المظاهرات التي صورتها، ومقاطع أخرى كنت قد حملتها من الانترنت. كان هناك تسجيل فيديو من الخطير جداً بالنسبة لي مشاهدتهم له. وهو تسجيل يظهر فيه صوت عامل مقسم في الجيش يتحدث مع أحد الضباط عن تحرِّك دبابة ومسلحين يقومون بالهجوم في مكان ما، وتبادل لمعلومات مهمة عن الموقع العسكري، كان قد وصلني عن طريق أحد الأصدقاء. هذا المقطع كان ليثير التساؤلات الكثيرة عن عملية تجسس على الجيش قد تكون جرت بواسطة أحد المعارف في الجيش. كانت مشاهدتهم له كافية لتسبب لي بتهمة غاية في الخطورة لا يعرف أحد عواقبها، وخصوصاً أني لا أملك أي معلومات أعترف بها عن هذا الموضوع وروايتي لن يصدقها أحد، إضافة إلى أني كنت سأشرك في هذه التهمة أيّ صديق أو قريب يخدم في الجيش السوري.

كنت كذلك شديد القلق على أمي وأبي وما الذي يمكن أن يصيبهما عند وصول الخبر إليهما ريثما يأتيهما خبر يطمئنهما عني. فخسارتهما كانت كبيرة ومعرفتهما بالنظام وإجرامه ستجعلهم يتوقعون الكثير من الشر الذي سيلحق بي. كنت واثقاً من أن حالتهما ستكون مزرية، فلا طاقة لهما بتحمل أي مكروه، قد يصيبني، بينما أنا في ذلك المكان تحت الأرض.

كما كنت خائفاً من حساب الفيسبوك الذي يجب أن أعطيه للمحققين، فبالتأكيد سيسألونني عن هذا الموضوع. كان لدي حساب باسمي الثلاثي يحتوي على الكثير من المنشورات المناهضة للنظام، كالنكات وبعض التعليقات دون أن يربط ذلك الحساب أي تنسيقية أو صفحة من صفحات الثورة. لكن المشكلة أنه كان يحتوي كل ما كان يشاركه أصدقائي على صفحاتهم، وهذا يعني توريط كل من لم يحذف حسابي حتى ذلك الوقت. الحساب الآخر لم يكن فيه أي من أصدقائي، ويحمل اسم ”Micheal Ballack” وصورة الشهيد حمزة الخطيب كصورة شخصية، ويحتوي على ما

تنشره صفحات الثورة، إضافة إلى ما كنت أشاركه أنا، وكذلك كنت أدير من خلاله صفحة "كلية الحقوق/جامعة حلب". كان الخيار غاية في الصعوبة، لكني كنت أملك حساباً قديماً يحمل اسمي وصورتي، كان قد سرق قبل انطلاق الثورة، ولم يكن فيه ما قد يلفت انتباه المحققين، ويستطيع الجميع مشاهدته دون الحاجة إلى كلمة السر لأني لم أفعّل أياً من خيارات الخصوصية. توقعت أن هذا الخيار سيكون أنسب الخيارات.

الوقت كان ثقيلاً غليظاً. لم أستطع النوم ولم أجرؤ على طلب الذهاب للحمام، لأني كنت أخشى ردة فعل الحراس، ولتوقعي وجود حمام داخل الزنزانات. كنت أشعر أن مثانتي على وشك الانفجار. حاولت المشي في قلب الزنزانة لأريح نفسي وعقلي الذي تزاحمت فيه الأفكار. كذلك كان دماغي على وشك الانفجار في وسط ذلك الكم من الهدوء القاتل. حاولت عدّ البلاطات في الزنزانة طولاً وعرضاً، وحساب مساحة الزنزانة، وحاولت معرفة ارتفاع الغرفة التي بدا في إحدى زواياها ضوء أحمر يدل على وجود كاميرا تصور المعتقلين. أعود إلى مكاني وألصق وجهي بالأرض، فتعاودني الكوابيس عمّا سأمر به بعد ساعات. شاهدت على شعاع الضوء الصغير الذي يتسرب من الباب نملة صغيرة تمشي على أرض الزنزانة من النوع الذي يعيش في المنازل. آنست لي وحشتي رغم وجود ثلاثة أشخاص معي في الغرفة لم أشعر حتى الآن أي حياة تدب في أجسادهم.

مرت حوالي خمس ساعات قضيتها على هذه الحال لا أعرف نفسي، هل أنا نائم أم صاح؟ أميت أم حي؟. كثيراً ما سألت نفسي، كما يتساءل أي شخص، وهو في كابوس ما. هل هذا كابوس وسينتهي بعد قليل؟ لكن هذا الكابوس لم ينته كما كان ينتهي كل كابوس عند وصولنا لهذا السؤال، فنستيقظ لنعوذ بالله من الشيطان. تعوّذت كثيراً من الشيطان، وقرأت الآيات القليلة التي أحفظها من القرآن طلبا للثبات. فمازال المجهول الذي ينتظرني يشعرني أني أعيش أحد أفلام الرعب التي طالما شاهدتها. لكن يبقى الواقع مختلفاً جداً، ولن يعرف ذلك الخوف الذي شعرت به إلا من عاش تلك اللحظات، عندما كانت احتمالاتك تتراوح بين الموت وإطلاق السراح بعد ساعات أو دقائق.

شعرت بأنني أحد براهين النظرية النسبية لأينشتاين، فلأول مرة أشعر أن

الوقت قد توقف ولا يريد أن يمضي، على الأقل حتى أعرف مصيري. كنت أضع رأسي محاولاً النوم وأستيقظ دون أن أعرف هل نمت دقيقة أو ساعة أو يوماً. ولم أعرف إذا ما كنت قد نمت بالأصل.

بدأت بالتساؤل هل بقي في ذاكرتي تفصيل من حياتي قبل دخولي الزنزانة؟ هل أنا محمد؟ الذي يدرس في كلية الحقوق، ويعمل في المركز؟! بل هل أنا موجود أصلاً؟ "أنا أفكر إذاً أنا موجود"، هذا على الأقل ما يقوله ديكارت. رجوت الله ألا يكون مخطئاً. هل أنا في سورية؟ في حمص، حلب، درعا، أم في الشام؟ ما أكثر السجون في تلك البلاد. هل أنا في كوريا الشمالية أو إيران أو في الدول العربية، التي ما زال الإنسان يسجن فيها، عندما يكتشف أنه إنسان. هل أنا في القرن الواحد والعشرين؟ هل أنا في سورية أم في إحدى زنزانات النازية، أو في الباستيل، أو في سجن من سجون الفراعنة؟ هل كان عند هؤلاء سجون أصلاً؟ أم إنهم كانوا يتخلصون من معارضيهم في النيل. هل نحن على كوكب الأرض؟ وهل الأرض تدور حول الشمس؟ أم إن هذه الكواكب والنجوم هي إحدى كذبات العالم التي يريدنا أن نصدقها. هل أنا مجنون؟ وكل ما يدور في عقلي هو ما يفكر به أي مجنون؟! المجنون لا يعرف أنه مجنون، ولو عرف ذلك فهو بالتأكيد عاقل سليم، لم يمسه جنون، بدت لي تلك معادلة مستحيلة الحل. عندما أخرج من هذا الكابوس سأطلب من كل شخص أن يتساءل إذا كان مجنوناً، ويثبت لنفسه بالأدلة والبراهين أن عقله موجود، لأن المجنون لن يطرح على نفسه هذا السؤال على ما أظن.

بدأت تصل إلى مسامعي بعض الأصوات من الخارج، بعض الكلام والصياح وطقطقة الحديد من أقفال وأبواب كثيرة. يبدو أن الصبح قد اقترب ويبدو أني بدأت أعود للحياة. كنت أنتظر أن يستيقظ أحد زملائي في الزنزانة، لأحاول أن أتحدث معه، وتنتهي هذه الوحشة المخيفة التي كنت أدور في دوامتها. أول ما سألت عنه الشخص الذي شعرت أنه بدأ يستيقظ، هو عن موعد الخروج إلى الحمام فأنا أكاد أنفجر. قالِ لي ذلك الشاب الذي لم أميز سوى صوته في ذلك الظلام، بأنهم بعد قليل سيخرجون جميع المعتقلين إلى الحمامات.

بالفعل بدأت أصوات كثيرة وقريبة تدل على أن الزنزانات تفتح ويخرج منها المعتقلون. عندما جاء دور زنزانتنا كنت أول الخارجين مسرعاً إلى الحمام

شاعراً بسعادة كبيرة وأنا أعود إلى الحياة وأضوائها وأصواتها. استغرقت وقتاً طويلاً هناك، بينما راح الحارس يصرخ مستعجلاً على الجميع، مع بعض الكلمات، مثل "يا حيوان" و"يا بهيمة" وغيرها من الكلمات، التي لم يكن هناك داع لأن نخجل منها، ولا داع كذلك لذكرها هنا، فالجميع هناك اعتادوا عليها وعلى كلمات ليست أكبر منها، ولو أن الأمر اقتصر على الكلمات لكان مرضياً علينا من آبائنا وأمهاتنا.

عدت إلى الزنزانة التي أقفلت سريعاً. بدأت أوجه سيلاً من الأسئلة للمعتقلين عن أسمائهم وأعمالهم وتهمهم، لكنهم بدوا متحفظين نوعاً ما. رحت أسأل عن التحقيق وعما سيجري خلاله. أجاب أحدهم بعد أن عرف أن تهمتي تتعلق بالمظاهرات بأنني إذا تكلمت بكلام أعجبهم فلن أتلقى الكثير من التعذيب، لكن لا بد من الشبح لنصف ساعة على الأقل. سألت عن الشبح فأجاب أنني سأعلق بالسقف من يديّ المكبلتين بالأصفاد، بينما تلامس رؤوس أصابع قدمي الأرض. هذا في الحالة الاعتيادية، فالأمر يتعلق كذلك بالمحقق. فمنهم الطيب ومنهم ابن الحرام، ويتعلق كذلك بمدى مطابقة اعترافاتي لتوقعاتهم. أكد كذلك أن جماعة التظاهر والكمبيوترات لا يبقون أكثر من يومين أو ثلاثة إذا انتهى التحقيق، ولا يعرف إلى أين يذهبون.

استعدت بعضاً من حيويتي، وبدأت، ما أمكنني، بمحاولة التكلم عن أي شيء، ومع أيٍّ من زملاء الزنزانة. كانت التحقيقات قد بدأت وأصوات الزنزانات تفتح ليصدح صوت عال باسم ما، ثم تعود وتغلق. كان هناك ضيوف جدد بشكل دائم، فكل فترة قصيرة كان يُفتح الباب ويدخل معتقل جديد. راح عدد زملاء الزنزانة يزيد وينقص كل فترة. كان على كل سجين في الزنزانة عندما يفتح الباب أن يجلس متأهباً لسماع اسمه، ولو صدف ودخل أحد الحراس ووجد أحد المعتقلين مستلقياً على الأرض، فسينال بعض الكلمات النابية، والمهينة إضافة إلى كف أو اثنين بحسب الحارس. دبت الحياة في قسم الزنزانات بطريقة جعلت عجلة الوقت تدور بشكل أسرع، إلى أن جاءت اللحظة التي كنت أخشى اقترابها. عندما سمعت صوت العسكري الملقب أبو سعيد يصرخ بصوت مرتفع باسمي، وفُتح باب زنزانتي فقفزت على الفور صارخاً بأني موجود.

التحقيق

رغم أن كل مخاوفي كانت تدور حول ما سيجري في التحقيق الذي كنت أسير إليه، إلا أنه كان من الضروري التقدم وبدء التحقيق بدلاً من الانتظار المميت. طلب مني أبو سعيد أن أضع العصابة ذات الشريط المطاطي على عيني كي لا أستطيع رؤية المحقق. في تلك اللحظة عدت للظلمة المخيفة، رغم أن النور كان يلفني من كل الجوانب. قرأت صورة الفاتحة وآية الكرسي، وسلمت نفسي لربي ليختار لي ما يشاء. أول شيء تواصلت به مع المحقق هو طيارة هبطت على رقبتي لتعلمني أني أصبحت بين يديه. قادني المحقق إلى غرفة التحقيق، بينما لم أجد أي صعوبة في لعب دور الخائف والمستعد لأعطي كل ما عندي من معلومات مقابل أن أخرج بسلام من تلك الغرفة. كان عليّ في هذه المهمة الصعبة أن أجعل المحقق يصدقني فيما أقوله، حتى لو أكدتُ التهم المنسوبة إلي، فمع أول كذبة سيعرف المحقق أن كلامي كلّه كذب، وسنبدأ بدوامة الأسئلة التي لا نهاية لها، قد تجعلني أواجه خيار المحقق السهل بتعذيب المعتقل. أوقفني في منتصف الغرفة، ثم طلب مني الجلوس على الأرض بينما جلس هو فيما يبدو على كرسي موجود بالغرفة، وراح يتكلم بتلك اللهجة التي يتميز بها أهل الساحِل.

"شوف يا محمد، أنت متظاهر يعني مانك مخرب ولا حامل سلاح، بقى احكيلنا كل اللي عندك وأنا بوعدك أنو بكرا الصبح رح نطلّعك. شو قلت بتحب تحكي ولا منزلك لتحت". شعرت أن الكلام مبشر.

- طبعاً بحكي كل اللي عندي.
- هات لنشوف احكيلنا شو عملت؟
- أنت اسألني يا سيدي وأنا بجاوبك عن اللي بدك ياه.
- لا أنت احكيلي عن كل اللي عندك. المصيبة أني لم أكن لتلك اللحظة أعرف ما يعرفونه عني، وخشيت أن أنزل على رأسي مصائب جديدة.
- طيب، أنا كنت أطلع شارك بالمظاهرات من زمان بس هلق بطلت.

- وين كنت تطلع بالمظاهرات؟
- طلعت مرة بالجامعة ومرة بصلاح الدين ومرة بجامع آمنة.
- إي وشو شفت؟
- شفت طلاب صار يكبّروا، وهجموا عليهم ناس، مو أمن..
- قول شبيحة ليش خجلان، ما أنتو بتقولوا عنهم شبيحة؟
- إي، هجموا عليهم الشبيحة، وصاروا يضربوهم بشكل قاسي، وأنا شفت بعيني رئيس كتيبة حفظ النظام يقول للعناصر ما تخلوا حدا يضرب الطلاب، وصار يمنعهم من "هالشي.". وبعد هاليوم بالجامعة يوم 6/30 ما طلعنا ولا مظاهرة.
- يعني ما كنت تطلع بالمدينة الجامعية؟
- لا والله يا سيدي ما رحت ولا مرة عالمدينة الجامعية.
- ومين كان يدعيك لهالمظاهرات؟
- عن طريق الانترنت والتلفزيون كنا نعرف، والمحلات اللي كنا منروح عليها كل الناس بتعرف أنو بتصير مظاهرات هناك.
- ومين كان يروح معك عالمظاهرات؟ كان هذا السؤال أخطر الأسئلة التي أخاف مواجهتها. كنت سأبدأ بأسماء الأشخاص الذين اعتقلوا قبلاً، وإذا أصر المحقق فسوف أعطيه أسماءَ لأشخاص ميتين من الأقارب والأصدقاء. وفي حال استمر في إصراره، كنت أضع في رأسي أسماء بعض المخبرين في مكان عملي، كي يذوقوا ما يسببونه للناس من أذى.
- مرة راح معي رفيقي ماهر. ماهر كان دوره التالي في التحقيق ولن يضر ذكر اسمه.
- غيره؟
- ومرة كان معي رفيقي بشار. وكان فعلاً في سجن حلب المركزي في ذلك الوقت.
- ومين كمان؟

- في زكريا ابن عمي. عندما ذكرت اسم زكريا تنبه المحقق وبدأ يسألني عن كل التفاصيل عنه. خشيت ساعتها أني قد ورطته مرة أخرى. لكن في الحقيقة كان ذكر شخص غير الموجود في ضبطنا أنا وماهر دافعاً لأن يصدق المحقق كل كلامي الباقي على ما أظن.
- طيب ومين كان يطلع معكم؟
- بس هدول سيدي البقية ما كانوا يسترجوا يطلعوا معنا.
- يعني أنت كنت تحرضهم ليطلعوا معكم؟
- لا سيدي، كنت أقلهم روحوا تفرجوا بس.
- وليش بطلت تتظاهر يا محمد؟
- يا سيدي هلق صارت الشغلة فيها سلاح، ونحن كنا مفكرينها مظاهرات وبس. وبعدين أهلي ما عاد يخلوني أطلع من البيت، وعملوا حصار علي بعد ما عرفوا أني عم أتظاهر. بعدين يا سيدي أمريكا صارت تتدخل بالموضوع وخربت كل الشغل علينا، لأن نحن ما بدنا حدا يدخل بينا، ونحن منصطفل منا لرئيسنا. يبدو أن ما قلته لحد الآن قد أعجب المحقق بعد أن رآها أسباباً منطقية.
- طيب، من وين جبت هي المقاطع اللي عندك بالكمبيوتر؟
- حملتها من الانترنت.
- عندك حساب عالفيسبوك؟
- عندي حساب بس انسرق من زمان وما عاد استخدموا.

بدأ المحقق يكتب تقريره عن التحقيق في الضبط الخاص بي وبماهر وسادت لحظات صمت طويلة، وأنا في انتظار أن يقول المحقق أي كلمة، لأن ذلك الصمت أعاد لي هواجس التعذيب أثناء التحقيق، وخصوصاً أني لم أكن أرى بسبب العصبة على عيني.

انتهى التحقيق الذي سار على خير ما يرام ودون مشاكل تستحق الذكر، ما جعلني أشعر بارتياح كبير بعد كل تلك الساعات العصيبة التي عشتها منذ

دخولي إلى الفرع. أعادني أبو سعيد إلى الزنزانة بعد أن رفع العصابة عن عيني. عدت إلى ظلام الزنزانة، وجلست في مكاني دون أن أشعر في زملاء الزنزانة رغبة في أن يعرفوا ما جرى معي في التحقيق، فلم أرغب أن أشركهم في مصيبتي، فلكلٍّ مصيبته التي تشغل تفكيره. بعد لحظات ليست بالطويلة عاد أبو سعيد ليصرخ باسمي على باب الزنزانة. نهضت مسرعاً وخرجت معه دون أن أعرف سبب ذلك الاستدعاء المفاجئ. أوقفني أبو سعيد أمام غرفة التحقيق قبل أن يسأل المحقق عن ضرورة وضع العصابة على عيني. لم يمانع المحقق من أن أراه بعيني. نظرت إليه فرأيته شاباً بنفس سني تقريبا طويلاً، نحيل الجسم، أشقر الوجه والشعر، أخضر العينين. ميزت كل ملامح وجهه دون أن أضع نظارتي.

لم يكن ماهر يريد أن يعترف بأي شيء، ويريد المحقق أن يثبت له أن بين يديه أدلّة قاطعة ضده. سألني إن كان هذا الشخص الواقف المعصوب العينين صديقي؟ فأجبت بالإيجاب، فسأل فيما إذا كان قد شارك معي في المظاهرات كما قلت قبل قليل في التحقيق. قلت بصوت مسموع كي يصل إلى ماهر: إنه خرج معي مظاهرة واحدة في جامع آمنة، ولا أعرف إذا كان قد خرج في مظاهرات أخرى. أعادني المحقق إلى خارج الغرفة ثم سألني عن مظاهرة خرجت في الأعظمية لم أذكرها في اعترافاتي. أكدت له أني لم أشارك بمظاهرة في تلك المنطقة أبداً، وأن التهمة قد ثبتت علي ولا داعي من الإنكار. قال المحقق إن الشخص الذي شارك في تلك المظاهرة أكد أننا كنا فيها. كررت إنكاري للموضوع، فطلب إعادتي للزنزانة.

في تلك اللحظة توضحت لي الصورة. وعرفت بشكل أكيد السبب الذي دعاهم إلى اعتقالنا. إنه بشار صديقنا الذي اعتقل في بداية شهر رمضان قد ذكر أسماءنا في التحقيق. لكننا حقاً لم نشارك بتلك المظاهرة التي اعتقل فيها. على العموم هذا الأمر قد وقع وكان متوقعاً في أي لحظة.

أعطاني ما جرى في التحقيق دفعة معنوية كبيرة. بالطبع مازلت قلقا للغاية والأفكار تأخذني يميناً وشمالاً، لكن بالمقارنة مع الليلة الماضية الوضع تحسن كثيراً. فها أنا أنهيت التحقيق بدون أي تعذيب أو ضرب، ويبدو أن المحقق صدق كل ما قلته، بالإضافة إلى أنني كنت أتواصل مع شركاء الزنزانة

ما أذهب عني الوحشة في ذلك الظلام الدامس. ولا بأس الآن من أن ألعب دور البطل وأنشد:

يا ظلام السجن خيّم إننا نهوى الظلاما
ليس بعد الليل إلا فجر صبح يتسامى

لم يتوقف نزلاء الزنزانة عن الدخول والخروج كل فترة قصيرة. أكثر عدد امتلأت به الزنزانة هو اثنا عشر شخصاً، وأقل عدد هو عندما بقيت أنا وشخص واحد فيها. كان مجنداً في الجيش السوري، لا أعرف ما قام به ليتم اعتقاله، إلا أن غالبية المعتقلين في هذا الفرع من العسكريين، وبعض المدنين من ذوي التهم الخطيرة، أو التي يصعب على الأمن الجنائي التعامل معها. أحد الأشخاص الذين قابلتهم في الزنزانة كان رجلاً ثلاثيني العمر ضخم الجثة لم تتح لي ظلمة الزنزانة تمييز وجهه. كان من مدينة تلكلخ. قال لي: إنه باع سيارة إلى شخص استخدمها في التهريب، ويبدو أنهم قد وجهوا له التهمة رغم أنه قام بنقل ملكية السيارة أصولاً. توقّع أن يفرج عنه قريباً لأنّ المحققين برؤوه من التهمة مسبقاً. طلب مني أن أنظر إلى ظهره، الذي كان يؤلمه بشدة من كثرة ما تلقى من ضرب وجلد عليه في الأمن العسكري في حمص. انتظرت حتى فتح الباب لخروج أحد المساجين فبدت عليّ كتفيه وظهره بلون أسود بالكامل. قال لي:

إنه بقي يوماً كاملاً تحت التعذيب دون أن يسأله أحد سؤالاً واحداً. وخص بالذكر أحد العناصر الذي حفظ وجهه جيداً، وأكد أنه سيقتله حتى لو بقي يوم واحد في عمره نظير ما لاقاه من إجرام وتعذيب على يديه. كان هناك شخص آخر من قرية كلجبرين القريبة من إعزاز اعتقل لضبطهم معه ألعاباً نارية كان يريد أن يبيعها في قريته ليكسب من خلالها ما يطعم عائلته.

بعد عدّة ساعات عاد الحارس ليصرخ باسمي مجدداً. فما سبب هذا الاستدعاء مرة أخرى؟ لم تعصب عيناي وأدخلت إلى الغرفة نفسها التي جرى فيها التحقيق الأول. كان هناك العديد من العناصر والمحققين. طلب مني المحقق الذي حقق معي سابقاً أن أعطيهم بريدي الإلكتروني وحسابي على الفيس بوك. قمت بكتابة بريدي الكتروني الذي كنت متأكداً ألا علاقة بينه

وبين الثورة السورية. وكذلك كتبت الإيميل الذي استخدمته لحساب الفيسبوك الذي سرق من قبل، ولا يوجد أي شيء يمكن أن يضرني فيه. جاء محقق آخر يبدو أنه مختص بأمور الانترنت، ونظر إلى الورقة ثم سألني عن كلمة سر حساب الفيسبوك، فأجبته إن الحساب مسروق وكلمة السر ليست عندي. نظر إلي بغضب وقال:

إنه يريد كلمة السر وإلا سيستخدم أسلوباً آخر معي. أكدت أقوالي وبقيت مصراً على أن الحساب مسروق، وبإمكانهم مشاهدة محتويات الحساب دون معرفة كلمة السر. عندها تدخل عنصر آخر ووضع مقدمة رأسه على جبيني مهدداً بأني إذا أصررت على إنكاري فسيتم إنزالي إلى "تحت". تحت حيث يوجد طابقان آخران عدا الطابق الذي كنت موجوداً فيه، إذ كلما نزلت للأسفل طابقا تحت الأرض كانت المصيبة أكبر، ولا أدري إذا ما كانوا قد اقتبسوا هذه الفكرة من جحيم دانتي. تدخل المحقق الأول مؤكداً أنني سأعطيهم ما يريدون ولا داعي لإنزالي لـ "تحت".

حدقت بالورقة التي كنت أكتب عليها وهي موضوعة على الطاولة، بينما رحت أفكر بالخيار الذي سأقدمه لهم، والتي كانت كلها ملغومة. قطع شرودي المحقق المختص بأمور الإنترنت، وقال لي مهدداً: إن شخصا ما كان يدخل من الكمبيوتر الذي جلب معي، وإن لم أعطهم ما يريدون فسوف يجلبون إخوتي لكي يحققوا معهم. يبدو أنه عرف نقطة ضعفي، فلم يعد لي خيار سوى أن أعطيه حسابي الذي يحمل اسمي الثلاثي وصورتي، ويضم الكثير مما قد يشكل إدانة لي في هذه القضية. كم كنت غبياً عندما ذكرت حساب الفيسبوك أثناء التحقيق، فلو أني أنكرت الموضوع من أساسه لما جرى ما جرى. بعد أن كتب البريد الإلكتروني وكلمة السر نظر إلي المحقق الأول وقال: إنه لا داعي لكل هذا العناد، فأجبته إن الحساب "مو نظيف"، فنظر إلي نظرة تدل على انزعاجه الكبير من ذلك. عدت إلى الزنزانة قلقاً للغاية، وخصوصاً بعد نظرة المحقق التي شعرت منها أنه يريد فعلا مساعدتي، ويبدو أن الأمر خرج من يديه وسلطته.

كوكب القرود

عرفت عندما بدؤوا بتوزيع الطعام أن وقت أذان المغرب قد اقترب. كنت سأجد الكثير من المبررات لو أني أفطرت ذلك اليوم، إلا أنني رأيت أن أبقى صائماً كنوع من معاندة الواقع الذي أنا فيه. وزعت بعض أرغفة الخبز شبه اليابس وطاسة صغيرة تحتوي على شيء لا يمكن لأحد أكله وله رائحة يقشعر منها البدن. لا أريد أن أتكبر على النعمة، إلا أني فضلت الخبز والماء على ما أرسل إلينا من بقايا طعام لا تصلح سوى للكلاب والقطط. رأيت أحد المساجين يتوضأ بقليل من ماء الشرب ويصلي. لم أصلِّ أياً من الصلوات الخمس ذلك اليوم، لأني لم أر أي ماء أتوضأ به. توضأت من ماء الشرب كما كان يقوم زميلي لأقضي ما فاتني. طلب ذلك الزميل أن أتيقظ في صلاتي وأن أقطعها في حال دخول أحد الحراس، وإلا سأنال كفاً أو اثنين وبعض الشتائم. بالفعل بدأت بالصلاة وعقلي وأذناي عند باب الزنزانة، ولا يبدو أنّ أي خشوع وتركيز قد كان في تلك الصلاة.

في تلك الظروف لم يكن من الممكن أن أحدد بسهولة الوقت الذي أنا فيه، لأني أضعت الساعة التي يحملها كل إنسان في رأسه، فلا شيء يدل على الوقت ولا نعرف أساساً إذا كان الوقت ليلا أو نهارا، لأني كنت عندما أنام لا أعرف كم من الوقت قد نمت، فقد تكون ساعة أو اثنتين أو غير ذلك. تم إخراجنا خارج الزنزانات لنقضي حاجاتنا. وجدت على باب الحمامات ماهراً ينتظر دوره للدخول إلى الحمام. لا حاجة لوصف سعادته برؤيتي التي بدت على وجهه بشكل لا يمكن تجاهله. أكد لي أننا سنخرج إلى منازلنا عما قريب. أخبرته أني أعطيتهم حسابي على الفيس بوك فانزعج لذلك كثيراً، فبررت له أنهم هددوني بجلب إخوتي للتحقيق. رأيت كذلك المهندس الذي اعتقل معنا، ورأيت شخصاً يناديه السجناء بالدكتور. عرفت لاحقاً أنه طبيب أسنان اعتقل لأمر يتعلق بالمظاهرات.

* * *

منذ اليوم الأول لي في فرع الأمن العسكري رحت أطلق عليه "كوكب القرود" لكون اللهجة المستخدمة في الفرع هي لهجة الساحل، فحتى لو كان المتكلم إدلبياً أو حلبياً فالكل يستخدم اللهجة الساحلية لإضفاء نوع من الرهبة على نفسه، وليستدل الناس على أنهم رجال أمن أو على علاقة بالأمن. إخواننا في الساحل كانوا يكثرون من كلمة "قرد" لدى الحديث مع أحدهم، فترى كلمة "قرد" تتردد كثيراً في الفرع لدى مخاطبة العناصر لبعضهم وللمعتقلين. بالإضافة إلى أن وضعيتي في المعتقل ذكرتني بفلم كوكب القرود "planet of the apes" الذي يكون فيه القرود حاكمين للكوكب ويشكلون مدينة متكاملة، بينما البشر يعاملون كأنهم حيوانات. بطل الفيلم جاء عبر الزمن من كوكبنا وأصيب بصدمة كبيرة بعد رؤيته حال البشر هناك، وأظنني شعرت بشعور ذلك البطل داخل الفرع، لمعاملتي وكأني ارتكبت جرماً شديد الخطورة عظيم الشناعة. ففي سورية كان أن تقتل أو تسرق أو تغتصب أو أن تقوم بأي جرم آخر وارد في قانون العقوبات السوري أهون من أن تتعاطى في السياسة أو تنتقد النظام، ولولا انطلاق الثورة السورية لمّا يخرج شخص ارتكب ما ارتكبت من ظلمة السجن إلا إلى ظلمة القبر. فكانت بذلك أولى منجزات الثورة السورية التي كسرت حاجز الخوف، وأدى استمرارها إلى التعامل بشكل أفضل بكثير مما كان يجري سابقا مع المعتقلين السياسيين، خشية تفاقم الأمور. وخصوصاً أبناء مدينة حلب وريفها حيث كانت معاملتهم خاصة ومختلفة عن معاملة باقي المدن، لأن حلب لم تنتفض كما انتفضت باقي المدن ولا حاجة للنظام بفتح باب جديد عليه، وهو الذي لا يعرف كيف يطفئ الثورة في باقي المدن. كانت تلك من المرات القليلة التي فكر بها النظام بمنطقية.

* * *

في ساعة متأخرة من ذلك اليوم بتُّ بالفعل متعوداً على وضعية السجن، ويبدو أن الوقت سيمر بشكل أسرع في الأيام التالية. فهمت في تلك اللحظة كيف مرت على الكثير من السجناء في سورية أعوام وهم في تلك الظروف. فالإنسان إما أن يتعوّد وإما أن يموت، ولا أظن أن هناك احتمالاً ثالثاً. بدأت أفكر في الخارج، أبي وأمي وإخوتي وأصدقائي الذين كنت أتمنى أن يكونوا قد

عرفوا عن وضعي أي شيء يطمئنهم. فكرت بوظيفتي في المركز وعن احتمال خسارة عملي بعد هذا الاعتقال. كان لديّ إحدى عشرة إجازة تركتها ليوم أسود كهذا، ويمكن أن يستنفذها وقت غيابي. فكرت كذلك بفحصي، فهاهي ذي أول مادة تفوتني، بقي لدي خمس مواد ويبدو أني لن أترفع إلى السنة الرابعة. حاولت التكلم مع زملاء السجن قدر الإمكان، فعرفت أن من يرى مصيبة غيره تهون عليه مصيبته. بالطبع كان هناك مصائب تهون أمام مصيبتي التي لم أتبين لحد الآن أبعادها وكل آثارها.

دخل علينا أحد الحراس وطلب مني ومن سجين عسكري أن نذهب معه. كان يريد أن نقوم بتنظيف الأوعية التي أحضروا بها الطعام. كان ذلك امتيازاً كبيراً كنت مستعداً لأن أقوم به دائماً. فرغم أني لم أحب يوماً عمل الغسيل وتنظيف الصحون، ورغم الرائحة الكريهة للطعام الذي جلبوه لنا، ورغم أني لم أكن أضع نظارتي الطبية، إلا أنني الآن كنت قد آنست نوراً كما آنس سيدنا موسى ناراً يوما ما في التاريخ عندما كان في الوادي المقدس طوى. فمجرد كوني خارج الزنزانة كان ينقلني إلى حياة أخرى. كم كان من الممكن في أقصى لحظات المأساة أن تشعر بالسعادة، كما أنك في أقصى لحظات السعادة قد يدركك الحزن من حيث لا تتوقع. حاولت أنا وزميلي أن نطيل وقت التنظيف قدر الإمكان لنستمتع بهذا النعيم الذي نحن فيه.

عدنا إلى الزنزانة لنمضي ما تبقى لنا من وقت فيها، منتظرين أن نبصم على أقوالنا، فكل من يبصم على أقواله يعني أن خروجه قريب. قد يكون الخروج إلى المنزل، أو إلى فرع آخر في حلب أو في دمشق. بالنسبة لي كانت الاحتمالات مفتوحة، أقلها كان الخروج إلى المنزل، وأكثرها وأخطرها كان الخروج إلى أحد الأفرع الأمنية في الشام، وهذا أكثر ما كنت أخشاه في اليوم الثاني من الاعتقال. كان هناك احتمال آخر هو أن أحوّل إلى السجن المركزي تمهيداً لمحاكمتي، وهذا يعني أن مسألة خروجي مسألة وقت، لكن علي أن أقضي بعض الأيام في السجن كعقوبة يقررها قاض ما.

يبدو أني في اليوم الثاني بدأت اعتاد السجن وأرتضيه أكثر فأكثر، لم يكن في الزنزانة غير المعتقلين وقنينة ماء. افترشت الأرض ونمت لفترات متقطعة، مستيقظاً مع كل مرة يفتح فيها الباب ليدخل أو يخرج أحدهم. أحد

المعتقلين جاء إلى الفرع بعد أن استدعي إليه دون اعتقال. قال لي: إن فرع الأمن العسكري اعتقل صديقه بسبب صفحته الشخصية على الفيسبوك، ونقل إلى الشام، وعلى إثر ذلك استدعي هو. أكد لي أنه نظف صفحته الشخصية قبل أن يسلم نفسه متوقعاً أن يفرج عنه في وقت قريب، فلا شيء ضده، وبما أنه بلّغ رسمياً بالقدوم إلى الفرع، فلو كان هناك شيء خطير لأحضر كما جرى معي. وافقته بما يعتقد، لكن كلامه زاد مخاوفي، فهذا يعني أن دمشق ستكون محطتي التالية من هذا الكابوس، وهذا بالتأكيد سيزيد الأمر خطورة أو يزيد أيام اعتقالي التي لا أعرف كم ستطول حتى الآن. كان عليّ الترقب والانتظار كي أعرف أين وجهتي القادمة.

مرّ اليوم الثاني بشكل أسرع من اليوم الأول، ودون أن يحدث أي شيء يستحق الذكر فيما يخص بقائي أو خروجي من هذا السجن أو فيما خص التحقيق. كنت أترقب الداخلين والخارجين من الزنزانة، وأترقب كل صوت في الخارج لعل وعسى أسمع صوتاً يحمل لي الفرج. كان كل شخص يبصم على أقواله ويخرج بعد ساعات قليلة، وكوني لم أبصم فهذا يعني أني لن أخرج قريباً، وكنت أخشى أن يكون للتحقيق بقية. عند اقتراب وقت المغرب جلست أنا ومعتقل عسكري وحدنا في الزنزانة. وزعوا رغيفين من الخبز وقليلاً من حلاوة الجيش. جلسنا حول الطعام بانتظار قول أحدهم حان وقت المغرب. طال انتظارنا ونحن نراقب الطعام إلى أن سمعنا صوت الحارس يطالب بجمع الطعام لإخراجه. يبدو أن المغرب قد فات. أجبنا من الداخل بأننا لم نعرف أن موعد الإفطار قد حان، فأجاب الحارس بأن نفطر بسرعة قبل أن ينتهوا من جمع الطعام في باقي الزنزانات. كان ذلك الحارس أفضل شخص قابلناه في الفرع، فلم يوجه إلينا الإهانات أو الشتائم. انتهى الإفطار الشحيح وعدنا إلى انتظارنا المعتاد. أكلت خلال هذين اليومين ما يقل عن نصف رغيف خبز.

بعد ساعة سمعت صوت باب زنزانة يفتح ليرمى داخلها أحد المعتقلين. ما هي إلا دقائق حتى انطلق صوت ذلك السجين عالياً. وهو يصرخ "ايدي ايدي". يبدو أن يده تؤلمه كثيراً، لا أعرف لماذا؟ لكن أعتقد أن التحقيق كان له علاقة بالموضوع. سمعت أكثر من صوت من الحراس الذين جاؤوا

ليسكتوه، فلم يفلحوا، فأخذوه إلى خارج الزنزانات. أظن أنهم أخذوه ليعالجوه. لم أتمن أن يكونوا أخذوه ليسكتوه بالقوة.

عند منتصف الليل تقريباً جاء نفس الحارس ليصرخ بعدد من الأسماء، فأرهفت السمع علني أسمع ما أتمنى. بالفعل كان اسمي بين تلك الأسماء، فقفزت مسرعاً إلى الباب، فمد الحارس بعض الأوراق من الطاقة الصغيرة في أسفل الباب طالباً أن أبصم عليها. رغم أني لا أعرف ما كنت أبصم عليه إلا أني كنت مسروراً كثيراً لذلك، فبصمت بكثير من الامتنان. سمعت الحارس بعد قليل ينادي باسم ماهر. كان ذلك يعني أن ساعة خروجنا من هذا القبر قد اقتربت. تمنيت ألا تكون الوجهة قبراً آخر. بدأت أفكر بموعد خروجي الذي بدا لي في صباح الغد.

* * *

حوالي الساعة الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل طلب الحارس مني ومن زميلي العسكري في الزنزانة الخروج لتوزيع الطعام. وقفت عند باب الحديد الذي يغلق قسم الزنزانات، فرأيت شاباً عارياً ويبدو في حالة مزرية. طلب الحارس مني أن أدخله إلى زنزانته التي أعطاني رقمها. وضع الشاب على نفسه بعض الثياب ودخل متألماً. فقد كانت خطواته ثقيلة جداً وقدماه متباعدتين أثناء المشي وتسبب له ألما كبيراً. لم أجرؤ أن أسأل عن التهمة التي جاءت به إلى هنا، إلا أني عرفت أنه عسكري مجند. أخذته إلى المغسلة لأساعده على غسل يديه، وهو بالكاد يستطيع تحريكهما. لم يجرؤ على لمس الماء لأن يديه كانتا تحرقانه بشدة. قمت بمسح وجهه ويديه بالماء بينما كان يرتجف كالمحموم، وعلى ما يبدو أنه عاش ليلة طويلة جداً. أخذته إلى زنزانته وقبل أن أغلق عليه الباب قال لي: إنه جائع جداً ولم يأكل منذ ثلاثة أيام ويريد أن أعطيه رغيفين بدلا من رغيف. أومأت برأسي موافقاً. بدا لي ألا شيء لا يوجعه في جسمه. حمدت الله أن أموري جيدة جداً مقارنة به وذهبت لأبدأ توزيع الخبز.

كنت أسأل قبل أن أرمي الخبز من الطاقة الصغيرة عن عدد نزلاء الزنزانة كي أرمي رغيفاً لكل شخص حسب تعليمات الحارس. استغربت وجود بعض الزنزانات المنفردة الضيقة جداً تضم معتقلين اثنين. لم أنس أن أرمي ثلاثة أرغفة

إلى ذلك العسكري الذي أدخلته للتو. عندما وصلت إلى زنزانة ماهر صرخت باسمه كي أتحدث معه بعد أن تأكدت من عدم وجود الحارس. حاولت نطق أكبر قدر ممكن من الكلمات، قبل أن يأتي ذلك الحارس. بدأت بتوزيع الحلاوة الموجودة في صندوق معدني، احتجت إلى ملعقة لفتح غطائه. قام زميلي بتوزيع البيض المسلوق الذي كان يوزع علينا لأول مرة. أضحكني بشدة أحد السجناء عندما ناداني "يا سيدي". قلت له "اسكت لا تبهدلنا، أنا مثلي مثلك".

طلب أحد المعتقلين أن أملأ "قنينته" بالماء فتبعه آخر. ذهبت وقلت للحارس بأني سوف أجلب الماء لكل الزنزانات فلم يمانع أبداً. عدت إلى ماهر وحاولت كسب مزيد من الكلمات معه ومع شركاء الزنزانة. في زنزانة ماهر كان شخص أربعيني العمر طلب أن أجلب ماء لشطف الزنزانة. خشيت أن يرفض الحارس فيفوت علي هذه المتعة المتصلة. الحارس بدا مرحباً بالفكرة لكنه طالبنا الإسراع بذلك. كان النزلاء يأكلون ما قدمنا لهم عندما بدأت أفتح أبواب الزنزانات التي كانت مغلقة لكن بدون إيصاد أقفالها، لنشطف كل زنزانة على حدة ثم نشطف الممر. حالة من البهجة سادت الزنزانات التي فتحت أبوابها، وراحت تطل منها الرؤوس المبتسمة رغم همومها، وراح كل سجين يسأل جاره عن وضعه.

في إحدى الزنزانات وجدت شاباً يقف على الباب وعلى وجهه حزن مريب. سألته عن تهمته، فكانت مطابقة تماماً لتهمتي: تظاهر، وفيسبوك وكمبيوتر. كان اسمه خالد. عرفت أنه يدرس في السنة الثالثة في كلية الحقوق في حلب، ويسكن قريبا من منزلي، وتساءلت كيف أمكن ألا أعرفه من قبل. عدت إلى ماهر ورحت أستمتع بالحديث معه ومع زملائه بينما راح الحارس يصرخ مستعجلاً، وأظن أن صراخه لم يكن إلا ليسمع زملاءه في الفرع كي لا يظنوا أنه متهاون.

انتهينا من شطف الزنزانات وبدأت أشطف الممر عندما دخل أحد العناصر، الذي كنت قد رأيته سابقاً في الفرع يحمل ورقة راح يتلو منها الأسماء. أرهفت السمع عندما وقف أمام باب زنزانتي لكن دون أن يكون اسمي بين المنادى عليهم. استغربت كثيراً وزاد استغرابي عندما طلب من ماهر القدوم إلى خارج قسم الزنزانات. شعرت بحيرة شديدة لا يفوقها إلا

الخوف من هذا الأمر. حملت المسّاحة ووقفت أمام المعتقلين الذين ذُكرت أسماؤهم. أعاد العنصر قراءة الأسماء وعندما وصل إلى اسمي الذي كان ينطقه بطريقة خاطئة، صححت له وقلت: إنني الشخص المطلوب، فطلب أن آتي معهم. رميت عدة الغسيل وجريت كالسهم إلى زنزانتي التي كانت لا تزال مفتوحة. جلبت قميصي القطني، الذي كنت استعمله كقميص، ووسادة، ومنشفة، وغطاء إضافة إلى الشحاطة، وعدت مسرعاً لأنضم إلى ماهر.

جلست بجانب ماهر، والتزمنا الصمت بعد أن صرخ علينا الحراس أكثر من مرة ليسكتونا. كنا اثني عشر معتقلاً تم نظمنا في أربعة صفوف. مشينا إلى الغرفة التي دخلنا إليها لحظة استلامنا، لاستعادة أغراضنا الشخصية. عادت لي نظارتي الطبية، فعادت إليّ الدنيا كما كنت أراها قبل الدخول إلى كوكب القرود. كنت أريد أن أستعيد القلم الذي جلبته معي، لكنني لم أجرؤ على طلب ذلك. عندما تقدمنا إلى مكان آخر قريب أعادوا تلاوة الأسماء. كان اسمي الأول تلاه ماهر وبعده جاء اسم شاب يدعى أحمد. طلبوا من أحمد أن يجلس بجانبي أنا وماهر في المقدمة. ازدادت دقات قلبي عندما نظرت إلى الطرف الثاني من الظرف الذي كان العنصر يحمله، فقد كان مكتوباً عليه "إلى الشرطة العسكرية بحلب". وهذا يعني أنَّ محطتنا القادمة ستكون أحد الفروع في دمشق. المفاجأة أن العنصر بدل بين الظرفين ليتلو بقية الأسماء، فقرأت على طرفه "إلى فرع الأمن الجنائي" فعرفت أن هذا هو الظرف الذي يخصنا، وتأكدت أننا نحن الثلاثة الذين تليت أسماؤنا بداية سنذهب إلى فرع الأمن الجنائي، وباقي المعتقلين سيذهبون إلى فرع الشرطة العسكرية، ومن ثم إلى الشام. وُضعت الأصفاد في يدي لتربطني مع ماهر وأحمد، حيث كان ماهر إلى يساري وأحمد إلى يميني. مشينا في رتل ثلاثي لنتقدم نحو الخارج، بعد أن قضيت أنا وماهر في كوكب القرود ستاً وأربعين ساعة ونصف. أعتقد أنه رقم قياسي لمعتقل دخل ذلك الفرع. كان في انتظارنا أمام الباب باص متوسط الحجم يتسع لأربعة وعشرين راكبا. وُضعنا نحن الثلاثة في آخر كرسي وجلس أمامنا باقي المعتقلين، وأمامهم جلس بعض العناصر المسلحين، ومعهم ذلك الشاب الذي يبدو أنه ضابط سيسلمنا إلى الجهات المستقبلة الجديدة.

* * *

عشت في تلك اللحظات بما يعيشه طالبٌ يتحضر للقيام برحلة مع أصدقائه نظمتها المدرسة. خالد جلس أمامي، فسألته مستغرباً عن سبب تحويله إلى فرع الشرطة العسكرية، بينما كنا سنذهب نحن إلى فرع الأمن الجنائي. لم يكن يملك جواباً وبدا مستغرباً وخائفاً. شعرت كثيراً بالتعاطف معه. صعد العناصر والضابط الذي طلب منا أن نضع رؤوسنا على المقاعد التي أمامنا كي لا نرى شيئا ونحن على الطريق. كنت أتكلم بصوت منخفض مع ماهر ومع أحمد، الذي قال لي أنه من مدينة بنّش وأنه طالب في كلية الهندسة الميكانيكية في جامعة حلب، كانت تهمته التظاهر ضد النظام. انطلقنا خارج الفرع، فزادت رؤية شوارع حلب بهجتي، وأعادت نبض الحياة إلى عروقي.

مررنا على دوار الباسل أمام جامع عبد الله بن العباس عبرنا جسر الأعظمية مروراً بدوار الكرة الأرضية لنتجه إلى الجميلية حيث فرع الشرطة العسكرية. نظرت إلى الناس على الأرصفة وفي السيارت، وأردت أن ينتبه الجميع إلينا وينظروا إلى أصفادنا ويعرفوا كل حرف من قضيتنا. في داخل بناء المحكمة العسكرية في حي الجميلية أنزل الضابط جميع المعتقلين باستثنائنا أنا وماهر وأحمد وبقي معنا عنصران في الباص. استغلينا الفرصة ورحنا نتحدث، والسعادة كانت بادية على وجه أحمد وماهر وبالتأكيد لم تكن غائبة عني. اتفقنا أن ما بعد الاعتقال لن يكون أبداً كما كان قبله بالنسبة لأهالينا وأصدقائنا وكل المهتمين بالثورة. كنت أتصرف وقتها وكـأنه قد تم أفراج عني. نظرت إلى صورة بشار الأسد الكبيرة الموجودة على المبنى وأشرت إلى ماهر وأحمد للنظر إليها، فنبهني ماهر إلى ضرورة عدم لفت الانتباه إلينا بتلك الطريقة. بدأنا بالتساؤل عن مدن الحراس الذين بقوا معنا في الباص، خمنت أنهما من الشام بعد سماعي اللهجة التي يتحدث بها أحدهما.

لم يتأخر الضابط بتسليم باقي المعتقلين. صعد إلى الباص الذي انطلق بنا باتجاه فرع الأمن الجنائي في الأشرفية الذي لم يكن بعيداً. نزلنا من الباص أمام الفرع الذي يعرفه الجميع بسبب اضطرارهم لمراجعته للحصول على ورقة غير محكوم. كان باب قسم الزنزانات مجاوراً للباب الرئيسي للفرع بعد منحدر شديد بدون درجات يؤدي إلى تحت الأرض.

قبر جماعي

في الداخل كان المكان مزدحماً تعمه الفوضى كما سوق الهال تماماً. أوقفنا إلى جانب الباب ريثما يقوم باستلامنا أحد ما. كان هناك أكثر من عشرين معتقلاً رأيت بينهم رجلاً عجوزاً دخلوا قبل وصولنا بقليل. أخذنا إلى إحدى الغرف لتسجيل أسمائنا. أعطيتهم تفاصيل وضعي، باستثناء موضوع العمل، اكتفيت بكلية الحقوق. أثناء وقوفي في تلك الغرفة نظرت إلى التلفزيون وكأنه كائن غريب علي. كان الموظف يشاهد قناة الدنيا. قرأت على الشريط المتحرك فيها "مجموعات إرهابية مسلحة تطلق النار على موكب وفد حقوق الإنسان في حمص". لن يحتاج شخص متابع للثورة وتفاصيلها الكثير ليعرف أن الحماصنة خرجوا متظاهرين بأعداد كبير أثناء حضور الوفد الأممي. أخذنا إلى قسم آخر حيث توجد الزنزانات. قام بإدخالنا حارس يدعى "مُحرّم". لم أعرف أحداً يحمل هذا الاسم سابقا. تعرينا باستثناء ملابسنا الداخلية للتفتيش. أدخل أحمد إلى أول زنزانة وماهر أدخل إلى الثانية وأخذني الحارس إلى الثالثة. فرحتي بإبقاء النظارة الطبية معي لم تدم إلا ثوان، فسرعان ما انتبه الحارس لها وأخذها مني، وأنا على باب الزنزانة.

داخل الزنزانة لم أحتج إلى النظارة لأعرف المصيبة التي وقعت بها بعدما رأيت ذلك المنظر. الزنزانة تتسع لنحو عشرة أشخاص وهم نائمون، لكن كان فيها حوالي ستين معتقلاً ينامون فوق بعضهم. لم يكن هناك مكان لأضع فيه قدمي فأين سأجد مكاناً أجلس فيه أو حتى أنام؟ وجد لي بعض المعتقلين مكاناً للجلوس، كان علي أن أتحمل أربعة أو خمسة أرجل تمر من تحت وفوق ركبي وأقدامي. بدأ بعض المعتقلين اليافعين بإطلاق النكات، والتعليقات لدى وصولي. انزعجت كثيراً لذلك، وتوجست ممن في الزنزانة، إلى أن عرفت أن غالبيتهم، إن لم يكن كلهم، تهمتهم التظاهر، فارتحت قليلاً رغم استمرار انزعاجي عن الوضع غير المريح الذي أنا فيه. وكذلك بسبب فصلي عن ماهر الذي كان سيواسيني وأواسيه لو بقينا معاً. كان هناك بعض

الشباب ينامون دون أن أعرف كيف استطاعوا ذلك، فكل واحد منهم تمتد من فوقه عشرات الأيادي والأقدام، إضافة إلى أن بقية المعتقلين يتحدثون: يصرخون ويضحكون في كثير من الأحيان. لم أستغرب ذلك، إلا أني لم أتوقع أن أتعود على ذلك الوضع وأصبح مثلهم في وقت قريب على الأقل.

كان الوقت قد تعدى الفجر وتحسرت كثيراً على تلك البيضة المسلوقة التي لم آكلها في كوكب القرود. أكثر السجناء لم يكونوا صائمين، إلا أني فضلت متابعة الصوم، رغم أني لم آكل خلال اليومين الماضيين إلا بضع لقيمات. في الساعات الأولى من دخولي إلى تلك الزنزانة أخبرنا أحدهم بأن ثوار ليبيا قد سيطروا على طرابلس مساء ذلك اليوم. رفع ذلك الخبر معنوياتنا بعض الشيء. كانت الثورة السورية والثورة الليبية واحدة تقريبا لجهة الاهتمام والمتابعة.

عاد الوقت ليمر بطيئاً. رحت أسلي نفسي بالحديث مع المعتقلين والسؤال عمّا جرى مع كل شخص منهم. لم يتحفّظ أحد على ما شارك به من تظاهرات، وراح العديد منهم يسدي لي النصائح التي يجب أن ألتزم بها في التحقيق القادم. بدا لي أنّ الكثير من تلك النصائح متناقضة، ولم أعرف بماذا أتصرف وبأي نصيحة عليّ أن ألتزم عندما يبدأ التحقيق. فهمت أن هناك تحقيقاً تقوم به لجنة مشتركة من كل فروع الأمن، سأتلقى فيه أربع أو خمس ضربات بقضيب من السيلكون على قدمي وبعدها هناك تحقيق آخر روتيني، لا يتضمن أي تعذيب أو ما شابه لكتابة الضبط الذي سيقدم للمحكمة. يلي كل ذلك مرحلة التفييش، إذ تؤخذ كامل بصمات الأيدي وبعدها ننقل إلى السجن المركزي. قد يستغرق هذا ثلاثة أيام، وقد يستمر عشرة بحسب الحال. ستكون أطول عشرة أيام في حياة أي شخص ينام فوق وتحت أشخاص آخرين.

في الزنزانة مجموعة من المعتقلين ينتظرون خروجهم بعد انتهائهم من مرحلة التفييش. كانوا كلهم من المتظاهرين ولم يكونوا يطيقون الانتظار، فجلسوا أمام باب الزنزانة، ولا يخطئ أحد ملاحظة فرحتهم الكبيرة. راح أحدهم يحدثني عن مشاركته في مظاهرة الجامع الأموي في جمعة العزة. قال لي: إنه شهدها ولم يشارك بها لأنها بدأت وانتهت خلال ثوان. كان يتحدث عن المظاهرات وعن ملاحقة الأمن له بفخر كبير. كذلك كان هناك شاب من

مدينة المو حسن في دير الزور وآخر من جسر الشغور في إدلب. كان لهما حوالي تسعة أيام، ويتوقعان خروجهما ظهر ذلك اليوم، وكان هناك شاب من اللاذقية عرفت لاحقا أنه مسيحي، إلا أنه لم يكن يأكل ويشرب احتراماً للصائمين منا. رغم كل تلك الأحاديث إلا أن الوقت ظلّ بطيئا جداً ووضعية الجلوس كانت مزعجة، ولم أعرف ماذا سأفعل عندما يغلبني النعاس.

حاولت يائساً أن أجد مكانا أنام فيه، لكنني أكاد أفقد مكاني. كان علينا عندما يفتح باب الزنزانة أن نقف لعدِّنا، ثم نسارع إلى لجلوس قبل أن يختفي مكان جلوسنا. مر الوقت ثقيلاً جداً دون انتظار شيء ما، سوى خروج مجموعة المعتقلين الذين أنهوا التفييش، لعل وعسى يقلّ عدد الموجودين في الزنزانة، لتزيد تلقائياً حصتنا في المساحة. عندما كان ينام أي شخص بجانبي كان يرمي نفسه علي، فأقوم أنا بتحويله عني فأرميه ليستند إلى غيري. بصعوبة بالغة مرت كل ثانية من تلك الثواني. كنت مرتاحاً كثيراً على الصعيد النفسي بعد خروجي سليماً من "كوكب القرود"، لكنني معذب جداً جسديا بفعل الوضع المريع في الزنزانة، على عكس ما كنت فيه في اليومين السابقين. عرض أحد الذين يتحضرون للخروج على من يريد من المعتقلين أن يأخذ منهم أرقام الهواتف التي تخص من كان يريد الاطمئنان عليهم. على الفور أعطيته رقم منزلنا ليخبر أهلي بمكاني، رغم أني كنت أتوقع أنهم يعرفون. أحد الحراس أعطى قلماً وورقة لذلك المعتقل.

مر وقت الدوام الرسمي دون أن نخرج للتحقيق، ما يعني يوماً إضافياً إلى إقامتنا في هذا الفرع. كان الباب يفتح كل فترة ليخرج منه معتقلون للتحقيق أو ليغادروا الفرع كلياً، أو ليدخل غيرهم ممن أنهوا التحقيق أو دخلوا الفرع للتو. عدد نزلاء الزنزانة كان يزيد وينقص كل فترة، إلا أنه كان أقل من العدد الذي كان لحظة دخولي، فاستطعت التمدد قليلاً رغم أن أقدامي كانت تمر عبر بعض الأجساد. لم أمانع أن تمر فوق قدمي بعض الأقدام الصديقة.

سمعت في إحدى المرات الكثيرة التي ينادى بها على المعتقلين اسم فراس تيت. هذا الاسم كنت أعرفه جيداً ويعرفه كل متابع لكرة القدم المحلية. وهو لاعب نادي النواعير حالياً، والحرية سابقاً.. قرأت قبل ساعات من اعتقالي أنه اعتقل بعد مظاهرة بدر/حلب. لم أستطع النوم رغم شعوري الكبير بالنعاس

والإرهاق، فأنا اعتدت على وضعيتي الصعبة هناك، إلا أني لم أصل إلى مرحلة النوم في ذلك القبر الجماعي. واصلت الكلام مع زملاء الزنزانة إلى أن بدأت أشعر بأني لم أعد أستطيع متابعة الصيام، وبدأت أنهار جسدياً بعد ثلاثة أيام لم آكل فيها ولم أنم إلا نادراً. حاولت الصمود إلى أن يحين وقت الإفطار، فبعد أن آكل بالتأكيد سيتحسن الوضع. استمر الوقت يمر غاية في البطء، ولا يبدو أن بارقة أمل تلوح في الأفق. قضيت أكثر من ساعتين وأنا أفكر بالإفطار قبل أذان المغرب الذي لم أعرف متى سيحين. صمدت إلى أن قررت أن استمراري في الصيام سيسبب لي ضرراً، ويجب علي أن آكل شيئاً أو أشرب الماء. قبل أن أنفذ هذا القرار فُتح الباب وأُدخل الطعام، فعرفت أن موعد الإفطار بات وشيكاً، وما هي إلا لحظات من الصبر حتى ينتهي وقت الصوم، وتنتهي معه هذه المعاناة.

أدخل عدد كبير من أرغفة الخبز وكثير من الفريكة المطبوخة قبل يوم أو يومين. لم أكن أحب الفريكة في المنزل لآكلها في السجن. لكن الفرج جاء عندما دخلت سحارة مليئة بالبندورة. وُضع الطعام جانباً بانتظار أذان المغرب الذي بدا أنه قريب جداً. مرت ساعة واثنتان ولم يحن وقت الإفطار، بينما بلغ في الإرهاق مبلغاً كبيراً بحيث لم أستطع أن أتحرك بدون أن أشعر بالدوار، فجلست بدون حراك مستنداً إلى أحد المعتقلين ودون أي كلام، أترقب لحظة الإفطار. كنت أخشى أن أفطر قبل أذان المغرب ويضيع علي تعب يوم كامل من أجل وقت قصير كان بالإمكان الصبر عليه.

ازدادت الحركة داخل الزنزانة وخارجها، وبدا أن وقت الإفطار اقترب. قرر أحد الشباب أن نترك البندورة لنأكلها وقت السحور. عندما حان وقت الإفطار شربت بعض الماء، وقام السجين الذي بجانبي بجلب حبة بندورة واحدة، ورغيف خبز لأفطر بعد أن طلبت منه ذلك، ولم يمانع أحد. كان الجميع يتعاون برحابة صدر، ولم أر أي مشاحنات داخل الزنزانة، إلا على بعض السنتيمترات من المساحة، رغم أن كل شيء داخل الزنزانة يدعو للخلاف. فرحت كثيراً بحبة البندورة، وأكلتها بمتعة، إذ كانت أول شيء قابل للأكل أحصل عليه منذ بدء الكابوس. حملها لي شاب ثلاثيني من حلب، اعتقل فيها رغم أنه يسكن في حمص. كم استمتعت بحديثه عن مظاهرات حمص ونهفات الحماصنة. شعرت بتحسن كبير بعد الأكل، عادت حيويتي، تابعت

الحديث مع نزلاء الزنزانة الخمسة والعشرين. بدأنا بتبادل القصص ومغامرات المظاهرات، والتفاخر بالإنجازات التي قمنا بها. تبادلنا النكات الثورية وغير الثورية، ضحكنا كثيراً على غباء النظام وتخبيصاته. غنينا بصوت مسموع أغنية يا حيف ورددناها، وكأننا كنا نغنيها لأطفالنا.

تعرفت هناك إلى شاب بدا مسكيناً جداً وهو يؤكد ويحلف لي أغلظ الأيمان أنه لم يشارك في أي مظاهرة، وأنه لا دخل له في السياسة وبأنه مظلوم لإدخاله في هذا الجحيم وإبعاده عن أولاده وعائلته. في الحقيقة كان هناك الكثير ممن اعتقلوا عن طريق الخطأ، أو لأن قوات الأمن كانت تأتي بعد انسحاب المتظاهرين، فتقوم باعتقالات عشوائية كي لا تعود إلى مراكزها خالية الوفاض. قلت لذلك الشاب مواسياً بأن الزنزانات في هذا البلد لا يدخلها إلا المظلومون. بعد قليل قام ذلك الشاب ليصلِّي، فذكرني بأنني لم أصلِ أي فرض هذا اليوم. أفسح لي بعض الزملاء مكاناً للصلاة وبعضهم قام ليقضي ما عليه من حساب متراكم.

حقيقية كان مجرد وصول أي معتقل إلى فرع الأمن الجنائي يعني أن لا خطر يهدده، سوى أيام قد تطول أو تقصر في السجن المركزي. استطعت النوم قليلاً بعد أن أفسح لي المجال بعض الزملاء، ويبدو أني بدأت أعتاد على الوضع أكثر فأكثر. أظن أنّ أول يوم في أي فرع يكون الأسوأ لتمرّ بعده بقية الأيام بسهولة تدريجياً. فلا شيء يماثل المرة الأولى.

استيقظت عند صلاة الفجر بعد أن سمعت أصوات التحضير للصلاة. طلبت من الإمام، الذي كان الشاب الذي اشتكى الظلم ألا يجهر بصوت عال، كي لا يسمعنا الحراس ويقوموا بأمر ما قد يقطع علينا صلاتنا. على عكس ما قلنا له دبت في الإمام الشجاعة وبدا متحدياً معانداً، وراح يجهر بأعلى صوته. كتمت ضحكتي كي لا أفسد الصلاة وحدثتني نفسي بأن هذا الإمام يريد أن يتسبب لنا بمشكلة كبيرة. لكن لم يحدث أي شيء مما خشيناه وتابعنا الصلاة بسلام.

الفلقة

في صباح اليوم التالي بدأ عدد النزلاء يزداد بشكل ملحوظ. وقفنا لأكثر من مرة ليقوم أحد الحراس بالعد من أجل موازنة الأعداد في كل الزنزانات. كانت الأصوات التي تأتي من الخارج تدل على حركة نشطة. بدأ أحدهم يصرخ بأسماء المعتقلين الذين كانوا سيخرجون للتحقيق. أرهفت السمع خشية أن يمر اسمي دون أن أسمعه، فأتلقى بعض الصفعات والكلمات النابية. بالفعل صرخت بأني موجود في الزنزانة الثالثة عندما سمعت اسمي. طلب الحارس من الذين سمعوا أسماءهم الاقتراب من باب الزنزانة، لنخرج إلى الممر أمام الزنزانات. كنا حوالي ثلاثين معتقلاً يجري تحضيرنا للتحقيق. رأيت ماهراً وكذلك أحمد الذي جاء معنا من "كوكب القرود". وقفنا بعضنا بجانب بعض عندما أخبرت ماهراً بأنني سأنكر كل ما سيوجه إليّ من تهم وسأنفي مشاركتي بأي شيء يتعلق بمناهضة النظام، فقال: أنه سيفعل الأمر ذاته. ندمت لأني خرجت حافياً إلى الممر، رغم أن غالبية من خرجوا كانوا حفاة، فأنا قد لا أعود إلى نفس الزنزانة.

أخذونا إلى الطابق الأعلى، بعد أن رُبطنا بسلسلة طويلة فيها حلقات تقفل على يد كل معتقل. يدي كانت نحيلة لدرجة أنها خرجت من الحلقة بسهولة، لكني أمسكت بالسلسلة خشية أن يراني أحد ما طليق اليدين فيلحقني بكف أو اثنين أو شتيمة من الشتائم المعتادة. في الطابق الثاني رأينا رجلاً طويل القامة أسمر الوجه يلبس لباس أهل الريف من ثوب أبيض وعقال وشماخ. رآه ماهر فتحدث معه بسرور وناده بـ "خالي" فعرفت أن أحداً من أقارب ماهر سيتوسط لدى المحققين ليساعدونا، شعرت بتفاؤل وراحة نفسية كبيرة. أجلسنا جلسة الصلاة لكن أيدينا كانت خلف ظهورنا ووجهنا باتجاه الحائط، بحيث كنت أول الجالسين ويليني ماهر وبعده أحمد. يبدو أني سأكون أول من يدخل إلى التحقيق. كنت ثابتاً ومصمماً على ألا اعترف بأي شيء حتى لو عذبت. قرأت الفاتحة وآية الكرسي، وتحضرت لاقتحام المعركة.

- أوقفني أحد العناصر ووضع على عيني العصابة وربطها بشدة. جرّني داخل غرفة التحقيق وأجلسني على الأرض جاثياً على ركبتي ويداي خلف ظهري. كان في الغرفة عدد من المحققين، كما قيل لي قبل الدخول وحولي عدد من العناصر لم أستطِع تحديد عددهم. تحدّث معي أحد المحققين بعد أن انهالت على قدمي العصا الرفيعة من السليكون الكثيف والقاسي وكأنها سيخ نار. لكني لم أبد ردة فعل تدل على أني تألمت أو في طريقي للتوسل أو الضعف. قال لي بعد أن سألني عن تفاصيل اسمي وعملي وسكني:
- أنت يا محمد شاركت بالمظاهرات بصلاح الدين وبسيف الدولة والجامعة؟
- لا سيدي أنا ما طلعت ولا مظاهرة. تلقيت ضربة جديدة على قدمي.
- طيب بتعرف بشار؟
- لا ما بعرفو. نزلت على قدمي ضربة أخرى آلمتني كثيراً إلا أنها لم تفقدني تركيزي.
- أنت يا محمد عمتتمسخر على جيشنا، وعلى سيادة الرئيس عالفيسبوك!
- لا سيدي هادا مو حسابي، هادا الحساب مسروق. توالت الضربات على قدمي.
- كيف يعني مسروق؟
- أنا يا سيدي عضو بالجيش السوري الالكتروني، وكانت صفحة مؤيدة.
- أنت بتدخل لهناك منشان تنشر إشاعات وأخبار كاذبة.
- لا سيدي، كنا هاجمين على صفحة معارضة وعمنشتمهم، وفي واحد من جماعة المعارضة قلي أنا رح فرجيك، وبعد يوم لقيت حسابي مسروق،

وصار ينحط عليه كل هالشغلات الي قريتوها وأنا اتبهدلت من وراها.

- شو اسمو هادا اللي سرقلك حسابك؟
- اسمو حموي حر. ليس مستغرباً أنهم لم ينتبهوا إلى أني أعطيتهم كلمة السر قبل يومين، واليوم أدعي سرقة الحساب، فهذه الأمور تستعصي على أدمغتهم التي لا تعرف إلا العصا وسيلة وحيدة للتحقيق. استمر العنصر بضربي على قدمي حتى شعرت أنهما تكادان تحترقان.
- طيب إنت ليش ما قلت هيك قبل يومين؟
- من الضرب سيدي. فانتفض أحد المحققين وصرخ "كذاب ما حدا مد ايدو عليه" وطلب من العنصر الذي يحمل العصا أن يضربني مجدداً. توالت الضربات على قدمي بحيث لم أستطع تحملها، فوقفت على الأرض كي لا تصل الخيزرانة إلى بطن قدمي التي كانت تلتهب من جراء الضرب الشديد. لم يكتف العناصر بالخيزرانة بل شاركه آخرون وقام بتوجيه بعض اللكمات والكفوف إلى وجهي. أعادني العنصر إلى وضعيتي السابقة كي يتابع التحقيق.
- طيب، بتعرف ماهر؟
- بعرفوا بالحارة.
- شو بتعرف عنه؟
- يمكن بيدرس بالجامعة. حاولت ألا أظهر أيّ علاقة لي بماهر.

فقد المحقق الأمل من أن أقول شيئاً، فطلب مني العنصر أن "يقلعني" ويطلب من المعتقل التالي الدخول. دفشني العنصر بشدة وأنا معصوب العينين فاصطدمت بالحائط المقابل. بالكاد استطعت الوقوف، وأنا أشعر بقدمي وكأنهما قطعة من نار. كنت أشعر أن وزنهما ثقيل جداً إضافة إلى اللهيب الذي يتفجر فيهما. أخذني أحد العناصر إلى الطرف الآخر من الممر وأجلسني في الزاوية، وفي الأثناء أدخل ماهر إلى التحقيق. كنت مرتاحاً جداً بعد انتهاء التحقيق كما يرتاح الطالب بعد انتهاء الامتحان، مهما تكون النتيجة.

انتظرت انتهاء التحقيق مع ماهر لأعرف ماذا جرى معه. لم يطل التحقيق معه بعد أن توسط له قريبه لدى المحققين. بدأنا نتبادل ما جرى معنا داخل

الغرفة المظلمة رغم أضوائها، فحكيت له بسرعة كل ما دار بيني وبين المحقق، وقلت له:

إن قدمي أصبحت نمرتهما ثماني وأربعين. ضحكنا على غبائهم عندما ذكرت له:

قولي للمحقق بأن حسابي مسروق رغم إعطائي لهم كلمة السر سابقاً، رآنا أحد العناصر الواقفين حولنا، فجاء إلينا وهو يقول: "عمتضحك يا حيوان" وتلقينا أنا وماهر "طيارة" جعلت رقبتي تعطيني ذات الشعور الذي أشعره بقدمي.

أكَّد لي ماهر أنه لم يتلق أي ضربة بعد أن دفع قريبه "المعلوم" للمحققين وأضاف بأننا سنخرج قريباً بعد تدخله. جاء أحمد بعد أن أنهى التحقيق، وهو يبكي من القهر. حاولنا مواساته ببعض الكلمات وخصوصاً ماهر الذي قال له:

إن الزمن دولاب، وقريباً سيأتي اليوم الذي ننتقم من هؤلاء المجرمين. كنا نتحدث بصوت منخفض كيلا يسمعنا العناصر الذين نشب شجار بين اثنين منهم على سبب ما لم أعرفه، فلم يعيروا اهتماماً لوجود الضباط أو غيرهم، فراحوا يصرخون، وأوشكوا أن يشتبكوا بالأيدي لولا أن حال بينهم زملاؤهم. حاولنا النظر خلفنا لمشاهدة ما يجري والشماتة بالعناصر، إلا أن أحد العناصر صرخ بنا منبهاً.

بعد انتهاء التحقيق مع عدد من المعتقلين عدنا إلى الزنزانات. حاولت البقاء بالقرب من ماهر وأحمد كي ندخل معاً في زنزانة واحدة وهذا ما حصل، جلسنا متراصين أمام الباب لنحقق بذلك مكسباً كبيراً يشد من أزرنا ويقوي من عزيمتنا في هذه المحنة. حاولت التعرف على بعض الزملاء في الزنزانة الجديدة، ساعدني ماهر. أذكر منهم شخصاً مجنوناً لا أعرف سبب اعتقاله، قيل لي: بأنه فقد عقله بعد التعذيب الفظيع في فرع المخابرات الجوية. لم يطل بقاؤنا في الزنزانة الثانية، تحوّل قسم منا إلى الزنزانة التي كانت سابقاً مخصصة للنساء، خفّ الضغط قليلاً، وحافظت على رفقة ماهر وأحمد في الزنزانة الجديدة.

في زنزانة النساء لم يكن الوضع مختلفاً، حيث المعتقلون يتراكمون فوق

بعضهم بعضاً. دخلنا وجلسنا في الركن السياحي الذي يقع أمام الحمام الصغير الذي لم يكن فيه باب. كان يطلق عليه سياحي لأنّ تيار من الهواء يمر هناك بفعل المروحة التي تبدل الهواء من شباك في الحائط قرب باب الزنزانة. كان هناك ضوء خافت يتسرب من الخارج. في زنزانتنا الجديدة، كان اثنان من الشرطة، أحدهم يخدم في مخفر في قرية زمّار التي تقع جنوب حلب، قام مسلحون مجهولون بالهجوم عليه، وسلب كل الأسلحة الموجودة في المخفر وحبس رئيس المخفر وعناصره داخل زنزانة داخلية وبعد ذلك لاذوا بالفرار، فتورّط بذلك رئيس المخفر وعناصره الذين حُمّلوا المسؤولية، فهم إما شاركوا بهذه العملية أو سهلوها مقصّرين في الدفاع عن المخفر.

كذلك كان في الزنزانة مجموعة من الشباب غالبيهم أقارب وأولاد عم من قرية صغيرة شمال حلب اسمها رتيان، أذكر أحدهم واسمه أحمد مدلج أصبحت وإياه أصدقاء، رغم أني تنازعت مع أقاربه على المكان الضيق الذي يجبرك على تحمل الأقدام والأيدي، ورائحة الحمام القريب، والعرق المنتشر بسبب الحر الشديد، ولولا تلك المروحة لمات من في الزنزانة بعد مرور عشر دقائق على إيقافها، فالحراس كانوا يوقفونها ليتخلصوا من صوتها عندما كانوا ينادون على أسماء المعتقلين. كانت تلك اللحظات القصيرة التي تتوقف فيها المروحة عن الدوران إحدى أصعب اللحظات التي مرّت علينا في الفرع الذي لم أسمِه حتى الآن.

استمرّت عمليات التحقيق والتفييش في ذلك الفرع، فكانت أبواب الزنزانات تفتح كل فترة قصيرة وخصوصاً في وقت الدوام الرسمي من الثامنة حتى الثالثة ظهراً. كان عنصرا الشرطة الموجودان في الزنزانة يستطيعان طلب بعض الأشياء التي يمكن لزملائهم في الخارج تزويدهم بها، فكانا يطلبان لنا المياه والمزيد من الطعام لوقت الإفطار، وكانا أحياناً يخرجان ليفطرا مع زملائهم، وأذكر أن أحدهم تشاجر مع أحد الحراس فلم يخش منه، وهدده بأنه سيضربه لو اقترب منه، على عكس ما كان يجري معنا، إذ لم نكن لنجرؤ أن ننظر في أعين الحراس إذا ما بدؤوا بالصراخ كي نجنّب أنفسنا الضرب والإهانة.

وجود ماهر وباقي الأصدقاء الذين تعرفت عليهم وقت الاعتقال كان مسلياً لي وسبباً يدفعنا للصمود والتفاؤل. فكنا نواسي بعضنا بعضاً، ونرحب

بالزوار الجدد، وخصوصاً المتظاهرين منهم بأن نفسح لهم المجال للجلوس ونعتني بالمصابين منهم، فكان يدخل إلى الزنزانة بعض المعتقلين المصابين من فعل الضرب المبرح، خصوصاً لحظة الاعتقال في المظاهرات، وأذكر أن أحد الزملاء كان رأسه ملفوفا بشاش أبيض وراح جرحه ينزف، ولم يرض أن نطلب من الحراس مساعدته وأكد أنه سيتعافى بعد وقت قصير. أحدهم أدخل إلى الزنزانة، ورأسه ملفوف كذلك، بعد لحظات من إدخاله أغمي عليه، فأسرع الشباب لمنادة الحراس ليقوموا بمعالجته.

بعد التحقيق الأول في اليوم الثاني، مر اليوم الثالث دون أن يحصل شيء فيما يتعلق بإجراءات التحقيقات معي ومع ماهر الذي كان يجمعنا وحدنا ضبط واحد، بينما كانت بعض الضبوط تحتوي عدداً أكبر من الأسماء، وهناك ضبوط لا تحتوي إلا على شخص واحد.

مجدداً فوق الأرض

في الليلة الرابعة من وجودنا في فرع الأمن الجنائي، طُلبنا أنا وماهر للتحقيق الثاني، الذي حسب ما أكد لنا الجميع كان مجرد كتابة الضبط الذي سيقدم للمحكمة، وفي حالتنا سوف يُؤخذ هذا الضبط بعد مقارنة ضبط التحقيق الأول بالثاني. المشكلة في أن الضبطين متناقضان للغاية، اعترفنا بكل ما وجه إلينا في التحقيق الأول، وأنكرنا كل شيء في الثاني.

كان بانتظارنا على طاولة التحقيق أمام الزنزانة الثالثة ضابط لم نسمع صوته إلا قليلاً، وعنصر أجرى معنا غالبية الحوار، وطرح كل الأسئلة. كان الضابط يقلب الأوراق الكثيرة التي بين يديه، وخصوصاً تلك التي صُوّرت عليها صفحاتنا على الفيسبوك، أذ أشّر على كل ما هو معاد للنظام.

سألني العنصر بعد أن طلب من ماهر الجلوس في مكان قريب عمّا قرأه في ضبط الأمن العسكري، فعدت وأنكرت كل ذلك. نظر إلي معبراً عن عدم رضاه، فصممت على الإنكار فانتفض غاضباً وجرّني إلى غرفة مجاورة، وهدد بأنه سيسلخ جلدي إذا لم أتكلم بما يريد. جمدت في مكاني ورحت أحدق في وجهه. سألني عن عملي فأجبت بأني طالب حقوق في السنة الثالثة. في تلك اللحظة انقلب مزاج العنصر مئة وثمانين درجة، وقال لي بكل هدوء: "يا رجل أنت بعد سنتين بتصير معلمي، ورفيقك شو بيدرس؟" أجبت بأنه يحضر للماجستير بعد أن تخرج من كلية الهندسة العام الماضي. أعادني إلى طاولة التحقيق، وعاد ليسألني عن أقوالي، بينما لم يتوقف الضابط عن التدخين طيلة لحظات التحقيق. أعدت له القصة التي رويتها في التحقيق قبل يومين. قلب الأوراق كثيراً وطلب مني الجلوس مكان ماهر الذي أخذ مكاني. كرر ماهر أقواله، وأجاب بالإيجاب عندما تساءل العنصر عن الماجستير "بس المتفوقين في الجامعة بيدرسوا فيه؟" وعاد ليجلس بجانبي بينما راح الضابط يكتب تقريره.

بعد انتظارنا نحو عشر دقائق أوقفنا ذلك العنصر، وقال لنا:

إننا سنحول قريباً إلى المحكمة، وبعدئذ سنبيت خمس عشرة ليلة في

السجن بما فيها أيام التوقيف في فروع الأمن ومن ثم نخرج للبيت، وأضاف أن هذا أكثر ما يمكن أن يساعدنا فيه. اعترض ماهر على الخمسة عشر يوماً لأنه كان لديه في اليوم الخامس عشر تحديداً مقابلة مع رئيس جامعة حلب في موضوع يتعلق برسالة الماجستير. أجاب الضابط "بعد كل اللي كاتبو منيح رح نطالعك". كان ينظر إلى ما كنا قد كتبناه مصدوماً. أعدنا إلى الزنزانة. كان حلّاً وسطا بيننا وبينهم، فلن نخرج مباشرة إلى المنزل، ولن يتدهور وضعنا ليصل إلى فروع أخرى قد نشهد فيها أياماً أحلك ظلمة.

بعد انتهاء التحقيق الثاني عرفت أن وقت الخروج من هذا الفرع سيكون قريباً، وخصوصاً أننا في صباح يوم جمعة ومن المتوقع أن يستقبل الفرع الكثير من المعتقلين. كنت أشعر بغصة صغيرة بسبب إكمال خمسة عشر يوماً قبل إخراجنا في سجن حلب المركزي حيث يكون الوضع أفضل بكثير من أي فرع أمن قد يستضيفنا. لكني كنت سأفوّت على نفسي فترة الامتحان، وسأشهد أول عيد فطر في حياتي بعيداً عن أهلي.

واصلنا التعرف على الزملاء وخصوصاً الجدد منهم، وأذكر أنه في ذلك اليوم دخل شاب عليه آثار ضرب مبرح، يبدو أن قد أحدهم قد سحله من شعره. عرفنا أنه من جماعة عبد العظيم منجونة المعارض الوحيد الذي ينشط في سورية، أو على الأقل المعارض الوحيد الذي يتخطى سقف الوطن ويتكلم مع القنوات التلفزيونية من حلب. كما نظّم، وشارك في مظاهرة مرخصة يوم عيد الجلاء. كانت الزنزانة ساعتها مزدحمة كثيراً كما كانت الزنزانة التي دخلت إليها في اليوم الأول، إلا أنّ الوضع بدا مختلفاً بعد ثلاثة أيام في ذلك الفرع.

عند ساعات الفجر صرخ أحد الحراس بمجموعة من الأسماء بينها اسمي واسم أحمد واسم ماهر لإجراء مرحلة التفييش، على ما يبدو أن خروجنا أصبح قريباً جداً. كنا نحو عشرين معتقلاً أخرجنا من الزنزانات. وأعطي كل منا ورقاً مقوّى مكتوب عليه تفاصيلنا الشخصية والتهمة الموجهة لنا. كانت تهمتي تماثل تهم غالبية المعتقلين التي اختصرها الموظفون بكلمة "تظاهر" ما خفف عنا بعض الضغط، فنحن لن نُميّز عن باقي المتظاهرين بسبب موضوع الكمبيوترات وصفحاتنا الشخصية على الفيس بوك.

وقفنا برتل ثلاثي منتظرين الدخول إلى الغرفة التي كانت بالقرب من باب

قسم الزنزانات في الفرع. نظرت في الصف الذي كنا فيه لأرى رجلاً كبيراً قدرت عمره في السبعين، ومعه ابنه وحفيده الذي يبلغ من العمر أقل من ثلاثة عشر عاماً. كان في شكله ولباسه نسخة من أنطوني كوين في فيلم عمر المختار. رأيت الحراس الذين كانوا بعمر أحفاده يتعاملون معه دون تقدير لشيبته، فأجلسوه على الأرض وأسمعوه كلاماً نابياً، وقاسياً على رجل مثله، كان يبدو كعزيز قوم ذل. نظرت إليه، فلم أحتمل ذلك المشهد، وراحت الدموع تحجب الرؤية عن عيني. كانت المرة الأولى التي تهزمني الدموع في ذلك الكابوس.

جاء دوري للدخول إلى تلك الغرفة التي كان فيها موظفان يقومان بأخذ البصمات والصور للمعتقلين. لم يبق أي شيء في يدي يحمل بصمات إلا وأخذوها، من أناملي وباقي أجزاء أصابعي إلى كف يدي، وظننتهم أنهم سوف يأخذون بصمات قدمي. ربما أنهم تجاوزوا الموضوع، لأن خيزراناتهم كانت قد مسحت أي بصمات من أقدامنا. قاموا بتصويري صورة لتبقى مع الملف. فعل الموظفان كل ذلك دون أن يتكلموا بأي كلمة، بل كانوا يمسكون أيدينا ويجرونها، وما علينا ألا أن نستجيب كما يستجيب الطفل الذي تغسله أمه. لا أعرف لماذا خطر ببالي سؤال "هل ثمة ثورة في سورية؟" بالتأكيد لا، وخصوصاً في حلب.

عدنا إلى الزنزانة ونحن متأكدون أننا سنغادر بعد ساعات قليلة، مما جعل تلك اللحظات تمر بغبطة وفرحة لكل من أنهوا عملية التفييش، التي تبعتها عمليات تفييش أخرى لمجموعة من المعتقلين. كان شعوري وقتها كشعوري وقت خروجنا من كوكب القرود، فلم أستطع النوم من فرط الحماس والسعادة. جلسنا وتحدثنا حتى وقت متأخر، وأنا مستمتع بانتظار قدوم تلك اللحظة التي ستعيدنا إلى مقام البشر. حدثني أحمد عن مدينته بنّش وعن الثورة هناك، فوعدته بزيارتها وقلت له إني أتشرف بزيارة مدينة كانت من أولى المدن الثائرة ضد النظام. دوّنت رقمه على ورقة صغيرة أخذتها من علبة سجائر لا أعرف كيف وصلت ذلك القبر الجماعي، ولا زلت أحملها في جزداني كتذكار عن تلك الأيام وليس لأني سأتصل به، فأنا لم أقم بذلك حتى بعد أكثر من سنة من تلك الأيام وساعة كتابة هذه السطور.

راح الزملاء ينامون شيئاً فشيئاً حتى لم يبق سواي مستيقظاً. حاولت الصمود، إلا أن النعاس بدأ يغلبني مع اقتراب طلوع الضوء، لكن أين أنام ولا يوجد مكان أضع فيه جسدي ليستقر. حاولت النوم وأنا جالس فلم أستطع، بينما رأيت أحد الزملاء واقفاً يستند إلى الحائط من شدة الزحام ويغمض عينيه محاولاً النوم على تلك الوضعية. هل يمكن للإنسان أن ينام واقفاً؟ فقط الطيور يمكنها ذلك. لم أحتمل أخيراً كل ذلك، رميت نفسي على جثتي أحمد وذلك الشرطي المسجون معنا، ونمت فوقهما تقريباً دون أن يلامس جسدي الأرض. توقعت أن يضايقهما ذلك ويستيقظا، إلا أنهما استمرا في النوم كما فعلت أنا بدوري، وكانت إرادة النوم أقوى من كل شيء..

حوالي الساعة العاشرة صباحاً استيقظت دونما قدرة على تحريك شيئ من جسدي باستثناء رأسي، ضاعت أطرافي في شبكة من الأيدي والأرجل. بصعوبة استطعت استعادة يديّ وقدمي لتجتمع أجزاء جسمي كافة، ولأنتظر الخروج وانتهاء هذا الجزء المريع من الكابوس. على الأقل كنت أنتظر أن أخرج إلى سطح الأرض، بعد قضاء أكثر من خمسة أيام تحتها. بدأت أسمع أحد الحراس ينادي على بعض الأسماء، فأرهفت السمع متوقعاً أن اسمي سيكون بين الخارجين. بالفعل سمعت اسمي بعد اسم ماهر مباشرة، فصرخت بأني موجود، ولا أعرف كيف يمكن ألا أكون موجوداً؟ طلب الحارس أن نتحضر للخروج. هنأنا بعضنا ورحنا نودع زملاء المعتقل والتحضير للحظة المنشودة.

طُلب ممن سمع اسمه أن يقترب من الباب، لنقلنا إلى السجن المركزي. كان عدداً كبيراً من الخارجين فاق الثمانين معتقلاً سيرحلون. بدأ الحارس بتوزيع الأمانات التي تركها المعتقلون، وهو يصرخ بشدّة للتساؤلات الكثيرة التي كانوا يطرحونها. كان على الحارس توزيع الأغراض الشخصية والنقود لحوالي ثمانين معتقلاً، الأمر الذي كان في غاية الصعوبة وخصوصاً في ظل الهرج والمرج السائدين. فالكل يتكلم ويتكهن ويحلّل وينظّر عما سيجري مع كل واحد منا. لم يكن لدي من أغراض سوى نظارتي الطبية التي رفعت معنوياتي كثيراً، فبدأت بإعادة اكتشاف الوجوه التي كانت معي مرة أخرى، إذ كنت أميزها بصعوبة.

كان كل ما يدور حولي يثير البهجة باستثناء أني نسيت "الشحاطة" الذي

خرجت بها فلم يكن هناك مجال لطلبها من الحارس، حاولت البحث عن حل بديل يجنبني الذهاب إلى المرحلة القادمة من هذا الكابوس حافياً. لم أنجح بذلك بعد طول سؤال، لكني وجدت حذاء مرمياً على طرف الممر بين الزنزانات. ذهبت وأتيت به لكني لم أجد "الفردة" الثانية التي ستحل المشكلة لي. أحد الزملاء ساعدني بهذا الموضوع بعد أن أشار إلى "الفردة" الأخرى، التي كانت فوق إحدى الزنزانات. اقتربت من ذلك المكان وأنزلتها دون أن يراني أحد من العناصر أو الحراس. كانت قديمة ومتسخة وصغيرة على قدمي، إلا أنها كانت تفي بالغرض وتجنبني المشي حافياً. تلك الأثناء كان يجري التحقيق الثاني في هذا الفرع مع بعض المعتقلين، إلا أنه لم يبدُ مشابهاً للتحقيق الذي جرى معي أنا وماهر. كان المحقق يركل بقدميه أحد المعتقلين ويشتمه بأمه وأخواته بطريقة تثير الاشمئزاز، وخصوصاً عندما قال: إنه يريد رقم أخت المعتقل ليتصل بها كي تأتي إليه. حاولت قدر الإمكان أن أحتفظ بوجه ذلك المحقق بذاكرتي، وهذا ما قلته لعبد القادر الذي رأيته لاحقاً عندما سألته فيما إذا كان قد حفظ وجه المحقق الذي كان يحقق معه جيداً ذلك اليوم، فأكد لي أن هذا بديهي، وسينتقم منه مهما طال الزمان.

بينما نحن مازلنا بانتظار النقل، قام الحراس بإخراج كل المعتقلين من الزنزانات، كي يقوموا بإعادة عدِّهم رغم صعوبة ذلك. عرفت بعد قليل أن ما قاموا به جاء نتيجة مراهنة بين اثنين من العناصر على عدد ما يريدون أن يتأكدوا منه.

جاء الضابط المسؤول عن نقلنا، بدا شاباً في غاية اللطف والتفهّم على عكس الكثير من الضباط الذين رأيناهم هناك. كانوا ينادونه بشادي. شادي كان واسع الصدر رغم الفوضى العارمة التي خلقتها عملية نقل أكثر من ثمانين معتقلاً إلى السجن المركزي. كان عليه وعلى اثنين من الحراس اللذين يساعدانه أن يربطوا المعتقلين بثلاث سلاسل من الحديد، كي يتم نقلهم دون أن يفكر أحدهم بالهرب. لم يكن لي مكان في هذه السلاسل لأن يديّ كانتا نحيلتين تفلتان من الحلقات العريضة، ولم تبد رغبة للحراس في نقلي إلى الخارج، وأنا طليق اليدين. تُرك ستة من المعتقلين الذين كانت أيديهم لا تستطيع حلقات الحديد الإطباق عليها، ليتم ربطنا بواسطة ثلاثة أصفاد

استعارها الضابط من عناصر الفرع، ليكون لكل اثنين من المعتقلين واحدة من الأصفاد تربطهم. في تلك اللحظات تعرفت على الحاج مروان الذي رأيته فجر اليوم هو وابنه أحمد وحفيده مروان أثناء عملية التفييش، كانوا قد اعتقلوا في إحدى المظاهرات. كنت سعيداً وأنا أتعرف على أناس يملكون بأساً شديداً، وحماساً كبيراً للثورة.

مر وقت طويل من عملية ربط المعتقلين والتأكد من الأسماء، التي رأيتها عشوائية وغير منظمة، وبدا لي أن "الطاسة ضائعة" في هذا الفرع. المفاجأة أن اسم أحمد ابن مدينة بنش لم يكن معنا، فكان ذلك آخر يوم أراه فيه.

فُتح الباب وبدأنا بالخروج، المكبلون بالسلاسل أولاً، يليهم أصحاب الأجسام الهزيلة. لكن المشكلة كانت أن كل هذا العدد من المعتقلين سينقل في سيارة واحدة هي سيارة "اللحمة"، كما عرفت اسمها لاحقاً. كان الحشد متراصاً جداً بحيث يمكنك رش حفنة من الرز بدون أن تصل منها إلى الأرض أي حبة. كنت سابقاً أظن أن الأمثال مبالغ فيها، إلا أنّ هذا المثل كان مطابقاً تماماً لحالنا. حاولت البحث عن ماهر في تلك الغابة من الرؤوس التي كانت تتمايل كلما انعطفنا يميناً أو شمالاً. أصابنا نوع من الاختناق جراء الزحمة الشديدة وحركة السيارة التي كانت تسير بسرعة كبيرة. لم يكن يصلنا من الهواء إلا القليل عبر شباك صغير في مقدمة السيارة. هوّن علينا أن الرحلة لم تكن طويلة، فالسجن المركزي لا يبعد أكثر من ربع ساعة بتلك السرعة.

القصر العدلي

دخلت السيارة باحة السجن في طريقنا إلى داخل المبنى. نزلنا ومشينا في أحد ممرات السجن الخارجية، لنصل إلى درج ضيق في نهايته باب مغلق. سمعت صوت خطيب يخطب خطبة الجمعة، التي كان وقتها قد حان مع وصولنا إلى السجن. يبدو أن عناصر الشرطة لم يكونوا بانتظارنا، ما دعانا إلى الانتظار قليلاً. بدأنا بالدخول إلى السجن بعد أن فُكت قيودنا. جلسنا في ساحة داخل المبنى في أربعة صفوف، شعرنا براحة كبيرة نفسية وجسدية في ذلك البهو الواسع والبارد في حر آب.

سجلوا أسماءنا ووقع على ورقة استلامنا، نقلنا بعدئذ عبر ممر يؤدي إلى الساحة الرئيسية داخل البرج، هكذا كان يطلق على القسم الأكبر من السجن. رأينا ونحن نسير عدداً كبيرا من السجناء الذين وقفوا لينظروا إلى الضيوف الجدد. رحّب بنا عدد من السجناء الذين يُطلق عليهم اسم "السياسيين"، وهؤلاء منقولون من سجن صيدنايا، بعد الأحداث الخطيرة التي شهدها قبل عدة سنوات، وكانت الثورة أملاً كبيراً لهم بالخروج من المعتقل شبه المؤبد. لذلك كانوا فرحين جداً بنا، نظراتهم ترجمت ما يكنون لنا من إعجاب ومحبة. نُقلنا إلى قسم الأمانات الذي ينتظر فيه المعتقلون الذين لم يصدر حكم بسجنهم أو إخلاء سبيلهم. قُسّمنا إلى أكثر من قسم ووزعنا إلى غرف كبيرة نسبياً. على الأقل كان بإمكاني النوم دون أن يضع أحدهم أقدامه في وجهي. كان معنا في الغرفة الحاج مروان وابنه وحفيده وماهر بطبيعة الحال. كان قسم الأمانات قريباً من فرن السجن، ورائحة الخبز تفوح في المكان.

زارنا في أقسامنا بعض السياسيين الذين حاولوا مواساتنا وتقوية عزائمنا، وسؤالنا فيما إذا كنا بحاجة إلى أي مساعدة. يبدو أنّ لا باب مغلق أمامهم. قاموا بأخذ أرقام الهواتف التي نرغب بالاتصال بها لطمأنة من نريد على أنفسنا. أعطيتهم رقم المنزل واسمي كي يطمئن أهلي على وضعي، لم أنس أن أسأل أحدهم كانت لهجته حمصية عن اسم جمعة ذلك اليوم. أخبرني أنها

جمعة "الصبر والثبات". كان يومها السادس والعشرين من آب، ويبدو أنّ هذا الاسم كان موجهاً لنا بطريقة أو بأخرى قبل أن يوجه إلى باقي الثوار في الخارج.

كنت متعباً وجائعاً نتيجة قلة النوم في الأيام الستة الماضية، لكني فضلت ألا أفطر بعد أن قام بذلك أكثر من زميل. كان الحل الأفضل أن أنام حتى وقت الإفطار. كنت بعد ما عانيت في الأيام الماضية قادراً أن أنام على الأرض بدون أية وسادة، وبدون الحاجة لإطفاء الضوء، وفي وسط كل ذلك الضجيج والكلام، بعد أن كان هذا مستحيلاً قبل أيام.

بعد عدة ساعات من النوم العميق أيقظني ماهر ليعلمني أنّ وقت الإفطار قد حان. استيقظت ورأيت أمامي سلة فيها عدد كبير من البطاطا المسلوقة وبعض الملح. كانت وجبة رائعة وقتها، فأكلت كما لم آكل من قبل إلى أن كدت أنفجر بعد أن شربت الكثير من الماء. وما إن انتهينا من وجبة الإفطار حتى عدت لأقضي ما عليّ من ساعات نوم متراكمة. انتهت عندما عاد ماهر وأيقظني لأشاركهم بـ "صدر كنافة" جاءنا هدية من السياسيين. أكلت هذه الكنافة التي كانت أول شيء حلو الطعم أتذوقه خلال هذا الكابوس. رأيت حماماً صغيراً يقوم أحد المعتقلين بالاستحمام فيه، ولاحظت أن الكثير من المعتقلين ينشرون ثيابهم على باب الغرفة بعد أن أنهوا الاستحمام والغسيل. وجدت في الحمام صابونة غار وصنبور ماء ساخن وآخر بارد، فقمت بالاستحمام وغسل ملابسي لأتخلص نهائيا من الفترة المريعة التي كنت فيها تحت الأرض. نشرت ملابسي على باب الغرفة وعدت إلى مكاني، نظرت إلى جدران الغرفة المليئة بذكريات المعتقلين. إحداها كان كلمة الثورة السورية باللغة الانكليزية the Syrian revolution ويبدو أن كاتبها عرف أنه لن يستطيع قراءتها إلا شخص يفرح بها كثيراً. أخذت قلماً من أحد المعتقلين لم أسأله من أين أتى به، ورحت أكتب بجانب باب الزنزانة أبيات محمود درويش، ووقعت تحتها باسم ثوار سورية..

يا دامي العينين والكفين إن الليل زائل
لا غرفة التوقيف باقية ولا زرد السلاسل
نيرون مات ولم تمت روما بعينيها تقاتل
وحبوب سنبلة تجف ستملأ الوادي سنابل

جاء مروان الذي لم يتجاوز عمره الثلاثة عشر ربيعاً كي أضبط له ساعة جده القديمة الطراز، لكني لم أستطع فك طلاسمها. بدأت أسأله عن جده مروان وعمه أحمد بعد أنْ ظننت أنّ ذلك الرجل هو أبوه. رحت أتعرّف على المعتقلين الذين غالبيتهم ممن اعتقلوا في المظاهرات التي كانت تخرج في منطقة الصاخور، ومن المعتقلين الذين ألقي القبض عليهم بالقرب من ساحة سعد الله الجابري والجميلية يوم بدر حلب، بالإضافة إلى المعتقلين من مدن وبلدات الريف الحلبي، الذي كان يشهد حراكاً ثورياً متصاعداً في تلك الفترة. كان معنا أشخاص من إعزاز وعندان وتل رفعت ومارع ورتيان وغيرها من البلدات التي تقع شمال مدينة حلب إضافة إلى مدينة الباب شرق حلب. كان معنا الشيخ أبو بشير الذي كان شاباً ملتحياً طيب القلب، وأظن أنه كان يعمل إماماً في أحد المساجد. كانت المنطقة التي تقع أسفل ركبتيه ملفوفة بالشاش بسبب الجرحين العميقين فيهما نتيجة ضرب الشبيحة أثناء اعتقاله في الصاخور. جلست معه وبدأت أتكلم عن مجريات المظاهرات التي شاركت فيها، ومقاطع الفيديو التي سجلتها وغيرها من المغامرات التي كنت أفخر بالقيام بها. كذلك استمعت قليلاً لحديث الحاج مروان الذي كان يبدو مثقفاً وخصوصاً في أمور الدين الإسلامي. كان هو وأفراد عائلته من المشاركين الفاعلين في الثورة. عدت إلى النوم بعد تلك الجولة على المعتقلين.

استيقظت على أصوات الزملاء الذين كانوا يتحضرون لصلاة الفجر بعد أن أنهوا للتو صلاة التراويح الطويلة. شعرت بالانزعاج لعدم مشاركتي لهم، فقد كانت تلك الليلة هي ليلة السابع والعشرين من رمضان، ومن المحتمل جداً أن تكون ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر كما وصفها القرآن. توضأت ووقفت في أحد الصفوف للصلاة. كان الإمام هو أبو بشير الذي قرأ بصوت جميل، ودعا لنا بعد الركعة الثانية دعاء القنوت، وأتبعه بدعاء لله عز وجل كي يفك كربتنا وكربة المسلمين في سورية، وأن يخلص هذه البلاد من الطغاة والظُلام. كان دعاء مؤثراً للغاية. أنهينا صلاة الفجر قبل أن تنتهي في الغرفة المجاورة. كان إمامهم يدعو بصوت مسموع على بشار الأسد وأعوانه.

نام الجميع بعد تلك الصلاة بينما جلست أفكر بما وصلت إليه، وما ينتظرني في الغد بعد أن أنهيت المرحلة الأصعب من هذا الكابوس. ترى ماذا يجري في

الخارج؟ هل مازالت الثورة مستمرة؟ كان أملنا الوحيد الذي يصبرنا على كل ما تعرضنا له وما سنتعرض له مستقبلاً هو أن تستمر الثورة وتنتصر، وأن نعمل جميعاً لبناء سورية الجديدة التي نحلم بها. فكرت بأهلي ووضعهم الصعب، وأنا في وسط هذا الكابوس، توقعت أنهم يتابعون ما يجري معي لحظة بلحظة، ويعرفون أني نقلت إلى السجن المركزي، وسأحوّل غداً إلى القصر العدلي لأعرض على قاضي التحقيق. وضعتُ بعدها رأسي وعدت إلى النوم.

في صباح اليوم التالي استيقظنا باكراً، كي ننقل إلى القصر العدلي. وُضعنا في سيارة اللحمة التي أتينا بها. لم تدم الرحلة طويلاً إلى القصر العدلي قرب قلعة حلب. كنت أظن أني سأعيش في هذا المبنى لحظات كثيرة، كوني طالب حقوق وغالباً سآتي إليه محامياً أو قاضياً في أحسن الأحوال، لكن أن أدخل إلى القصر العدلي كمتهم مربوط بسلاسل ثخينة، ومن الباب الخلفي كما دخل قبلي آلاف المجرمين، هذا ما لم أتوقعه أبداً. بالتأكيد كان بين من دخل من هذا الباب الكثير من المظلومين. لم أكن مظلوماً حسبما وجه إلي من تهم، بل كنت فخوراً كثيراً بها، إلا أني كنت مظلوماً ككل مواطن سوري..

داخل زنزانة السجن كان هناك الكثير ممن سبقنا إليها من مختلف التهم، كما دخل بعدنا عدد كبير من المعتقلين، حتى غصّت بنا الزنزانة. كان الجميع ينتظر وصول القاضي المناوب، كون القُضاة في عطلة قضائية عادية. طال انتظارنا للقاضي الذي تأخّر ذلك اليوم، بينما نحن لم نمل الحديث مع بعضنا، وخصوصاً المعتقلين الذين تعرفت عليهم من قبل. تعرفت على كثير من الزملاء الجدد، الذين من بينهم لصوص وآخرون اعتقلوا في مشاجرة. الغريب أن أحداً من هذا الخليط المليء بالمجرمين في ذلك الوقت لم يكن ليجرؤ على أن يخلق مشكلة مع متهم من المتظاهرين. كان ماهر تلك الأثناء يتحدث إلى شخص له وجه مخيف وجسم مليء بآثار الجروح والضربات، إضافة إلى الوشوم التي تزين يديه، بدا وكأنه أحدب نتوردام. كان صديق أحد أقاربه، وأكد ماهر أنه كثير المشاكل وضيف دائم على السجن وعلى تلك الزنزانة بالذات.

اتفقنا أنا وماهر على أن ننكر كل ما وُجه إلينا من تهم أمام القاضي. أضاف محسن أن القاضي سيفرج عنا ذلك اليوم في الغالب. تفاءلت كثيراً وأكدت توقعي الأمر ذاته. لا أعرف إذا ما كان هذا ما نتمناه أو ما نتوقعه.

بعد قليل نادى باسمي أحد عناصر الشرطة في تلك الزنزانة، وقال لي إن أهلي في الخارج في حال كنت أريد شيئاً منهم، فطلبت على الفور أن يبعثوا لي ببعض النقود، بعد أن خرجت من المنزل دون أن أحمل معي قرشاً. حمل لي ذلك العنصر أربعة ألف ليرة سورية من أهلي. عرفت لاحقا أنه قام بسرقة ألف ليرة من المبلغ المرسل. بعد لحظات قام الشرطي نفسه بمناداة ماهر ليخرج إلى خارج الزنزانة. وقفت على الشباك الصغير في باب الزنزانة لأرى الحاج محمد والد ماهر ومعه أخوه الصغير. سلّم علينا وشد من أزرنا وشجعنا كثيراً، وأكد لي أنه وأهلي موجودون هنا ليتابعوا أمرنا. كان قد جلب بعض الملابس الخفيفة لماهر. زاد تفاؤلنا كثيراً بعد معرفة أن أهلنا في الخارج يتابعون وضعنا، وعلى ما يبدو أننا سنخرج قريبا وينتهي هذا الكابوس.

عدنا إلى انتظارنا السابق للقاضي الذي لا أعرف كيف سينظر في قضايا كل هؤلاء المعتقلين، ولم يتبق لديه من الوقت في الدوام الرسمي إلا القليل. بعد فترة قال لنا أحدهم:

وصل القاضي وسيبدؤون بالمناداة على أسماء كل ضبط على حدة. كان ضبطنا لا يضم سواي وماهر. بعد قليل جاء الشرطي لينادي باسمي واسم ماهر، كنا أول من سينظر القاضي بدعوته. وبدا أن أمورنا ستكون جيدة. وقفنا على باب غرفة القاضي، فدخل ماهر قبلي، وبقيت أنا وذلك الشرطي على الباب في الخارج. سألني الشرطي عن شعار فريق "أي سي ميلان" الذي تحمله بجامتي، فجاوبته بأني أشجع بايرن ميونخ وأكره كل الأندية الإيطالية.

دخلت بعد لحظات إلى إحدى غرف التحقيق، التي كانت صغيرة بالكاد تتسع للكراسي والخزانة والطاولات التي يجلس خلف إحداها القاضي، ويجلس خلف الأخرى الكاتب. وبالطبع كانت صورة بشار الأسد معلقة على الحائط خلف القاضي كما هو الحال في كل مؤسسات الدولة والنقابات والشوارع والساحات في كل البلد. لا أعرف كيف سيحاكمني قُضاة يضعون خلفهم صورة أحد طرفي الدعوى، وهذا سبب كاف لرد القاضي بسبب العلاقة الوطيدة بين أحد طرفي الدعوة والقاضي. هذا ما درسته في الكتب على الأقل. كان ينطبق على حالي قول أبي الطيب المتنبي: "فيك الخصام وأنت الخصم والحكم". سألني القاضي عن تفاصيل هويتي وبعدها سألني حول التهم

الموجهة إليّ، فبادرت إلى إنكار كل ذلك، ولدى سؤاله عن الكلام الوارد في ضبط الأمن الجنائي من مشاركة في المظاهرات وشتم رئيس الدولة على موقع الفيسبوك. أجبت القاضي إني نتيجة الضرب وظروف المعاملة اضطررت للاعتراف بما لم أقم به. وقّعت على أقوالي التي كتبها الكاتب وخرجت من غرفة المحكمة.

لم يكن بإمكاني طلب رد القاضي لارتباطه بالمجني عليه فحسب حسبما درسته في كلية الحقوق، بل كنت أستطيع، وبكل بساطة أن أدفع التهم الموجهة ضدي، فجريمة شتم رئيس الدولة لا تقوم إلا إذا كانت في مكان عام، وباعتقادي أن كلماتي لم تكن تصل إلى أكثر من خمسين شخصاً من أصدقائي الشخصيين، ولا يمكن أن تكون صفحتي الشخصية على موقع الفيس بوك مكاناً عاماً، إضافة إلى أن كل الأدلة التي أخذت ضدي هي غير شرعية لأنها أخذت بالضغط والتهديد والتعذيب، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يأخذ بها القاضي. هذا إذا ما تجاهلنا عملية الاعتقال التي جرت بدون مذكرة توقيف من قاضي التحقيق، التي تمنع من اعتقال أي مواطن بدون إصدارها أصولاً. هذا ما يجب أن يكون بعد رفع حالة الطوارئ التي قام بها النظام كنوع من الإصلاحات التي استمر دائماً بالتبجّح بها. على العموم لم أتوقع أيّاً من هذه الأمور أن تطبق على الأرض، إلا أنها كانت تلفت انتباهي خلال دراستي لها في كلية الحقوق.

أعادني بعد أن خرجت من المحكمة الشرطي ذاته إلى الزنزانة. وأنا على الطريق طلب مني أن أكرمه دون أن أفهم ما يعنيه، وبماذا يمكن أن أكرمه؟! كرر الطلب أكثر من مرة حتى فهمت أنه يريد نقوداً، عندما شرح لي أنه قام بمساعدتي بأن كان مراسلاً بيني وبين أهلي. حاولت التهرب منه عندما أكدت أني لا أملك "فراطة"، فقال لي أنه يستطيع أن يصرف لي خمسمئة الليرة، فوافقته ظنّاً مني أنه بالفعل يقوم بمساعدتي. داخل الزنزانة وبعد دخولي بقليل عاد ذلك الشرطي حاملاً أربعمئة ليرة كي أعطيه خمس المئة. عرفت أبعاد الموقف عندما رأيت عناصر الشرطة يطلبون النقود من باقي المعتقلين، فرحت أطلب من كل المعتقلين الذين تجمعوا حولي ليعرفوا ماذا جرى معي أمام قاضي التحقيق ألا يعطوا أي قرش للشرطة، التي تقوم بسرقة الأموال

القليلة التي بحوزتهم مستغلة لهفتهم لإجراء مكالمة مع الأهل أو أي خبر يبعث لديهم الأمل. لم أفلح بإقناعهم بذلك بعد أن أخذ كل عنصر من عناصر الشرطة مبلغاً طائلاً منهم.

عاد ماهر يؤكد أننا سنخرج اليوم فور وصول النائب العام الذي سيوافق حالما تُحوّل القضية إليه. لا أدري من أين أتى ماهر بهذا الكلام، إلا أنه بدا واثقاً جداً. جلست وأنا أراقب المعتقلين يذهبون إلى قاضي التحقيق، ويعودون مبتسمين فرحين. ليس ذلك غريباً إذا ما عرفنا أن القاضي كان أول شخص يسألهم، ويحقق معهم دون إهانة أو ضرب. أشار أحد المعتقلين إلى أن هذا القاضي ملاك وليس ببشر. بالتأكيد كان ملاكاً مقارنةً بمن مررنا بهم، وموقعنا الآن كان جنةً بالمقارنة مع الأماكن التي كنا فيها. عاد الوقت ليمرّ بطيئاً كما هي كل لحظات الانتظار، انتهى وقت الدوام الرسمي، وتوقف خروج المعتقلين بعد انتهاء التحقيق مع الجميع، إلا أن انتظارنا تواصل. كانت كل لحظة تمر تعني تضاؤل الأمل بالخروج إلى المنزل ذلك اليوم، وهذا ما أكده ماهر الذي توقع أن يفرج عنا بعد يوم، لأن النائب العام لم يحضر ذلك اليوم.

بدأت أشعر بالتعب الشديد بسبب استيقاظنا الباكر واستمرارنا في صوم نهار طويل، كما كل أيام شهر آب. الكلام الكثير ذلك اليوم أصابني بعطش شديد، قررت التوقف عن الكلام كي أستطيع الصبر حتى قدوم لحظة الإفطار بعد أن أوشكتُ على الانهيار. حاولت النوم إلا أنني لم أستطع بسبب الضجة الكبيرة وعشرات الأفواه التي تتكلم وتصرخ، وبعضها كان يضحك بجنون، وخصوصاً بعض الشباب اليافعين الذين كانوا غاية في الوقاحة وقلة الأدب والتفاهة.

اقترب وقت المغرب ولازلنا في القصر العدلي، منتظرين فرجاً قريباً يريحنا من الوضع المزعج الذي نحن فيه. في ذلك الوقت بدأ الحراس بنقلنا إلى الخارج، لنستقل السيارة التي ستعيدنا قبل وقت الإفطار. كان العدد كبيراً، إذ احتجنا إلى ثلاث سيارات لنقلنا، كانت أكبرها وأكثرها استيعاباً سيارة اللحمة التي ركبناها مرتين. صعدنا أنا وماهر مقيدين إلى السيارة، وصعد بعدنا وقبلنا عدد كبير غصّت به السيارة، فازدادت معاناتنا بعد لحظات الانتظار الطويلة منذ الصباح الباكر. انطلقت السيارة بأقصى سرعة كي نصل إلى السجن قبل أذان المغرب، إلا أن زحمة السير المعتادة في تلك اللحظات

عاقت تقدمنا كثيراً، فأطلقت سيارات الشرطة لأبواقها المعروفة العنان كي يفتح الطريق أمامنا. لم نفلح بالوصول قبل الإفطار بعد أن سمعنا أذان المغرب يرفع ونحن على الطريق. قام بعض المعتقلين بتشغيل سجائرهم ليفطروا عليها فازداد الوضع سوءاً. وصلنا إلى السجن لنُنقل بسرعة إلى غرف الأمانات التي كنا فيها سابقاً. لم ننتظر وصول الإفطار المخصص لنا فشربنا الماء، وأكلنا كعك "معروك" اشتراه ماهر من أحد نزلاء السجن الذي يبيع بعض الأطعمة.

السجن المركزي

قبل أن يحين وقت أذان العشاء، جمعنا أحد ضباط الشرطة في ساحة ذلك القسم، وطلب ممن يسمع اسمه البقاء في قسم الأمانات، وأن يتبعه الباقي إلى مكان آخر. بدأ النداء بالأسماء التي لم يكن اسمي واسم ماهر من ضمنها، لكنني سمعت اسم الحاج مروان وحفيده ممن تليت أسماؤهم. كان هناك تأويلان لهذا التقسيم، وهما أن من تليت أسماؤهم سيبقون في قسم الأمانات ليتم تحويلهم إلى القصر العدلي مجدداً بغية الإفراج عنهم، أو أن من ذكر اسمه سوف يبقى في السجن بينما سيفرج عنا غداً. لكن لكون أسماء الحاج مروان وحفيده والمعتقلين القُصّر قد ذكرت فهذا يعني ألا نتفاءل كثيراً. ذهب القسم الذي كنت أنا وماهر بينهم إلى ذلك البهو الذي جلسنا فيه قبل يوم في اللحظات الأولى لوصولنا إلى السجن. جلسنا على الأرض وجلس أمامنا أربعة مساعدين في الشرطة خلف أربع طاولات ليقوموا بتسجيلنا لنصبح نزلاء رسميين في هذا السجن. كان ذلك خيبة أمل لنا بعد تفاؤلنا المفرط طوال ذلك اليوم.

بدأ أحد الضباط بالنداء على الأسماء ليستلم المعتقل مذكرة الاعتقال. بعد كل ما جرى مع المعتقلين من أحداث وبعد كل المراحل التي مروا بها، أعطونا مذكرة الاعتقال في ذلك الوقت. شخصياً كنت قد تسلمت مذكرة اعتقالي بعد سبعة أيام من الاعتقال. كما كان يجري التسجيل في سجلات لدى ثلاثة ضباط آخرين. بعد وقت ليس بالقليل جاء دوري في التسجيل. وقفت أمام الضابط الأول الذي بدأ يسألني عن تفاصيل هويتي، وبعد معرفة بلدتي نظر إليّ وقال بلهجة القرى القريبة بسخرية وغضب: "يا وال إنت من الخان؟ وبدك تتظاهر؟" قلت له بصوت منخفض لم يسمعه، الضباط الأربعة يدخنون السجائر داخل السجن، مخالفين بذلك قانون التدخين ولا يبدو أن أحدهم يلاقي ما ألقاه لمجرد مخالفة قانون التظاهر. أعطاني مذكرة الاعتقال التي كتب عليها في حقل التهمة: "مخالفة قانون التظاهر والنيل من هيبة الدولة والوحدة الوطنية وشتم رئيس الدولة". مررت على باقي الضباط.. أحدهم

استغرب أن يكون المعتقلون طلاب جامعة ويقومون بمثل هذا الفعل. أحسست في ذلك الوقت أني أعيش في كوكب آخر غير الكوكب الذي يعيش فيه ذلك الأحمق، تمنيت أن يوجه هذا السؤال إلى نفسه قبل كل شيء. عدت إلى مكاني ليقوم ماهر بالإجراءات نفسها. شاركني ماهر قلقي الكبير من التهمة التي وجهت لنا، وحملت إضافة إلى مخالفة قانون التظاهر تهم النيل من هيبة الدولة والوحدة الوطنية، وشتم رئيس الدولة.

حاولنا الاستفسار عن موضوع التهمة فطمأننا أحد الزملاء بأننا سنعامل كما يعامل بقية المعتقلين، إلا أن ذلك لم يكن كافياً كي يريح بالنا. أمر آخر أزعجنا وهو كون مذكرة التوقيف مؤرّخة بالثاني والعشرين من آب، بينما اعتقلنا في العشرين منه. حاولت الاستفسار عن ذلك من أحد الضباط، فصرفني معلناً ألا دخل له بهذا الموضوع. يبدو أننا خسرنا يومين في حساب أيام الاعتقال، وهما اليومان اللذان كنا فيهما في كوكب القرود. أثناء عملية التسجيل الطويلة كان هناك تلفاز للشرطة يعرض عليه فلم "Assassins" لأنتنيو بانديرس وسلفيستر ستالون. أعادني ذلك الفيلم قليلاً لأيام الحرية خارج السجن.

بعد أن انتهت عملية التحقيق استدعى أحد الضباط ثلاثة سجناء يعملون كحلاقين، كي يحلقوا للنزلاء كما يجري مع كل من يدخل السجن. الفرج جاء فوراً عندما أبلغنا الضابط أنهم لن يحلقوا لطلاب الجامعة، فخرجت أنا وسبعة معتقلين آخرين بينهم ماهر لننجو من هذه المصيبة. في تلك الأثناء قام رئيس السجن العميد بسام علولو بتفقد عملية التسجيل، فقام الكثيرون بالاحتجاج على عملية الحلاقة، إلا أن العميد طلب أن يحلقوا للجميع عدا الطلاب والموظفين.

انتهت مرحلة التسجيل وتوجهنا إلى الملحق، وهو قسم منفصل عن المبنى الرئيسي للسجن. وصلنا إليه بعد أن عبرنا ساحة السجن الخارجية الرئيسية التي كانت تضم ملعباً كبيراً لكرة القدم وملعبا لكرة السلة وغير ذلك. كانت خيبة أملنا كبيرة بعد أن تأكدنا من عدم خروجنا في القريب العاجل، ويبدو أننا يجب أن نكمل خمسة عشر يوماً التي يجب أن يكملها المتظاهرون قبل أن يخلي قاضي التحقيق سبيلهم بكفالة مالية. الملحق كان عبارة عن قسمين،

ملحق ومختلفة يوضع فيها المعتقلون من أصحاب التهم غير الخطيرة. كتب أحد العناصر على يد كل متم رمزاً يدل على الغرفة التي سيقضي فترة السجن فيها. كُتب على يدي ق2 بينما كُتب على يد ماهر ق1 وخشيت أن يتم فصلنا مجدداً عن بعض فتضيق علي الحياة في الأيام القادمة. فتشنا بدقة قبل الدخول إلى الملحق. كان عبارة عن بهو كبير فيه أربع غرف على يمين المدخل وأربع عن شماله وغرفتان في الصدر. أدخل ماهر إلى الغرفة الأولى بينما دخلت مع سبعة من المعتقلين الذين كنت أعرفهم معرفة سطحية إلى الغرفة الثانية.

هاجمتني وحشة مفاجئة في تلك الغرفة التي كانت تضم أقل من أربعين سجيناً وثمانية عشر سريراً كالأسرة الموجودة لدى الجيش ومطبخاً وحماماً صغيراً. لم نحظ بأي ترحيب فجلست أقلّب وجوه زملاء الغرفة. بدأت محاولة التعرف على الزملاء الذين أذكر منهم شاباً من مدينة مارع، كان يؤمّ المصلين دائماً. كان هناك عبد الكريم حمشو وأخوه من قرية رتيان وشاب نسبته قسوم من قرية الجانودية بريف إدلب، ورجل من الباب نسبته تمرو. كان في الغرفة شاب اسمه ياسر معّاز، كان شبيحاً يقمع المظاهرات قبل أن ينقلب إلى متظاهر، وآخر اسمه خالد من سكان الفردوس في حلب إلا أن أصله من قرية قريبة من قريتي. حاولت كثيراً تذكر نسبته إلا أني لم أستطع. لن تكون هذه الغرفة بالمكان الوحيد الذي سيجمعنا. إضافة إلى الشباب الذين دخلوا معي في اليوم نفسه، وأذكر منهم بشاراً الذي اعتقل في الصاخور، ويسكن في السكري، وعامراً الذي اعتقل نحو شهر في المخابرات الجوية ومحمود سندة. كان كل من ذكرتهم، وغيرهم معتقلين بتهمة مخالفة قانون التظاهر أو تهم مشابهة.

كان رئيس الغرفة شاباً نصف مجنون يدعى أبو علي يلقب نفسه دائماً بالبكاري نسبة إلى عشيرة البكارة. كان هناك رجل كبير بالعمر من مدينة الباب من آل نعساني، وغيرهم ممن ضاعت أسماؤهم في مكان ما من ذاكرتي. سجلنا أسماءنا لدى أحد السجناء لتخصيصنا بحصص الطعام والخبز وغيره. أخذنا حماماً ساخناً، وبعدها كان علينا أن نشكل مجموعة طعام جديدة، فكان على كل عدد من النزلاء أن يشكلوا مجموعة مشتركة للطعام، يتشاركون فيها شراء بعض المواد الضرورية، والقيام بأعمال الطبخ، والتنظيف. كانت الأمور منظمة داخل السجن على نحو مقبول.

انتابني شعور بالقهر والحزن من الوضع الذي وصلت إليه. أظن أن كل من يدخل إلى السجن في أول يوم ينتابه هذا الشعور. كان علينا أن ننام على الأرض لعدم توفر أسرّة كافية، لكن كان هناك العديد من الاسفنجات التي يمكن النوم عليها، إضافة إلى عدد كبير من الأغطية المعروفة بأغطية الجيش. سألت عن إمكانية إجراء مكالمة هاتفية، لأني كنت أذكر أن زكريا كان يجري المكالمات من داخل السجن. طلب مني أحد الزملاء أن أنتظر حتى الصباح حين تفتح كولبات الهاتف. كان هناك تلفاز في كل غرفة يمكن عن طريقه مشاهدة بعض القنوات التي يسمح بمتابعتها فقط، كقنوات المسلسلات والأفلام الأجنبية وقنوات الأغاني بالإضافة إلى قناة الدنيا والقناة الفضائية السورية.

الأبواب فتحت قبل أذان الفجر ليقوم النزلاء بالتحضير لوجبة السحور. فكل غرفتين تتشاركان براداً كبيراً توضع فيه بعض المواد الغذائية، وكان لكل غرفة ثلاث سخانات كهربائية تُطبخ عليها الأطعمة. في البهو شاهدت ماهراً وتحدثت معه عن وضعي في الغرفة، فطلب أن أقدم طلباً لأنتقل إلى غرفته كي نبقى معاً، لكنني لم أكن متحمساً لذلك لعدم معرفتي بإمكانية تنفيذ الطلب، ولإمكانية أن نلتقي لفترات طويلة في اليوم لأنَّ الأبواب كانت تفتح منذ الصباح حتى أذان المغرب وكذلك في فترة السحور.

على السحور قام بعض الزملاء باستضافتنا، لعدم وجود أي شيء نأكله بعد قدومنا المتأخر وقدموا لنا عدداً كبيراً من النصائح التي تعطى لكل سجين جديد، حول كيفية التعامل في السجن والقواعد السائدة، وما يمكن الحصول عليه مجاناً من السجن أو عن طريق شرائه من الباعة داخله.

في صباح اليوم التالي استيقظت باكراً مع فتح أبواب الغرفة. ذهبت لواحدة من أربع كولبات هاتف موجودة في هذا القسم، اثنتان منهما للمكالمات الأرضية تكلفة ثلاث الدقائق فيها خمس ليرات، ولا يسمح لأي معتقل بالتحدث لأكثر من ثلاث دقائق نظراً للضغط على المكالمات. واثنتان للمكالمات الخلوية كلفة الدقيقة الواحدة فيها كانت عشر ليرات سورية.

وقفت في الطابور الطويل كي أتصل بأهلي وأطمئن عليهم، ويطمئنوا علي. بعد مرور وقت طويل من الانتظار جاء دوري. طلبت رقم المنزل وانتظرت الرد وحاولت جاهداً ألّا أبكي في تلك اللحظة، إلا أن الدموع غلبتني مع أول

كلمة سمعتها من أمي دون أن تؤثر على صوتي تقريباً. فوجئتْ أمي بمكالمتي كثيراً. سألتها عن أحوالها وعن أحوال أخوتي، وأقاربنا فطمأنتني عن الجميع. سألت عن زكريا الذي خشيت كثيراً من أن أكون قد ورطته بعد أن ذكرت اسمه في التحقيق، فأكدت أنه بخير ولم يعتقل. قالت لي:

إن والدي وبعض الأقارب في القصر العدلي، سيقدمون طلب إخلاء سبيل لدى قاضي التحقيق الذي وعدهم بالمساعدة، فهو على معرفة بأحد أقاربنا.

ارتفعت معنوياتي كثيراً بعد هذه المكالمة وبعد الوعود بالإفراج قبل عيد الفطر الذي بقي لقدومه يومان. بالكاد كان الصوت يُسمع بسبب ضعف صوت السماعة. اتصلت كذلك بصديقي توفيق كي أعرف ما هو وضعي في المركز. قال لي إنهم يحسبون الأيام التي أتغيبها كإجازات وفور خروجي سأعود إلى دوامي وكأن شيئاً لم يكن. طلبت من توفيق أن ينظف كمبيوتره وحسابه على الفيس بوك تحسباً لأي طارئ وأن يطلب من كل الأصدقاء ذلك. عدت إلى الغرفة لنبدأ شراء الحاجات الضرورية التي تخص مجموعتنا في الغرفة.

قضيت اليوم الأول متنقلاً من شخص إلى آخر كي أسلي نفسي، ويمر الوقت سريعاً، تعرفت على الكثير من المتظاهرين الذين تبادلت معهم القصص الكثيرة عن المظاهرات والحراك الثوري في حلب. نمت بعض الساعات على أحد الأسرّة وانتظرت حلول وقت الإفطار. كان التلفاز أحد أكثر ما يسلي السجناء، جلست لأتابع بعض المسلسلات الرمضانية، كان مسلسل "الدبور" أشهرها. وعرفت كذلك أن بايرن ميونخ فاز على شالكه بهدفين دون رد في الدوري الألماني. كانت قناة الجزيرة الرياضية المشفّرة إحدى القنوات المتوفرة في التلفاز، إلا أننا لم يكن بإمكاننا متابعة أكثر من قناة واحدة من القنوات العشر، وهي التي ستنقل إحدى المباريات الهامة.

كانت وسيلتنا الوحيدة لمعرفة أخبار الثورة هي إعلام النظام المتمثل بقناة الدنيا والفضائية السورية. الأمر كان غاية في البساطة، فكل ما ينفيه إعلام النظام يكون صحيحاً، وقد وقع حقاً، وكلما ذكر عملية نوعية نفذتها قواتنا الباسلة في مدينة ما، يعني أن مجزرة قد وقعت في تلك المدينة. وكلما قال تمسّك أهالي إحدى المدن أو المناطق بالوطن وقائده، يعني أن مظاهرة كبيرة خرجت هناك.

مرّ اليوم الأول بسرعة على أمل الخروج في اليوم التالي. طلبني مساء أحد عناصر الشرطة ليعطيني بعض النقود التي أرسلها لي أهلي وأعطاني موبايله لأكلم خالي الذي يعرف بطريقة ما ذلك الشرطي. إلا أن اليوم التالي لم يحمل لنا أخباراً جيدة بعد أن كلمت أبي، الذي أكد لي أننا سوف نبقى حتى ينتهي عيد الفطر وبعدها سيوافق على إطلاق سراحنا، حسبما وعد قاضي التحقيق. شعرت بالخجل الكبير وأنا أكلم أبي، فلطالما حذرني مما كان يجري معي ذلك الوقت، إلا أنه شجعني بكلامه وأكد أنني سأخرج قريباً، ويجب ألا أقلق على شيء، وخصوصاً وظيفتي التي قد تشكل هذه القضية خطراً يهدد استمراري بها.

مساءً بعد وجبة الإفطار تغير مزاجي إيجاباً لأمر قد يبدو لكم تافهاً إلا أنه عنى لي الكثير. استيقظت بعد فترة نوم قصيرة على صوت أعرفه جيداً، هو صوت يوسف سيف معلّق قناة الجزيرة الرياضية، الذي كان يعلق على إحدى مباريات ريال مدريد في الدوري الإسباني. رغم عدم تشجيعي لـ: ريال، إلا أن مشاهدة مباراة كرة قدم داخل السجن كانت جائزة كبيرة لم أكن أتوقع الفوز بها.

الروتين

الوضع في السجن أفضل بكثير من الوضع في الأماكن التي كنا فيها من قبل ولا مجال بأي حال من الأحوال للمقارنة بينهم. عدنا في السجن إلى مرتبة البشر على الأقل، بالإضافة إلى الخدمات الكثيرة المقدمة في السجن، وعلى رأسها التلفاز هذا الاختراع الذي عرفنا أهميته كما عرفها من شاهده لأول مرة بالأبيض والأسود، يعيد لنا بعض الصلات مع الخارج. وكذلك هناك عدد كبير من السجناء يمكن أن تتحدث إليهم، أو أن تلعب معهم الشطرنج أو الضاما، رغم أني لم أكن لاعباً جيداً في هاتين اللعبتين، أما بالنسبة للعب الورق فقد كان ممنوعاً. يتوفّر في السجن كل ما هو خارجه لكن الأسعار أعلى بقليل مماهو في الخارج.

الطعام في السجن يمكن وصفه بالممتاز، يطبخه بعض السجناء الذين تخصصوا بتلك الوظيفة، فكان طعامهم جيداً إذا عرفنا أنهم كانوا يطبخون الطعام لإطعام آلاف الناس، ويصل دائماً بوقته إلى كل الغرف بعد تنظيم كل شيء فيه. لكن السجن هو سجن مهما توفرت فيه أسباب الرفاهية والراحة.

لم يكن هناك الكثير من طلاب الجامعة في السجن كون المظاهرات في جامعة حلب متوقفة منذ يوم بركان حلب. بدأت أسأل عن إمكانية تقديم ما تبقى لي من مواد في الكلية كي لا أخسر السنة وأبقى في السنة الثالثة. كنت بحاجة إلى ثلاث مواد فقط كي أترفع إلى السنة الرابعة.

العمل في السجن منظّم بطريقة جيدة، فعلى رأس السجن العميد بسام علولو ومعه عدد من الضباط المساعدين له. كان يرأس كل قسم ضابط ينظم العمل في قسمه ويساعده عدد آخر من الضباط والعناصر. العناصر في كل قسم كانوا يعينون رئيساً لكل غرفة ليسهل التعامل مع الغرفة في توزيع الطعام وغيره. كانت كل مشاكل الغرفة تحل بالتنسيق مع رئيسها الذي كان لديه سجل بأسماء النزلاء، وتاريخ دخولهم السجن وتهمهم. رئيس غرفتي كان شاباً أحمق، لا أرى سبباً لتعيينه على رأس الغرفة سوى التخلّص من

مشاكله. كان أغلب رؤساء الغرف من الأغنياء، الذين كانوا يحصلون على ما يريدون عن طريق رشوة بعض العناصر والضباط هناك. داخل كل غرفة يقسّم السجناء إلى مجموعات للطعام، فيقوم كل ممثل لهذه المجموعات باستلام الطعام من الشخص المسؤول عن الإطعام في الغرفة.

جهاز السجن كان يحاول تأمين وظيفة لأي سجين لا مورد مالي خارجي له، فكان هناك باعة متجولون وأشخاص يقومون بأعمال التنظيف، وغسل الملابس وكيِها. كان هناك سجناء يعملون طباخين في مطبخ السجن وخبازين في فرنه. وهناك موظفون يبيعون "الفراطة" التي يحتاجها المعتقلون لإجراء المكالمات الهاتفية عبر بيعها بأعلى من سعرها. في كل غرفة نزيل يخصص لأعمال التنظيف والجلي مقابل مبلغ مالي يجمع أسبوعياً. كان هناك "الحوّاسون" وهم مجموعة من السجناء تخصصوا بنقل المواد التي يطلبها النزلاء من مكان بيعها، ويسمح لهم بالخروج عندما تقفل أبواب الغرف بالإضافة إلى مساعدتهم في توزيع الطعام على السجناء.

اليوم الأخير من شهر رمضان شهد الإفراج عن عدد كبير من نزلاء السجن، فخرج من غرفتنا حوالي خمسة سجناء. بدت فرحة هستيرية على وجوههم. عرفت ذلك الوقت ماذا تعني الحرية لمن ينتظرها، وعرفت ما سأشعر به عندما يفرج عني. ودّع المُفرج عنهم زملاءهم بالقبلات والعناق. كان الجميع مبتهجا، فعلى الأقل، سيخف ضغط النزلاء في الغرفة.

مرت الأيام الأولى في السجن والأخيرة من رمضان بدون أمور مهمة سوى مزيد من التعرّف على السجناء، ومزيد من النقاشات الثورية وغير الثورية. كان الوضع في السجن أكثر أماناً، وبإمكاننا التحدث بحرية أكبر بكثير من الخارج. فالخارج يخشى الدخول إلى السجن، أما السجين فقد تحرر من هذا الهاجس. ويمكننا القول: إننا أحرار، ومن هم في الخارج سجناء.

في الحادي والثلاثين من آب كان عيد الفطر وهو أول يوم عيد يمر عليّ وأنا بعيد عن أهلي. لم يكن هناك أثر للعيد في السجن بل كان مجرد يوم عادي. أيقظني فيه ماهر بعد أن تأخرت في النوم وطلب مني أن أستيقظ كي يعايدني، فطلبت منه أن ينصرف عني لأني أريد أن أكمل نومي. في الحقيقة كان ماهر سنداً ومثبتاً لي في تلك الأيام الصعبة، كما أظن أني كنت سنداً له

في الوقت نفسه. بعد الاستيقاظ قمت بمعايدة الأصدقاء والتمني لهم أن يشهد العيد القادم احتفالات شعبنا بالنصر المبين. كان الجو كئيباً، وزادت في كآبته أغنية "عيد وحب" لكاظم الساهر التي عرضت على التلفاز. في الحقيقة كان صيام رمضان غاية في الصعوبة في ذلك الصيف ذي الجو الحار والنهار الطويل. أظن أنّا كنا نصوم حوالي ست عشرة ساعة في اليوم. حان الآن الوقت لانتظار الإفراج الذي وُعدنا به بعد العيد.

ثاني أيام العيد كان الثلاثاء المخصص للزيارات في قسمنا. توقعت بطبيعة الحال زيارة أهلي ليطمئنوا عليّ بعد أن عانوا كثيراً من المخاوف والهواجس حول حالتي ووضعي في السجن. بدأ "الحواسون" يجلبون طلبات الزيارة للسجناء الذين كان يصل ذووهم. حضّرت نفسي كي أكون ثابتاً أمام أمي وأستطيع أن أطمئنها وأقنعها بأني مرتاح البال ومسرور، وأرفع من معنوياتها قدر الإمكان. لم يمض وقت طويل حتى جاء أحد الحواسين ليصرخ باسمي. قمت وأخذت الورقة التي يحملها، أعطيته بعض النقود كما هو معروف. وصلت إلى مكان الزيارة الذي يحتوي على بهو مستطيل يقف فيه الزوار ويحيط به ممر يقف فيه السجناء. ويفصل البهو عن الممر شبك حديدي مزدوج، ويفصل بين الشبكين حوالي متر. رأيت وجه أمي عبر الشبك. كانت تبكي بحرقة، فلم أتمالك نفسي ورحت أبكي معها، وأطمئنها عن نفسي. سألت أبي عن أحوال الجميع فأجاب بأن الكل بخير، وبانتظار خروجي. جلبت أمي معها كيساً فيه بعض الملابس، إضافة إلى محاضرات مادتيّ المالية والقانون التجاري اللتين من المفترض أن أقدمهما بعد الإفراج عني، أو بالخروج من السجن إلى الجامعة والعودة إليه، فقد أكد لي الكثير إمكانية حدوث ذلك. لم تطل الزيارة، ودّعت أبي وأمي التي أوصتني أن أنتبه إلى نفسي. عدت بعدها إلى غرفتي كي أتابع انتظار الفرج وانتهاء الكابوس.

بعد انتهاء عطلة العيد بدأت الأمور تمر برتابة وروتين يومي، فاليوم كان يبدأ بأن استيقظ في وقت غير مبكر، لأقوم بالمشي في البهو مدة عشر دقائق، وبعدها أحتسي الشاي الذي يعده أحد الزملاء أثناء الحديث والتعارف والنقاش الصباحي. الفطور يكون جاهزاً بعد وقت غير طويل. كان أعضاء مجموعتي يشتكون من عدم مشاركتي في إعداد الطعام وجلي الصحون.

مع اقتراب وقت الظهيرة كنا نصطف في الدور الطويل أمام كولبات الهاتف لإجراء المكالمات، التي كنا نأمل أن تحمل لنا الفرحة المنشودة بالحرية، والإفراج من هذا السجن. كان الرد غالباً يأتي بأننا يجب أن نتصل بعد قليل، وبعد قليل يحمل لنا خبراً مخيباً للآمال بأن الإفراج أُجل إلى موعد آخر. عرفت منذ أوّل يوم بعد العيد أنّ عليّ أن أنهي خمسة عشر يوماً كي ينتهي هذا الكابوس. بتُّ أعد كل يوم مضى علي فعلياً في المعتقل ونظرياً لدى القاضي، بعد أن حذف أول يومين من الحساب.

تأتي بعدها فترة الغداء، فنقوم باستلام مخصصاتنا اليومية من طعام وخضروات وغيرها توزع تقريبا بانتظام، حيث كان لكل يوم من الأسبوع نوع معين من الطعام. بعد الانتهاء من ذلك ;كنا نعود إلى البحث عن أي شيء يسلي ويحرق لحظات الانتظار، فكنت أذهب إلى غرفة ماهر أو يأتي هو لزيارتي، إضافة إلى عملية التعارف المتواصلة مع الزملاء في السجن، إذ يحمل كل شخص جديد نتعرف عليه مزيداً من الأحاديث والقصص التي لا تنتهي. ومع اقتراب المغرب يغلق الحرس أبواب الغرف لتفتح مجدداً في الصباح.

مساءاً داخل الغرف كنا نقضي وقتنا ونحن نشاهد التلفاز. كان أبرز المسلسلات المُتابعة ذلك الوقت المسلسل التركي "وادي الذئاب" الذي كان له ولبطله "مراد" شعبية كبيرة، فقد كان صوت التلفاز يرفع إلى أعلى درجة ولا يِسمح لأحد بتشتيت تركيز المتابعين. كان السجن بكامله يشاهد المسلسل ويتفاعل معه، حتى صرت أترقبه رغم أني لم أكن مهتماً به قبلاً.

بعد انتهاء المسلسل كنا نركز على أخبار قناتي الدنيا والفضائية السورية، كي نعرف القليل مما يجري خارج جدران السجن بعد إعادة معالجتها. ومع الساعة الثانية عشرة يوضع التلفاز على إحدى قنوات الأفلام الأجنبية مع تخفيض الصوت، ليستطيع أن ينام من يريد. كنت أتابع قبل أن أنام فيلمين أو ثلاثة مما كان يعرض على تلك القنوات. كان أبو علي رئيس الغرفة يحفظ تفاصيل غالبية الأفلام التي تعرض لكثرة ما شاهدها وأعادها. كان ذلك أوّل وأكثر ما اتفقت عليه مع أبي علي. بعد ذلك كنت أصلي الفجر جماعة، وبعدها أضع رأسي وأنام لأنهي بذلك يوماً وأشطب رقماً يفصلني عن الحرية.

في الجامعة

بدأت التحضير لتقديم ما تبقى لي من مواد في الامتحان الذي لم ينته لحد ذلك الوقت. طلبت من أهلي أن يجلبوا لي الأوراق المطلوبة للسماح لي بالخروج من السجن إلى الجامعة. كنت بحاجة إلى بطاقتي الجامعية، ووصل التسجيل وبرنامج الفحص المصدق من قسم شؤون الطلاب في الكلية. كان لدي وقت طويل للدراسة، رغم أن المواد التي بقيت لم تكن بتلك الصعوبة ويمكنني النجاح بها. المشكلة أن المادتين لم يكن بينهما أيّ يوم في برنامج الفحص، ويصعب عليّ تحضير مادة قانون الشركات بعد تقديم مادة المالية العامة بيوم واحد. أنهيت الإجراءات المطلوبة وعرفت أن علي الخروج في وقت مبكر كي ألحق بالامتحان.

بالإضافة إلى رغبتي الكبيرة بالنجاح بالمواد التي بقيت عليّ كي أترفع إلى السنة الرابعة، كان الامتحان في مثل ذلك الوقت يشكل رحلة ترفيهية لي سأنقل فيها من السجن المركزي إلى فرع الأمن الجنائي، ومن هناك سأنقل إلى جامعة حلب عبر شوارع حلب التي اشتقت لها كثيراً. كان ذلك جائزة كبيرة بالنسبة لي.

في اليوم المنشود استيقظت باكراً، وانتظرت أن يأتي أحد عناصر الشرطة لأخبره أني يجب أن أذهب إلى الجامعة. كنت قد استعرت بنطال جينز من صديقي أحمد مدلج لأني خرجت من المنزل بالبيجاما، ولم أجد أنه من المناسب أن أذهب إلى الجامعة بها، بينما لم أمانع أن أنتعل "الشحاطة" التي تبرع بها أبو علي رئيس الغرفة وأذهب. خرجت من الملحق وتوجهت عبر الساحة الرئيسية إلى البرج، حيث كان المكان الذي يُجمع فيه السجناء الذين يتحضرون للنقل إلى القصر العدلي أو إلى أحد فروع الأمن. وأنا في طريقي إلى هناك شاهدت تلّة بعيدة عليها أشجار زيتون. استوقفني ذلك المشهد كثيراً وفكرت أني منذ متى لم أشاهد هكذا منظر. يبدو أن هذه الرحلة ستكون مليئة بالتفاصيل والمشاهد التي أصبحت هامة للغاية بعد أن كنا بالكاد نلاحظها في زحمة حياتنا السابقة.

كان المكان الذي ذهبت إليه ورشة عمل يقوم فيها الشرطة بتحضير السجناء لنقلهم إلى خارج السجن، فيتم فرزهم حسب الجهة التي سيذهب إليها كل سجين. تعرّفت هناك إلى رجل يمني لا أعرف كيف وصل به الحال إلى السجن. كان رجلاً أربعينياً قصير القامة يرتدي الزيّ الشعبي في اليمن، ولا ينقصه إلا الجبيّة، وهي خنجر يشتهر أهل اليمن بوضعه كحزام على الخصر. تحدّثت معه وأخبرته أني سعيد جداً بأن أقابل رجلاً من اليمن، التي عشت فيها ثلاث سنوات في طفولتي، ودرست الصف الأول والثاني في مدرسة عمر المختار، في عاصمتها صنعاء. تعجّب الرجل من معلوماتي الدقيقة عن مواقع كثيرة في اليمن. سألته عن وضع اليمن الذي لازالت الثورة مستمرّة فيه. قال لي: إن هناك معسكرات لعلي عبد الله صالح، ومعسكرات للشيخ صادق الأحمر، والوضع يوحي بحرب وشيكة. لم يفصح لي مع أي الفريقين يتعاطف، إلا أنني شعرت بأنه لا يحب النظام اليمني الحاكم.

وُضعت الأصفاد في أيدينا، وتم اقتيادنا إلى الساحة حسب الوجهة التي سنذهب إليها. صعدت إلى باص متوسط الحجم تحاط نوافذه بشبك حديدي. كان معي أشخاص سينقلون إلى فرع الأمن السياسي، وأنا وحدي كنت سأتوجه إلى الأمن الجنائي. كان في الباص شاب رُحّل من إيران إلى سورية، وسيجري التحقيق معه بتهمة الانتماء إلى حزب العمال الكردستاني. لم يبدُ عليه الخوف مما سيجري معه داخل الفرع. شعرت بتعاطف كبير معه لأني توقعت أن تهمته خطيرة وتنتظره أيام سوداء. على الطريق كنت فرحاً للغاية وأنا أمرّ في شوارع حلب وأشاهد الناس والسيارات. تمنيت أن أرى أي شيء يدل على وجود الثورة في الشوارع التي أمر بها، إلا أن أمنيتي لم تتحقق.

بعد أن سلِّم المعتقلون إلى السياسية وصلنا إلى فرع الأمن الجنائي الذي كان كما تركته مليئاً بالمحققين والحراس والمعتقلين. طلب مني أحد الحراس أن أنتظر في الممر أمام الزنزانات لأخذي إلى الجامعة قبل بدء الامتحان بنصف ساعة. جلست منتظراً وأنا أراقب المعتقلين الذين سيساقون إلى القصر العدلي كما يبدو. حمدت الله لأني كنت أرتدي نظارتي الطبية ذلك الوقت على عكس الأيام التي قضيتها فيه. مع اقتراب الساعة من العاشرة والنصف، جاء أحد العناصر المخصصين لنقل الطلاب إلى الجامعة، ليخبره الحارس بأنّ هناك طالباً

جديداً لديه امتحان بعد نصف ساعة. بدا العنصر في غاية الغضب من ذلك، فهو للتو قد عاد من مرافقة أحد الطلاب.

أكمل العنصر الإجراءات المطلوبة لنقلي، وضع الأصفاد بيدي، وأخذني خارج الفرع ليضعني في سيارة تويوتا جيب. صعد عنصر آخر بجانبي والعنصر السابق من الجانب الآخر إضافة إلى السائق. بعد قليل جاء ضابط شاب ليرافقنا إلى الجامعة، فلا يجب نقل أي معتقل دون أن يكون هناك ضابط برفقته. سألني ذلك الضابط بشراسة "شو بتدرس ولاك جحش؟" أجبته بأنني طالب حقوق في السنة الثالثة، فالتزم الصمت طوال الطريق. حقيقة لا أعرف مدى، وسبب تأثير كلمة "حقوق" على عناصر الشرطة والأمن. في طريقي إلى الجامعة كانت عيناي تتعلقان بكل ما تقع عليهما من شوارع وأبنية وناس.

دخلنا إلى حرم الجامعة من الباب الشمالي لنتوجه إلى كلية الحقوق. نزلت من السيارة مع اثنين من العناصر وأنا مقيد الأصفاد إلى قاعة الامتحان. حاولت أن أرى وأنا أسير أي شخص يعرفني، ويشاهدني بذلك الموقف الذي كنت ألعب فيه دور البطل بأفضل صورة ممكنة. كانت ابتسامتي لا تفارقني وأنا أدخل إلى البهو الأرضي، المكان المخصص لتقديم الامتحان حسب رقم جلوسي. البهو كان بين مدرّج الدكتور عبد الوهاب حومد، ومدرّج المشرع حمورابي. تمنيت أن يراني بهذا المنظر كل الطلاب الموجودين في البهو وكل طلاب الكلية، تمنيت أن يراني طلاب جامعة حلب وكل شخص داخل هذا البلد وخارجه، فليس كل يوم أدخل السجن وأخرج منه لتقديم الامتحان. كنت كذلك سعيداً بسبب الغضب الكبير الذي سببته للعناصر والضابط، لأني أخرجتهم في ذلك الحر الشديد لكي يأخذوا "الخائن" ليقدم امتحانه. جلست على أول طاولة في البهو وقُيّدتْ يدي اليسرى بالطاولة، بينما يدي اليمنى أمسكت بالقلم الذي طلبت أن يجلبه لي أحد العناصر من أحد الطلاب.

وُزّعت الأسئلة على الطلاب وبدأ الامتحان. مع أول قراءة للأسئلة لم أشعر بالتفاؤل وبدا أني سأعاني كثيراً لأنجح بهذه المادة. لاحظت كذلك أن عميد الكلية قد تغير، بعد أن وقع على ورقة الأسئلة الدكتور عمر فارس، بدلاً من الدكتور شوّاخ الأحمد. بدأت بالإجابة على الأسئلة التي عرفت حلها ووضعها

على ورقة الإجابة، إلا أن ما كتبته لم يبد أنه كاف لأحصّل خمسين علامة، رغم أني قد حضرت المادة تحضيراً جيداً. كان دكتور المادة من المدرسين في كلية التجارة والاقتصاد، ورأيت أنه غير موفق بوضع أسئلته، التي يمكن أن يجيب عليها طالب الاقتصاد بسهولة، بينما تتضمن مصطلحات وأموراً غريبة جداً عن طالب الحقوق، فقد خلت من كل الأمور القانونية والتشريعية المتعلقة بالمالية العامة، بينما ركزت على التعاريف والتعاليل التي تدخل في صميم علم الاقتصاد. على العموم الدكتور حر بوضع أسئلته، إلا أني عرفت في تلك اللحظة أني قد خسرت السنة وسأبقى في السنة الثالثة. كان هذا الشعور يترسّخ شيئاً فشيئاً وأنا أعيد النظر في الأسئلة علّني أتذكر أي شيء ينقذني وأنجح في المادة ليتأجّل الحسم إلى اليوم التالي عندما أقدم مادة قانون الشركات.

كان الرسوب سنة في كلية الحقوق خسارة كبيرة، ومحطة توقف نادرة في مسار دراستي وصدمة كنت أخشاها لحظة اعتقالي. عرفت أن أبي وأمي سيحزنون كثيراً عندما يصلهم مثل هكذا خبر، وسيشكل لهما خيبة أمل كبيرة. بدأت أبحث عن شيء أواسي به نفسي كيلا أمضي أيامي الباقية حزيناً محبطاً. فكرت أن ما سأكسبه من هذا الاعتقال أكبر بكثيرٍ مما أخسره في الجامعة، على المدى الطويل على الأقل. قمت بالتجول بعيني في الكلية، لأرى أكبر قدر من الوجوه التي تمنيت أن يحفظ أصحابها وجهي جيداً ليوم أعود فيه إلى الكلية بدون أصفاد. قلت للعنصر: إنني أنهيت الامتحان ليفك أصفادي.

أعاد العنصر القلم لصاحبه ومشينا للخروج والعودة إلى الأمن الجنائي.

في الفرع أدخلت إلى زنزانة فيها شخصان فقط، كانت تخصص للمعتقلين المدللين، بعدما عاد الحارس وأخذ نظارتي مني. طلبت منه أن يتركها معي، إلا أنه رفض ذلك بشدة. كان في الزنزانة شاب من بلدة تل رفعت طالب حقوق، ومساعد في الشرطة كان رئيس مخفر قرية زمّار الذي هاجمه مجهولون وأخذوا الأسلحة الموجودة لديه، واتهم عناصر المخفر بهذه العملية. وعدني الحراس أنهم سيعيدونني إلى السجن المركزي عند وصول أي عنصر تابع للسجن لاستلامنا. كنت أخطط للبقاء يوماً آخر هناك، لتقديم مادة قانون الشركات، إلا أنه لم يعد هناك أي جدوى من ذلك لأني قد ضمنت الرسوب وخسرت السنة.

بدأت التعرف على زملاء الزنزانة كوني لا أملك ما أفعله غير ذلك. أكد لي ذلك الشاب أن عناصر السجن ليس لهم وقت محدد ليعيدونا إليه، فقد نذهب بعد وقت قليل، وقد نبقى إلى اليوم التالي. كنت غاية في الانزعاج من ذلك المكان، الذي ذكرني بالأيام البشعة التي قضيتها فيه. حدثني الشاب عن الثورة في تل رفعت كيف بدأت، وأوضح الكثير من الأمور المتعلقة بها. شعرت أني أحسده لانتمائه إلى مثل تلك المدينة. الزميل الآخر كان رئيس المخفر، الذي شرح لي بالتفصيل كيف هجموا عليهم واستولوا على الأسلحة بعد وضعهم في الزنزانة. كانوا يعدون طعاماً للسحور عندما فاجأهم المسلحون. حمد الله كثيراً على أنه لم يكن هناك أي عنصر حرس في المخفر لكان الأمر قد انتهى بمجزرة. أخبرني أن المحققين يتوقعون أن أحد العناصر له يد بالموضوع، بعد أن توارى عن الأنظار طوال تلك الفترة. ابتداءً من هذه العملية بدأت عمليات الهجوم على المخافر ومراكز الشرطة لنيل الأسلحة والذخائر. في بداية الأمر كان الأمر نادراً إلا أنه أصبح شائعاً وطال غالبية المراكز الشرطية.

بعد فترة أخرى التحق بنا شاب آخر كان يقدم آخر مادة له في كلية الحقوق. كان ذلك السجين قد حصل على الشهادة الثانوية في أولى سنوات سجنه، وها هو الآن في السنة الخامسة في السجن ويحتاج إلى مادة وحيدة كي يتخرج مجازاً في الحقوق، بينما ينتظر أن يطلق القاضي سراحه بعد أقل من شهر. لم يضيع ذلك الشاب أي سنة من عمره، واجتاز كل سنوات الكلية دون توقف. بدا لي ما قام به عملاً رائعا إذ لم يضع وقته بانتظار الخروج.

مر وقت طويل دون أن يأتي أحد ليأخذنا، وبدأت أشعر بالضيق من ذلك المكان، وشعرت برغبة شديدة إلى السجن بيتي الجديد وإلى أصدقائي. حاولت النوم إلا أني لم أستطع القيام بذلك إلا في وقت متأخر إذ انتقلت إلى القسم الثاني المظلم من الزنزانة. لا أعرف لماذا تبقى زنزانات فارغة أو شبه فارغة، بينما يتكدّس المعتقلون فوق بعضهم في الزنزانات الأخرى.

بعد أن نمت لوقت قليل أيقظني صوت أحد الحراس طالباً منا تحضير نفسي للعودة إلى السجن، فقفزت على الفور. وقفت أمام غرفة أحد الحراس الذي أعاد لي أغراضي الشخصية بما فيها نظارتي، بانتظار أن يعود عناصر

الشرطة الذين ذهبوا إلى مكان ما. بعد وقت عاد الشرطي، الذي تفاجأ بوجود الشاب من تل رفعت هناك، بينما كان يبحث عنه طوال اليوم ليقوم بإجراءات الإفراج بعد أن أخلى سبيله قاضي التحقيق. كانت فرحته كبيرة، هنأته بالحرية وتمنيت له الخير. بعد لحظات خرجنا من الفرع لنقف بالقرب من الباص الذي سيأخذنا إلى السجن المركزي مستمتعين باللحظات التي نقف فيها على أقدامنا في أحد شوارع حلب رغم أيدينا المقيدة. حذرنا أحد العناصر من الهرب فالمكان مليء بعناصر الأمن الجنائي. قلت له كيف سأهرب وأنا أتوقع الإفراج عني هذا الأسبوع. لم يطل طريقنا إلى السجن بسبب السرعة الكبيرة لسائق الباص. عندما وصلنا إلى باب السجن كان أهل ذلك الشاب بانتظاره ليأخذوه إلى بلدته التي تعد احتفالاً بإطلاق سراح المعتقلين. لم أتوقع أن يعد أحد احتفالاً بخروجي، بل كنت أظنهم يعدون مجالس لطم وندب على الحماقة الكبرى التي ارتكبتها.

داخل السجن كان هناك الكثير من المعتقلين الذين يتحضرون للخروج بعد العفو الأخير، الذي أسقط نصف مدة العقوبة لدى الكثير منهم. تمت إجراءات إعادتي إلى السجن. لكل شيء في هذا البلد إجراءات طويلة. اشتريت علبة مرتديلا، وبعض الخبز لآكله في غرفتي. أعادني الطبيب المسؤول عن الملحق برفقته، فقطعنا الساحة الكبيرة معاً، وسلمني إلى الحارس الذي أعادني إلى غرفتي بدوره. ترقب الجميع ما سأقوله عن امتحان ذلك اليوم. قلت لهم:

إن السنة ضاعت، ولا حاجة بي لإكمال الامتحان. تعاطف الجميع معي وأسمعوني عبارات الدعم والمواساة. كنت بالفعل حزيناً لهذه الخسارة، وخصوصاً أن وقعها على أهلي سيكون أكبر، فأنا مستعد لخسارة حياتي في هذه الثورة، ولن تشكل خسارة سنة في الجامعة شيئاً، إذا ما وصلنا إلى سورية الجديدة التي نطمح إليها. وخصوصاً أن هناك الكثير من الشباب الذين قدموا أرواحهم في سبيل هذه القضية، وغيرها من التضحيات. أما الرسوب فأمره تافه.

دائماً هناك ما هو أسوأ
وهناك دائماً أمل

بعد تلك الرحلة إلى جامعة حلب عدت إلى الروتين ذاته منتظراً فرجاً قريباً. فكان كل يوم تقريباً يحمل خيبة جديدة مع معرفتي أن قاضي التحقيق رفض إخلاء السبيل المقدم لي. تابعت تعرّفي على زملاء السجن وخصوصاً المتظاهرين منهم الذين استمروا بالتوافد، إلا أن أعدادهم قلّت كثيراً بعد انتهاء شهر رمضان، ما دعانا للقلق كثيراً على الحراك الذي تطور نوعا ما في ذلك الشهر. كانت الأخبار تأتينا بشكل شحيح عن طريق الشباب الذين لا يجد أهلهم مانعا بالتحدث معهم بأمور الثورة على الهاتف، وعن طريق زيارات الأهالي للسجناء.

كان أحد أبرز الأمور التي جرت في حلب خلال فترة وجودنا في السجن، هو تشييع كبير لمفتي حلب الشيخ إبراهيم السلقيني، الذي تحول إلى مظاهرة كبيرة جابت شوارع حلب القديمة بالقرب من قلعة حلب. تفاءلت خيراً بهذه الأخبار وتمنيت أن أجد حلب قد تغيرت عما كانت عليه قبل دخولي السجن. كذلك كان خبر القبض على المقدم حسين هرموش خبراً بارزاً وصاعقاً لنا في تلك الظروف.

تعرّفت إلى أشخاص آخرين مع مرور الأيام أحدهم من تل رفعت من بيت الصّن، الذي كان الوحيد في غرفتي المتابع للرياضة. وكان معي في الغرفة كذلك شاب من تل رفعت استشهد ابن خاله أحمد حومد، وكان أوّل شهيد في المدينة. كما كان هناك أيضاً عبد القادر من قرية كلّلي في إدلب. صادفت في ذلك الملحق شخصاً أعرفه كان يدرس معي في الثانوية، هو عبد الرحمن طالب في السنة الخامسة للطب البشري. عبد الرحمن عرفني على الفور وناداني بابن المدير إلا أنني احتجت إلى وقت لأتذكره. كنت معروفاً بلقب ابن المدير خلال فترة الثانوية كون أبي كان مديراً للثانوية التي كنت أدرس فيها. قال لي إن اعتقاله جرى في حلب الجديدة بعد مظاهرة خرجت هناك.

كذلك انضم إلى غرفتنا شخصان من مدينة خان شيخون، كانت على أكبرهما علامات جرح كبير في رأسه، وحسبما قال لي: إن الشبيحة لم يتركوه إلا بعد اعتقادهم بموته. كان معهما في غرفة أخرى قريبهما الذي كان طالباً جامعياً من آل رحمون. قبل دخول السجن أجرى معهم التلفزيون السوري مقابلات على أنهم أرهابيون.

أحد أكثر الشخصيات التي تعرفت عليها في السجن جدلاً كان شاباً في الثلاثين من عمره يلقب بأبي حفص نسبة إلى سيدنا عمر بن الخطاب. كان يرتدي دائماً اللباس الأفغاني، ويتحدّث بشكل دائم بالعربية الفصحى، ويأمل أن نفتح روما كرمز لعودة المسلمين إلى حكم العالم. أبو حفص كان ينتمي إلى تنظيم القاعدة وقاتل معهم في أفغانستان، وفي العراق. هو من ريف حماة. وقد تحدّثت معه كثيراً فوجدته طيب القلب دمث الطباع لا تفارق البسمة وجهه. سألته فيما إذا قابل أسامة بن لادن، فنفى ذلك وأكد أنه قابل الدكتور أسامة الظواهري القائد الحالي للتنظيم بعد مقتل الشيخ أسامة كما يصفه. قال لي:

إنه دوّخ الأمريكان في العراق، وأطلق عليه لقب ثعلب الرمادي. أبو حفص كان على وفاق معنا بضرورة إسقاط نظام الأسد، إلا أنه كان مصراً على ضرورة عدم الاستعانة بالغرب والأمريكان كما كان يطلب الكثير من المعتقلين. بكل الأحوال الأمريكان لم يكونوا تحت أمر الثوار يتدخلون متى يطلبون. حدثني عن عمليات التعذيب التي تعرّض لها في سجون النظام السوري، وعن استخدامهم معه حبوب الهلوسة للحصول على المعلومات.

تعرفت كذلك على رجل يفوق عمره السبعين. كان رئيس الغرفة الأولى التي ينزل فيها ماهر. قال لي: إنه أحد الكوادر الأوائل في حزب البعث في سورية، وشرح لي كيف أنه قام مع رفاقه بتأسيس العديد من شعب الحزب في حلب وريفها. تحسّر كثيراً على الوضع الذي وصل إليه الحزب بعدما سرقه العسكر من أصحابه الحقيقيين، على حسب تعبيره. رفع معنوياتي عندما طمأنني أن المستقبل نحن من سنصنعه، ونقوده بعد انتهاء هذه الثورة.

بعد مرور حوالي عشرة أيام على وجودنا في السجن عين رئيس جديد للغرفة هو أبو أحمد قنواتي. كان رجلاً ستينياً بدين الجسم أشقر الشعر

والوجه، أخضر العينين. كان أحد النزلاء الأغنياء الذين يتوفر لهم داخل السجن كل ما يطلبون.. في البداية لم أكن على علاقة ودية معه ولم أرغب بالتعرّف إليه، فكنت دائماً أتوقع الخروج في اليوم التالي.

في إحدى المكالمات مع أبي التي كنت أسأل فيها عن إخلاء السبيل جاءني الجواب بالسلب كالعادة. سألني والدي عن معنوياتي بصوت يحمل التفاؤل والسرور والرضا عليّ، طمأنني ذلك وأراح بالي كثيراً، أجبته، إن معنوياتي عالية، ولا ينقصني إلا أن أخرج لألحق ببطولة دوري أبطال أوربا التي كانت ستبدأ في بحر ذلك الأسبوع. قال لي إني سألحق بها بإذن الله.

لم أجد وقتاً أفضل من فترة السجن لحفظ صورة ياسين من القرآن الكريم كي لا يضيع عليّ كل ذلك الوقت دون فائدة، إضافة إلى أنه الكتاب الوحيد المتوفر في الملحق، ولصعوبة إحضار أي كتاب من مكتبة السجن، إذ يحتاج لإجراءات قد تبدأ ولا تنتهي، وأنا في السجن. أيام الجمع كانت تشهد صلاة الجمعة التي كانت تقام في بهو الملحق، يخطب بالمصلين شاب من المتظاهرين، وكان يؤذّن لكل صلاة. كان يشارك بالصلاة عدد كبير من السجناء إضافة إلى عناصر الشرطة المناوبين يوم الجمعة. الشرطة أكدوا لنا أن السجن مع بدء وصول المتظاهرين أصبح له شكل آخر، وأنه لم يمر على السجن أمثال هؤلاء الشباب، وهذا ليس مكانهم المناسب.

لكن بعد أن أخلي سبيل الشاب الذي يؤمنا صلاة الجمعة، كان السؤال الذي ينتظر الجميع عن هوية الشخص الذي سيحل مكانه. أتى يوم الجمعة وعرفنا أن الإمام سيكون أبا حفص. كنت أترقب الموضوع الذي سيتحدث عنه، وخصوصاً أني أعرف أنه لا يتنازل عن التحدث بوجهة نظر مقتنع بها. بدأ أبو حفص الخطبة بحديث عن أهوال نارِ جهنم، وعن مصير تاركي الصلاة، فلاحظت العديد من السجناء يتركون أسرّتهم وينضمون إلى الصلاة بعد القصص المرعبة التي تحدث عنها أبو حفص. تحول بعد ذلك أبو حفص للحديث عن الطغاة والمستبدين في إشارة واضحة إلى بشار الأسد. صرخ بأعلى صوته "أين كسرى؟ أين مبارك؟ أين فرعون؟" وأكد أنّ ما علينا إلا الصبر والمثابرة لإسقاط الطاغية. شعرت أن الوضع أخذ يتوتر بعد ذلك فالحشد كبير والمكان حكومي! لكن الأخطر كان قادماً.

اتجه أبو حفص بكلامه للمتظاهرين زملائه في السجن ولامهم كثيراً بعد أن رآهم يعولون على الغرب والأمريكان لإسقاط النظام "أمريكا هي التي قتلت الشيخ أسامة" قال هذه الجملة بأعلى صوته بينما لم أتمالك نفسي من الضحك، وأنا أشاهد المصلين ينظرون في وجوه بعضهم المصفرّة من الخوف. حتى عناصر الشرطة لم يعرفوا ماذا يفعلون، فهل تقطع خطبة الجمعة أم تكمل مع هذا الكلام الذي يشكل جرماً خطيراً في الخارج؟ انتهت الصلاة بسلام دون أي مشاكل، لم يخش أبو حفص أن ينطق بما هو مؤمن به ولم يجامل أحداً وتحدث بما يراه حقاً.

عناصر الشرطة كانوا يخرجوننا إلى الساحة الخلفية المكشوفة للملحق، وكنا نلعب كرة القدم تحت الشمس، فكل تلك الفترة التي مضت لم تتعرض أجسادنا للشمس. كان الخروج إلى الساحة نوعاً من النزهة التي بدأنا نشهدها أسبوعياً. أمر آخر رفه عنا. ففي أحد أيام السجن جاء إلينا مصور متعاقد مع السجن يعرض علينا التقاط صور تذكارية مقابل عشر ليرات لكل صورة. تحمست جداً للموضوع وأسرعت إلى ماهر وأيقظته من نومه لنتصور، وبالفعل التقط لنا المصور صورتين إحداهما لي ولماهر الذي كان لا يزال نصف نائم، وصورة أخرى ضمت إضافة لي عشرة سجناء من المتظاهرين من مختلف المدن والمناطق في حلب.

داخل السجن يصبح كل شيء هاماً. أقصد بالطبع الأشياء التي لم تعد متاحة حتى لو كانت بسيطة، فتشعر بالاشتياق لكل تفاصيل الحياة في الخارج. اشتقت لأن أراقب أسماكي وأراهم يصعدون للسطح بعد أن أنقر بأصابعي على الحوض فتتعرف السمكات أن وقت الطعام قد حان. افتقدت المشي مع الشباب في الحارة، والنقاش الذي لا ينتهي عن مسار الثورة ومصيرها. كذلك اشتقت للاستماع إلى أغنية فيروز "رح نبقى سوى" كنت أرفع معنوياتي بترديد كلمات الأغنية "جاي النصر جاي الحرية". تمنيت أن أشاهد مباريات الدوري الألماني وشعرت بالاستياء كثيراً لأني فوتّ أكثر من جولة منها، وخصوصاً المباراة التي التقى فيها شالكه مع بايرن ميونخ. شعرت برغبة كبيرة للذهاب إلى المركز والدوام مع الأصدقاء.

كانت فترة السجن امتحاناً تعلمت منه الكثير، وعرفت فيه قيمة الكثير

من الأشياء على حقيقتها، فقيمة الشيء تعرف بفقده. عرفت قيمة الأهل والأب والأم، عرفت قيمة الطعام، تعلّمت ألا أتكبر على أيٍّ نوع منه. عرفت قيمة الوقت، ولم يمضي بطيئاً أحيانا وسريعاً في أحيان أخرى، وكم يستطيع المرء أن يبتسم ويضحك في وسط الكابوس والمأساة. تعلمت أنه مهما حلّ بالإنسان من مصائب، فهناك دائماً أسوأ وهناك دائماً أمل.

في البرج

في يوم الأحد السادس عشر من السجن، وقبل أن يبدأ عرض مسلسل وادي الذئاب، شاهدنا أفراد الغرفة الأولى يخرجون إلى بهو الملحق. جاء ماهر إلى غرفتي ليخبرني أنهم طلبوا من السجناء المتهمين بالتظاهر الخروج لنقلهم إلى مكان آخر. بعض الشباب أكدوا لنا أنهم سينقلوننا إلى قسم السجناء السياسيين ليجلبوهم إلى هذا القسم لسبب ما. قالوا لنا:

إن الوضع في جناح السياسيين ممتاز، وأنه سيتوفر لدينا المزيد من الخدمات التي لم تكن موجودة هنا. عرفنا لاحقاً أن هذا الانتقال كان له علاقة بزيارة لجنة لحقوق الإنسان للسجن.

جاء الدور على سجناء الغرفة الثانية التي كنت أنزل فيها. كان في غرفتنا عشرون متظاهراً. نقلنا إلى القسم المخصص لزيارات الأهالي. حملت معي أغراضي الشخصية القليلة، ومحاضراتي التي كان بين أوراقها بطاقتي الجامعية والصور التي التقطناها قبل أيام، وفيها مذكرة الاعتقال التي لازلت أحتفظ بها. كذلك حملت ما استطعت حمله من عدة الطعام التي تشاركت بها مع مجموعة الطعام في الغرفة، فحملت معي علبة السمنة، وكيس البهارات والملاعق. كنا نظن ساعتها أننا سنبقى على نفس ذلك التوزيع في القسم الجديد. جلب المتظاهرون من الغرف الثلاث التالية لننقل عبر ساحة السجن الرئيسة وصولاً إلى البرج، الطابق الثاني تحديداً. في ذلك المكان قسمنا إلى مجموعات تضم الواحدة عشرة أفراد، ستذهب كل مجموعة إلى قسم مختلف. طُلب من مجموعتنا التوجه إلى أحد أقسام السرقة، والنشل في السجن. بدأ الإحباط والقلق يتسلل إلي بعد أن فرقونا عن أصدقائنا.

على باب القسم كان هناك شرطي شاب يسجل أسماء النزلاء الجدد. أثناء وقوفنا اقترب منا أحد الحوّاسين، أظن أن تهمته كانت تعاطي المخدرات لوضوح مواضع الإبر على ذراعه. سألني ذلك السجين عن تهمتي فأجبته بغير

مبالاة "تظاهر". تظاهر ذلك السجين بالخوف وطلب بسخرية وابتذال أن ابتعد عنه. في تلك اللحظة انتفض الشرطي وقال له:

بغضب "خراس ولاك، صرماية الواحد من هالشباب بتسواك وبتسوى كل قسمك". سألته بدوري عن مدينته. فقال موجهاً كلامه إلى ذلك السجين ""أنا من جبل الزاوية، والشباب كلها بتعرف أشو يعني جبل الزاوي". في تلك الأثناء كان أبطال جبل الزاوية يسطرون الملاحم بمظاهراتهم السلمية في وجه النظام، إضافة إلى العدد الكبير من المنشقين عن الجيش المنتمين إلى تلك المنطقة.

سُجلت أسماؤنا وسيق كل سجين إلى إحدى الغرف العشر التي يتألف منها هذا القسم. كانت تتوزع بشكل متواز أمامها ممر طويل ينتهي بقسم يستخدم كمسجد للسجناء. أخذني الشرطي وأدخلني إلى الغرفة الثالثة. وقفت على باب الغرفة، وراح جميع النزلاء يحدقون بوجهي بدهشة، متوقعين أن تهمتي تظاهر حسبما أخبرهم أحد ما على ما يبدو. كان في الغرفة متظاهر واحد لم أكن أعرفه ذلك الوقت. سألته عن ماهر فيما إذا كان في هذا القسم فأجاب بالنفي. سجلني رئيس الغرفة في سجله وراح بعض السجناء يدعونني للجلوس معهم.

كانت الغرفة مليئة بعدد من السجناء يعادل تقريباً ضعف عدد الأسرّة. كان الازدحام شديداً وعلينا النوم على الأرض بين هذا العدد الكبير من اللصوص. شعرت في تلك اللحظة بمزيج من الحزن والغضب والاكتئاب والوحشة، فبعد أن تعودنا بعضنا بعضاً، وبعد أن أصبحنا عائلة واحدة صار لدينا الكثير من الأمور التي نسلي بها أنفسنا. جاء هذا الانتقال الذي أوقف عجلة الوقت عن الدوران، لتعود بالإقلاع الآن لكن بسرعة بطيئة. عرفت ساعتها أن الأيام القادمة ستكون صعبة.

جلست وتحدثت مع عدد منهم، فشعرت أن عقولهم قد خربتها المدة الطويلة التي قضوها في الحبس. كان مجرد التفكير بهذه المدد الطويلة التي يقضونها يشعرني بالإحباط. شعرت وأنا أحاول التعرف على بعض منهم أنني أعيش رواية "ذكريات من بيت الموتى" لدوستوفسكي، فوراء كل سجين قصة تصلح لأن تكون رواية أو فيلماً هوليودياً. ما استغربته في قسم السرقة والنشل أن كل نزلاء السجن يعرفون قريتي، بينما بالكاد يعرفها كل من

تهمتهم التظاهر. ما استغربته أيضا أن كل هؤلاء المجرمين، ورغم خطورتهم كانوا يهابوننا بسبب تهمتنا المرعبة قبل تلك الأيام. كنا بالنسبة لهم أخطر من كل مجرمي السجن، القتلة منهم واللصوص وتجار المخدرات وغيرهم، ويجري التعامل معنا بحذر شديد، ويحاول الكثير التهرب منا.

كان يوم الاثنين التالي هو يوم الزيارات لذلك القسم، لكن في هذه المرة كان سيسمح للسجناء بالجلوس دون أيٍ حاجز مع زوارهم بمناسبة عيد الفطر. رأيتهم يتزينون ويحلقون ذقونهم ويشترون الفواكه والحلوى، ويحضرونها للصباح كي يقدموها لأطفالهم. رأيت في عيونهم فرحاً طفولياً، وبريقاً أبيض يضيء وجوههم.. وبالكاد استطاع غالبيتهم النوم وهم بانتظار الصبح البعيد. أما أنا فكنت أنتظر الصباح بفارغ الصبر لأعرف من من الأصدقاء جُلب إلى هذا القسم.

في اليوم التالي استيقظت نحو الساعة الحادية عشرة، فرأيت بعض الذين انتهت زيارات ذويهم لهم بوجوه شاردة، وعيون تحبس دموعها. يبدو أن الحماس والفرحة في الليلة الماضية تحولا إلى حزن وشعور باليأس بعد انتهاء الزيارة. كم كان منظرهم محزناً ذلك الوقت. نهضت لأبحث عن أي شخص أعرفه سابقاً في الملحق، فوجدت أقل من عشرين شخصاً أعرف عدداً منهم. كانوا مجتمعين في المسجد الصغير. شعور بالاكتئاب يلامس الجميع بعد الانتقال. لم أجد أفضل من متابعة حفظ سورة ياسين، فالكآبة، فيما يبدو، مستمرة. كنت قد حفظت حوالي ربع السورة، وبدأت أحفظ بقيتها بسرعة كبيرة نظراً للوقت المتوفر لديّ. كنت أتوقع أن حفظ هذا العدد من الصفحات سيستغرق وقت أطول وجهد أكبر، لكن ما اتضح عكس ذلك. كان زوار المسجد شبه معدومين قبل أن نأتي إلى هذا القسم.

مشيت ذهاباً وإياباً في الممر الطويل أمام الزنزانات كي أحرك جسمي قليلاً، فلاحظت الكثير من الأشياء التي قام أحدهم بتكسيرها وتخريبها. قال لي أحد السجناء:

إنهم قاموا بالاستعصاء مع أقسام أخرى بعد صدور مرسوم العفو الذي لم يشملهم، وجرت مواجهات مع عناصر الشرطة الذين استخدموا الغاز للسيطرة على الأقسام المتمردة.

مع اقتراب المساء أدخل السجناء إلى غرفهم، وعدت أنا إلى كآبتي مع هذا الكمّ من اللصوص. حاولت قدر الإمكان التحدث معهم، والتعرف إليهم إلا أني لم أكن مسروراً بالحديث مع هؤلاء الأشخاص، الذين لا تخلو كلماتهم من شتائم من العيار الثقيل تطول زملاءهم في الغرف وتطول الذات الإلهية، إضافة إلى الشتائم التي يوجهونها إلى أنفسهم مظهرين إبداعاً حقيقياً في تأليفها. كنت مضطراً لانتظار مسلسل وادي الذئاب، كي تمرّ عليّ إحدى ساعات السجن بشكل سريع.

كان ذلك يوم الاثنين وكنت أنتظر اليوم التالي إذ تنطلق مباريات دوري أبطال أوربا التي ستنقل إحداها عبر القنوات المخصصة للسجناء. قررت أن أمهد لتلك المباراة قبل يوم كي أرى إذا ما كان هناك إمكانية لمشاهدة المباراة دون أن يتعارض ذلك مع برنامج أحد السجناء. لم يبدُ أي أحد معارضاً للفكرة، إلا أنهم قالوا لي: إن عليّ طلب ذلك من رئيس الغرفة. عندما تحدثت مع رئيس الغرفة قال لي: بأني سأشاهد المباراة، وأنه سيغلق فم أيّ شخص يعارض ذلك. لا أعرف لماذا، رغم كل عدوانيتهم بما فيهم رئيس الغرفة، كانوا مصرين على تنفيذ أي طلب أو رغبة لي، مبدين الكثير من السرور والامتنان.

مر نهار اليوم التالي بشكل مشابه لسابقه إلا أني انتهيت من حفظ صورة ياسين التي شعرت بفخر كبير بحفظها وانتظرت خبراً ساراً كمكافأة ربانية على ذلك. لكنّي أصبت بخيبة بعد المكالمة التي أجريتها مع والدي الذي أبلغني أني يجب أن أكمل ثلاثين يوماً كي يخلي قاضي التحقيق سبيلي، إضافة إلى خبر محبط آخر حمله أحد الشباب الذين وافق قاضي التحقيق على إخلاء سبيلهم بعد مضي أكثر من ثلاثين يوم على اعتقاله بكفالة بلغت أكثر من عشرين ألفا، بعد أن كانت خمسمئة ليرة سورية. لم أكن راغباً بزياة الضغوط على أهلي رغم معرفتي باستعدادهم لدفع أي مبلغ للإفراج عني.

نحو الساعة الخامسة عصراً قال لي أحد السجناء:

إن إدارة السجن ستعيدنا إلى الملحق. شكّل الخبر لي فرجا. أخبرت زملائي ودعوتهم للتأكد من الأمر. على باب القسم أكد لنا الشرطي ذلك، وطلب منا أن نتحضر للعودة إلى الملحق بعد وقت قليل. شعرت بذلك الوقت أني سأعود إلى الوطن، كما كانت الفرحة بادية على جميع وجوه سجناء الملحق، فأخذنا

نهنئ بعضنا ونتبادل القصص عن اليومين الماضيين، ونضحك بصوت مسموع، بعد أن حمل كل منّا أغراضه وتجمعنا في إحدى الغرف تحضيراً لذلك. بعد وقت قليل طلب الشرطي منا الخروج من القسم والتوجه إلى مكان ما أمام طاولة يجلس خلفها مساعد في الشرطة. جلسنا أمام الطاولة منتظرين مجيء السجناء من الأقسام المختلفة. لحظات قليلة، بدأ الشباب يتجمعون من مختلف الأقسام ليصطفوا جانبنا. بدأنا تبادل الصيحات والإشارات والتهاني على العودة إلى الملحق بعد أن فشل ذلك المساعد في إسكاتنا.

بعد لحظات قدم ماهر مع إحدى المجموعات، كان يبحث بعينيه عني، صرخت له مبدياً سعادتي الكبيرة برؤيته. بدأ تسجيل الأسماء وتنفيذ إجراءات النقل، ثم مشينا برتل ثنائي باتجاه الملحق. كان موكبنا أشبه بزفة، لكثرة ما كان السجناء يضحكون، ويتبادلون القصص التي جرت معهم في اليومين الماضيين. في الساحة الكبيرة التي عبرناها باتجاه الملحق أخبرني ماهر بوفاة جدِّه. عزيته بذلك إلا أنّ فرحة العودة إلى الملحق كانت طاغية.

على باب الملحق وجدنا عناصر الشرطة يقفون مرحبين بنا وعلامات الفرحة بادية على وجوههم. أدخلنا إلى بهو بانتظار أن يلتحق بنا باقي نزلاء الملحق الذي كان فارغاً بالكامل. استمر توافد السجناء وسط صيحات البهجة وتهليلات الفرح. كنت فرحاً إلى درجة أني عرفت أن الأيام القادمة ستكون أسهل أيامي حتى وقت الإفراج، فهذا المكان أصبح بيتي بعد اليومين اللذين قضيتهما في البرج، وهؤلاء السجناء أصدقائي وأخوتي. طُلب من كل سجين أن يتوجه إلى الغرفة التي كان فيها قبل عملية الانتقال لإجراء عملية التفقد. بدأنا على الفور عملية شطف وتنظيف الغرف. كنت أنتظر بفارغ الصبر بدء الجولة الأولى من دوري أبطال أوربا لذلك العام، كانت أهم مباراة ذلك اليوم مباراة "برشلونة" ضد "أي سي ميلان"، لكن حظّنا السيئ عطّل التلفاز، ولم نشاهد سوى هدف الكسندر باتو في مرمى برشلونة في الدقيقة الأولى.

أفرج عن عدد كبير من المعتقلين الذين أتموا الثلاثين يوماً، بينما بقي لي ثمانية أيام لأكمل الثلاثين يوماً، بعد أن شطبوا اليومين اللذين قضيتهما في كوكب القرود. عدنا بعد ذلك إلى روتيننا السابق بانتظار انتهاء الكابوس، إلا أن الوضع كان أفضل كثيراً بعد ذلك الانتقال.

الأيام الأخيرة

أبو أحمد قنواتي رئيس الغرفة الجديد لم يكن كما ظننته في البداية من الأغنياء الذين لا يتقنون إلا لغة المال والتجارة، فلاحظت مع مرور الوقت أنه على درجة كبيرة من الثقافة بالأدب والسياسة والدين. وجدته يتجادل مع أحد الشباب من شرق حلب. كان معتقلاً بسبب اتصاله بقناة الجزيرة مع انطلاق الثورة، فكانت تهمته أكثر خطورة منا، وعليه أن يمضي وقتاً أطول حتى يفرج عنه. كان أبو أحمد يصر على أن ما يجري في سورية ليس بثورة بل هو مجرد أفعال لا تقدِّم ولا تؤخر. شاركت بالنقاش وتحدثت له عما يجري، إلا أن أياً من الأحداث التي ذكرتها لم تقنعه بأنّ ما يجري ثورة شعبية. المشكلة أني كنت أريد أن أقنعه بوجود شيء غير موجود أصلاً، على الأقل في مدينة حلب. تأكدت من وجود هذه المشكلة في وقت لاحق على ذلك النقاش. ضرب أبو أحمد أمثلة كثيرة على الثورات الشعبية السلمية التي أطاحت بأنظمة شمولية ودكتاتورية كالثورة الإيرانية وغيرها، وأصرَّ على أن كل ما نقوم به أو حتى نخطط للقيام به، لن يسقط النظام. سألته على الفور عن حلٍّ يعطيه للثوار بدلاً من جلوسه منتقداً. أجابني بأن الحل موجود إلا أنه غير مضطر لقوله حفاظاً على رقبته، التزم الصمت بعدها، ليتركني لتكهناتي المشوشة. لم يعجبني ما قاله أبو أحمد، رغم أني لا أملك حجة دفاع قوية. لم أحاول إعادة فتح هذا الموضوع معه رغم أننا لم نتوقف عن الحديث به مع زملائنا المتظاهرين وغيرهم.

شهدت الأيام التالية لعودتنا من البرج الإفراج يومياً عن عدد من المتظاهرين، فكنا نودع عدداً من الأصدقاء يومياً ويبدو أنني وماهر سنكون آخر المغادرين من بين مجموعتنا، كوننا لم نمض أياماً كثيرة لدى الأمن الجنائي والعسكري، بينما قضى زملاؤنا أياماً أكثر. كنا نودع مجموعات الشباب الذين يطلق سراحهم. وداع الزملاء كان يجري بزفة وحفل صغير، فيودع السجين الذي أطلق سراحه زملاء الغرفة، بينما يهتف البقية بالصلاة على النبي، وثلاث تكبيرات كالتكبيرات التي كانت حناجرنا تصدح بها في المظاهرات. كنت أشعر

براحة كبيرة مع كل شخص يخرج معتقداً أن اسماً أزيح من أمامي.

دعاني أبو أحمد لمشاركته كأس شاي واثنين من أصدقائه. بدأنا بالحديث عن أمور عادية، دون أن أتجرأ أن أسأله عن التهمة التي دخل إلى السجن بسببها، لأني ظننت أن سؤالي سيكون فظاً للغاية.

خلال حديثنا وانتقالنا من سيرة إلى أخرى قلت: إنني لا أشرب، ولا أهتم بالنساء كثيراً، وأردد دائماً إني لم آت من كوكب لا توجد فيه نساء، كما يتصرف الكثير من الناس في مجتمعنا، رداً على ما قاله أحدهم بأن الشراب والنساء هما الشيئان الوحيدان اللذان يملأان رأس الإنسان. سألني أبو أحمد عن الشيء الذي يمكن أن يملأ رأسي في هذه الدنيا، فأجبت:

هناك الكثير من الأمور التي تجلب السعادة، مشاهدة مباراة قوية، أو قراءة كتاب لمؤلف مبدع تجلب لي سعادة لا تجلبها مئة لتر من البيرة أو صاحبة خارقة الجمال. لفت هذا الجواب انتباه "أبو أحمد"، وراح يسألني عن الكتب التي أقرؤها، فأجبته إني اقرأ الأسماء المشهورة من الروايات الأجنبية دون أن أركز على مدرسة معينة أو طريقة محددة. اهتم أبو أحمد قنواتي بالموضوع وأخذ يعدد بعض الأسماء المشهورة من الكتّاب، الذين كنت للمصادفة قد قرأت لهم كلهم. طلب مني أبو أحمد أن أقرأ رواية سمرقند لأمين معلوف فور خروجي من السجن. لم أحمل هذا الاسم على محمل الجد وقتها، إلا أنه بقي في مكان ما من ذاكرتي.

في اليوم التاسع والعشرين، وخلال المكالمة الهاتفية المعتادة، والسؤال عن إخلاء السبيل الذي يقدّم إلى قاضي التحقيق يومياً، جاء الرد أن قاضي التحقيق وافق على إخلاء السبيل بكفالة مالية قدرها عشرون ألفا أي ما يعادل 400 دولار أمريكي ذلك الوقت، وأن القضية أصبحت في عهدة قاضي الإحالة الذي يبتُ بها، يبدو أن خروجنا أصبح وشيكاً. لم يوافق قاضي الإحالة في ذلك اليوم ولا في اليوم الثاني، وانتظر حتى إكمال الثلاثين يوماً. كان ذلك يوم الثلاثاء العشرين من شهر أيلول من ذلك العام. كنت متوقعاً ذلك قبل يوم، لكن تجاربنا مع القاضي في الأيام الماضية لم تكن تدعو للتفاؤل.

ذلك اليوم استيقظت في وقت متأخر كعادتي. أخبرني أحد الزملاء أن ماهراً ابن قريتي قد جاء يخبرني أنهم سيخلون سبيلنا، لكنه وجدني نائماً. توجهت إلى

ماهر الذي رأيته يشرب الشاي مع أصدقائه أمام الغرفة كعادته. أشار بيديه قبل أن أصل إليه بأنّ الأمر انتهى، وسننال حريتنا بانتظار أن تنال البلد حريتها. عرفت ساعتها أن الكابوس الذي بدأ في العشرين من آب قد انتهى. توجهت إلى غرفتي، وأبلغت زملائي بالخبر، فسارعوا جميعاً إلى تهنئتي. عدت لأتصل بأهلي وأتأكد من الموضوع. على الهاتف أجابتني أمي بلهفة كبيرة، لتبشرني بهذا الخبر، وبأن أبي دفع الكفالة، وأن الجميع سيأتي لاستقبالي لدى خروجي. قلت لها:

إني لا أريد من الجميع أن يأتوا، ولست بحاجة إلا لسيارة واحدة، وليبق الجميع في المنزل.

في الغالب كانت إدارة السجن تخرج المُخلى سبيلهم حوالي الساعة الثامنة مساء، وكان لدينا نحو تسع ساعات لذلك، وذلك كان وقتاً طويلاً جداً لمن علم أنه سيخرج مساء. حاولت مواصلة يومي بطريقة عادية، إلا أنّ تفكيري كان محصوراً بلحظة الخروج. اشتريت مسبحة من الخرز كتذكار من أحد السجناء الذين يبيعون الأشياء المصنوعة في السجن. جلست في غرفة ماهر مع عدد من الأصدقاء الذين لم يحن وقت خروجهم، وبدأنا بحديث متشعب المسالك والاتجاهات تمريراً للوقت. على التلفاز عرضت أغنية أنا وليلى لكاظم الساهر، ومازالت حتى الآن الوقت تحيلني إلى تلك اللحظات الجميلة.

بعد لحظات طلب أحد عناصر الشرطة ممن يريد الخروج إلى ساحة الملحق أن يتوجه إلى الباب. على الفور توجهنا أنا وماهر إلى الساحة الخلفية للملحق لنقوم بأمر يكسر الروتين اليومي ويعجّل مرور الوقت. لاحظت أن الصيف في أيامه الأخيرة وأن الطقس قد تغيّر، إذ كان الجو قبل شهر أكثر حرارة، والنهار أطول. ما كنت أتمناه أن نخرج لنجد الوضع أفضل..!

حلّ المساء وأغلقت أبواب الغرف وجلست بانتظار مجيء الشرطي لينادي علينا راجيا الله ألا يحصل خطأ ما يعرقل خروجنا، كالخطأ في الاسم، أو أن نطلب إلى أحد فروع الأمن، كما حدث مع سجناء أخلي سبيلهم. بالنسبة للاحتمال الثاني لم يكن قائماً لأني طلبت استيضاحا من أحد عناصر الشرطة فيما إذا كان هناك أي جهة أمنية تطلبني، وكان الجواب بالنفي. عندما وصل أحد عناصر الشرطة ونادى على الأسماء التي كان اسمي بينها، رحنا أنا والشباب المخلى سبيلنا ذلك اليوم نودع زملاء الغرفة التي كانت

مليئة بفرح الإفراج وحزن الفراق، فبعد اثنين وثلاثين يوماً أصبح لنا أصدقاء نحزن لفراقهم وللأوقات التي قضيناها معاً. عرفت أن الوقت الذي سأعيشه لحظات خروجي هو أفضل لحظات حياتي، وعليّ أن أستمتع بها بالكامل.

بعد قليل عاد ذات الشرطي ونادى على الأسماء للخروج إلى بهو الملحق. توجهت فوراً إلى ماهر الذي كان قد غادر غرفته للتو. بدأت بوداع الأصدقاء عبر جولة قصيرة على أبواب الغرف. توجهنا بعدها إلى باب الملحق لتسجيل خروجنا لدى الشرطي المناوب ذلك الأربعاء. رفض الشرطي محاولة غالبية السجناء تقديم بعض النقود له بهذه المناسبة، على عكس ما كان يفعل غالبية عناصر الشرطة عبر ابتزاز السجناء للحصول على النقود. توجهنا بعدئذ إلى إحدى الغرف التي كان يجلس فيها مساعد في الشرطة وبعض العناصر، لنستمر في تسجيل أسمائنا ومطابقة أوراقنا الثبوتية. لم يخجل عناصر الشرطة في تلك الغرفة من طلب النقود كإكرامية وحلوان لإخلاء السبيل، لكني رفضت ذلك رفضاً قاطعاً، واخترعت أسباباً عدة لذلك، فلم تعد تجري هذه الأمور بتلك الطريقة، بعد أن عانيت من ذلك في القصر العدلي.

خرجنا من باب الملحق الرئيسي، ومررنا بالساحة الرئيسة متوجهين إلى البرج. كانت المرة الأخيرة التي أمر فيها بتلك الساحة. في البرج الرئيسي للسجن توجهنا إلى إحدى القاعات التي مكثنا بها وقت دخولنا السجن. كان يُجمع هناك كل السجناء المخلى سبيلهم بانتظار عملية مطابقة الأوراق الثبوتية. كان الشرطة يخرجون السجناء على دفعات، بينما انتظرت أنا وماهر أن يأتي دورنا. من خلال الشبك ذي الثقوب الصغيرة الذي يفصل قاعتنا عن قاعة أخرى يتم فيها السجناء بقية الإجراءات، سمعت اسمي واسم ماهر يتردد دون أن أعرف السبب فلم يطلبنا أحد على باب القاعة. خشيت أن يكون هناك خطأ ما قد يفسد علينا ذلك المساء. بعد قليل تردد نداء آخر من ذات المكان بأسمائنا، فصرخت بأننا موجودان.. طلب الشرطي الانتظار قليلا. ازدادت مخاوفي من خطأ ما. جاء ذلك الموظف في السجن من باب القاعة وصرخ بأسمائنا فتوجهنا إليه. كان يحمل بطاقاتنا الشخصية. أعطانا إياها وأنهى لنا الإجراءات الطويلة كونه على معرفة بغالبية عناصر الشرطة، ثم طلب منا التوجه إلى باب الخروج. لم أعرف لماذا ساعدنا الموظف، إلا أنه

طلب منا أن نسلّم له على شخص قد أوصى بنا، لم أتعرف عليه، لا أنا ولا ماهر، إلا أن الأمر لم يكن شديد الأهمية. على باب الخروج كان شرطي يجري عملية تأكيد أخيرة، وبعدها سمح لنا بالخروج وحدنا وبدون حرس لأول مرة. نزلنا الدرج المؤدي إلى ساحة السجن الأمامية التي تضم كراج السيارات. جرينا مسرعين وقفزنا في الهواء ودرنا حول أنفسنا كالمجانين. توجهنا إلى الباب الرئيسي للسجن لنبحث عن وجوه مألوفة فارقتنا منذ أكثر من شهر.

كان هناك جمهرة من الناس يفصلهم سور معدني عن السجن، سمعت صوت أمي ينادي باسمي من بين الناس. حاولت الإسراع للخروج إليها، إلا أني فوجئت بعمي يجلس عند الباب مع عناصر الحرس، كان يرتدي بذلته العسكرية. توجهت إليه مباشرة، سلمت عليه، وعلى الضابط والعناصر الذين كان يجلس معهم. هنأني الجميع بالخروج، فشكرت لطفهم وتوجهت إلى خارج السجن. رأيت أمي وجدتي تتسابقان لتضماني إليهما بشدة وهما تبكيان فرحاً بخروجي. عبرت الطريق الرئيسي الذي يمّر أمام باب السجن لأرى عدداً كبيراً من سيارات الأقارب بانتظاري. تنقلت بينهم جميعاً مستقبلاً عبارات الحمد والشكر لله على سلامتي. سلمت على أبي ماهر وباركت له خروج ابنه، هنأني هو وشد على يديّ. صعدت إلى سيارة خالي وتوجهنا إلى المنزل.

على الطريق نظرت طويلاً من النافذة لأعرف أين أصبحت ثورة حلب. كان الجواب حاسماً عندما وصلت إلى المتحلق الشمالي، وشاهدت كم كان وجود الناس كبيراً على الأرصفة وكم كانوا مشغولين بالمأكل والمشرب. لم أر على وجوههم شيئاً يشير إلى أن هناك إخواناً لهم في هذا البلد يقتلون ويهجرون من منازلهم، أو أن هناك في أقبية السجون أناساً يعذبون، أو أن هناك في كل مكان من حولهم أناساً يسرقونهم ويستعبدونهم. فإذا كانوا قد رضوا بذلك، فلماذا نريد نحن أن نحررهم ونخسر ما نخسره لأجلهم؟!

كنت بكل بساطة أستطيع متابعة مشوار حياتي كما بدأته قبل الثورة، لكن ماذا سنقول لأب وأم وأخت وابنة شهيد؟! وماذا أقول لرب البلاد والعباد إذا سألنا عن ذلك؟! لكن أظن أني لم أكن أبداً موضوعياً في بحثي عن الثورة. كان علي الانتظار أكثر للحصول على جواب شاف لسؤالي.

الحرية

وصلنا إلى المنزل حيث كان بانتظارنا مزيد من الأقارب الذين توافدوا إلى البيت من القرية ومن أحياء حلب مهنئين. بينما كان فكري مشغولاً ب ثورة الحرية، إلى أية محطة وصلت من طريقها الطويل؟! سألت زكريا الذي كان هو وفادي على الشرفة فأجاباني بما كنت قد توقعته. الثورة خمدت تقريباً في حلب، بينما هي مستمرة في حمص والمدن الأخرى، يدفعها الثوار إلى الأمام ويدفعها النظام إلى الهاوية. طلبت منهم مشاهدة قناة الجزيرة فقد حُرمت أخبارها مدة شهر.

أول مقطع لمظاهرة شاهدته كان في أحد أحياء حمص. رأيت المتظاهرين يضعون أيديهم على أكتاف بعضهم، ويقفون في صفوف متوازية، يديرون ظهورهم للمصور ويرقصون على أنغام أغنية "سكابا يا دموع العين سكابا".

أردت أن أدخل إلى شبكة الإنترنت كي أتواصل مع الأصدقاء وأتقصى أحوالهم، لكن الكمبيوتر لا يزال في القصر العدلي لدى محكمة التحقيق، وعلينا المبادرة إلى فك احتباسه في أقرب وقت. كنت أرى الأشياء وكأني أراها للمرة الأولى كما حصل مع موبايلي الذي بدأت أتعرف عليه مرة ثانية، بعد أن بقي في المنزل ولم يرافقني. تفقدته، وجدت كل ما كان على كرت الذاكرة قد مسح، إضافة إلى الرسائل التي يفوق عددها ألفاً وخمسمئة رسالة كنت أحتفظ بها في البريد الوارد والصادر. سألت عن ذلك فأجابوني بأنهم، ولشدة خوفهم عليّ مسحوا محتويات الجهاز كلّها وأخفوه.. طيب إذا كان الجهاز قد اختفى فما الحاجة لمسح محتوياته؟!

وصل أصدقائي لتهنئتي بالسلامة. جاء زيد ومجد وأبو عدنان، ورحت أتحدث عما جرى معي في السجن، في الحقيقة لم أكن منذ خروجي من السجن قد توقفت عن الكلام. أعتقد أني بعد مضي سنة وعدّة أشهر على تلك الأيام مازالت ذكرياتي في السجن هي أفضل ما أحب أن أرويه عن حياتي وأفتخر به.

طلب أبي أن أتحدث مع مديري في العمل، وأن أقوم بما يطلبه مني كي

يبقى غيابي في إطاره القانوني. طار عقل المدير بسماع صوتي خارج السجن. هنأني بالسلامة وطلب مني أن ألتحق بالعمل في أقرب وقت ممكن، أجبته بأنٍي سأكون صباح اليوم التالي في المركز. أكد وجوب ألا أتحدث عن الموضوع لأي كان، وأن أقول: إنني كنت مسافراً مع أبي المريض، ولم أستطع القدوم إلى المركز. لم أعرف كم كان يمكنني الصمود دون أن أتحدث عما جرى معي وخصوصاً أن الجميع يعرف مسبقاً بذلك، إلا أني كنت مرغماً على تنفيذ ما يقوله رئيس المركز نظير ما قدمه لي في كل تلك الفترة.

ذهب الأصدقاء ومعهم زكريا إلى ماهر ليهنئوه بالخروج من السجن وانصرف ضيوفنا ولم يبق في البيت إلا أنا وأبي وأمي. كنت أخاف من تلك اللحظة، فقد كنت أعرف أني أمي وأبي قد تحملوا كثيراً في تلك الأيام، وكنت أخشى أن أرى نظرة عتب قد تبديها عيونهم. قمت بحمام سريع قبل أن يتصل بي الشباب الذين نزلوا مع ماهر ليتمشوا قليلاً في الحارة. رافقتهم على الفور رغم أن أبي لم يكن راضياً عن خروجي من البيت، لكثرة الهواجس التي مروا بها تلك الفترة.

كنت أشعر بالخوف من أن أعيش ذلك الكابوس مرة أخرى، وكنت أتصور اعتقالي على أول حاجز للأمن أمر به. تابعنا أنا وماهر الحديث عن الأمور التي جرت معنا داخل السجن، بينما راح الشباب يتكلمون عمّا كان يجري معهم ويتعلق بالموضوع ذاته.

صباح اليوم التالي توجهت إلى المركز متظاهراً بأكبر قدر ممكن من اللامبالاة. لم أتوقع وجود أحد من أصدقائي في العمل كوني أعمل في الورديات الليلية. دخلت المركز ورأيت نظرات زميلات العمل يتفحصنني من رأسي حتى قدمي. ألقيت التحية، وتوجهت إلى غرفة الإدارة التي وجدت فيها المدير مع عدد كبير من المعاونين والموظفين. حضّرت نفسي للمسرحية التي اتفقت مع المدير عليها، فمع دخولي الغرفة وقف الجميع مرحبين بي. سألني المدير عن حال أبي المريض، فأجبته بأنه تحسن والحمد لله. لكن بعد أن أغلقت باب الغرفة خلفي طلب مني أن أحكي له عن "السفرة" وسألني "احكيلنا ضربوك مو؟" بطريقة علمت منها أن لا حاجة لي بأن أخفي شيئاً. بدأت الحديث عن كل ما جرى معي بكل هدوء، ودون أن أبدي أي حماس.

طلب المدير أن أباشر العمل على الفور، وأن أعمل أسبوعين أو ثلاثة في الفترة الصباحية، كي يراني كل من يعمل في المركز. لم أنزعج كثيراً رغم أني كنت متشوقا للعودة إلى الأصدقاء، ومتابعة الدوام الليلي الذي لم أكن لأمل منه أبداً. كان لي أصدقاء كذلك في الورديات الصباحية التي كانت مؤلفة غالبيتها من الآنسات.

جلست منفرداً وبدأت العمل. بعد وقت قصير وصلت شيرين إحدى أعز أصدقائي.. كانت الشخص الوحيد الذي يقرأ كل محاولاتي القصصية، وكانت تعطيني آراءها بكل صراحة وبدون مجاملة أو إحباط للمعنويات. تفاجأتْ كثيراً عندما شاهدتني، لاحظتُ سعادة كبيرة على وجهها. هنأتني بالسلامة، وسألتني عن سبب كوني لازلت سليماً معافى رغم كل ما جرى. قلت لها:

إنني عملت بجد كي لا أعود سليماً، إلا أنهم أصروا أن يستضيفوني في فنادق الخمس نجوم. أكدت لي بأنني قد جئت في الوقت المناسب، فقد كانت تحمل كتاب قصص قصيرة لأنطوان تشيخوف، وتوقعتْ أني سأرحب بقراءة كتاب ما بعد تلك الأزمة. كانت فكرة ممتازة بالنسبة لي رغم أن الكتاب لم يرق لي بعد قراءته، ورحت ألقي باللوم تارة على الكاتب، وتارة على المترجم، وتارة على نفسي.

بعد وقت قليل وصل مصطفى الذي سمع بالإفراج عني مسبقاً. عانقني طويلاً واطمأن عني، وأعاد السؤال عن صحتي وعافيتي. كان كل من يراني يكرر هذا السؤال. بعد لحظات قليلة وصل توفيق، الذي كان الوحيد من أصدقائي الذين تواصلت معهم من داخل السجن. توالى وصول الأصدقاء، ويبدو أن الجميع كان يعرف تلك الرحلة، ولا حاجة لإخفاء ما جرى.

انتهى وقت الدوام، فتوجهت إلى القرية التي كنت تقريباً غائباً عنها منذ الفترة التي بدأت بها الثورة إلا من زيارات مقتضبة. عند وصولي وجدت أننا قد بنينا بيتاً جديداً بجانب البيت القديم. بالطبع لم نستغل ثورة التعمير التي جرت في حلب، فقد كان عملنا مرخصاً من البلدية أصولاً ومخططاً منذ فترة طويلة. فور وصولي أصبح بيتنا قبلة للزوار من أقاربنا الكُثر. رحت أودع وأستقبل الأقارب والأصدقاء لمدة أربعة أيام، وكأني قادم من الحجاز.

بعد نحو أسبوعين على خروجي من السجن، وتأكيد رسوبي في السنة

الثالثة من كلية الحقوق وتفويتي تقديم ست مواد خلال فترة السجن. صدر رسمياً ما تداوله الناس من إشاعات كثيرة، وهو المرسوم الذي يتيح لمن يحمل ست مواد أو أقل من الترفع إلى السنة التالية استثناء بسبب الظروف الصعبة في تلك السنة. عاد لي الأمل بالترفع إلى السنة الرابعة وبدأت أسأل عن مصير مادة المواريث التي قدمتها قبل الدخول إلى السجن، ففي حال نجاحي بها سأكون رسمياً في السنة الرابعة. شعرت بالندم لعدم تقديمي مادة قانون الشركات التي كانت ستضمن انتقالي للسنة الرابعة، وخصوصاً أنني عرفت بأن علامات مادة المواريث لم تصدر إلى الآن.

بعد أيام قليلة صدرت نتائج مادة المواريث لكنني لم أجد اسمي في جدول العلامات الذي وضع على موقع الكلية. طلبت من فادي النظر في جدول العلامات في الكلية فلم يجد الاسم. كان الوضع شديد الغرابة، وبدأت أشك أن لذلك علاقة بدخولي السجن. توجهت إلى الجامعة بعد أن أمضيت وقتاً طويلاً في القصر العدلي محاولاً فك احتباس الكمبيوتر، الذي لم أحصل عليه بسبب الإجراءات الكثيرة التي يتطلبها الأمر. نظرت في جدول العلامات فلم أجد اسمي لا ناجحاً ولا راسباً، فتوجهت إلى مكتب الامتحانات وقلت للموظفة: إن اسمي غير موجود في الجدول رغم أني تقدمت للامتحان، فطلبت مني رقمي الجامعي الذي أعطيتها إياه بسرعة. عادت الموظفة بعد لحظات من التوتر والنرفزة خشية ضياع الأمل الذي تجدد بكسب السنة التي ضيعتها في السجن. قالت لي بسخرية: إنني قد نجحت بمجموع 50%، وأضافت إن العلامة لا تستحق كل هذا الحماس الذي كان يبدو علي. بالطبع لم تكن تعلم تلك الموظفة أن هذه الخمسين علامة قد وفرت علي سنة دراسية كاملة أي ما يعني ثلاثة امتحانات في اثني عشر شهراً أو365 يوماً تحديداً. على الفور أخبرت أبي وأمي بذلك كونهم سيشعرون بفرحة كبيرة تفوق فرحتي بالترفع إلى السنة الرابعة، وكأنهم هم من تعبوا ودرسوا تلك المادة. كانت جائزة ترضية ممتازة بالنسبة لي بعد الأيام التي قضيتها، أكدت لي أن المصائب قد تأتي إفرادياً في كثير من الأحيان.

الثورة بعد السجن

لم أحتج إلى الكثير من الوقت للعودة إلى حياتي الطبيعية بعد تلك الأزمة. عدت إلى روتيني الاعتيادي من الذهاب إلى المركز وإلى الجلسات الطويلة مع الأصدقاء، إضافة إلى الوقت الطويل الذي كنت أقضيه على الإنترنت. مازلت معلّقاً حياتي على النتيجة التي ستنتهي إليها الثورة، إلا أني لم أشارك بأي نشاط ثوري خلال فترة طويلة، بعد خروجي من السجن، سببها مزيج من الخوف والرغبة باستعادة الثقة التي فقدتها مع أبي، إضافة إلى أنه لا شيء في ثورة حلب يجلب الحماس. اقتصرت في تلك الفترة على متابعة تفاصيل الثورة التي بدأت تتحول، بنسب صغيرة تزداد مع مرور الوقت، إلى ثورة مسلحة في مناطق مختلفة. ترافق هذا التحول مع ازدياد العنف الذي يرتكبه النظام ضد الشعب السوري، فوصل به إجرامه وبتغطية يقدمها له الصمت الدولي إلى قصف بعض المناطق والمدن بالمدفعية والدبابات على مرأى من عين العالم، الذي لم يقدم إلا المبادرات تلو المبادرات متجاهلاً الحل الوحيد لهذه الأزمة والمعاناة.

بدأ الجيش الحر الذي تأسس بداية حماية للمظاهرات السلمية، وأخذ يظهر أكثر مع ازدياد عدد المنشقين عن الجيش، وازدياد نقاط الاشتباك مع قوات النظام في أكثر من منطقة. إذ أعلن سيطرته على بعض المدن كالرستن وبعض أحياء حمص، وبعض مدن إدلب، ولاحقاً في درعا وريف دمشق، ودير الزور. على إثر ذلك كان جيش النظام يقوم باقتحام المدن التي كانت تشهد حراكاً مسلحاً، وترتكب فيها المجازر البشعة بحق الأهالي العزّل، للإمساك بالجيش الحر من يده التي توجعه. أبشع تلك المجازر عاشتها مدينة حمص في ذلك الشتاء إذ عانى الحماصنة ما لم يعانه أحد حتى ذلك الوقت، كانت حمص قد شكلت مظاهراتها ومقاوها المسلحة عقدة للنظام وشوكة في حلقه! كانت كتيبة الفاروق تقود الثورة في مختلف أحيائها وعلى رأسها حي بابا عمرو، الذي كان في وقت ما خطاً أول بين المدن التي واجهت النظام،

فنال النصيب الأكبر من القصف والتدمير عبر أشهر طويلة انتهت باقتحام الحرس الجمهوري له، وانسحاب الجيش الحر حرصاً على أهالي الحي، كما برر ذلك العناصر المنسحبون. كان الأهالي يتعرضون لقصف يبث على قنوات التلفزة مباشرة، بطريقة تجعلنا نستمر بالشك بأننا نعيش على الكوكب نفسه الذي تعيش فيه بلدان العالم، إذ لم يخرج مسؤولوها علينا إلا بتصريحات هزيلة تدل على العجز، وعدم القدرة على وقف مجازر النظام، الذي شعر بعد ارتكابه المجزرة تلو الأخرى أن يده طليقة ولن يحاسبه أحد.

إضافة إلى هذا الحراك المسلح كانت التظاهرات مستمرة على مدار أيام الأسبوع حاملة معها إبداعات السوريين في هتافاتهم ولافتاتهم. كان كل شيء في هذه الثورة يدل على أنها مستمرة، ولن يستطيع النظام إيقافها رغم الاقتحامات الكثيرة التي قام بها للمدن والقرى المنتفضة، دون أن ينقص من مشاهد المظاهرات الحاشدة التي تطالب بإسقاط النظام في مختلف أنحاء البلاد. في تلك الفترة تقدمت قرى وبلدات في ريف حلب الغربي والشمالي بقوة إلى واجهة الثورة. كنا نسمع يوميا أسماء قرى جديدة تنضم للنقاط الثائرة.

بالطبع لا يمكن إيجاز ما كان يجري في سورية في تلك الفترة في بضعة سطور أو صفحات، إلا أن أبرز وأهم أحداثها كانت تجري بعيداً عن حلب ما يجعلني غير دقيق في كتابة تفاصيلها، التي كنت أعرفها كما يعرفها الجميع عبر وسائل الإعلام إضافة إلى بعض الأصدقاء، وأترك مهمة تفصيل ما جرى لأشخاص عاشوا تلك الأيام ورأوا تفاصيل أحداثها بأعينهم، لعلهم يقدمون لنا ما قد غاب عنا في ظل تلك الفوضى.

بعد انتفاض غالبية البلد في وجه النظام واستمراره على نهجه الذي بدأه يوم جمعة الكرامة عندما أطلق الرصاص أول مرة في درعا. صار كل يوم بحاجة إلى كتاب كامل يوثق أحداثه وأرقامه من أسماء المدن والقرى التي يقصفها النظام، والأخرى التي يقتحمها، وتدوين أسماء المدن والقرى التي تخرج فيها المظاهرات، وأسماء الشهداء وأعمارهم، وحوادث الانشقاق الفردي والجماعي لضباط الجيش السوري وجنوده. بالإضافة إلى التحركات الخارجية التي تشمل أعمال المعارضة التي لم تكن لتعجب الثوار ولا تطمئن المجتمع الدولي. كذلك كان يجب علينا متابعة الحراك الدبلوماسي الخارجي

الذي كان يهدأ وينشط على فترات، وما كان يأتينا من تصريحات لدبلوماسيي الدول العربية والغربية، وما يِقدم من مبادرات، وما تجود به قرائح موظفي الأمم المتحدة من قلق واستياء وامتعاض وانزعاج وحزن وخوف وغضب تجاه سورية وشعبها.

* * *

مع تقدم الأيام في عمر الثورة كان طبيعياً أن تبحث تلقائياً عن شعار يميزها، ويكون حاضراً في كل ما يتعلق بالثورة من مظاهرات وعمليات عسكرية وخطابات ومقابلات، وسوى ذلك من تفاصيل. أظن أن الشعار الذي نال إجماع كل العاملين بالثورة ذلك الوقت هو علم الاستقلال ذو النجوم الثلاثة الذي كان علماً لسورية، ورمزاً لعصور الدولة العربية الإسلامية المتتالية. بعد أن رفع الثوار علم سورية الحالي في بداية الثورة بدأ يختلط مع علم الاستقلال في المظاهرات، ليختفي لاحقاً العلم السورِي، ويبقى علم الاستقلال شعاراً وحيداً في تلك المرحلة. علم الاستقلال حُمل بدايةً فيما شاهدت من مظاهرات في بلدتي سراقب كفرنبل في أولى مظاهراتها ضد النظام، ثم أخذ ينتشر ليكون الشعار الأوحد للثورة السورية.

كان هذا الشعار يحمل الكثير من المعاني ويمثل العديد من الرسائل للثوار وللخارج. فهو تعبير عن إجماع كل القائمين بالثورة على ضرورة وحدة سورية، وبأن مطالبهم تقتصر على الحدود السورية التي كان شعارها هذا العلم. وعدم وجود أهداف ومطالب محلية أو إقليمية أو طائفية أو عالمية في هذه الثورة السورية. كما مثل رغبة السوريين في استعادة الحياة الديمقراطية التي كانت سائدة قبل أن يأتي البعث بنظام الحزب الواحد. سخر النظام كعادته من هذا الشعار وعدّ رفعه تهديداً له، وأطلق عليه اسم علم الانتداب لكونه العلم الوطني في فترة الانتداب الفرنسي لسورية.

* * *

حمل السلاح لمواجهة نظام الأسد كان أحد الخيارات التي طرحت وتداولها الثوار منذ اليوم الأول للثورة، إلا أن عدد الداعمين له كان قليلاً جداً وصوتهم لا يكاد يكون مسموعاً مقارنة مع أصوات الثوار السلميين. وما إن يعلو قليلاً حتى يبادر الجميع لإسكاتهم لأسباب كثيرة. لعل أبرزها هو الاتجاه

السلمي للثورة السورية التي جاءت في إطار ثورات الربيع العربي السلمية. كما أن تجارب السوريين مع الكفاح المسلح في الثمانينيات من القرن الماضي كانت فاشلة لأسباب كثيرة، فأطاحت الحرب بالحق المشروع لمطالبيه لصالح القوة العسكرية الهائلة لدى النظام.

مع مرور الأشهر الأولى للثورة وتكرار المجازر في مختلف المناطق، راح صوت المنادين بالسلاح يعلو وعددهم يزداد. وخصوصاً بعد سيطرة النظام على المراكز الرئيسة للثورة السلمية بعدد كبير من الجنود، إذ أصبح خيار التسليح لدى الكثيرين مصيراً حتمياً وتطوراً تفرضه الظروف. لكن التحول إلى السلاح خلق إشكاليات كثيرة لم نجد لأكثرها حلولاً.

فعلى الثوار التفكير في الخطوة التالية لحمل السلاح. فهل أنتم يا من تريدون رفع السلاح قادرون على إسقاط نظام الأسد به؟! أم إنكم تريدون حمل السلاح للسلاح فقط؟! ألم يبق أمامكم خيار آخر؟! النظام يملك ترسانة هائلة من العتاد والأسلحة والذخائر والجنود، وكل ما يتوفر لدى السوريين عدد قليل جداً من أسلحة الصيد، وفي أحسن الأحوال الكلاشنكوف. فالحرب ضد جيش النظام بحاجة إلى تمويل غير منقطع تقدمه هيئات بحجم دول. ناهيكم بموقف النظام بعد رفع السلاح ضده، وهو الذي أصرّ على ارتكاب المجازر في مواجهة الحراك السلمي، بينما راحت وسائل إعلامه تهلل لانتصارات الجيش السوري على المسلحين، والذين سيحولهم خيار حمل السلاح إلى حقيقة، وهدية مفرحة للنظام.

مع مرور الوقت بدأ بالفعل الكفاح المسلح ضد نظام بشار الأسد لكن بأعداد قليلة جداً، وحوادث أقلّ تمثلت بحماية المتظاهرين السلمية بعناصر انشقت عن الجيش أو قوى الأمن الداخي، بالإضافة إلى بعض المدنيين المتحمسين. بالطبع لم يكن هناك حد فاصل بين الحراك السلمي وبين المسلح، إلا أنّ صوت السلاح أخذ يرتفع ليقارب صوت المتظاهرين وليتجاوزهم لاحقاً.

لا نعرف الآن بعد مضي كل هذا الوقت من العمل المسلح فيما إذا كان خياراً صائباً أم لا، أو فيما إذا كان خياراً أصلاً. فحمل السلاح كان برأي الكثيرين مجرد ردة فعل على ما يجري من بطش النظام، وتخاذل القوى الدولية التي بقيت متفرجة، في أحسن الأحوال. لكن في العموم لا نخجل أبداً

من حمل السلاح، ونفتخر بكل من رفعه نصرة للمظلومين في سورية مهما كانت عقيدتهم. فالدفاع عن النفس يرتقي ليكون واجباً أكثر مما هو حق لكل شعوب العالم. أقرته لنا كل الأديان وكافة التشريعات والعقل والمنطق السليمان، ولا ينكره علينا إلا جاحد أو منافق أو مشارك فيما يجري من مجازر. وبالنسبة إلى من ينظّر علينا من هنا أو هناك بضرورة تمسكنا بسلمية الثورة، أؤكد أننا تمسكنا بها قدر المستطاع وهتفنا بشعار السلمية أياماً طويلة. ولو أن غاندي تعرض لما تعرض له السوريون لكان أوّل من حمل السلاح في وجه ظالميه.

وبالطبع كفاحنا السلمي لم ولن يتوقف حتى الحصول على حقوق هذا الشعب بالحرية والكرامة. فها هي مظاهراتنا مستمرة، وها هم آلاف الشباب يعملون في المجال الإغاثي والطبي رغم أنهم غير متخصصين بذلك، فقاموا بذلك مقام كل من تخاذل من الناحية الإغاثية والطبية من أطباء ومسعفين ومنظمات. وها هم كذلك يقومون بدور الإعلاميين والمراسلين لنقل صورة ما يجري إلى العالم، بعد أن أدارت وسائل الإعلام العالمية لنا ظهرها، وبعد أن أصبح هذا الصراع مملاً أو غير مهم لها. وهأنذا أكمل هذا العمل الذي بدأته ولا أعرف كيف ومتى أنهيه ليكون جزءاً من الكفاح السلمي الذي نقوم به.

حلب والثورة

كل ذلك كان يجري في البلد بينما مدينة حلب على حالها السابق، فالثورة كانت تأبى أن تصل إليها إلا عبر المحاولات الصغيرة التي كان يقوم بها بعض الثوار دون أن يتحرك شيء في المدينة، ما شكّل لغزاً يصعب حلّه. فلماذا حلب لم تتحرك؟ كان هذا السؤال محور نقاشات طويلة كثيراً ما تطورت إلى جدالات ومشاجرات.

كان كل شخص يضع عدة أسباب لذلك، قد لا تعفينا من المسؤولية التاريخية، إلا أن ما يجري في حلب كان بحاجة إلى دراسة اجتماعية، قد لا نستطيع القيام بها. إلا أني ومن خلال النقاشات الطويلة وجدت عدة أسباب قد تكون ساهمت بطريقة ما بعدم مشاركة حلب لباقي المدن. بالتأكيد هناك أسباب كثيرة أخرى إلا أني لم أكن في موضع يجعلني منتبهاً لها.. المشكلة أنه في اللحظة التي أكتب فيها، لم تعد تهمة التخاذل توجه إلى مدينة حلب، فنصفها اليوم محرر من أيٍ ما يتعلق بالنظام، وثوار باقي المدن لا يكنون لها ولثوارها إلا الاحترام والاعتزاز، إلا أني سأكتب بعقلية تلك المرحلة متمنياً أن يكون كلامي قريباً للواقع، وليس مجرد وهم أقنعت نفسي به، نتيجة الإساءة المتكررة التي كانت توجه لي ولأصدقائي من ثوار باقي المدن من جهة ومن سكان مدينة حلب من جهة أخرى.

عندما انطلقت الثورة في منتصف آذار من العام السابق، كان إحدى نقاط ضعفها غير المقصودة هي أنّ المدينة لم تكن جاهزة للثورة. ولا أقصد بذلك أن أسباب الثورة لم تكن موجودة، بل هي متوفرة وبكثرة ولا حاجة الآن لتعدادها، لكن لم يكن هناك نسبة كبيرة من الناس يؤمنون بأهمية نجاح الثورة وضرورتها وإمكانياتها، وتعرف تماماً الدولة التي يجب أن تنتج عنها. ضعف الجاهزية هذا كان موجوداً وبنسب مختلفة، لكنّ المؤكد أنّ حلب هي الأقل جاهزية للثورة على الإطلاق، فعوامل الثورة لدى الشعب في هذه المدينة كانت شبه معدومة. فلم أصدق أنا أن ثورة ما ستقوم في ذلك الربيع

في هذا البلد، كوني كنت أقيس الوضع على حلب. ولم يصدق ناشطو باقي المدن أن حلب لن تشارك في الثورة، كونهم قاسوا وضعها على مدنهم.

فما كان موجوداً قبل الثورة على نطاق ضيق في المدن الأخرى لم يكن قائماً في حلب. فحسب معلوماتي كان هناك في مدن مثل حمص وإدلب ودرعا ودمشق عمليات تحريض ضد النظام عن طريق الكتابة على الجدران، وحملات لتوزيع مناشير تنادي بالثورة عليه، بينما هذا لم يحصل في حلب حتى بعد بدء الثورة بأشهر، وأظن أن الكتابات التي اعتقل بسببها أطفال درعا كانت في هذا الإطار.

وعندما تحركنا متحمسين لهذا الموضوع وجدنا أنفسنا أمام لامبالاة شعبية وأمام معضلة تواجهنا وهي التنظيم. فلم يكن هناك أي نوع من التنظيم قبل انطلاق الثورة، وكانت المحاولات الثورية في حلب بعد انطلاق الثورة بزمن طويل شبه فردية، وتفتقد لأي تجربة أو عمل مشترك يؤدي إلى تشكيل نواة لثورة حلب، فالثورة بحاجة إلى وقود شعبي وشرارة شبابية تشعلها، لكن في حلب ذلك الوقت لم يكن لدينا لا شرارة ولا وقود.

كذلك كان من أهم الأسباب التي أدت إلى عدم جهوزية حلب للثورة هو العدد القليل جداً من أهالي حلب العاملين في مؤسسات الدولة المختلفة وخصوصاً قطاعي الأمن والجيش. الأمر الذي خلق نوعا من الرهبة الزائدة للدولة وخصوصاً قوات الأمن منهم. ففي حين كان النظام يشكل رعبا حقيقيا لكل السوريين، كان هذا الرعب مضاعفا في حلب لجهل سكانها بتفاصيل التعامل مع الأمور المختلفة داخل أروقة الدولة. هذا ما انتبهت له عندما لاحظت أن غالبية المشاركين في بداية الحراك الثوري في حلب من أبناء العاملين بالدولة وأبناء ضباط الجيش والأمن، ولاحظت كذلك أن المدن التي انتفضت في الأيام الأولى من الثورة يعرف عنها العدد الكبير من العاملين في الدولة من أبنائها، وخصوصاً في الجيش مثل مدن درعا و حمص والرستن وإدلب ودير الزور. أمثال هؤلاء كانوا يعرفون الدولة على حقيقتها ويعرفون إلى أي مدى وصل الفساد وفي أي يد أصبح قرار البلد، وضرورة التغيير وعدم استمرار هذا الوضع فترة أكثر من ذلك.

والجدير بالذكر أن مدينة حلب بالإضافة إلى النسبة المتدنية من العاملين

في الدولة من أبنائها كانت تحمل معدلات متدنية لجهة التعليم مقارنة مع باقي المدن. وأظن أن لهذا السبب الأثر الكبير في السبات الذي كانت تعيشه حلب خلال أكثر من سنة من انطلاق الثورة. والدليل الأكبر على ذلك تركز الحراك في مرحلة معينة في جامعة حلب، التي أصبحت رمزا من رموز الثورة حتى أطلق عليها اسم جامعة الثورة، وسميت إحدى جمع الثورة باسم أبطالها في يوم الثامن عشر من شهر كانون الثاني لعام 2012.

يضاف إلى ذلك الخوف الناتج عن الذكريات السوداء عمّا جرى في ثمانينيات القرن الماضي، عندما شن النظام الحالي حملة تصفية لكل من يعارض النظام سواء أكان من الإخوان المسلمين أو غيرهم. قد يقول أحدهم أن حماة قد أصابها ما أصاب حلب في تلك الفترة، إلا أنها لم تتأخر عن المشاركة في الثورة وشكلت بمظاهراتها المليونية أكبر مشهد جماهيري صورته عدسات ناشطي الثورة. لكني أظن أن أحداث الثمانينيات شكلت حقدا كبيرا يتخطى أي خوف من النظام في حماة كون العقاب طال كامل المدينة، بينما لم يكن العقاب في حلب جماعيا واستهدف أناسا بعينهم. فشكلت تلك الأيام السوداء تهديدا يؤرق الحلبيين الذين نجوا من ذلك العقاب والتزموا الصمت وشاهدوا بأنفسهم ما جرى مع كل من عارض النظام ولم يلتزم بالصمت من مجازر أو تهجير.

بالإضافة إلى كل ذلك كانت حلب تفتقد إلى عامل مهم من العوامل المتوفرة لدى باقي المدن والتي ساهمت بانتفاضتها. فحلب لا يوجد فيها احتقان طائفي لعدم احتكاك سكان المدينة بالسكان العلويين الذين كان يميزهم النظام بكل شيء كما كان يحصل في مدن مثل دمشق وحمص أو اللاذقية وغيرها، حيث عاش السكان هناك وعلى مدى عشرات السنين وهم يشاهدون تمييزاً طائفياص فاضحاً ووقحاً، شكل أحد الأسباب التي دفعت تلك المدن للمشاركة بالثورة للتخلص من ذلك الواقع الفاسد والتحول إلى دولة العدالة والمساواة.

ويجب ألا ننسى أن مدينة حلب يسكنها حوالي ثلاثة ملايين إنسان، وتتركز فيها رؤوس الأموال الصناعية والتجارية، ويكاد ينعدم التواصل الاجتماعي كما هو الحال في الأرياف والبلدات الصغيرة. في حلب لا توجد علاقات اجتماعية قائمة على المكون العشائري أو الطائفي. فلم يجد ناشطو الثورة أي

وسط مناسب للنشاط فيه، ذلك مع غياب مؤسسات المجتمع المدني، وتحول الأحزاب العريقة في سورية إلى دمى تتحكم بها اليد التي تتحكم بالبلد ذاتها.

كذلك مع تأخر انطلاق الثورة في حلب كانت هناك فرص دائمة للالتحاق بركب الثورة، إلا أن أهل حلب وسكانها لم يروا من الثورة إلا وجهها القبيح الذي قدمه لهم النظام إعلامياً، والكثير من الأفراد أو الجماعات عملياً، فانتشرت عمليات الخطف على نحو مخيف في المدينة وخارجها باسم الثورة. وأعرف شخصياً أن الكثير من مليشيات الشبيحة كانت تقوم بذلك، ومجموعات كبيرة من العصابات واللصوص استغلوا انشغال قوات الأمن بملاحقة الناشطين ولاحقاً بالمعارك مع الجيش الحر، فقاموا بعمليات سرقة وخطف يومية وخصوصاً في ريفي حلب وإدلب، جعلت الكثير من السكان يجزمون أن ما يجري في البلد هو ثورة لصوص وعصابات كما يروج النظام. وهكذا كانت حجج الكثير ممن خضنا النقاش معهم حول الثورة هي عمليات الخطف والسرقة والتشليح، وانتشار العصابات كالكلاب المسعورة في البلد.

إضافة إلى هذه الممارسات، كان بعض الثوار المتحمسين يقومون بأعمال خاطئة ضد سكان حلب كنوع من الانتقام لعدم نصرتهم باقي إخوانهم في البلد، فبتنا نسمع بالهتافات المسيئة لمدينة حلب في المظاهرات، ونشاهد حملات السخرية والتهكم والإساءة لأهل حلب عبر وسائل الإعلام ومواقع الانترنت. كل هذا شكل ردة فعل لدى أهالي حلب لصالح النظام، وضد الثورة ساهمت في تعقيد مهمة الناشطين الذين وضعوا على عاتقهم مهمة حمل أهالي مدينة حلب على المشاركة بالثورة، كما ينتظر منها كل السوريين.

نتيجة تلك الأسباب حلب تخلفت عن باقي المدن في المضي بالمراحل التحضيرية والفعلية للثورة. لكن كان لهذا التأخير عواقب وخيمة وآثار تتجاوز الأيام والشهور، فالنظام تدارك الأخطاء والحماقات التي ارتكبها في باقي المدن بعد معرفته بالنتائج الحتمية لها، وحاول تلافي ذلك عبر تعامل خاص مع الحراك الثوري في حلب، فكان يميز بين الحلبي وغير الحلبي في فروع الأمن، وهذا ما حصل معي شخصيا في الأمن العسكري حيث كانت معاملتي ومعاملة الحلبية أفضل بكثير من معاملة معتقلي باقي المدن، من حيث التعذيب الذي تعرضنا له ومن حيث المدد التي كنا نقضيها في الفروع

والسجون. يبدو أن النظام بدأ يخشى تأليب الرأي العام ضده في هذه المنطقة الكبرى من البلد التي مازال يتمتع فيها بشعبية كبيرة لا يريد التفريط بها. كذلك لم يطلق النار إلا في النادر على أي مظاهرة من مظاهرات حلب خلال حوالي السنة من انطلاقها خوفا من سقوط الضحايا وخروج المظاهرات الحاشدة في التشييع كما كان يجري في باقي المدن، ففي حين كان التعامل مع المظاهرات وحشياً في مختلف البلاد، كان يتم اعتقال الأعداد القليلة من المتظاهرين وسجنهم لفترة قليلة حرصا على ما تبقى له من الموالين، فكان النظام بذلك أحد أهم الأسباب التي أدت إلى تأخر ثورة حلب كل تلك الفترة، ومضاعفة تأثير أسباب التأخير.

ذلك التأخير تسبب كذلك بتقليل أهمية ووقع أي حراك ثوري على متابعي أخبار الثورة في الداخل والخارج، فالإنجازات والوقائع والأرقام التي تُحقق في حلب تعد أمورا صغيرة ومطروقة في كل المدن والقرى بسبب فارق التوقيت.

بقي أن أشير إلى أن سكان مدينة حلب بالكامل يتحملون وزر التأخير، إذا كان هناك وزر. فسكان المدينة هم خليط من أهل حلب الأوليين ومن ريفيّ حلب وإدلب ومن الأكراد. أقول ذلك لأن الكثير من السكان فضلوا المشاركة في الثورة في مدنهم وقراهم الأصلية على أن يتجرؤوا ويشاركوا بمظاهرات لا يتجاوز عددها المئات ومصير المشاركين فيها الضرب والاعتقال والبهدلة. فحلب كانت بعيدة نوعا ما عن أحداث الثورة التي انطلقت في درعا، إلا أن سكانها غير الأصليين كانوا معارضين وثواراً في مدنهم وقراهم، ليعودوا إلى حلب مؤيدين خائفين من بطش النظام وإجرامه.

بالطبع كان هناك الكثير ممن شاركوا في الحراك من خارج المدينة، إلا أني أظن أنهم لم يقوموا بالدور الكافي لذلك. لا ألومهم على ذلك أبداً، إلا أني أطلب من الجميع بلسان حالنا تلك الأيام ألّا يلقوا باللوم الكبير على مدينة لم تكن جاهزة لاختبار الثورة، كمن يلقي اللوم على طالب الابتدائي بفشله في امتحان الثانوية. كان الأحرى بناشطي حلب من الذين شعروا باليأس من اصطفاف هذه المدينة إلى جانب النظام، أن يتابعوا العمل بصبر وصفاء نية لتحضير المدينة لتصبح جاهزة، وتوجه الضربة القاضية للنظام.

تدهور الوضع

لم تخل فترة التعليق التي تلت السجن من الأمور المتعلقة بالثورة، فإضافة إلى النقاشات التي تبدأ ولا تنتهي، ومتابعة تفاصيل الثورة ساعة بساعة عبر وسائل الاتصال والإعلام المختلفة. كانت هناك بعض المحاولات الفاشلة للمشاركة في المظاهرات في الأوقات التي كانت تساعدني الظروف فيها على الهروب من الرقابة الشديدة على تحركاتي خارج المنزل. إحدى المحاولات كانت ذهابي برفقة أبي عدنان وزكريا إلى صلاح الدين جامع أويس القرني تحديدا، والذي كان يشهد تظاهرات أسبوعية على غرار ما كان يجري أمام جامع آمنة في سيف الدولة. لكن لسوء الحظ كان وصولنا ذلك اليوم متأخرا نوعا ما حيث استنفرت تلك الجمعة عناصر الأمن للسيطرة على الوضع قبل أن يتفاقم. رأينا هناك عناصر حفظ النظام وقوات الأمن من مختلف الفروع إضافة إلى عدد كبير من الشبيحة يفوق أي عدد من المتظاهرين يمكن أن يخرجوا أمام ذلك المسجد. عدنا أدراجنا دون أن نقوم بشيء يذكر. لكن خوفا كبيرا من بقايا آثار التجربة التي مررت بها سيطر على كل خلايا جسمي لدى مروري من بين قوات الأمن. عرفت وقتها أني بحاجة إلى مزيد من الوقت لأستجمع شجاعتي وأعود إلى الأيام التي سبقت الاعتقال.

المرة الثانية كانت بعد انتهاء الفحص النصفي في ليلة شديدة البرودة عندما وُجهت الدعوة إلى مظاهرة وُصفت بالحاشدة سوف تنطلق من أمام جامع صلاح الدين في صلاح الدين. توجهنا إلى المكان فلم نجد إلا قوات الأمن الذين قطعوا الطريق المؤدي إلى جامع أويس القرني بسيارة الشرطة العسكرية وأشهروا سلاحهم على العلن بطريقة لم نعتدها من قبل. عدنا إلى المنزل بعد تأكدنا من عدم إمكانية خروج أي مظاهرة. ونحن في طريق العودة سمعنا صوت انفجار هائل في تلك المنطقة. حول ذلك الانفجار أشارت صفحات أخبار الثورة إلى أنه وقع في أحد شوارع صلاح الدين، وهو ذات الشارع الذي شاهدنا قوات الأمن تقوم بإغلاقه بطريقة تدعونا إلى التساؤل حول مصدره.

في الثالث من شهر شباط لعام 2012 كانت الجمعة التي أطلق عليها جمعة: "عذراً حماة سامحينا" تعبيراً من السوريين عن شعورهم بالأسف جراء موقفهم الصامت تجاه ما ارتكبه النظام من مجازر بشعة في مدينة حماة، ذهب ضحيتها عشرات الآلاف من الناس. كانت رسالة وجهها السوريون لكل من له علاقة بالموضوع بأنهم لم ينسوا ولن ينسوا تلك المجزرة، وأن محاسبة من نفذ وخطط وقرر لها حق لا يسقط بالتقادم.

لم تكن تلك الجمعة تخرج عن سياق الجِمع السابقة حتى وقت الغروب في منزلنا في القرية عندما انقطع التيار الكهربائي للحظات. تخلل ذلك أصوات صراخ غريبة تأتي من الخارج توحي بمشكلة ما. انتظرت ثواني قليلة قبل أن أذهب لأتبين الأمر الذي بدا غاية في الخطورة عندما سمعت أصوات إطلاق رصاص قريب. خارج المنزل كان الجميع يجري، ويصرخ بطريقة هستيرية. جريت معهم دون أن أعرف ما الأمر. كان الجميع يتوجه إلى المفرق القريب حيث رأيت أحد أقاربنا يمسك بندقية ويطلق الرصاص في الهواء وسط تصاعد أصوات الصراخ. لم أعرف ما كان يجري خلال عملية الجري التي وصلت إلى أذنيّ خلالها كلمات مثل "خطفوه" "قتلوه" "هربوا" "الحقوهم".

لم أفهم ما جرى حتى تلك اللحظة بينما لم يجبني أحد في وسط تلك الحال الهستيرية. تنقلت من شخص إلى آخر إلا أن الغالبية لم يفهموا ما جرى على وجه التحديد، إلى أنْ قال لي أحدهم: إن عمي أحمد خطفه مجهولون وانطلقوا به هاربين. أول ما تبادر لذهني أن شخصاً ما ترصد لعمي الذي توجه إلى حلب قبل قليل واختطفه كونه عميداً طياراً في الجيش السوري، وردة فعل الناس والتوقعات المبدئية توحي بأننا قد فقدناه. كان الجميع يحاول أن يجري اتصالات مع شخص ما، بينما توجّه العديد من السيارات خلف الخاطفين محملة بالرجال والسلاح.

في وسط ذلك الموقف المجنون رأيت بين الواقفين ابن عمي الذي كان يرافق عمي المخطوف في رحلته إلى حلب. توجهت إليه بسرعة وسألته عن عمي فأجاب:

إنهم سرقوا السيارة وذهبوا، فصرخت بأعلى صوتي "يلعن أبو السيارة، وين عمي؟!" أشار بيده إلى عمي الذي كان واقفاً مع إخوته الذين انهالوا

عليه بالأسئلة. هدأ الجميع بعد أن رأوا العم سالماً دون أن يختطف كما يظن، بعدئذ توجهنا إلى المنزل لفهم تفاصيل ما جرى بهدوء.

قال العم بعد أن توافد علينا الأقارب والأصدقاء ليفهموا ما جرى:

إن مجموعة من ثلاثة أشخاص أوقفوهم على الطريق، ليسألوهم عن أمر ما، ومن ثم وجهوا رشاشاتهم إليه وإلى ابن أخيه، وطلبوا منهم النزول من سيارته الجديدة والصعود في سيارة المسلحين. انطلقوا بهم مسافة مئتي متر وطلبوا منهم بعد ذلك الترجل في مكان خال وانطلقوا مسرعين باتجاه قريتنا. حاول ابن عمي إيجاد وسيلة اتصال بعد أن أخذ المسلحون كل مقتنياتهم من موبايلات ونقود وأوراق دون أن ينتبهوا إلى بطاقة الضابط التي يحملها. بعد قليل وجدوا أحد الأشخاص على دراجة نارية بحوزته هاتف نقال ليجري اتصالاً مع أحد أعمامي.

لم تكد المكالمة تنتهي وبينما الجميع يسأل عن فحوى المكالمة المريبة. حتى مرت أمامهم سيارة عمي يقودها شخص غريب وتتبعها سيارة أخرى. حاول بعضهم إيقافهم بطريقة ما إلا أن أحد المسلحين أخرج الرشاش من شباك السيارة وأطلق النار وانطلق بأقصى سرعة. توجه بعدها الجميع إلى دورهم ليلحقوا بالسيارة المسروقة مطلقين بعض العيارات في الهواء لتنبيه الناس. ظن الجميع أن عمي معهم فتابعوا المطاردة حتى وصلوا إلى منطقة بعيدة اختفى بعدها أي أثر لهم. عاد الجميع أدراجهم بعد أن علموا أن العم بخير، وهو بين أهله الآن. عاد الهدوء تدريجياً إلى الحارة ولسان حال الجميع يقول: لتذهب السيارة إلى الجحيم. في المنزل طلب مني عمي أحمد أن أتصل ببيت العميد أيمن والد صديقي زيد في مطار تفتناز، ليبلغه ما جرى معه، وخصوصاً أن المسلحين أخذوا بطاقة الضابط والمسدس الحربي، إضافة إلى السيارة التي يجب أن يعرفوا أنها قد سرقت قبل أن يستخدمها السارقون بعمل أحمق.

ليلة عصيبة مرت على العائلة، كما مرت على الكثير من أهالي مدينة حلب وريفها في ظل الفلتان الأمني الذي بدأ ينتشر أكثر فأكثر. سرقت أعداد كبيرة من السيارات بهذه الطريقة. ولاحقا تطور الأمر إلى خطف الأشخاص مقابل فدية مالية كبيرة لا يستطيع دفعها أغلب الناس إلا بشق الأنفس. كان النظام

يريد أن يخيِّر الناس بين الحرية وبين الأمن الذي كانوا يعيشونه. فانشغال قوات الأمن بملاحقة ناشطي الثورة أدى إلى تغاضيهم عن الوضع الأمني برمته. بل إنهم كانوا يسهّلون مثل هذه العمليات ويطلقون أيدي الشبيحة لتقوم بأعمال مماثلة، تؤدي بالناس إلى التمسك بالوضع السابق وتفضيله على المشاركة بالثورة التي ستحمل لهم حسب رسائل النظام الفلتان الأمني والدمار الاقتصادي. أظنه نجح بشكل كبير إذ أثّرت تلك الحوادث على موقف الناس من الثورة، وأدت إلى انهيار أسهمها بعد كل حادثة من هذا النوع. المؤكد أن الذين يقومون بمثل هذه الأعمال لا علاقة لهم بالثورة وهم معروفون جيداً بأسمائهم ومواقعهم، ولا تبعد دبابات النظام عنهم إلا القليل، فلهؤلاء اللصوص مطلق الحرية بينما النظام منشغل بمحاصرة المدن الثائرة بمئات الدبابات وآلاف الجنود.

* * *

في الفترة ذاتها بدأت تحدث تفجيرات بسيارات مفخخة في شوارع مدينة دمشق يسارع النظام وإعلامه إلى تصويرها والبكاء على ضحاياها، واتهام المجموعات الإرهابية التي استمر في محاربتها طويلاً مدعياً أنها مدعومة من دول العالم المتآمرة على سورية. بالنسبة لي وللكثيرين كان النظام هو من يقوم بتلك التفجيرات لأنه بالتأكيد لا مصلحة لأحد يريد أن يسقط النظام فيها، وخصوصاً أنها كانت تأتي صباح الجمعة دائماً، إذ تساهم في تخفيف الضغط الإعلامي الذي كان يتعرض له النظام. وبسبب الأخطاء البدائية التي كانت تظهر في إعلام النظام عندما كان يريد شبيحته تمثيل الأدوار على البث المباشر. بالإضافة إلى أننا نعرف أن تفجير السيارات والعبوات المفخخة كان أحد أبرز هوايات النظام الذي طالما استخدمها، ليقلب الطاولة في وجه كل اللاعبين، عندما يفتقد للأوراق الرابحة.

موضوع التفجيرات يقودني للحديث عما حدث صباح الجمعة العاشر من شهر شباط. كنت جالسا مع أحد الأصدقاء في المركز نتبادل الحديث غير المنتهي عن الثورة، عندما دوّى صوت انفجار لم أسمع صوتا مماثلا له من قبل أدى إلى اهتزاز المبنى بشكل عنيف. ظننت بداية ومن هول ما سمعت ورأيت أن الانفجار قريب جدا من المركز في وسط المدينة، إلا أني بعد أن

نظرت من النافذة رأيت الدخان والغبار يتصاعد من مكان بعيد جدا في غرب حلب. توقعت أن يكون الانفجار استهدف الأمن العسكري أو الأمن الجوي وأكدت على الفور للزملاء أن النظام هو من قام بهذا التفجير الذي أصبح معتادا صباح كل جمعة. التلفزيون السوري سارع إلى مكان الانفجار مصورا دمارا كبيرا في كوكب القرود. أكثر ما لفت انتباهي في الصور القادمة من هناك هو صورة بشار الأسد التي لم يبق منها إلا الأقدام التي دخلنا من تحتها إلى قسم الزنزانات. التلفزيون السوري ذكر أن هناك تفجيرا آخر وقع أمام كتيبة حفظ النظام بالقرب من ثكنة هنانو في حي ميسلون.

سارعت كما الكثيرين إلى اتهام النظام بالتفجير، إلا أني بعد أن عرفت العديد من التفاصيل التي جرت في ذلك اليوم عن طريق أحد أصدقائنا من عناصر حفظ النظام قبل أن ينشق دفعتني للتروي. فقد أكد لي أن هناك من قام بتفجير باص مليء بالمتفجرات في مدخل الكتيبة، كما قام العديد من المسلحين بالهجوم عبر المقبرة المجاورة وقاموا بتأمين انشقاق العديد من العناصر وقتل عدد كبير غيرهم. بعد ورود مزيد من المعلومات بدأت أظن أن النظام لا يمكن أن يقوم بتلك العملية، وأن من قام بها هم الثوار، وأظن أنها في ذلك الوقت كانت عملية جريئة ونوعية وغير مسبوقة في مدينة حلب. بالنهاية لم أكن أملك المعلومات التي تدعني أجزم بهوية منفذي تلك العملية إلا أني أتوقع أن تكشف الأيام عن تفاصيلها.

الأمن العسكري كان الفرع الممسك بزمام الأمور في حلب. فهو يملك أكبر عدد من العناصر إضافة إلى إشرافه على عمل الشبيحة، بينما يبقي فرع المخابرات الجوية خارج سلطته وبالطبع خارج أي سلطة أخرى، حيث كانت تُترك له المهمات الأكثر قذارة وإجراما، بينما تضاءل دور فرعي الأمن السياسي وأمن الدولة بالمقارنة مع الفرعين السابقين، واستهدافه بتلك الطريقة يعد تقدماً نوعياً في عمل الثوار لو تأكد أنهم من قام بذلك.

قبل الربيع

بعد أن خرجنا أنا وماهر من السجن بكفالة مالية، كان علينا ألا نفوت حضور المحاكمة الخاصة بنا، والمحدد تاريخها في التاسع عشر من شهر شباط. بالفعل توجهنا إلى القصر العدلي صباح ذلك اليوم، وأكثر ما كان يهمنا من تلك المحاكمة عديمة القيمة، هو استعادة الكفالة المالية التي دفعها أهلنا.

دخلنا إلى محكمة بداية الجزاء الغرفة الثامنة لنجد الكاتب الذي أخذ بطاقاتنا الشخصية وكتب بعض الملاحظات وطلب منا انتظار وصول القاضية. كان يقف هناك أحد الأشخاص الذي ينتظر الحكم في قضية ما. سألته عن تهمتهِ فأجاب بنفي قاطع أن يكون متهماً وأكد أنه مجنّي عليه. جاوبته بأن المجني عليه في قضيتنا موجود في الشام، ويرفض القدوم لحضور المحاكمة. لم يحاول أن يسأل ذلك الرجل عن التهمة وخصوصاً بعد أن رحنا أنا وماهر نستهزئ بالحكم والمحكمة والقصر العدلي برمته.

مع وصول القاضية دخلنا فوراً إلى غرفتها، وأول ما وقعت عيني عليه بعد أن، كان صورة لها برفقة أسماء الأسد. سألتنا القاضية مبتسمةً بعد أن نظرت في ملف الدعوى فيما إذا كنا موقوفين في الأمن العسكري فأجبنا بالإيجاب. سألتنا كذلك عن بعض التفاصيل غير المتعلقة بالدعوى كدراستنا. بعد ذلك تساءلت فيما إذا كنا نريد أن نكرر أقوالنا، فقلت لها:

إننا نريد أن نكرر ما قلناه أمام قاضي التحقيق، وليس ما قلناه في فروع الأمن. بعد ذلك قامت بكتابة بعض الأمور، ثم أعطتنا موعداً لإصدار الحكم وسألتنا ممازحة "بدكم ترجعوا تتظاهروا؟" نظرتُ إلى ماهر وقلت لها: "لنشوف".

انتهت محاكمتنا على العكس تماماً مما جرى في محاكمة كافكا، بسرعة كبيرة، وبدون أن تشغل بالنا أنا وماهر الذي عاد بعد صدور الحكم إلى عمله مع أخذ كل مستحقاته من الرواتب التي فاتته في فترة السجن. صدر الحكم في وقت لاحق بالإدانة والاكتفاء بالمدة التي قضيناها كعقوبة واسترجاعنا نصف مبلغ الكفالة المالية وكانت عشرين ألف ليرة سورية.

مع حلول فصل الشتاء ذلك العام بدأنا نشعر أن الرأي العام في مدينة حلب بدأ يتغير لصالح الثورة، فما يجري في باقي المدن لا يمكن منعه من الوصول إلى حلب، وخصوصاً المظاهرات التي انتشرت في قرى الريف الحلبي ومدنه. إلا أني كنت أشعر أن كل شخص كان يجلس في المنزل وينتظر أن تخرج المظاهرات الحاشدة ليخرج بها دون أن يجرؤ الكثير منهم أن يكون في خط المقدمة. في ذلك الوقت كانت جامعة حلب المكان الوحيد في حلب الذي كان يشهد مظاهرات يومية يزداد عدد المشاركين فيها يوماً بعد آخر. وبدأت أحياء كثيرة تدخل على خط الثورة، وإن على نحو خجول، إذا ما قورن بالمدن الأخرى، لكنّه عظيم إذا ما قارناه بوضع حلب قبل سنة. فمع انقطاع التيار الكهربائي لفترات طويلة جداً، وحصول أزمة خانقة على مادتي المازوت والغاز بدأ الناس يشعرون بنوع من التململ من الوضع الذي طالما أكد النظام أنه سينتهي قريباً. بدأنا نشهد مظاهرات خلال فترات متقطعة في أحياء الفردوس وهنانو والمرجة والسكري والمشهد وسيف الدولة، وصلاح الدين وغيرها.

لكن يبقى التطور الهام والمنعطف الحقيقي والخطأ التاريخي الذي ارتكبه أحد شبيحة النظام في السابع والعشرين من كانون الثاني في جمعة "الدفاع عن النفس"، عندما قام بإطلاق النار على مظاهرة في حي المرجة، فأوقع تسعة قتلى من بين المتظاهرين، ما أدى إلى ردة فعل عكسية وفورية في الشارع الحلبي ضد النظام، خصوصا في تلك المنطقة التي للدم فيها تأثير كبير على العائلات والعشائر، التي تشكل غالبية سكان الجهة الشرقية من مدينة حلب.

في ذات الفترة بدأنا نشهد حدوث عمليات اغتيال لعدد من الشبيحة كانت تقوم بها مجموعات مجهولة من الجيش الحر، الذي كان يعمل بسرية مطلقة في حلب وبأعداد قليلة جدا. قامت هذه المجموعات التي كان اسم إبرزها "أبو عمارة للمهام الخاصة" بتوجيه تهديدات متكررة للشبيحة بالتصفية في حال استمرارهم بقمع المظاهرات. وبالفعل بعد عدة اغتيالات ومحاولات اغتيال تراجع الغالبية المطلقة من الشبيحة عما كانوا يقومون به، في حين أصرّ عدد منهم على الاستمرار فلم يسلموا من أيدي الجيش الحر. أدى التراجع الكبير لأعداد الشبيحة إلى تأمين نوع من الحرية للمتظاهرين

الذين أخذوا يخرجون بمظاهرات لم يجرؤ أحد على الاقتراب منها حتى وصول قوات الأمن، في حين كانت بالكاد تدوم المظاهرة لدقيقة واحدة قبل أن يهاجمها الشبيحة الموجودون في الحي الذي خرجت منه.

مع انتهاء ذلك الشتاء والاقتراب من فصل الربيع، أخذت مظاهرات حلب زخما جديدا، وخصوصاً مع التشييعات التي بدأت تخرج بعد سقوط الشهداء في المظاهرات السلمية مثل عمر حاوي وأنس أبيض وغيرهم، إلا أننا كنا نعرف أن حلب لديها شيء أكبر لتقدمه للثورة، ويبدو أن الأمور بدأت تسير للأفضل رغم المد والجزر الذي كان يشهده حراكها مع كل جمعة. مترافقا بحراك يومي في جامعة حلب لم تستطع قوات الأمن أن تقف في طريقه بفعل سلميته المطلقة وتنظيمه الدقيق، وأذكر أن عدد المظاهرات في جامعة حلب فقط في الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني بلغ سبع مظاهرات. كان ذات اليوم الذي شهدت حلب فيه عاصفة ثلجية أدت إلى انقطاع الطرقات وتأجيل الامتحانات في كليات الجامعة كلها، فاستغل الطلاب تلك الفرصة للتظاهر. كانت تتركز المظاهرات في جامعة حلب في كليتي العلوم والهندسة الكهربائية قبل أن تنتشر إلى كليات الجامعة كافة بشكل حمل الكثير من أهالي حلب على تغيير نظرتهم للثورة التي شوهها النظام وغير النظام. شاهد السكان بأعينهم الحراك السلمي وشجاعة الطلاب وإبداعاتهم في الهتافات واللافتات.

كانت الجامعة أفضل ما قدمت حلب للثورة على الإطلاق، فهي التي قدمت أولى مظاهرات الحرية وأول معتقليها وأول شهدائها. تميز كذلك الحراك في الجامعة بأنه كان يضم خليطا من المتظاهرين يمثل تقريبا المدن الثائرة في البلد كافة. ففي مظاهرات الجامعة خرج أبناء درعا وحمص وحماة وإدلب وحلب ودير الزور جنبا إلى جنب، خرج فيها العربي بجانب الكردي والمسلم بجانب المسيحي، وطلاب الهندسة برفقة طلاب العلوم وطلاب الآداب وطلاب الطب والصيدلة والحقوق والاقتصاد. كانت جامعة حلب ترسم الثورة في أبهى حللها وأجمل صورها، وأصبح كوننا طلابا فيها تلك الفترة مدعاة للفخر، رغم أني لم أشارك في مظاهراتها، إلا في تلك المظاهرة التي خرجت أمام المكتبة المركزية قبل سنة.

هذه ثورتي

تماماً في الساعة الثالثة من صباح التاسع من شباط لعام 2012، وفي وقت أصبحت فيه الثورة السورية تحتل المركز الأول بين المواضيع التي تؤرّق هذا العالم. انتهيت من قراءة رواية سمرقند، وبدأت أولى كلمات هذه القصة. سمرقند ولسبب ما كانت الرواية الأكثر إلهاماً لي من بين الروايات التي قرأتها. فمنذ قراءة الصفحة الأولى منها ومتابعة أحداثها الساحرة، أدركت أنه قد حان وقت العمل الذي ترددت كثيراً بالبدء به، وهو أن أكتب قصةً تلخّص الثورة السورية كما شاهدتْه عيناي وسمعتْه أذناي.

نصحني بقراءة سمرقند قبل الإفراج عني من سجن حلب المركزي رجل يدعى أبو أحمد، لا أذكر اسمه، لكنه تاجر حلبي من عائلة قنواتي كان رئيس الغرفة التي أنزل بها. بعد نقاش حول الثورة ومسارها ومستقبلها وجدواها، والحديث المطوّل حول الروايات والكتب التي قرأناها.

لا أعلم على وجه التحديد فيما إذا كان أبو أحمد قد نصحني بقراءتها لمجرد أنّها أعجبته يوماً ما، أم إن هناك هدفاً قصده، وهو الإلهام الذي يمكن أن تقدمه الرواية لشخص مثلي يريد أن يفعل شيئاً، لكنه يشعر بعدم جدواه. ولا أعلم أيضاً أن كانت تلك الرواية قدمت لي الإلهام المطلوب للبدء بالكتابة الجدية، أم إن هذا ما كان سيحدث لو أنني أنهيت، ذلك الوقت، أيّ رواية أخرى، قد تكون مثل قطرة تفيض كأساً؟!

المهم الآن أني قد بدأت، بل انتهيت في حال كنتم تقرؤونها الآن، وإن لم يكن ذلك فستكون خيبة كبيرة لي. بالتأكيد لن يشعر بها سواي بعد أن أضغط على زريّ shift وdel معاً.

الهدف الأول من هذه القصة هو معرفتي أن هذه الثورة أصبحت بحاجة إلى مئات الكتب التي تتحدث عنها، وإلى عشرات الأفلام الوثائقية والتاريخية لتقدمها إلى العالم كما يجب أن تقدم، دون تدخل من أصحاب المذاهب السياسية والفكرية والأهواء الدينية في تصويرها. ودون أن ندع المنتصر

يكتبها حسبما يشاء، كما كان يجري عبر آلاف السنين من التاريخ الذي نعرفه اليوم. أردت أن يعرف كل متابع لهذه الثورة بعض التفاصيل الصغيرة التي عشناها، كي يضعها مع الأحداث العامة المعروفة خلال مجريات الثورة، ليتكوّن لديه جزء أكبر من الصورة التي يستحيل أن يراها أيّ شخص كاملة بنسبة مئة بالمئة.

لديّ رغبة كبيرة في أن أكون كاتباً للرواية وبطلاً من أبطالها كما حلمت دائماً. كانت الثورة بالنسبة لي أفضل ما يمكن أن أكتب عنه، وأفضل فرصة يمكن أن أستغلها.

أن يقدم أحدهم هذه الثورة في كتاب أو في فلم بشكل كامل يقترب من المستحيل، لكنني سأحاول أن أقدم لكم ثورة حلب والجزء الذي عشته منها، وأترك المهمة لأشخاص غيري عاشوا أحداثا غير التي عشتها، ليقدموها للناس لتكتمل باقي أجزاء الصورة ويعرف العالم ما مر على السوريين في تلك الفترة، ويعرف جيدا ما سببه وقوفهم كمتفرجين، مما جعلنا نعيد حسابنا بموقفنا من العالم الذي أردنا أن نستعيد عبر هذه الثورة إنسانيتنا، لكي نشاركه مشاكله الكبرى وإنتاجه الإنساني وتقدمه الحضاري، دون أن نرى أن هذا العالم يبادلنا ذات الرغبة. أردت أن يوثّق كل شخص ما جرى في هذا البلد من أحداث حتى لو انتهينا إلى ثلاثة وعشرين مليون كتاب. أردت أن يكتب كل من يستطيع الكتابة، وأن ينظم الشعر كل من له شيطانه، وأن يرسم كل من يستطيع الرسم، وأن يصور من يستطيع التصوير، وأن يغني كل من يستطيع الغناء، وأن يلحن كل من يستطيع التلحين، ويحكي كل من يستطيع الكلام.

أن أكون كاتبا هو الأمر الذي طالما حلمت به رغم أنه كان أمرا في غاية الصعوبة بالنسبة إلى شخص لم ينشأ في وسط يساعده على ذلك ولم يحظ بدراسة أدبية، وكل ما يعرفه عن تأليف كتاب هو الروايات التي قرأها، ومحاولة تقليد كتابها. عندما قررت أن الوقت قد حان للمحاولة وللبدء بأول قصة ستحدد بنسبة كبيرة فيما إذا كنت خلقت لأقوم بهذا العمل أم لا، لم يكن أمامي أفضل وأهم من الثورة السورية لأكتب عنها. لكوني لن أحتاج إلى خيالي بقدر ما سأحتاج لذاكرتي المليئة بالأحداث المثيرة والقصص الفريدة التي عشتها كما عاشها أي سوري في تلك الفترة. وأتوقع أن ما كان يجري في سورية لن

تستطيع مخيلة أي كاتب من عظماء الكتاب في العالم الخروج به بالطريقة التي أخرجها إجرام النظام وإصرار الشعب وتآمر وصمت دول العالم.

مسألة كتابة قصة تروي أحداث الثورة السورية كان أحد مخططاتي غير الواضحة المعالم منذ وقت طويل. فمن جهة لم أكن أعرف الوقت المحدد للبدء بذلك، فالأحداث تتطور يومياً، وقد يبدو مع مرور الوقت كل ما كتبته عديم الأهمية مقارنة بالأحداث الجديدة. ومن جهة أخرى كنت في حيرة من الطريقة التي سأروي بها أحداث القصة. هل سأقوم بتوثيق ما جرى معي من أحداث خلال الثورة السورية دون أن أزيد أو أنقص شيئاً، ودون أن أضمِّن القصة أحداثاً متخيلة؟ هل سأستمد أحداثها وأبطالها من وحي الثورة وأرسم شخصيات بحسب ما يتطلبه الفن الروائي؟!

ومع خياري الأول كنت أمام معضلة تتمثل بالأشخاص الذين يمكن أن أؤذيهم، فهم لا يزالون في المتناول لذلك كان علي أن أغير الأسماء وأخفي الأماكن وأغير بعض التواريخ.

بدأت هذه القصة وألغيت الفكرة أكثر من مرة إلا أني عدت إلى الكتابة من جديد. كان هناك فترات انقطاع طويلة وقصيرة عن الكتابة أيام الامتحانات وفي الأيام التي كنا نعيش فيها بدون التيار الكهربائي، إلا أني أنهيتها والحمد لله وهذا ما أنا متأكد منه الآن أثناء كتابة هذه الأسطر، ولكونكم تقرؤونها الآن كما ذكرت مسبقا.

اغتيالات

في صباح الثامن من نيسان لذلك العام استيقظنا على وقع الخبر الصاعق وغير المفاجئ للأسف. والد صديقنا زيد العميد أيمن في الجيش السوري اغتيل وهو في الطريق إلى عمله في مطار تفتناز. كان عليّ أن أتوجه فوراً إلى المستشفى العسكري في حي الموكامبو لحضور التشييع، وتعزية زيد قبل ذهابهم إلى قريتهم. توجهت بالفعل باتجاه المستشفى العسكري حيث كان ينتظرني هناك ماهر وأبو عدنان. على الطريق بدأت ألملم بعض الأفكار والذكريات المتصلة بهذا الموضوع. فوالد زيد تم اغتياله غالباً من عناصر الجيش الحر الذين بدؤوا بالضرب في مختلف المناطق، بعد الاستخدام المكثف للطيران المروحي بالقصف، واغتيال مثل هذه الشخصية سيشكل ضربة موجعة وانتقاماً قاسياً.

عدت بأفكاري إلى زيد الذي يشكل أحد أفراد الشلة التي كان أفرادها معارضين للنظام، ومتعاطفين جداً مع مسلحي الجيش الحر. تذكرت كلام زيد الذي طالما حذرنا من الإقدام في مشروع الثورة ضد النظام، لا حبا به بل لأن الفاتورة ستكون أكبر من أن يتحملها أحد. كان زيد يعرف مستوى إجرام النظام بحيث ستؤدي هذه الثورة إلى تدمير كل شبر من البلد، وضرر سيلحق بكل فرد من أفراد الشعب. هذا إذا لم تود بنا إلى حرب عالمية ثالثة.

وصلت إلى باب المستشفى العسكري حيث وجدت ماهراً. دخلنا إلى الساحة التي كانت تجري فيها التحضيرات لتشييع والد زيد. وجدته وشقيقه يقفان في الساحة، وعيونهما تقول الكثير مما أعرفه ولا أعرفه. لم أحب يوما هذه المواقف التي تكون كبيرة على أي كلام يقال أو عبارة تذكر. اكتفيت بمعانقة زيد وعبارة "البقية بحياتك" والوقوف بجانبه هو وشقيقه بانتظار أن تتم مراسم التشيع. كان هناك بعض أقرباء الفقيد وأصدقائه من الضباط. عانق أحدهم زيد وواساه بأن والده شهيد الوطن والواجب، واتجه نحوي مواسياً ومعانقاً ظناً منه أني شقيق زيد.

بعد وصول العديد من أرفع الضباط منهم أديب سلامة رئيس فرع المخابرات الجوية في حلب، بدأ التشيع لوالد زيد إضافة إلى رقيب ونقيب قُتلا في حادث آخر. كاميرا التلفزيون السوري وقناة الدنيا كانتا حاضرتين لتسجيل المراسم كالعادة. لم يستغرق التشيع سوى دقائق ليبدأ بعده عدد من أصدقاء الفقيد بمواساة ولديه قبل أن تبدأ المقابلات التلفزيونية. رفض كل من زيد وأخويه الحديث لوسائل الإعلام، بينما تولى ذلك الشخص الذي ظن أني ابن الفقيد بالتحدث على أنه قريبه، وراح يتحدث على أن الشهيد فداء للوطن وقائد الوطن، وعلى أنهم جنود الأسد، كما يتحدث دائماً أولئك المتملقون الذين عرفناهم وشاهدناهم على قنوات النظام. تحدث بعد ذلك شخص يرتدي لباس رجل دين بنفس الطريقة. كان زيد وأخوه يحضّرون أنفسهم للذهاب مع جثمان والدهم إلى قريتهم.

خرجنا أنا وماهر وأبو عدنان خارج المستشفى وكلنا أسف على ما جرى. توقع ماهر أن يكون النظام وراء تلك العملية بعد توقع انشقاق والد زيد عن النظام بعد انشقاقات قام بها عدة ضباط في تلك الفترة. إلا أني رفضت ذلك بشدة وأكدت أن الأمر واضح ولا داعي لكثرة التأويلات. قطع علينا ذلك النقاش القصير أبو عدنان وطلب منا التوجه معه لعزاء مهنا أحد أصدقائنا بوفاة شقيقه في ريف حلب. في التفاصيل كان حسن شقيق مهنا قد اختفى قبل يومين ووجد مقتولا بالقرب من القرية والتوقعات كلها تشير إلى عناصر الأمن أو الشبيحة، لكون حسن ذو نشاط ثوري متقدم جدا، حيث كان ينظّم ويشارك في أولى المظاهرات في مدينة حلب، ويحضّر في ذلك الوقت لتشكيل نواة للجيش الحر في حلب.

وصلنا إلى قرية مهنا بعد حوالي نصف ساعة لنجد مصعب وأهله بانتظار أن يصل فقيدهم. لم أتوقع أنهم لم يدفنوه قبل وصولنا وظننت أننا سنذهب إلى خيمة عزاء. جلسنا مع والد الفقيد وأعمامه وإخوته الذين بدوا صابرين ومحتسبين ومسلّمين بقضاء الله وقدره.

بعد حوالي نصف ساعة وصل الفقيد الذي أدخلت جثته لتغسليها وتكفنينها. طلب منا مهنا أن نحضر عملية التغسيل و التكفين لنشاهد بأعيننا كيف مات شقيقه. داخل الغرفة كان حسن مستلقيا على المغسل وتبدو عليه

آثار تعذيب وحشي على كل أجزاء جسده. كانت أطرافه وأجزاء أخرى متفحمة بالكامل لكثرة ما تعرض من تعذيب بواسطة الكهرباء وغيرها. رأيت ذلك المشهد كثيراً على اليوتيوب وعلى شاشات التلفزة، إلا أني وأنا أنظر إليه بدأت أفكر بالليلة التي قضاها قبل أن يموت. ترى كيف يمكن لإنسان أن يفعل هذا بإنسان آخر. يبدو من كان يقوم بذلك متلذذا ومهووسا بما يفعل، حيث كانت آثار التعذيب واضحة على جبينه وصدره وظهره المتفحم وقدميه المحروقتين.

بكى والد حسن ذو السبعين عاماً على ولده واحتسبه شهيداً، وطلب منا أن نصوره ونعرض كيف مات ولده أمام الناس. لكن مهنا رفض ذلك كون أخوه موظف، ولا يريد أن يحرم أولاده من الراتب الذي يمكن أن يحصلوا عليه. خرجت إلى أرض الدار بينما دخل بعدنا الكثير من الأقارب والأصدقاء ليودعوا الفقيد. كان أطفال حسن يلعبون بالقرب منا دون أن يلقوا بالا لما يجري حولهم. بعد قليل خرج الجثمان محمولا على الأكتاف إلى مقبرة البلدة القريبة. كان الشقيق الأصغر يصرخ "لا اله إلا الله والشهيد حبيب الله" والكل يردد خلفه.

تمت مراسم الدفن. وفيما الجو يشغله صمت كثيف، كان داخلي يضج بصخب عنيف. فما حضرته اليوم وفي أقل من ساعة بحاجة إلى سنوات لنفهمه أنا وباقي أفراد الشعب. فكيف وصلت بنا الأرض إلى ذلك الموقف دون أن تتوقف عن الدوران على الأقل، ودون أن تقوم الساعة رغم أنني ظننتها ستقوم تلك اللحظة. هي ساعة واحدة ومكانان في هذا العالم. هنا شهيد وهناك شهيد، هنا يبكون فقيدهم وهناك يبكون، هنا قالوا لي المجرمون قتلوا شهيدنا، وهناك قالوا قتله المجرمون، هنا لم أبك وهناك لم أبك، فدموعنا جفت منذ زمن بعيد ولو عرفنا ما سيجري تلك الساعة لوفرناها وما ذرفناها بذلك الثمن البخس. ربي أعلم أنك ستجازي من كان السبب و كل ما أرجوه ألا أكون أنا السبب.

أما ما أعرفه الآن أن زيد ومهنا كانوا أعز الأصدقاء قبل ذلك اليوم ولازالوا كذلك بعده، رغم أنهم فقدوا أحباءهم في وقت واحد، وكل منهما كان يقف على طرف من طرفي هاوية يبدو أن الكثير سيقع فيها في الأيام القادمة.

* * *

مع ساعات الصباح الأولى من يوم الثامن من شهر أيار عندما وضعت رأسي للنوم سمعت صوت إطلاق رصاص قريب. لم أتحرك من مكاني، إلا أن عمليات الاغتيال المتكررة في ذلك الوقت دعتني أخمن أن الأمر لن يكون أكثر من ذلك. فكرت في عمي أحمد إلا أن وقت ذهابه إلى الدوام مازال باكرا ولا يمكن أن يحصل معه شيء من الذي يخطر في بالي.

بعد ساعات قليلة من النوم أيقظتني أمي لسبب طارئ. يبدو أن الأمر يتعلق بعمي مرة أخرى، فحسب ما قالت أن أحدهم اتصل بأبي الذي كان يتحضر للذهاب إلى العمل، وأخبره أن عمي في المستشفى العسكري، ويبدو أن الأمر غاية في الخطورة. أول ما تبادر إلى ذهني هو صوت إطلاق الرصاص الذي سمعته قبل النوم. توقعت هذه المرة أن الأخبار ستكون صادمة ومفجعة، وأن عمي لن ينجوا من إطلاق الرصاص بتلك الطريقة. توجهت مسرعا إلى المستشفى العسكري. حاولت الاتصال بأبي أكثر من مرة دون أي جواب. تحدثت إلى ابنه زكريا لأستفهم منه، فبدت عليه الصدمة لأنه لم يكن يعرف أي شيء عن الموضوع حتى ذلك الوقت. بعد عدة محاولات أجاب والدي على الاتصال، وأخبرني أن عمي بخير بعد أن تم تفجير السيارة التي كانوا يستقلونها بواسطة عبوة ناسفة. شعرت بالراحة لمعرفة أننا لم نفقده كما شعرت بالراحة عندما رأيته بعد عملية الاختطاف التي جرت قبل أشهر.

عند وصولي إلى المستشفى رفض الحراس على الباب إدخالي، رغم أني شرحت لهم وضعي. بعد قليل وصل أحد الأقارب الذي سمح له بالدخول بعد أن تحدث معهم ببعض الكلمات المفتاحية، والتي لم أكن ممن يتقنوها. دخلت معه وتوجهنا مسرعين إلى الغرفة التي يوجد فيها عمي. أول منظر شاهدته هو عمي والدماء والجروح تملأ وجهه وجسمه. رغم أن الجروح كانت سطحية، إلا أنها كانت كثيرة جدا. كانت عينه شديد الحمرة بفعل ذلك الإنفجار، ولم يبد على عمي أنه استفاق بعد من الصدمة، لكن لم يبد أن هناك أي خطورة على حياته. كان هناك ضابط آخر في الغرفة وقد غطى إحدى عينيه شاش أبيض. قام طبيب بفحص أذنيه خشية أن يكون غشاء الطبل قد ثُقب نتيجة الانفجار. بعد قليل بدأ الأقارب يصلون إلى المستشفى بأعداد كبيرة كما هي العادة لدى أبناء الريف، فلا يجوز أن يبقى أحد في

القرية دون أن يطمئن على المريض بنفسه. خرجت من المستشفى بعد أن شعرت أنه لا يوجد فيه إلا أقاربنا.

توجهت إلى ماهر وشرحت له تفاصيل ما جرى، فأبدى دهشته وتعاطفه مع زكريا وانزعاجه من هذا التفجير. قلت له: إن مثل تلك الأمور متوقعة وأن على من ينادي باسم الجيش الحر ألا يتذمر من تلك الحوادث، فإذا لم يتم استهداف الجيش السوري فمن الذي يجب استهدافه؟ إلا إذا كنا نريد أن يوقف الجيش الحر السيارة، ويطلب من الذين لم يتدخلوا ضد الثورة أن يرفعوا أيديهم ليخرجوا من السيارة قبل تفجيرها.

كانت هذه العملية وغيرها من عمليات الجيش الحر التي تستهدف الجيش السوري محل نقاش مطول، فمن جهة كانت غالبية المناطق تُقصف بواسطة الطيران الحربي التابع للجيش السوري، وبالتالي كل من يعمل بالجيش السوري هو مذنب من وجهة نظر عسكرية ويجب عليه حالا ترك النظام، وإلا فعليه أن يتحمل وزر الأبرياء الذين يسقطون يوميا أمام الشعب وأمام الله، وأن يتوقع بأي لحظة التعرض لضربات الجيش الحر التي كانت تزداد قوةً وعددا. ومن جهة أخرى فإن جميعنا يعرف أن العدد الأكبر من ضباط وجنود الجيش السوري لا يوافقون على ما يقوم به الجيش، والكل كان يتحرك تحت التهديد تقريبا، فالنظام كان ينتقم من كل ضابط ينشق عن النظام بإعدامه فورا في حال وقع في يده، وبالانتقام من أقاربه ومن كل ممتلكاته. فجرت عمليات اعتقال كثيرة لأقارب الضباط المنشقين، إضافة إلى حرق بيوت ومصادرة الكثير من أملاك الضباط وخصوصاً الذين قاموا بالانشقاق في وقت مبكر.

الفتنة الكبرى في هذا البلد كان يعيشها أفراد الجيش السوري، فالخوف كان كبيرا جدا من نظام لا يرحم من يِشك في أمره، فكثيراً هم الجنود والضباط الذين تم اعتقالهم وتعذيبهم لمجرد شك بسيط، بالإضافة إلى الإعدامات الميدانية التي كانت تجري أمام الضباط والجنود لكل من يحاول الانشقاق. ولا ننسى مواجهة العديد من الراغبين في الانشقاق مسألة الوجهة التي يجب أن يذهبوا إليها في حال هروبهم، وخصوصاً في المناطق البعيدة عن الحدود، لاسيما إذا عرفنا أن أول ما تبحث عنه حواجز النظام المنتشرة في كل شوارع

البلد هم المطلوبون للنظام وعلى رأسهم العسكريين منهم. كما كان هناك العديد من الجنود الذين كانوا في مواقع لا تسبب أي ضرر للشعب أو الثورة، فآثروا البقاء في أماكنهم لأنهم لن يساعدوا النظام من خلال مواقعهم، وسيتجنبون وحشيته في حال الفرار من الخدمة. ويجب أن لا ننسى كذلك أن الجيش السوري كان مليئا بالعناصر التي تتعامل مع الثوار بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فالمعلومات عن تحركات الجيش وخططه كانت كلها تأتي عبر ضباطه، وكثيراً ما شهدنا طيارين يقومون بقصف مواقع فارغة لا يتواجد فيها أي تجمع سكاني لتجنب إجرام النظام والضرر بالمدنيين في آن واحد.

ربيع حلب

حلب في ذلك الربيع من عام 2012 كانت على موعد مع ربيع حقيقي، إلا أنه كان كالعادة متأخرا عما يجري في المدن الأخرى، التي بدأ صوت الرصاص يعلو فيها شيئاً فشيئاً والمجازر تنتقل من مدينة إلى أخرى، واستخدام النظام للمدفعية والدبابات وراجمات الصواريخ أصبح يجذب الإعلام له، مما غطى قليلا على ذلك التغيير في مدينة حلب والتي بدأت تولد من جديد. بدأت أشعر أن الوقت قد حان لأشارك في ذلك الحراك، لا لأنه كان ينقصه شخص مثلي، بل لأن شخص مثلي كان ينقصه المشاركة فيه. فمنذ الآن لن تقف المظاهرات على عدد قليل من المتظاهرين، وستقدر الأعداد بالمئات ومن ثم بالآلاف، ولن يهم غياب أو حضور الأفراد، كما أني كنت أريد أن أضيف المزيد من الأحداث لهذه القصة، بعد أن شعرت بأنها ستصبح مملة إذا زادت فترة الانقطاع تلك.

في تشييع الشهيد أنس أبيض حدثني مطولا صديقي ملهم عكيدي عن تفاصيله وعن الحماس الكبير فيه، وكذلك وصف توفيق لذلك التشييع الذي مر أمام منزله فقام بتصويره من الشرفة وبثه على شبكات الإنترنت، ضاربا عرض الحائط المخاطر التي كانت تترتب على ذلك العمل، ليكون ذلك التشيع أول مظاهرة في حلب تصور من الأعلى وبذلك الوضوح. هذا أحد التعليقات التي قرأتها على المشهد في صفحات الانترنت.

قررت أنني يجب أن أشارك وألا أفوت عليّ تلك الأيام التاريخية والتي كنت أحلم بأقل منها قبل أقل من سنة. كانت الفرصة مواتية جدا لذلك في حي الإذاعة يوم السبت الرابع عشر من نيسان بعد صلاة الظهر، حين أعلن عنه موعدا لتشيع الشهيد عبد الواحد هنداوي الذي سقط برصاص قوات الأمن في حي المشهد في الجمعة التي أطلق عليها اسم "ثورة لكل السوريين".

اتفقت مع توفيق على اللقاء أمام منزله لكونه قريبا من مكان التشييع. كان المزاج عاليا جدا والطقس ربيعيا لطيفا ويبدو أنه سيكون يوما رائعا.

التقيت مع توفيق وعلى الفور توجهنا إلى مكان التشييع أمام منزل الشهيد في ساحة قريبة جدا من كورنيش الإذاعة، بالقرب من مدرسة بسام العمر التي أطلق عليها لاحقا اسم الشهيد عبد الواحد. على الطريق التقيت صاحب الوجه الحزين الذي رأيته في زنزانة المنفردة في الأمن العسكري، ويبدو أن ذلك الحزن كان طبيعيا ولم يكتسبه خلال ساعات وجوده في السجن. صرخت له عاليا "خالد!" فالتفت فورا. كان خالد الذي طالما تمنيت مشاهدته مرة أخرى لأسأله عن الوجهة التي ذهب إليها بعد افتراقنا ساعة خروجنا من كوكب القرود. أخبرني أنهم نقلوه إلى الشام، وأنه بقي في فروعها اثنين وسبعين يوماً حتى أطلق سراحه. سألته "ما تربيت لسّه؟" فأجاب "بس تتربى أنت أنا بتربى" ضحكنا كلنا وتابعنا مسيرنا نحو التشييع. كان ذلك اللقاء تأكيدا جديدا لي على أن هذا النظام قد يستطيع تكسير رؤوسنا وعظامنا، إلا أنه لن يستطيع تكسير عزيمتنا وإصرارنا.

عندما وصلنا إلى منزل الشهيد وجدنا حشدا كبيرا من الناس يبدو غالبيتهم من طلاب الجامعة، وسيارة إسعاف وإذاعة يُقرأ فيها بعض آيات من القرآن أمام خيمة كبيرة للعزاء. في الأجواء كانت هناك طائرة حربية تحلق على علو منخفض فوق مكان التشييع تماماً، ولا أظن أن المرء يحتاج كثيراً لفهم رسالة النظام المبتذلة والحقيرة. في البداية لم أسمع أي هتاف يوحي بانطلاق مظاهرة في التشييع، لكن ما هي إلا لحظات حتى بدأت التكبيرات والهتافات للشهيد ولأبيه وأمه. رافق ذلك ازدياد كبير في أعداد المشاركين. رغم الحزن على الشهيد والتعاطف الكبير مع أهله، إلا أن ما يجري كان فوق الوصف. عبد الواحد مات لينضم إلى قافلة الشهداء. إلى أولئك الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فاحترقوا ليضيئوا الطريق أمامنا، وواجبنا الآن أن نتابع ما بدؤوه وألا نتراجع أمام مصلحة أو خوف فيضيع دمهم هباءً منثوراً.

بعد قليل خرج الشباب من مدخل البناء حاملين جثمان عبد الواحد فازداد هدير الهتافات وتجمّع المشيعون، وارتفع بنا الحماس إلى درجة غير مسبوقة، وهبت نسائم الحرية لتلف المكان فتوحدنا كإخوة للشهيد، نحمل على عاتقنا نهجه كما نحمل على أكتافنا جثمانه. نقلت الشهيد الأكف لوقت قصير في الساحة المقابلة لمنزله، هتفنا أثناءها بكل عبارات التمجيد للشهيد وهتافات

الثورة التي طالما استمتعنا بها على مواقع الإنترنت وقنوات التلفزة، دون أن نهتف بأي هتاف ضد رأس النظام وإسقاطه، ويبدو أن كل ذلك قد تُرك إلى ما بعد الانتهاء من الدفن. بعد أن ودع سكان الحي جارهم، وألقت جدران وشوارع وأرصفة الحارة نظرة الوداع الأخيرة على الشاب الذي طالما لعب وكبر بينها توجهت الحشود حاملةً الشهيد إلى جامع الرشيد، الذي يطل على مدينة حلب من فوق جبل الإذاعة للصلاة عليه والتوجه به إلى مثواه الأخير.

كان المؤذن يرفع أذان الظهر عند وصولنا إلى الجامع، وعلى الفور تحضّر الجميع ليؤدوا صلاة الظهر قبل صلاة الجنازة. وقفت على أحد الأرصفة وشاهدت المتظاهرين يملؤون الشارع أمام الجامع وهم يركعون ويسجدون لله في صلاة الظهر، بعد أن كرروا مراراً أنهم لن يركعوا إلا لله. كان المشهد مهيباً، والهدوء الذي ساد الركعات الأربع جعل المشهد سينمائيا للغاية. عرفت أنني أعيش يوما من تلك الأيام التي يظل الإنسان يذكرها إلى أن يموت. قبل انتهاء صلاة الظهر ظهر في آخر الشارع الذي كنا نقف فيه عناصر الأمن مدججين بالسلاح. طلبت من أحد المصورين أن يقوم بتصويرهم. مع انتهاء صلاة الظهر وقبل البدء بصلاة الجنازة كبّر الجميع ثلاث تكبيرات، فأجابنا أحد الرشاشات مطلقا رصاصاته في الهواء، وقذفت القنابل المسيلة للدموع باتجاه المشيعين.

لم أعرف ماذا أفعل بعد أن كدت أفقد الوعي جراء تأثير الغاز المسيل للدموع، إلا أني جريت لا إراديا في الجهة المعاكسة لوقوف عناصر الأمن وعرفت أنه حان وقت الانصراف. في تلك الثواني القصيرة دوى صوت انفجار لم أعرف تحديدا مصدره، إلا أني أظنه كان قنبلة صوتية. لكن ما لم أتوقعه أبدا أن عددا كبيرا من الشباب كان يجري في الاتجاه المعاكس، أي في اتجاه قوات الأمن حاملين بأيديهم الحجارة بعد أن جرّوا حاويات القمامة لقطع الطريق. بدأت أتمالك نفسي في الشارع المؤدي إلى بيت الشهيد حيث لا يمكن للرصاص أن يطالني. رأيت أهل الحارة يحيوننا من الشرفات ويرمون لنا المياه وعلب الكولا والبصل للتخلص من آثار الغاز المسيل للدموع، بينما كانت الزغاريد تنطلق من البيوت. بالتأكيد لم أعش مثل هذا المشهد خلال سنة من انطلاق الثورة، بعد أن خاف الأهالي المظاهرات وكأنها طاعون متنقل، وقام الكثير بمهاجمة المتظاهرين وضربهم وتسليمهم للأمن. وفي إحدى المرات

رميت من الشرفات الملاعق والصحون على المتظاهرين. سبحان مغير الأحوال. بالتأكيد دم الشهيد هو من أحدث الفرق هنا وفي المدن الأخرى.

قررت أن أعود لأشاهد ما يجري بعد أن شجعني عدم هروب المتظاهرين الذين ملأهم الحماس وأعمتهم الشجاعة وقرروا المواجهة. رأيت بعض الشبان يرمون المسامير الثاقبة لإطارات السيارات في الشوارع، وآخرين يقطعون الطريق بالحجارة، وأحدهم كان يحرق إطاراً ويضعه في منتصف الطريق. صوت الرصاص المنطلق كان يوحي بأن جبهة فد فُتحت وبأن أكثر من عشرة رشاشات كلاشنكوف يتم استخدامها. على كورنيش الإذاعة حيث يتقاطع الشارع المؤدي إلى بيت الشهيد والشارع الذي كانت تجري فيه المعركة بين الرصاص والهتافات، بين قوات الأمن والمتظاهرين، بين الحق والباطل. رأيت عددا من الأشخاص يحملون شابا مضرجا بدمائه، ويصرخون بصوت عالٍ "شهيد شهيد" بدأت أراقب الموقف وكأني شخص غير مرئي لأحد، فلم أحاول التدخل بما يجري، بل وقفت متفرجا على مشهد بالعرض البطيء وأنا أتذكر أن ذات المشاهد كنت أراها على اليوتيوب تأتينا من حمص وغيرها. بعد أن توالى ذلك المشهد حيث يركض الشباب حاملين صديقهم المضرج بالدماء، رأيت أحد الشباب يقف أمام منزل الشهيد عبد الواحد ويصرخ لأمه ليخبرها أن أربعة سقطوا على نفس النهج الذي سقط عبد الواحد في سبيله، وأضاف أننا كلنا أبناؤها.

لم أشعر بغرابة فيما أشاهده وكأن تلك المشاهد قد عشتها كثيراً، كما لم أشعر بتلك الغرابة يوم وقفت في تشييع حسن ووالد زيد. لا أعرف فيما إذا كنت قد عشت مع مقاطع اليوتيوب وكأنها حقيقة، أم أني كنت أعيش ذلك المشهد الحقيقي وكأنه مقطع على اليوتيوب.

أحد الشباب الذين عرفتهم بسبب وجهه المألوف في حارتي سلّم علي في وسط تلك المعركة، وطلب مني أن أبقي علم الاستقلال بحوزتي لأنه يريد الذهاب إلى خط المواجهة. لم أجب بأي كلمة بل حملت العلم ووضعته على كتفي. مرت أكثر من نصف ساعة دون أن ينجح الأمن باقتحام المكان بعد أن سقط العديد من الشهداء، وعرف أن استمراره بتلك الطريقة سيؤدي إلى حلب مختلفة في اليوم التالي. حاولت الاتصال بتوفيق لأطمئن عليه فأجابني

بأنه ذهب مع أحد المصابين إلى المستشفى ليتم علاجه. أمام بيت الشهيد ورغم المجزرة التي جرت كانت المظاهرة مستمرة. شاركت مع المتظاهرين، وسمعت أحدهم يتكلم عبر مكبر الصوت بأن الجيش الحر قد وصل لحماية المظاهرة، وعلينا الابتعاد عن خط المواجهة. قيل لي لاحقاً أن عناصر الأمن ابتعدوا عن المكان لدى سماعهم بقدوم الجيش الحر الذي لم يأتِ أصلا، واستدعوا المزيد من التعزيزات.

بدأت أفكر بكيفية الخروج من المنطقة التي ظننتها محاصرة بعناصر الأمن، وخصوصاً بعد أن عرفت أن توفيق الخبير بالمنطقة قد ذهب، وبعد أن اتصل أهلي كثيراً دون أن أجيب على الهاتف توقعت أن يكونوا عرفوا مكاني من وسائل الإعلام، ويجب علي الانسحاب وتحضير كذبة مقنعة وإلا يجب الاستعداد للمواجهة. بالإضافة إلى أني كنت خائفا جدا من تكرار مأساة الاعتقال، وخصوصاً أن بحوزتي علم الاستقلال الذي كنت أتمنى الحصول عليه منذ زمن. طويت العلم الذي لازلت أحتفظ به حتى ساعة كتابه هذه السطور، ووضعته في جيبي وبدأت أسير باتجاه سيف الدولة خائفا من أن يتم اعتقالي بأي لحظة. شعرت براحة كبيرة لدى وصولي إلى شارع سيف الدولة الرئيسي المزدحم بالناس، ولاحظت وقتها أن تعزيزات مسلحة من عناصر الأمن تتجه إلى مكان المظاهرة فتوقعت الأسوأ وخشيت على الشباب في المظاهرة. أحد الواقفين على الرصيف علّق لدى رؤيته التعزيزات منطلقة بسرعة "رايحين عالجولان يا ولاد الكلب"

فرحتي بذلك اليوم لن تصفها الكلمات، فها هو ما حلمت به طوال العام الماضي أعيشه حقيقة، وبالتأكيد لن يقتصر الأمر على ذلك اليوم، ويبدو أننا سنعيش أياما تفوق حتى ما حلمنا به في الأيام القادمة. في وسط ذلك العرس كان يقابلني كل دقيقة وجه أعرفه من الأصدقاء، أعانقهم وأشد على أيديهم كما يشدون على يدي، وتملؤني الثقة حينما أذكر أن أكثرهم كانوا من المؤيدين للنظام، وقد كسبناهم إلى صفنا بسبب إصرارنا وثباتنا، أو بسبب حماقة النظام، أو للسببين معا. كسبنا كذلك تعاطف أهالي الحي بعد شهور قضيناها نهرب منهم قبل أن نهرب من قوات الأمن. ذلك التشييع ساهم كذلك بشكل كبير بفضح إعلام النظام أمام من كان لا يزال يصدقه من سكان المنطقة، بعد

أن خرج علينا برواية غبية كالعادة لما جرى في حي الإذاعة، وتحدث عن مسلحين هاجموا مبنى الإذاعة والتلفزيون وحاولوا السيطرة عليه.

توجهت إلى المركز ومن ثم إلى القرية بعد أن أبلغت أهلي بأني على الطريق. في المركز بدأت أتحدث عما جرى للزملاء الذين شعروا بضرورة إسكاتي بأي طريقة كوننا في مركز حكومي وصور بشار الأسد ومخبريه يملؤون المكان. في القرية أنقذني انقطاع التيار الكهربائي من استجواب قد لا أجد له الأجوبة المناسبة. انتهى ذلك اليوم بسقوط اثني عشر شهيدا واقتحام قوات الأمن لمكان التشييع والقيام بحرق خيمة العزاء وتكسير زجاج السيارات المركونة في الساحة.

وصمة عار

تميزت تلك الفترة بارتكاب شبيحة النظام مجازر بحق المدنيين، لا نعرف أي غاية عسكرية للقيام بها، إنما كانت تأتينا أخبارها دون مقدمات لتلحقها الصور التي لم يهتز لها العالم رغم أن أموراً أقل من ذلك بكثير قد هزته. أطفال بعضهم لم يتجاوز السنة ونساء ورجال وشيوخ ذبحوا بالسلاح الأبيض أو أعدموا رمياً بالرصاص أو أحرقوا. لا أريد لكم وأنتم تقرؤون هذه الكلمات أن تمروا عليه دون أن تشغلوا مخيلاتكم لتعرفوا بأنكم يوماً وما وفي لحظات انشغالكم الكثيرة بطعام أو بعمل أو بمرض، أو ربما خلال مشاهدتكم مباراة لكرة قدم أو الاستماع إلى أغنية ما، كانت هناك سكين توضع على رقبة طفل ليس له من العمر ما يكفي ليميز بين أبيه وقاتله. استمروا في وقوفكم وتخيلوا أطفالكم وأحباءكم في ذلك الموقف. هل آلمكم ذلك التفكير وتريدون رمي الكتاب جانباً؟ فلتفعلوا ولتعاملوهم كما عاملهم ما يسمى المجتمع الدولي. هل آلمتكم فكرة ذبح أبنائكم وإخوتكم؟ هل وضعتم أنفسكم مكان آبائهم وإخوانهم؟ بالتأكيد لن تستطيعوا أن تشعروا بكل ذلك لأن الجميع قتل بنفس السلاح ولم يبق أي أب أو أم ليبكوا أبناءهم.

البيضا، بانياس، الحولة، القبير، التريمسة، جديدة الفضل، داريا، النبك، أم عامود، القبتين، وغيرها من المدن والقرى التي ارتكبت فيها مثل تلك الجرائم. قد يفسر بعضهم ذلك التصرف الوحشي بالتحضير لإقامة دولة علوية عن طريق تهجير السنّة من تلك المناطق، إلا أن الكثير من هذه المجازر قد جرى في أماكن بعيدة عن حدود تلك الدولة المزعومة. وقد يرى آخرون أنه مجرد انتقام للأعداد الكبيرة من الشبيحة الذين يسقطون يومياً في المعارك. هل يريد النظام أن يدفع الثوار إلى تصرفات وحشية مماثلة بدافع الثأر أو التقليد؟ لتبدأ ماكينته الإعلامية بالتطبيل والتزمير لذلك، ويبدأ هجوم الإعلام العالمي المرهف الإحساس بشكل مفاجئ، ويظهر بعدها النظام مجرد طرف في هذا الصراع الوحشي. شخصياً لا أملك تفسيراً طبيعياً ومنطقياً يقود بعض الأفراد للتصرف

بتلك الطريقة والانتقام من أطفال لم يبلغوا السنة من العمر. وقد نكون بحاجة إلى مراجعة التاريخ لنراقب حالات مماثلة. لكن الغريب والخطير والمقزز في الأمر أن أخبار تلك المجازر وصورها لم تحركا في العالم ومنظماته، إلا بعض التعليقات الباردة من هنا وهناك وبعض القلق عند بان كي مون.

كانت وستظل تلك المجازر وصمة عار على جبين الإنسانية. إلا أننا وبعد تجاربنا مع هذه الإنسانية اتضح أنها كلها عبارة عن وصمات عار. فلماذا نستمر بلوم المجتمع الدولي وباقي المنظمات العالمية. ففي الواقع لا يقع اللوم إلا علينا نحن السوريين الذين بدأنا في الثورة، دون أن نعرف هذا العالم وقواعده وقوانينه.

* * *

مع دخول الصيف الثاني للثورة ومع ازدياد درجة الحرارة، كانت الأحداث في مدينة حلب وريفها تزداد حرارة كذلك. فلم يكن يمر يوم إلا وتتقدم فيه الثورة خطوة إلى الأمام، وبدا واضحا أن بركان حلب سينفجر في وجه النظام بعد سنة من موعده. ففي حين كانت الثورة تأخذ الشكل المسلح في غالبية المدن والمحافظات الأخرى، تربعت مدينة حلب والمدن والبلدات التابعة لها على شاشات القنوات الإخبارية بفضل مظاهراتها العارمة، والتي حافظت على خطها السلمي في موازاة الخط المسلح الذي كان يتقدم بسرعة في ريف حلب.

تواصل خروج المظاهرات الحاشدة في ريف حلب كما اعتدنا منذ فترة طويلة، إلا أننا كنا كل جمعة نشهد مدنا وبلدات جديدة تدخل على خط المظاهرات العملاقة، وبنفس الوقت تشكيل الكتائب المقاتلة تحت لواء الجيش الحر. بينما كانت مدينة حلب لا تزال تحافظ على حراكها السلمي بنسبة كاملة، فمع توالي الجِمع وتوالي التشييعات أصبح من المعتاد خروج مظاهرات عملاقة بعشرات الآلاف وفي أكثر من حي في وقت واحد.

كان أحد الأسباب التي دفعت بالحراك الثوري في حلب إلى الأمام هي قناة حلب اليوم التي نقلت أخبار حلب من مظاهرات وغيرها إلى كل الحلبيين، وخصوصاً إلى تلك الشريحة الكبيرة التي لم تكن تستخدم وسائل التواصل الاجتماعي، وكانت بعيدة عن كل أخبار الثورة وتجاذباتها التي كانت صفحات التواصل الاجتماعي مسرحا لها. فلعبت هذه القناة بعد أن نالت

ثقة كبيرة لدى المتابعين الحلبيين دور ناقل الأخبار أولاً بأول بدون رقابة النظام وتدخلاته، وخصوصاً بعد أن سئم الشارع أكاذيب إعلام النظام وروايته الغبية التي ينكرها العقل والوقائع.

ترافقت هذه التطورات مع حراك جامعة حلب الذي عجز النظام بكل وسائله عن إيقافه، رغم القسوة المفرطة التي استخدمها ضد الطلاب الذين لم يكن لديهم سوى حناجرهم ولافتاتهم وأفكارهم، التي تكشف حقيقة النظام والقائمين عليه ومدى التخلف الذي يعملون به.

ففي الثاني من أيار من ذلك العام جنّ جنون النظام بعد المظاهرات الحاشدة التي قام بها طلاب الجامعة، بالإضافة إلى قيامهم بتمزيق صور مرشحي مجلس الشعب كافة إذ كادت لا تحوي إلا الشبيحة. فقام باقتحام المدينة الجامعية بعدد كبير من قوات الأمن بعد تجدد المظاهرات المسائية فيها، محاولا القضاء على المنظمين الذين دائماً ما ردد أنهم من الطلاب القادمين من خارج مدينة حلب. قام الطلاب بمقاومة هذه الهجمة المسعورة بإقفال أبواب الوحدات السكنية والتحصّن داخلها. لم تستطع قوات الأمن فك الاعتصام داخل بعض الوحدات، فقامت بإطلاق الرصاص عشوائيا على الوحدات السكنية ما أدى إلى سقوط إصابات عديدة لكن الطلاب استمروا على موقفهم. لم أنم ذلك اليوم وأنا أسمع أصوات إطلاق النار تصل إلى منزلي حتى صباح اليوم التالي الثالث من أيار.

وصلت إلى المكان تعزيزات كبيرة وتم اقتحام الوحدات المستعصية واعتقال المئات من الطلاب وسط إطلاق نار كثيف، أدى إلى سقوط عدد كبير من الشهداء وعدد أكبر من الجرحى. وذكر الكثير ممن حضروا تلك الموقعة أن أفراداً من الشبيحة قاموا برمي طالب من شباك غرفته في الطابق الخامس ما أدى إلى استشهاده. مع انتهاء تلك المجزرة علقت إدارة الجامعة الدوام إلى أجل غير مسمى، وتم إخلاء السكن الجامعي من الطلاب وأعلن إعلام النظام كعادته عن وجود عصابات إرهابية مسلحة داخل الحرم الجامعي.

في ذلك اليوم وبعد ساعات نوم قليلة استيقظت على اتصال ماهر الذي طلب مني مغادرة المنزل على الفور. لم أعرف السبب إلا أني توقعت من كلامه أن هناك خطرا ما يحدق بنا، ويمكن أن يتم اعتقالنا بأي لحظة. لقيت ماهراً

أمام إستاد حلب الدولي حيث صعد بجانبي في سيارة والدي، وراح يحدثني عن عناصر من الأمن قاموا بالسؤال عنا لدى السوبر ماركت المجاورة.

كنا ندور بالسيارة حول المدينة الرياضية ونتحدث عما يمكن أن نقوم به بعد هذا التهديد. شاهدنا عدة فتيان يجرون مسرعين وتتبعهم سيارة شرطة يقوم أحد ركابها بإطلاق النار في الهواء من مسدس حربي، ويبدو أنهم كانوا يقمعون مظاهرة خرجت من إحدى المدارس الإعدادية في صلاح الدين تضامنا مع طلاب جامعة حلب. توجهنا إلى محل والد ماهر في صلاح الدين لنقرر ما يمكننا عمله. اتفقنا على أن نغيب عن المنزل في الفترة القادمة وفي حال محاولة اعتقال أحد منا سيكون علينا التوجه إلى تركيا في الحال. تكفّل والد ماهر لحظتها بتأمين خروجنا. توقعت أن يكون هذا السؤال روتينيا أو أنه جاء كنوع من التحري عن المظاهرات التي كانت تخرج بشكل متكرر في الجامع القريب من منازلنا.

عدنا بعد ذلك إلى متابعة أخبار الجامعة التي جاء تعليق الدوام فيها كعائق للتظاهر، إلا أن الطلاب لم يمنعهم ذلك ونظموا مظاهرات في الساحة الخارجية للجامعة. بعد أسبوع تم استئناف الدوام في الجامعة نتيجة الضغوط التي سببتها الأخبار التي تناولت تعامل قوات الأمن مع طلاب الجامعة. مع بدء الدوام عادت المظاهرات لتخرج يوميا من مختلف الكليات التي كان أبرزها كلية العلوم وكلية الهندسة الكهربائية. ذروة هذا الحراك كانت في السابع عشر من ذات الشهر عندما خرجت مظاهرة حاشدة استمرت لساعات بحضور مراقبي الأمم المتحدة الذين أحاط بهم الطلاب وقدموا لهم أسماء المعتقلين من الجامعة، بينما وقف عناصر الأمن ليتابعوا المشهد متحضرين للهجوم المعتاد بانتظار ذهاب المراقبين. لكن بعد أن استمر حضور المراقبين لوقت طويل لم يكن بإمكانهم متابعة هذا المشهد وخصوصاً بعد أن رفعت أعلام الاستقلال على الباب الرئيسي للجامعة. فقاموا بمهاجمة الطلاب وإطلاق الرصاص بالهواء لتفريقهم، ورأى المراقبون بأعينهم كيف كانت تتصرف قوات الأمن مع الطلاب، الذين التزموا بالحراك السلمي حتى آخر محاضرة من المحاضرات التي كانوا يقدمونها للعالم وللتاريخ.

في الفترة ذاتها وعلى نحو مواز للحراك الثوري في الجامعة، كانت أحياء

حلب تشهد انتفاضة كبرى تتمثل بالمظاهرات التي تخرج والعدد الكبير الذي يشارك فيها. كانت تقريباً تعم مناطق حلب كافة، إلا أن الحراك اليومي كان يتركز في صلاح الدين وبستان القصر وطريق الباب الذي أصبح اسمه حي الربيع العربي. المظاهرات أصبحت ضخمة للغاية ولم تستطع قوات الأمن تفريقها إلا بإطلاق الرصاص الحي، مما أدى إلى سقوط أعداد كبيرة من الشهداء كل أسبوع. زاد كل ذلك من النقمة على النظام وبدأت أعداد المؤيدين تتناقص بشكل متسارع بعد أن رأى الجميع بأعينهم ما لم يصدقوه طوال أكثر من سنة في المدن الأخرى. بطبيعة الحال كانت تخرج التشييعات العملاقة في الأيام التي تلي تلك المظاهرات. كان أبرزها تشييع الطفل أمير بركات في حي الكلاسة والذي سقط في جمعة "قادمون يا دمشق" يوم الخامس والعشرين من شهر أيار. خرج في تشيع الشهيد عشرات الآلاف وتوجهوا إلى ساحة سعد الله الجابري قبل أن تفرقهم قوات الأمن وكالعادة بالرصاص الحي.

الإضراب

مع توسّع المظاهرات في حلب بتلك الصورة قام بعض الناشطين بالدعوة إلى إضراب في أسواق حلب، كما كان يحدث في تلك الفترة في أسواق دمشق من إضرابات شبه كاملة في أسواق هامة تاريخيا وتجاريا. كالعادة لم نتفاءل لمثل هذه الدعوات لمعرفتنا بحال التجار والخسائر التي سيتكبدونها لدى إضرابهم، وبالطبع بعد تجربتنا مع إضراب الكرامة الذي تمت الدعوة إليه بنفس الطريقة وكان فاشلا بكل المقاييس. لكن في الحادي والثلاثين من أيار نشرت صفحات الثورة وقنوات الأخبار أخبار إضراب في حلب في أحياء مثل صلاح الدين وبستان القصر وغيرها. لم أعط هذه الأخبار أهمية كبيرة، حتى اتصل بي صديقي مصطفى ليحلف ويؤكد كالمجنون بأن هناك إضرابا شاملا في صلاح الدين. كان هذا التطور الهام في ثورة حلب مفاجأة سارة لي.

توجهت مساء ذلك اليوم إلى صلاح الدين لأشاهد بعيني ما انتظرته طويلا. كانت المحال مغلقة في صلاح الدين، بشكل لا يمكن أن أصفه بشبه الكامل لأنه كان كاملا بالفعل. كانت نسبة المشاركة مئة بالمئة. لم نخف أنا وزاهر الذي رافقني يومها فرحتنا بما نشاهد ونحن نستقل باص صلاح الدين، الذي كان ينتقل بنا من شارع إلى آخر وكأننا نسير قبل أذان الفجر. بل حتى وقت الفجر كانت تبقى الكثير من المحال فيه دون أن تغلق أبوابها. عرفت أن هناك أناساً تعمل بصمت في حلب على ما نشهده من مظاهرات غير مسبوقة وإضراب شلّ الحركة في صلاح الدين وغيرها. جن جنون قوات الأمن وهم يشاهدون ذلك المشهد. محال أبوابها مغلقة والجدران تزينها شعارات تدعو إلى الإضراب.

ولكي يكتمل ذلك اليوم المميز اتصل بنا مجد ليخبرنا أن مظاهرة "ظريفة" حسب تعبيره سوف تنطلق في حي المشهد القريب من صلاح الدين. توجهنا إلى المشهد إلى ساحة الخُضرة تحديدا، حيث ستخرج المظاهرة من جامع قريب كما أخبرنا مجد. وقفنا بانتظار صلاة العشاء ووصول باقي الأصدقاء. مجد وصل

قبل الصلاة بحوالي عشر دقائق، بينما كنا أنا وماجد واقفين أمام محل لبيع الفروج المشوي، كي لا يشك بنا أحد، ونظهر بمنظر الزبائن أمام المحل.

وبالفعل بعد صلاة العشاء بوقت قصير نبهني ماجد إلى أن المظاهرة قد بدأت في الجهة الأخرى من الساحة، واتجهت مبتعدة عن مكان وقوفنا. جرينا لنلحق بالمظاهرة كما جرى الكثير من الشباب الذين كانوا في تلك المنطقة. كانت الأعداد كبيرة جدا وهي متجهة إلى صلاح الدين، فقد كان ينضم إلينا في كل شارع العشرات بل المئات من المتظاهرين. فجأة وجدتُ في المظاهرة زكريا وماهراً وصديقاً لنا اسمه رامي من جبل الزاوية. كانت الدهشة على وجوههم أيضا، فكيف لنا أن نلتقي في المظاهرة دون أن يِعلم أحدنا باقي الشباب للذهاب معهم. سارت المظاهرة في شوارع معتمة متجهة إلى أمام منزل أحد الشهداء حيث وقف والده من الشرفة ليحيي المتظاهرين. أصوات المتظاهرين كانت ترعد في المكان وتكاد بيوت صلاح الدين تهتز من هولها. من لم يشارك في المظاهرة وقف يتفرج على هذا المشهد اليومي المعتاد وعلى وجهه سكرة، ولا أدري أطرباً أم رعباً يسكر. تابعت المظاهرة مسيرها في شوارع صلاح الدين، ووصلت الأعداد إلى تلك المرحلة التي لا تعرف فيها أين ينتهي الحشد الذي أمامك أو الحشد الذي خلفك.

بعد مسير حوالي عشر دقائق صاح بعض الشباب هناك مظاهرة قادمة من جامع بلال وهي تتجه نحو مظاهرتنا وعلينا الإسراع للالتحام معهم. بدأنا بالجري وكأننا في سباق الماراثون إلى أن وصلنا إلى الشارع المقابل لجامع صلاح الدين. في تلك اللحظة أطلق عناصر الأمن الموجودون في شارع فرعي العنان لرشاشات الكلاشنكوف في الهواء. بدأ بعض الشباب يرشقون العناصر بالحجارة دون أن يعرفوا مكانهم بالتحديد بسبب الظلام الدامس الذي كان يسود في ذلك الشارع. كان الشارع الرئيسي الذي كنا فيه يشهد حالة من الهرج والمرج والشباب كانوا يجرون في كل الاتجاهات. أضعت أصدقائي في وسط تلك الفوضى ووقفت أراقب المشهد. أُحرقت حاويات القمامة وقُطع الطريق بالحجارة.

رحت أبحث عن الوجوه التي كانت معي. وجوه مجد وماهر وزكريا وماجد ورامي. وجدتها كلها باستثناء وجه رامي. تواصل إطلاق النار لكن

هذه المرة كان أحدهم يوجه رشاشه باتجاه المتظاهرين الذين بدأ يسقط عدد منهم، فيحملهم رفاقهم بينما صرخات الله أكبر تصدح بها الحناجر. حاولنا الانسحاب أنا والأصدقاء، إلا أن قوات الأمن كانت تقريبا تحاصر المنطقة. مشينا بالشوارع الآمنة بعد أن رأينا بعض الشباب يسيرون بها. كنا نعبر من أمام الشوارع الفرعية بأقصى سرعة خشية التعرض لإطلاق النار. كان الوضع هستيريا في وسط ذلك الظلام وأصوات إطلاق النار التي لا تتوقف. كان هناك فتيات شاركن بالمظاهرة ويحاولن الفرار لمكان آمن، بينما فتح لنا الكثير من أهالي الحي أبوابهم للاختباء عندهم. رفضنا ذلك كوننا كنا نريد التوجه إلى منزل ماهر الجديد الذي يبعد حوالي كيلومترا واحدا عن مكاننا. مع ابتعادنا عن المكان الذي توقفت فيه المظاهرة بدأنا نشعر بالأمان نوعا ما، إلا أن رامي لم يكن معنا ولم يكن يرد على هاتفه، ما دعانا للقلق من أن يقبض عليه.

في بيت ماهر استرحنا قليلا ومن ثم توجهنا إلى المنزل. في الطريق اطمأن الجميع على رامي الذي قال لنا إنه كان محاصرا مع مجموعة من المتظاهرين فترة من الزمن قبل أن يتمكنوا من الفرار. يبدو أن هدف قوات الأمن أصبح فض المظاهرة بأي طريقة بعد أن كانوا في الماضي غير البعيد يتوجهون لقمع المظاهرة، إضافة إلى اعتقال كل من يمكن أن يكون قد شارك فيها. اتفقنا على أن نلتقي في اليوم التالي لنحضر مظاهرة جمعة "أطفال الحولة مشاعل النصر" في صلاح الدين.

في اليوم التالي وكما اتفقنا توجهت أنا وزكريا وماجد إلى صلاح الدين. كانت هناك حركة من مختلف الأحياء إلى حي صلاح الدين قبل صلاة الجمعة، بالإضافة إلى حركة بالإتجاه المعاكس. فقد كان هناك العديد من سكان صلاح الدين يهربون ليصلوا الجمعة في الأحياء المجاورة ريثما تنتهي فترة المظاهرات. لدى دخولنا أول شارع في الحي مشيا رأينا كيف كانت أغلب الطرقات مقطوعة بحجارة من الحجم الكبير. واصلنا المسير إلى أربعة المفارق دون أن نلتقي بأي مظاهرة، ولدى اتصالنا بأبي عدنان أكد لنا أنهم قد خرجوا للتو في مظاهرة من جامع بلال. سارعنا إلى التوجه إلى جامع بلال الذي كان في الطرف الآخر من صلاح الدين. لكن لم نر أي شيء يدل على وجود مظاهرة

هناك، في الوقت الذي وجدنا فيه عشرات الأشخاص يبحثون عن المظاهرة التي لا ندري كلنا كيف نجدها. عاودت الاتصال بأبي عدنان، فقال لنا إنهم يسيرون شرقا وإنهم على مشارف حي سيف الدولة.

واصلنا المشي السريع والجري أحيانا رغم أننا توقعنا أن يتم فض المظاهرة بأي لحظة. لكن المؤكد أن المظاهرة لم تكن لتتوجه إلى سيف الدولة لو لم تكن بأعداد كبيرة، والآن وهي في سيف الدولة سوف ينضم إليها المزيد من المتظاهرين. كانت كل دقيقة تمر دون أن يتم فض المظاهرة تعني أعدادا جديدة وازديادا في حجم المظاهرة، كما هي كرة الثلج تماماً. مع وصولنا إلى سوق سيف الدولة بالقرب من جامع النصر لم نر أثراً لمظاهرة. بعد مكالمة مع أبي عدنان كانت المظاهرة تسير أمامنا بنحو ألفي متر، وهي الآن بالقرب من مشفى الحياة متجهة إلى البلد نحو ساحة سعد الله الجابري. كانت الأصوات مسموعة عبر الهاتف تهتف بإسقاط النظام..!

ركبنا باص سيف الدولة الذي اتجه بنا إلى الكرة الأرضية لنستقل بعدها سيارة أجرة ونطلب منه التوجه إلى البلد. عندما وصلنا إلى الشارع المؤدي إلى سوق الهال أمام جامع حذيفة بن اليمان بدت لنا مظاهرة قادمة من بستان القصر. طلبنا من سائق التاكسي التوقف لننضم إليهم. كان ما رأيته هناك غريبا جدا ولم أعتد عليه في أي مظاهرة سابقة. كان عناصر الأمن يقفون على مقربة من المتظاهرين وهم يحاولون ثنيهم عن التوجه إلى ساحة سعد الله حيث وصلت بالقرب منها مظاهرة صلاح الدين. كان هناك عدد من الرجال الكبار بالسن يتكلمون معهم ليتفقوا على أن تسير المظاهرة بالاتجاه المعاكس دون أن تتوجه إلى ساحة سعد الله. سارت المظاهرة عائدة باتجاه بستان القصر وأصوات إطلاق النار الكثيف تسمع من محيط الساحة. اتصلنا مع أبي عدنان لنطمئن عليه فأكد أن المظاهرة تم تفريقها في حي الجميلية الذي ينتهي عند حدود ساحة سعد الله. كذلك مظاهرة بستان القصر تفرقت تلقائيا بعد أن قل عدد المتظاهرين تدريجيا. توجهنا بعدها إلى جسر الحج لننتظر وصول أبو عدنان الذي راح يشرح لنا كيف تم إطلاق النار بوحشية على المظاهرة التي كان عدد المشاركين فيها كبيرا جدا قدره لنا بالخمسين ألفاً، إلا أننا لم يكن لدينا أي وسيلة لتحديد الأعداد التي طالما اختلفنا على

تقديرها. لكن بالتأكيد كانت تلك المظاهرة هي الأكبر في مدينة حلب لحد ذلك الوقت حسب الفيديوهات التي شاهدناها في وقت لاحق. عدنا إلى المنزل بعد ذلك المشوار الطويل الذي قطعنا أكثره سيرا على الأقدام لنستطلع ردات الفعل عن هذه المظاهرة العملاقة في حلب، بالإضافة إلى الأماكن والحارات الأخرى مع أخبار باقي المدن.

تواصل ذلك الأسبوع الإضراب وتوسّع ليشمل أسواقا جديدة كسوق سيف الدولة الغاية في الأهمية في حلب، وترافق مع إضراب كبير في أسواق هامة في دمشق، ما شكل حالة جديدة من العصيان المدني وقف النظام عاجزا أمامها بعد أن فشلت تلقائيا دعوات الإضراب السابقة. كل هذا كان دافعا إلى تسمية الجمعة التالية باسم جمعة "أحرار وتجار".

في تلك الجمعة التي صادفت الثامن من حزيران اتجهت إلى صلاح الدين قبل بدء الصلاة، لكي لا يحدث معنا ما جرى في الجمعة السابقة وتفوت علينا فرصة المشاركة. كنا أنا وزكريا نسير مسرعين باتجاه جامع بلال، إلا أننا قررنا أن نصلي الجمعة في أحد الجوامع الذي أقيمت الصلاة فيه أثناء مرورنا بجانبه. كان ذلك الجامع بالقرب من إشارات الملعب وليس بعيدا عن جامع بلال. وقفنا في الصفوف الأخيرة التي كانت في وسط الشارع المحاذي للجامع. مع بدء الصلاة وصلت إلينا أصوات مظاهرة حاشدة قادمة من جهة الملعب. ومع اقترابها من إشارت الملعب بدأت قوات الأمن بإطلاق النار بشكل كثيف. الإمام شعر بخطورة الموقف، فأنهى صلاته بسرعة بعد أن قرأ صورة الكوثر في الركعة الأولى، وفي الثانية صورة الإخلاص. انتهينا من الصلاة بعد أن انفضت المظاهرة، فوقفنا مع الأعداد الكبير من الناس، الذين لم يتحرك أحد منهم بانتظار أن تبدأ المظاهرة من جديد.

بعد دقائق قليلة وفي شارع فرعي رأيت إحدى اللافتات التي يرفعها المتظاهرون تتحرك فأشرت للواقفين بقربي أن المظاهرة عادت لتسير في الشارع الموازي باتجاه الشرق. تحركت أنا وزكريا والكثير من المتظاهرين لنصل إلى المظاهرة التي بدأ عددها يتضاعف بشكل متسارع في أحد الشوارع الفرعية مع تواصل انضمام الأعداد الكبيرة من المتظاهرين. في الحقيقة كان كل شخص يقف في شوارع صلاح الدين يوم الجمعة قد جاء للتظاهر. تبعنا

عناصر الأمن إلى ذلك الشارع وأطلقوا الغاز المسيل للدموع لتفريقنا. تحت تأثير الغاز جرينا باتجاه الشرق إلى أن وصلنا إلى دوّار صلاح الدين. في الدوار كانت مظاهرة قد وصلت للتو وتسير بالاتجاه المعاكس. لم نتبع المتظاهرين بعد أن ذهبنا إلى ماهر وأبو عدنان اللذين كانا بانتظارنا بالقرب من إشارات الملعب. وقفنا هناك لبضعة دقائق قبل أن تصل المظاهرة إلى حيث كنا نقف، بعد أن تلاعب المتظاهرون بقوات الأمن ليدفعوهم للدخول راجلين إلى صلاح الدين بينما خرجت المظاهرة بالاتجاه المعاكس، باتجاه حي الأعظمية.

انضممنا للمظاهرة التي سارت باتجاه الشمال لتسير تقريبا على نفس المسار الذي سارته في الجمعة الماضية. كانت الأعداد تتزايد بشكل كبير مع مرور المظاهرة بحيث وصلنا إلى ذات المرحلة التي لم نعد نعرف أين تبدأ الحشود أمامنا، وأين تنتهي خلفنا. هتاف واحد كان ينطلق من عشرات آلاف الحناجر كاف ليعطيك شعورا بالقوة يمكن أن تحمله وتدمر به هذا الكوكب. وأظنه كان يغمس الشبيحة والمؤيدين وقوات الأمن في مستنقع اليأس واليقين بألا أحد يستطيع إيقاف هؤلاء الناس. كنا نعيش ما حلمنا به لأكثر من سنة، فالحشد كان عظيما والناس كانوا يلوحون لنا من الشبابيك والشرفات ويرشون لنا الأرز، والماء لتخفيف حر الصيف، بينما كانت تصلنا أصوات الزغاريد الفرحة بذلك المشهد الذي ضم الكبار والصغار الشباب والبنات العرب والأكراد. كان في المظاهرة ذلك الخليط السكاني الذي يميز هذه المنطقة من البلاد. تفاعل الناس مع المظاهرات كان دليلا على تقدم نوعي تحققه الثورة في حلب، وحاسما في الجدل القائم بيننا حول الحاضنة الشعبية للثورة.

بعد تلك اللحظات الرائعة بدأ كالعادة إطلاق النار على المظاهرة عندما وصلت إلى شارع فروج بركات. في البداية لم يتفرق الحشد، إلا أن استمرار إطلاق النار دفع المتظاهرين الذين لا يحملون إلا بعض اللافتات بالهرب بشكل سريع. في تلك اللحظة كانت المصادفة الرائعة بالنسبة لي وللأصدقاء، حيث كنا نقف تماماً أمام مدخل البناء الذي يضم بيت ماهر الجديد. أشار لنا ماهر للدخول لنصعد إلى منزله. دخل الجميع بينما بقيت أنا في الخارج يجرفني ذلك التيار البشري الذي يجري بسرعة كبيرة هربا من إطلاق النار. نجحت بالدخول بعد عدة محاولات إلى المدخل الذي أغلق بابه بعد دخولي.

على الفور صعدنا إلى بيت ماهر لنشاهد المشهد من الأعلى. عاد المتظاهرون للتجمع من جديد في ذات الشارع، فسارعت قوات الأمن والشبيحة بالهجوم على المظاهرة وإطلاق الرصاص في الهواء والغازات المسيلة للدموع، حتى تفرق جميع المتظاهرين بينما كنت أصور من الأعلى ما كان يجري.

كانت تلك المظاهرة إحدى أروع اللحظات التي عشتها في حياتي كما كانت جميع المظاهرات الأخرى، ولا أعرف كيف فاتني إحضار علم الاستقلال الذي حصلت عليه في تشيع الشهيد عبد الواحد هنداوي ليرفرف فوق رؤوسنا ولو قليلا من الوقت. إلا أن المراقب للحراك السلمي في حلب في ذلك الوقت والذي لم يغط إعلاميا بالشكل الكافي، بعد ارتفاع أصوات إطلاق النار والاشتباكات في غالبية المدن السورية الأخرى، كان يعرف أن حلب بدأت تعد العدة لانتفاضتها الكبرى في وجه النظام. والناشطون في المدينة راحوا ينتظرون شهر رمضان بفارغ الصبر، ليكون ساعة الصفر التي طالما تمت الدعوة لانتظارها دون أن يعرف أحد متى ستأتي، وفيما إذا كانت هناك ساعة صفر يجري التحضير لها أساسا.

بطبيعة الحال المظاهرات لم تقتصر على هذه المظاهرة العملاقة في حي صلاح الدين. بل انتشرت المظاهرات الحاشدة لتعم العديد من أحياء حلب، بحيث أصبح من الصعب إحصاؤها أو تقييمها. في ذلك الوقت كانت تدور في رؤوسنا الخطة التي يجب العمل عليها لتوجيه الضربة القاضية، وهي التقاء المتظاهرين من مختلف أحياء مدينة حلب في ساحة سعد الله الجابري.

انفجار البركان

في تلك الأثناء لم يكن غائبا عن قوات الأمن ما يجري من حراك في حلب، ولم يكن غائبا عنهم أيضا أن يتحركوا بسرعة قبل تفاقم الأمور، فتم نقل عدد كبير من الجنود والآليات لتعزّز القطع العسكرية المجاورة للمدينة. ترافق ذلك مع نشر عدد كبير من الحواجز المشتركة بين الجيش والمخابرات، وازدادت عمليات الملاحقة للناشطين والاعتقالات العشوائية وغير العشوائية، بالإضافة إلى التعامل بوحشية مفرطة مع المظاهرات الحاشدة التي كانت تخرج. فعلى عكس ما كان الوضع سابقا، ليس المهم مراضاة أهل حلب، إنما المهم وقف هذا البركان الذي يهدد بالانفجار بأي لحظة، فسقط العديد من الشهداء في المظاهرات، الأمر الذي أدى إلى النتيجة العكسية التي طالما حصل عليها النظام في كل المناطق الأخرى.

غضب شعبي يتوسع وتشييعات للشهداء بعشرات الآلاف صارت تضم أعدادا أكبر وتصل إلى شرائح جديدة في المدينة. يئس النظام في ذلك الشهر دفعه إلى اللجوء إلى ذكائه الذي طالما خانه منذ أول يوم بدأت فيه الثورة السورية، فراحت المدفعية بصوتها المدوي تطلق من كلية المدفعية في الراموسة باتجاه مدن الريف الحلبي، الشمالي والغربي حيث كانت تدور أعنف المعارك. أراد النظام أن يوصل إحدى رسائله المبتذلة إلى حلب مؤيديها ومعارضيها، مفادها أن لا رحمة لمن يقف في وجه النظام وأن لا حد لجرائمه وجنونه. أصوات إطلاق المدفعية كانت مرتفعة بحيث أصابت أهل حلب بهستيريا مع أول ثلاث قذائف. كانت إنذارات السيارات تعمل مع كل قذيفة من شدة الصوت، الذي لم أسمع مثله إلا يوم التفجير الذي استهدف كوكب القرود. لكن النظام لم يعرف أن هذا الشعب تعوّد على إجرامه وحماقاته على مدى أربعين عاماً، وأن أعنف المستبدين لم يصنعوا إلا أعظم الشعوب وأشدها عناداً، فلم يحتج الأطفال إلا ليوم واحد حتى بدؤوا يتسابقون بإحصاء عدد القذائف.

كل المؤشرات في حزيران من ذلك العام كانت تشير إلى النتيجة الحتمية والبركان المنتظر الذي سيعلن حلب كمدينة ثائرة في وجه النظام، وهو الكابوس الذي طالما أرعب النظام ومؤيديه، وحلم به وتمناه وانتظره أنصار الثورة ومعارضو النظام. قوات الأمن في ذلك الوضع لم يعد بإمكانها التجول في الأحياء الثائرة، إلا بأعداد كبيرة بعد الاستهدافات المتكررة لدورياتهم وشبيحتهم. الكتابات والعبارات الثورية على جدران بستان القصر وصلاح الدين حيث أتقصّد أن أمر دائماً، لم يعد هناك أي جدوى من مسحها، وما من أحد أصلا عاد يجرؤ على ذلك. الكل كان يترقب الجمعة التي ستزحف فيها حلب إلى ساحة سعد الله الجابري لتستعيدها من النظام بعد أن حولها إلى مركز لشبيحته وأحاطها بتعزيزات أمنية كبيرة. كنا نعرف أن الوصول إلى تلك الساحة كما هُتف كثيراً في المظاهرات بحاجة إلى أعداد تقارب المليون والى أعداد من الشهداء تصل إلى المئات، كي يعرف النظام وعناصره أن هذه الحشود لن تقف إلا في الساحة. الأمر كان يبدو غاية في الصعوبة، إلا أن التجارب في درعا وحمص وحماة ودير الزور وإدلب تجعل الأمر ممكنا. النظام بدا أنه حفظ تلك الدروس جيدا، ولم يبد أنه استفاد منها وسيقابل ذلك اليوم بوحشية مفرطة وغباء معتاد هو نقطة ضعفه الأهم وغير الوحيدة.

* * *

في الثاني والعشرين من شهر حزيران كنت على موعد مع جمعة أخرى من جمع ذلك الصيف الساخن جمعة "إذا كان الحكام متخاذلين فأين الشعوب". اسم الجمعة كان يشرح نفسه ولا يترك لنا الحاجة لتفصيل الرسالة منها. فالحكومات العربية لا تبالي بما يجري على الشعب السوري لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وهم ومهما تغيرت مسمياتهم نسخ عن نظام الأسد. وبعد أن سلمنا بهذه الفرضية كان من المستغرب وقوف الشعوب العربية متفرجة أمام ما يجري في سورية. بالتأكيد كان هناك العديد من محاولات التضامن ومساعدة الشعب السوري، إلا أننا كنا نظن أنهم لم يقدموا ما يكفي في معركة هي معركتهم التي نخوضها عنهم في وجه الاستبداد، ومصيرها نجاحا أو هزيمة سيؤثر في علاقتهم بأنظمتهم الحاكمة سلبا أو إيجابا. لذلك كان هذا الاسم للتذكير بجوهر القضية وأهميتها بالنسبة لهم، ولدفعهم للتحرك نصرة لأخوانهم في سورية.

كالعادة كانت الوجهة صلاح الدين التي أصبحت أهم مركز للحراك الثوري في حلب. لم يكن معي في ذلك اليوم سوى أبي عدنان الذي التقيت به بالقرب من جامع الزبير بعد أن أديت صلاة الجمعة فيه. قوات الأمن كانت تقف مدججة بالأسلحة على تقاطع أربعة المفارق القريب، والكل ينتظر ويترقب أقل صوت وأصغر حركة. توجهنا باتجاه جامع بلال حيث كانت تنطلق منه المظاهرات بشكل منتظم.

لم نكد نمشي إلا أمتارا حتى بدأ إطلاق الرصاص الكثيف في مكان قريب، ترافق مع صوت انفجار ضخم جدا. عرفنا أن الأمن يحاول فضّ المظاهرة قبل أن تصلها المزيد من الأعداد من باقي الجوامع. ما هي إلا لحظات حتى بدأ يصل الشباب الهاربون من إطلاق الرصاص إلى الشارع الذي كنا نقف فيه. رأيت شبابا يحملون رفيقهم الذي أصيبت ذراعه بطلق ناري. لم يكن لدي سوى أن أصور ذلك المشهد الذي يمكن أن يكون مادة مهمة للنشر بنفس الموبايل الذي استعملته في كل ما صورته سابقا. بعد لحظات عادت المظاهرة للتجمع في ذات الشارع الذي كنا نقف فيه، فأخرجت علم الاستقلال الذي لم يفتني جلبه معي هذه المرة ووضعته على كتفي. لم تحتج تلك المظاهرة إلا إلى دقيقة ليتجاوز عددها الآلاف ولتعانق الأصوات الهادرة عنان السماء، بينما كان سكان الحي يرشون الماء من الشرفات لتلطيف ذلك الجو الحار. لا يمكن أن يملّ الإنسان ذلك الموقف حتى لو عاشه آلاف المرات. صورت لقطة لتلك الجموع واتصلت بخالي أحمد، لأسمعه ما أسمع وأضعه في الموقف الذي تمنى أن يعيشه كثيراً في تلك القرية خارج نطاق التاريخ، والتي كانت للأسف قريتي.

أنهيت تلك المكالمة قبل ثوان من إطلاق رصاص في الهواء لدفع المتظاهرين للتفرق قبل أن تبدأ مرحلة الاستهداف المباشر. لم يتحرك أحد منهم بل ازدادت نبرة التحدي واشتعلت صلاح الدين بالهتافات. ثوان قليلة وانطلقت إحدى المصفحات باتجاه المتظاهرين بأقصى سرعة فاتحة العنان لرشاشها المتوسط تتبعها سيارة شرطة. جريت كما جرى معي آلاف المتظاهرين إلى الشوارع المتقاطعة مع ذلك الشارع الرئيسي علّنا نكون بأمان من الحقد القادم، لكن هيهات أن يكون الأمان إلا برب الأمان.

في الثواني التالية وأنا أجري في الشارع الفرعي سمعت ذلك الصوت الذي

لا يزال يطن في أذني لهذه اللحظة. كانت المصفحة على بعد عشرة أمتار تطلق النار داخل الشارع الذي كنت أجري فيه، تلتها سيارة الشرطة التي يخرج أحد عناصرها رشاش الكلاشنكوف من شباكها مطلقا الرصاص على الشباب. لا يغيب عن ذاكرتي منظر أثر الرصاص الخارج من السبطانة نحونا. رميت نفسي على الأرض كما فعل الآخرون ووضعت يدي على رأسي وأصوات الرصاص المنطلق تصم الآذان، ومن حولنا صوت اصطدام الرصاص بالجدران. جرى الأمر في ثوان قليلة إلا أنه بدا وكأنه يوم كامل كما تبدو عادة مثل تلك الأمور. فور ابتعاد المصفحة وسيارة الشرطة لتطلق رصاصها في شارع فرعي آخر وقفت لأعاين الأضرار. كان هناك العديد من الشباب لم يستطيعوا الوقوف كما فعلت، لأن الرصاص كان قد اخترق رؤوسهم وأجسادهم والدماء ملأت المكان. كان القتلى والجرحى في كل مكان. شاهدت صبيا أصيب في رأسه، وآخر يبدو أن إصابته غير قاتلة يحمله الشباب ليرسلوه إلى أقرب مستشفى.

اتصلت بأبي عدنان لأطمئن عليه بعد أن فقدته في تلك اللحظات. أجابني بأنه بخير، فذهبت للمكان الذي هرب إليه عندما بدأت المجزرة. على عكس ما توقعت وبعد أن تم نقل المصابين والقتلى عاد المتظاهرون ليتجمعوا من جديد، وفي قلوبهم غضب وإصرار كبيران، وعلى وجوههم حمرة لا أدري، أمصدرها حماسهم للقضية أم لهيب ذلك الصيف. أخرجت علم الاستقلال من جيبي وعدت للمشاركة. كان الجميع يصرخ ويكبر تعبيرا عن الغضب مما جرى. وأذكر كيف راح أحد الشباب الغاضبين يشتم ويهاجم الجيش الحر الذي كان يدّعي حماية المظاهرات، بينما يسقط العشرات من العزل في صلاح الدين. كما شاهدت فتاة غير محجبة، على عكس كل نساء صلاح الدين تبحث عن أخيها الذي فقدته في تلك الأثناء. فاجأني أستاذ مادة التاريخ الذي درسني في الإعدادية مشاركا مع المتظاهرين. تعود قوات الأمن لإطلاق الرصاص من جديد، في الهواء هذه المرة بعد أن عرفوا حجم المجزرة التي ارتكبوها، وبالتأكيد لم يكونوا يرغبون بزيادة أعداد القتلى، لأنهم يعرفون أن حلب مختلفة سيخلفها عدد أكبر من الذي سقط.

مرّت ساعتان على هذا النحو دون أن يفلحوا في فض المظاهرة أو المظاهرات التي صارت تخرج في كل شارع في تلك المنطقة، فقاموا باستدعاء تعزيزات كبيرة

لمحاصرة المنطقة وفض المظاهرة. في تلك اللحظة انسحبت إلى المنزل بعد أن بدا أنه الوقت المناسب للانسحاب، ولأعرف عدد الشهداء وأماكن تشييعهم.

كانت حصيلة تلك المجزرة خمسة عشر شهيدا قضوا مباشرة في ذلك اليوم، وفي الأيام اللاحقة نتيجة الإصابات التي تعرّضوا لها. من بين الشهداء الذين سقطوا مباشرة الشهيد إحسان صادق الذي تقرر تشييعه في الحمدانية في الحي الثالث بعد صلاة العصر من ذلك اليوم.

اجتمعت قبل صلاة العصر مع الأصدقاء للذهاب إلى جامع الفاروق لحضور تشيع الشهيد إحسان، لكن ونحن في طريقنا إلى مكان التشييع سمعنا إطلاق نار كثيف قد يكون من مكان التشييع. ومع اقترابنا من ذلك المكان أشار لنا بعض الأشخاص بالعودة فقد بدأ التشييع قبل صلاة العصر، وانفض بعد حضور أعداد كبيرة من قوات الأمن التي أطلقت النار في الهواء بكثافة.

رغم أن عدم حضورنا للتشييع كان أمرا مزعجا نوعا ما، إلا أني شعرت بتفاؤل كبير وأنا أرى شبابا لا أعرفهم ولا يعرفونني يحدثوني عمّا جرى، ويعبرون عن غضبهم من عناصر الأمن ويبدو عليهم حماسهم للمتابعة في الثورة. لأول مرة شعرت أن الثورة أصبحت شأنا عاما في هذا الجزء من المدينة بعد أن كانت شأنا شديد الخصوصية ولا يجوز التحدث به مع الغرباء. كانت كل الظروف تشير إلى أن الأخبار الطيبة قادمة من حلب. انتهى ذلك اليوم على عدة تشييعات للشهداء الذين سقطوا في مجزرة صلاح الدين. كان أبرزها تشييع الشهيدين إبراهيم عبد الرحيم وعبد الفتاح دياب في صلاح الدين.

رغم أن أيامنا منذ انطلاق الثورة كانت من نوع الأيام التي لا تنسى إلا أن ذلك اليوم يصعب أن تغيب عني أصغر التفاصيل فيه، وخصوصاً لاقتراب الموت مني ولأول مرّة في حياتي إلى تلك الدرجة. كنت يومها على وشك أن أكون أحد تلك لأرقام التي ستظهر على شاشات التلفزة دون أن يلقي الكثير لها بالا، بعد أن تعوّد الجميع على أخبار القتل.

بعد أيام قليلة شهد حي صلاح الدين أول وجود علني لعناصر من الجيش الحر داخل مدينة حلب لحماية المظاهرة معلنين بذلك بداية مرحلة جديدة من ثورة حلب.

لهيب الصيف

دخلنا في الشهر السابع من تلك السنة على وقع صدى المعارك العنيفة في ريف حلب الشمالي، حيث حقق الجيش الحر انتصارات عظيمة. يبدو أن النظام ضاع في ذلك العدد الكبير من المدن والقرى وفي وسط اجتماعي مناهض له. وفي مدينة حلب ازداد التوتر كثيراً مع استمرار خروج المظاهرات العارمة واستمرار سقوط الشهداء. قام النظام وقتها بنشر حواجز تابعة للجيش داخل المدينة، لم أعرف حقيقةً الغرض منها باستثناء أنها أصبحت هدفا لضربات الجيش الحر، حيث بدِئ بتشكِيل غير علني لكتائب تقوم بهجمات ضد تجمعات النظام وخصوصاً في حيي صلاح الدين والسكري.

حقيقة كان شهرا تموز وآب أكثر أشهر ذلك العام من حيث الأحداث الهامة والمفصلية التي جرت فيهما. سأبدأ وحسب التسلسل الزمني مما جرى يوم الخميس الرابع عشر من تموز، حيث استيقظت صباحا على خبر خطف عمي العميد أحمد مع عدد من الضباط الآخرين. نعم مرة أخرى عمي أحمد وكأن هذه الأزمة لا تعرف سوى هذا الضابط. فبعد نجاته من عملية سرقة سيارته، وبعد نجاته من عملية التفجير، يتم خطفه من قبل جهة تابعة للجيش الحر في مدينة سراقب، هذا ما عرفناه ظهر ذلك اليوم. بعد تحليلات شخصية توقعت أنها عملية للجيش الحر لتسهيل أو إجبار الضباط على الانشقاق كما حدث مع غيره سابقا. شعرت بالاطمئنان نوعا ما، لكن لم يشاركني هذا الشعور أي أحد في العائلة الذين بدأوا يتصرفون وكأن عمي أحمد ذهب ولن يعود.

ذهبت إلى المركز ذلك اليوم وبدأت أتحدث عن انشقاق قريب لعمي، فالفرصة والظرف كانا مواتيين لذلك. كان ذلك تحليلي إضافة إلى التأكيدات التي تلقيتها من الأصدقاء المقربين من الجيش الحر، فقد كانت هذه الطريقة إحدى أهم الطرق لترغيب عناصر الجيش بالانشقاق. وكثيراً ما نظّم الضباط مثل هذه العمليات لإبعاد ذويهم عن انتقام النظام، الذي كان يستبيح أموال

وممتلكات الضباط المنشقين، ويلاحق في كثير من الأحيان أقاربهم. كانت تحليلاتي في تلك اللحظة تنطبق على تمنياتي. وهذا يعاكس ما كنت أعرفه عن عمي عائلته التي ترفض أي محاولة للانشقاق في هذا الوقت، فـ "الدولة" لا تزال تحتفظ بكامل قوتها ولن تحقق "المعارضة " أي تقدم يذكر، بينما كنت مستعداً للمراهنة على عكس ذلك، رغم تحفظي على مصطلحاتهم. كانت عملية الاختطاف ستجبر الجميع على القبول بالخيار الذي أراه صحيحاً، وأظن أن زكريا ابن عمي يعتقد ذلك، فلا يمكن أن يكون موقف شخص مثله غير ذلك وإن تعلق الأمر بوالده.

أثناء ذلك الحديث وتلك التحليلات في المركز فاجأني رنين الموبايل. كان على الطرف الآخر أحد الأقارب، لم أفهم من صراخه سوى أن عمي أحمد وجد مقتولاً في مكان ما. حاولت أن أتمالك أعصابي، وأفهم بعض التفاصيل. أجريت أكثر من مكالمة لم أسمع فيها سوى الصراخ والبكاء، والكلام غير المفهوم ما يؤكد الخبر. لكني لم أعرف أي معلومات أخرى إلا حين أجابني أحد الأقارب بهدوء وأخبرني أن عمي أحمد قد أعدم، دون أن يعرف أحد كيف جرى الأمر وكيف تأكدوا منه. الأمر كان مصيبة على كل الأصعدة. لا أعرف كيف استعيد تركيزي وأفكر بما هو قادم، أصلاً لا أعرف بماذا أفكر؟ هل في عمي الذي اقتص منه، وأنا أعرف يقيناً أنه لم يؤذ إنساناً في حياته؟ أم أفكر في عائلته؟ في زكريا الذي لم يبخل يوماً على الثورة، أهكذا تكافئه الثورة؟ أم أفكر في الكم الكبير من الكلام والنظريات التي كنت ألقيها على أصدقائي؟! وكيف أصبحت بثوان هباء تذروه الرياح؟

بعد لحظات عصيبة أخرى عادت لتأتيني الأخبار من القرية بأن هذا الخبر غير صحيح، ولا أحد يعرف كيف ومن أتى به. بدأت أستعيد هدوئي وأنا أشرح للأصدقاء تفاصيل ربع الساعة الأخيرة التي شاهدوني فيها، أجري وأتلقى عشرات الاتصالات، وتتغير تعابير وجهي وأشكاله، وألوانه. تتالت الأخبار عن طريق الأصدقاء الذين استطاعوا الوصول إلى الكتيبة الخاطفة، بأن عمي بخير وبحالة ممتازة، وبأنه يتلقى معاملة حسنة، وبأن أهم ما يعرفه أفراد الكتيبة أن ابن الضابط خريج كلية الحقوق وأحد ناشطي الثورة ومعتقليها. كانت تلك أخباراً ممتازة بعد كل ما جرى وخصوصاً بالنسبة لي، فقد كانت تأكيداً لما كنت أتحدث عنه مسبقا.

في اليوم التالي اتصل عمي بزوجته ليطمئنها على نفسه دون أن يذكر تفاصيل عن مكانه وعن احتمال عودته. الأمر الذي نشر جواً من الارتياح بعد مأساة اليوم السابق، حيث كاد الوضع أن يصبح كارثياً بعد جنون الأقارب ومحاولتهم الانتقام من أي شخص من مدينة سراقب، لكن الرحمة الإلهية شاءت ألا يقع أيّ شخص منهم بين أيدي العائلة تلك اللحظة، وإلا كنا وقعنا فيما لا يحمد عقباه، وكان الأمر سيصبح شديد التعقيد مع عمي المختطف.

بعد عدة أيام وبعد محاولات العائلة الاتصال بالخاطفين تبيّن أنهم يرفضون أي عرض للتفاوض، وأن شرطهم الوحيد للإفراج عنه هو إعلان الانشقاق. كانت الأمور تسير كما أشتهي وعلى عكس رغبة العائلة. كنت أرى أن الأمور تنحدر بشكل سريع لصالح الجيش الحر وبأن العسكريين لن يتبقى لهم سوى خيارين، فإما الانشقاق، وإما القتال إلى جانب النظام حتى الموت. بينما كانوا في العائلة يرون عكس ذلك. فكان انشقاق عمي في ذلك الوقت يشكل خطراً كبيراً عليهم دون أن يكون هناك أي فائدة من هذا الانشقاق. موقف عمي كما علمت في وقت لاحق كان يتضمن البقاء لدى النظام حتى نهاية السنة إذ كان ينتظر تسريحه، وبذلك لا يخسر مرتبه الذي بالكاد يعيل عائلته، ولا يخسر المبلغ المالي الكبير الذي كان سيتقاضاه كتعويض للتسريح. كان ذلك الخيار الذي يجنبه مخاطر الانشقاق الذي لن يضر النظام بشيء، فالجميع يعرف أن الضباط من "جماعتنا" لا تأثير لديهم على قرارات النظام والجيش.

في نهاية هذه القصة كانت خيبة أمل لي بعد أكثر من شهر إذ قرر أفراد الكتيبة بعد يأسهم الإفراج عنه مقابل فدية مالية قدرها مليون ونصف ليرة، وهذا ما كان يساوي في ذلك الوقت نحو عشرين ألف دولار. عاد عمي إلى عمله ينتظر نهاية العام، ليكون ما خطط له.

لاحقاً وبعد رأس السنة لم تجر الأمور كما كان يخطط لها عمي، فصدر الأمر بتمديد خدمته في الجيش لمدة سنتين برتبة عميد، فكان لابد وقتها مما ليس منه بد، وهو الانشقاق عن الجيش الأسدي، وهذا ما كان بالفعل بعد فترة قصيرة عندما غادر عمي مطار تفتناز الذي يحاصره الجيش الحر، إضافة إلى أن قوات النظام منعت أي ضابط أو مجند من مغادرة المطار خشية عدم

العودة إلى ذلك الجحيم. بالطبع هذا المنع لم يشمل العسكريين من الأقليات الذين كان ولاؤهم مضموناً لأسباب كثيرة. إلا أن الفرصة كانت سانحة له بالخروج بعد إصابته نتيجة استهداف المطار بصواريخ محلية الصنع ما أدى إلى مقتل العديد من العسكريين أو جرحهم داخل المطار. كانت الإصابة طفيفة إلا أنها كانت مبرراً لنقله مع المصابين الآخرين إلى المستشفى العسكري حيث غادره إلى القرية، مودعاً بذلك أعواماً طويلة في الخدمة العسكرية، ومنهياً بذلك سلسلة معاناته مع الثورة التي طالما وضعته في مواقف لا يحسد عليها، وكادت أن تودي بحياته في بعض الأحيان. فمنذ أن حقق معه الأمن الجوي نتيجة اعتقال زكريا ابنه في مظاهرات بركان حلب، إلى سرقة اللصوص لسيارته إلى نجاته لاحقاً من عملية التفجير التي استهدفت سيارته، ثم اختطافه مع مجموعة من الضباط، وبعد ذلك إصابته قبل انشقاقه أخيراً.

* * *

نعود الآن إلى السياق التاريخي للأحداث في ذلك الصيف، ففي الشهر السابع بدا أن المعارك بدأت تنتقل إلى داخل العاصمة دمشق بتسارع يثير الانتباه، إذ سيطر الجيش الحر على أحياء عديدة داخل العاصمة، وتقدم بشكل متسارع وبدا أنّ الثوار اقتربوا من الإمساك بزمام الأمور في العاصمة. وفي ذروة تلك الأحداث وفي الثامن عشر من شهر تموز حبس الشعب السوري أنفاسه بعد إعلان خبر تفجير ما عرف بخلية الأزمة، وراح ضحيتها محمود راجحة وزير الدفاع، وهشام بختيار مدير الأمن القومي، وآصف شوكت رئيس الأركان، وصهر عائلة الأسد.

لأول مرة منذ انطلاق الثورة شعرت كما شعر مثلي الكثيرون أن النظام قد سقط، وقد اقتربت لحظات الاحتفال بنجاح الثورة. لم نعرف تحديداً من قام بهذا التفجير إلا أن شخصيات في الجيش الحر تبنت التفجير، وانتشرت الإشاعات كثيرة كما جرت العادة في مثل هذه الحوادث الغامضة. إلا أن هذه الفرضية بدت مستبعدة لاحقاً وظهر للعيان فرضيتان جديدتان لمنفذي التفجير. الأولى أن من قام بالعملية جهاز مخابرات خارجي، والثانية اتهمت النظام نفسه لأسباب مجهولة. يظهر منها أنه كان يغطي عملية اغتيال سابقة

أعلن عنها الجيش الحر دون أن يثبتها أحد من النظام أو طرف مستقل، أو قد يكون النظام تخلّص من هؤلاء القادة لخشيته من أنهم الوحيدون في هذا البلد الذين باستطاعة الغرب التواصل معهم للتخلص من الأسد مع الإبقاء على النظام، هذا إذا لم يكن قد تواصل معهم أحد الأطراف الدولية بالفعل. كان السيناريو الأخير يبدو لي الأكثر منطقية، لكننا بحاجة إلى وقت طويل لتتكشّف لنا الحقائق ونعرف ما جرى ذلك اليوم.

* * *

بعد فترة ليست طويلة ظهر أن الهجوم على مدينة دمشق كان ينقصه التنظيم والعمل المشترك بين الكتائب وموافقة القوى العالمية التي تدير بالصراع، فاستعاد النظام السيطرة على الأحياء التي استولى عليها الجيش الحر، واتضح أننا بحاجة إلى الانتظار مزيداً من الوقت لنشاهد الثوار يسيطرون على دمشق إذ يركّز النظام قوته العسكرية والأمنية للدفاع عنها.

في ظل تلك الظروف وبعد شعور الغالبية بأن النظام يتداعى، ظهر لبعض القادة من الجيش الحر العاملين في ريف حلب أن الوقت قد حان للدخول إلى المدينة والسيطرة عليها، فالضرب على الرأس هو ما يسقط النظام وحان الوقت للانتقال إلى هذه المرحلة بعد ثبات أن النظام لديه العديد من الأطراف، ولن يكون من المفيد الضرب عليها أو حتى قطعها. فأعلن عن تشكيل لواء التوحيد الذي ضم عددا كبيرا من الكتائب في ريف حلب والغرض منه السيطرة على المدينة.

كنا نراقب تلك الأخبار باهتمام دون أن يكون لنا دور آخر سوى المراقبة. لم نعرف في تلك اللحظة أي خطوة يمكن أن نقوم بها. فدخول الجيش الحر إلى حلب يعني تحريرها من النظام، إلا أن ذلك يعني بنفس الوقت أن عمليات الاشتباكات والقصف الذي ينتهجه النظام في مثل تلك الأحوال ستتسبب بمآس لا يمكن أن يتحملها الشعب، الذي لم يستوعب لحد ذلك الوقت معنى الثورة وأسبابها وأهدافها، فضلاً عن الأعداد التي مازالت تؤيد النظام في مدينة حلب. كان علينا أن ننتظر ونستمر بالمراقبة لنستوعب ما يجري في ذلك الصيف.

في أحد أيام الخميس من شهر تموز ومن خلال محادثة عبر النت مع

صديقي في كلية الحقوق أحمد عبد الرحمن الذي كان ينتسب إلى كتيبة شهداء الأتارب، سألته عن أخباره فقال لي إنه:

في صلاح الدين. تفاجأت بجوابه، فما الذي يمكن أن يفعله أحد عناصر الجيش الحر في صلاح الدين الذي ما زال تحت يد النظام؟! كان جوابه أنه يقف على الحاجز على مدخل الحي. وبأنهم، أي الجيش الحر قد انتشروا علناً في الحي، ويحضرون للانتقال إلى باقي أحياء حلب تدريجياً. نقلت الخبر إلى الأصدقاء وأكدت ما أعلنت عنه قيادات الجيش الحر بدئ بتنفيذه. وعلينا أن نكون على أهبة الاستعداد، فلا أحد يعرف ما الذي سيجري في الأيام التالية.

* * *

مع دخول شهر رمضان بدأ الجيش الحر بالسيطرة على مزيد من أحياء حلب. فمع إشراقة كل شمس كانت تصل الأخبار بأن الجيش الحر سيطر على حي أو أكثر، هذا ما وقفت عليه شخصياً في صباح أحد الأيام عندما توجهت من القرية إلى حلب. على الطريق أشار لنا أحد سائقي سيارات النقل العاملة على خط القرية بأن نعود أدراجنا فثمة اشتباكات عنيفة في منطقتي جسر الحج والسكري، وبأن الثوار يسيطرون الآن على أحياء الشيخ سعيد، وجسر الحج، وحارة الشحادين، والسكّري، وأن حاجز قوات النظام في مدخل حي الشيخ سعيد يمنع السيارات من المرور. كان ذلك سبباً إضافياً بالنسبة لي للتقدم، والمشاهدة والوقوف على ما يجري. وبالفعل على حاجز الشيخ سعيد ظهر لنا أحد عناصر جيش النظام آمراً سائقي السيارات بالعودة. وبعد إصرار سائقنا على التقدم أشهر في وجهنا سلاح الكلاشنكوف معترضاً طريقنا، فأذعن لطلبه السائق، ما دعاني إلى الترجّل محاولاً عبور الحاجز سيراً على الأقدام كما فعل غيري.

بعد الحاجز كان بانتظارنا سيارات نقل عامة لنقلنا إلى حلب القديمة ثم نتوجه إلى الجميلية. أكد لنا السائق أن المسلحين ينتشرون في حي الشيخ سعيد، إلا أنهم لا يمنعون أحداً من المرور. وبالفعل وعلى بعد أقل من مئتي متر من حاجز قوات النظام كان هناك حاجز للجيش الحر. بالنسبة لي كانت أول مرة أشاهد بعيني أحد عناصر الجيش الحر قائماً على رأس عمله. كان شاباً ملثماً يحمل بنبكشن، وقريباً منه يقف زملاؤه، بعضهم يحمل الكلاشنكوف وآخر يحمل قاذف آر بي جي. كنت في غاية السعادة وأنا أشاهد

عناصر الجيش الحر على طول الطريق رغم أن جميع السكان كانوا يشعرون بالخوف من الأيام القادمة. في حلب القديمة ترجلت باحثاً عن سيارة تاكسي، وشاهدت طائرة الهوليكبتر تصوب نيرانها إلى مكان ما بشكل واضح.

أنهيت عملي في البلد، وقررت التوجه إلى أحد الأصدقاء في حي الحمدانية مروراً بصلاح الدين. كنت أريد أن أشاهد بعيني بعض التفاصيل مما يجري وأعرف إمكانية صمود الجيش الحر في مواجهة قوات النظام، وخصوصاً إذا عرفنا أن عدداً قليلاً من قوات الجيش السوري يوجدون حول مدينة حلب بالمقارنة مع المدن الأخرى.

مع وصولي إلى مدخل صلاح الدين رأيت علم الاستقلال الكبير يحيط بأحد الجدران، وكذلك كان الحال في مدرسة القنيطرة أمام دوار صلاح الدين. كان العناصر ينتشرون بكثرة ويحملون الأسلحة الفردية. الكتابات الثورية وأسماء الكتائب كانت تملأ الجدران. قرأت على أحد الجدران عبارة "انشقوا نحميكم بعد الله" تساءلت فيما إذا كان عناصر الجيش الحر يعرفون أن الجيش النظامي سيصل إلى هذه النقطة ليقرأ عناصره ما كتب على الجدار.

أوقفنا أحد حواجز الجيش الحر وسأل السائق عن الأجرة التي كان يأخذها من الركاب، وهدده في حال استغلاله الظرف ليضع أجرة النقل على مزاجه، فلن يدعه يمر ثانية. ترجلت من الباص وبدأت السير في شوارع صلاح الدين. نشوة وسعادة كبيرة غمرتي في تلك اللحظة فما يجري كان أشبه بحلم. كان غالبية سكان صلاح الدين قد نزحوا عن الحي والباقون يتحضرون لذلك. لا أعرف لماذا يرتبط تحقيق أحلامنا بكل تلك المآسي؟! كان واضحاً للجميع أن أياماً ساخنة وعنيفة تنتظر الحي، فما تأكّد لي بعد مشاهدة هذه الأعداد من مقاتلي الجيش الحر أنّ حلب تسير على خطا حمص، فالنظام لن يسكت وستبدأ عمليات القصف قريباً.

توجهت إلى الحمدانية التي كانت تحت سيطرة النظام ولم يدخلها الثوار، ويفصلها أوتوستراد الراموسة عن حي صلاح الدين. على المنصف فكرت بعدد القناصات التي توجه إلى رأسي من الطرفين في تلك اللحظة باعتباري أسير بالمنطقة الفاصلة بين صلاح الدين والحمدانية. مع اقترابي من أول أبنية الحمدانية انطلق أحد الرشاشات التي لم أتعوّد سماعها من قبل. التفت إلى

الوراء فرأيت الهدف يسير على الطريق المؤدي إلى المطار، وكان عبارة عن صهريج وقود للجيش بدأ يتمايل نتيجة استهدافه بالرشاشات. أسرعت كي لا أصبح أحد الأهداف التي يطلق عليها، ووقفت خلف أقرب حائط علّي أشاهد جزءاً مما يجري بعد أن فتحت عشرات الرشاشات من كلا الطرفين.

في منزل صديقي بدأت أتابع الأخبار التي كانت تتحدث عن سيطرة الجيش الحر على الأحياء الجنوبية والشرقية من المدينة. لم يتوقف الطيران المروحي عن قصف الأحياء المحررة بالرشاشات. حاولت النوم قليلا إلا أن عادت أصوات الرشاشات تُسمع وكأنها داخل المنزل. وقفت على الشرفة كي أشاهد ما كان يجري، فرأيت بعد حوالي عدة دقائق من توقف أصوات الرشاشات سيارة بيك آب دبل كبين تقف في الساحة المقابلة، ويبدو أن أحداً ما استهدفهم فكانت آثار الرصاص بادية على السيارة وإطاراتها مثقوبة. لم أعرف لأي جهة يتبع هؤلاء فلا علامة مميزة يحملونها. توقفوا قليلاً وانطلقوا بعد أن شعروا بالأمان.

التكلفة

جو من الخوف خيّم على سكان المدينة، فكل من يستطيع الهرب من الجحيم القادم بدأ يتحضّر لذلك بما فيهم أنا، فبعد انتشار أخبار المدينة طلب أبي مني المسارعة إلى المغادرة إلى القرية، وهذا بالفعل ما كان. توجه أهالي الأحياء المحررة إلى المناطق التي لا يسيطر عليها الجيش الحر متوقعين ألا تشهد أي اشتباكات أو عمليات قصف. آخرون توجهوا إلى الريف الذي كان بدوره مهدداً بعمليات القصف، إلا أن مدينة حلب على ما يبدو، ستكون لها الأولية في القصف ما سيخفف كثيراً عن ريفها المحرر. هكذا كانت الأمور في ذلك الوقت. حالة النزوح الكبيرة التي شهدتها غالبية أحياء حلب تناقصت بعض مرور أشهر قليلة، لتبدأ حالة من العودة بسبب صعوبة ظروف النزوح، وعدم توفر أماكن أكثر أمناً، عادت الغالبية العظمى من سكان مدينة حلب لتعيش فيها، رغم حالة الحرب المستمرة، والقصف الجوي والمدفعي والصاروخي الذي لم يتوقف منذ أكثر من سنة إلى ساعة كتابة هذه السطور على الأحياء الآهلة بالسكان.

أعلن الجيش الحر بأنه سيكمل التحرير حتى السيطرة على كامل المدينة، وأعلن النظام بأنه سيطهرها كما فعل في أحياء دمشق قبل أيام قليلة. في الأيام الأولى للحرب استقدم النظام بعض التعزيزات من الرقة وإدلب، فبدأت الاشتباكات في حي الصاخور بعد محاولة وحدات عسكرية التقدم التي واجهتها مقاومة عنيفة. كذلك كان الحال في حي صلاح الدين إذ باءت محاولات استعادته بالفشل، وكان لزاماً على النظام استقدام تعزيزات من الحرس الجمهوري والقوات الخاصة.

* * *

لم أكن غائباً عن حلب في تلك الفترة بل كنت أقوم بزيارات متفرقة لأقف على الوضع، ولأعرف صدق أو كذب ذلك الإعصار من الإشاعات الذي كان يدور في أحاديث الناس. وسأتناول الآن بعض المشاهد التي حضرتها بشخصي

دون المرور على أمور لم أكن موجودا فيها وأترك كالعادة مهمة روايتها للأشخاص الذين حضروها.

حي سيف الدولة كان من الأحياء الأولى التي سيطر عليها الثوار، جبهة النصرة تحديداً. بالطبع قبل أن تظهر إشكالية جبهة النصرة للعيان. أولى زياراتي لذلك الحي كانت برفقة توفيق ومصطفى فهما من سكانه. مشينا قريباً من مبنى الإذاعة الجديد الذي يرصدنا منه قناص النظام. كان علينا ألا نلفت انتباهه فنكون هدفا له. في البناء المقابل لبيت توفيق هناك منزل قد احترق بالقصف الجوي. مع وصولنا إلى الشارع الرئيسي في سيف الدولة ظهر لنا مولا سيف الدولة الشهيران، وقد تحطم زجاجهما بالكامل. جامع آمنة الذي سبق وتحدثنا عنه كان قد استهدف بثلاثة صواريخ من الطيران. الصاروخ الأول في مدخل الجامع والثاني في الشارع المقابل حيث تسبب بحفرة عمقها متر ونصف، الصاروخ الثالث كان قد اخترق أرض الطريق بكامله دون أن ينفجر. قمت بتصوير مؤخرة الصاروخ حيث كان القسم الظاهر منه بالإضافة إلى الأضرار التي تسبب بها القصف. أمام الجامع كانت هناك جثة لرجل يبدو غالباً أنه سقط نتيجة القصف. لم أتأثر بذلك المشهد على عكس توقعاتي. يبدو أن قلوبنا تزداد قسوة يوماً بعد يوم إضافة إلى أنّ عقولنا تزداد تطرفاً. كانت محلات سيف الدولة مغلقة ولم تمتد أي يد إليها باستثناء مركز خدمات شركة سيرياتل التي يملكها رامي مخلوف ابن خال رئيس النظام الذي نهبت محتوياته.

في سوق الخضرة كان من تبقى من سكان الحي يتسوق من الفرن وبقية المحلات. أمام السوق ثمة حاجز للجيش الحر عناصره منتشرة أمام سوق الخضرة وباقي أنحاء الحي، في الزيارة الثانية شاهدتهم عند جسر الكرة الأرضية. ذهبنا إلى منزل مصطفى ارتحنا قليلاً وافترقنا، توجهتُ إلى القرية، بينما توجه توفيق ومصطفى إلى مكان نزوحهما.

* * *

في زيارة أخرى للمدينة فوجئتُ لدى مروري أمام المركز بقصفه بصاروخين، إضافة إلى رشاشات الطيران الثقيلة، كما أن الباب الذي كان مغلقاً قد فتح على مصراعيه. بعد انتهائي من بعض الأعمال ذهبتُ برفقة صديقي

مصطفى إلى المركز لنعاين أضراره. كانت المشاهد مذهلة، لم يتبق شيئ في المركز لم يسرق أو ينقل إلى مكان آخر. بعض الأمور غير الثمينة أهملت. بالطبع كانت أسماء الكتائب وشعاراتها تنتشر على الجدران. في المكتب الذي كنت أعمل فيه لم أفاجأ، وبعد مروري بباقي الأقسام رأيت الحواسيب وباقي التجهيزات قد اختفت كلها. رأينا صور رأس النظام محطمة وممزقة بعد أن كانت دائماً فوق رؤوسنا. كانت هناك حالة من الفوضى تعمّ المكان. لم تبق خزانة أو درج دون أن يفتح ويعبث بمحتوياته. كسرت الأقفال ولم يبق شيء يستحق الحمل. كنت شديد التأثّر بما شاهدت فالمركز كان بيتي الثاني.

في زيارة لاحقة للمدينة التقيت في منطقة قريبة من المركز أحد الأشخاص الذين كانوا معي في نفس الغرفة في السجن المركزي، وهو زياد الذي حاولت جاهداً تذكر نسبته دون جدوى. كان يقف على حاجز تابع للجيش الحر في كتيبة الزبير بن العوام التابعة للواء الفتح. لم يحتج لوقت طويل قبل أن يتعرف علي ويعانقني بحرارة. بدا مسروراً برؤيتي كما كنت أنا شديد السرور برؤيته. استعدنا ذكريات السجن وتحدثنا عن أوضاعنا في ظل تلك الظروف. لم يفتني سؤاله عن المركز، فأجابني بأن الحواسيب موجودة في مستودع بحي السكري، وهي "بالحفظ والصون" إلى حين سقوط النظام، لكن فاتني سؤاله عن تفاصيل ما جرى، فهل صادرها اللصوص الذين سبق وسرقوا، أم إنهم هم من استولى عليها وحجزها لصالح الثوار؟ طلب مني أن أعمل معهم في الكتيبة فهم بحاجة إلى من يتقن العمل على الكمبيوتر ويحسن العمل الإعلامي. اعتذرت عن ذلك لأسباب كثيرة، إلا أني حصلت على رقم هاتفه الجوال فقد أحتاجه يوماً من الأيام، قبل أن أتابع مسيري إلى البلد.

في طريق العودة وأثناء وقوفي في الكراج بانتظار أن يمتلئ المكروباص لنعود إلى القرية. صم أذني صوت انفجار عنيف. مثل تلك الانفجارات أصبحت مألوفة في المدينة، لكن الغريب في الأمر هذه المرة هو مشهد الناس التي راحوا يجرون في كل الاتجاهات. نظرت خلفي لأرى آثار سقوط قذيفة على بعد حوالي خمسة عشر متراً حيث يظهر الدخان والغبار بشكل كثيف. لم أعرف نوعية تلك القذيفة إلا أني لم ألحظ انتشاراً للشظايا التي كانت لتمزقنا بسبب قربها منا. كانت شظايا القذائف هي أخطر ما يعرّض المدنيين

والثوار للإصابات. سارعنا للهرب من المنطقة خشية أن تتبع القذيفة قذيفة أخرى يمكن أن توقع بنا ما لم توقعه الأولى. كانت تلك المرة الثانية بعد مجزرة صلاح الدين التي اقترب بها من الموت بتلك الطريقة.

كان أمراً عظيماً وغريباً استطاعة ملايين الناس التعايش في ظل ذلك التساقط المستمر للقذائف، والصواريخ، والبراميل المتفجرة.. والصواريخ البالستية في وقت لاحق. لكن الأغرب من ذلك كان الصمت المخزي للمجتمع الدولي الذي تعوّد على هذه المشاهد، دون أن يتحرّك فيه سوى بعض هواة الإحصائيات من المنظمات الدولية وناشطي حقوق الإنسان.

انقسمت المدينة منذ بدء هذه المعركة إلى حلب المحررة وحلب المحتلة دون تغيير كبير في حدود هذين القسمين حتى ساعة كتابة هذه الكلمات أي بعد سنة وشهر من بدء المعركة. حلب المحررة كانت تشغل القسم الأكبر من المدينة حيث ضمت القسم الجنوبي والشرقي وجزءاً كبيراً من حلب القديمة وجزءاً من شمال المدينة، بينما سيطر النظام على الأحياء الغربية وبما يعرف بالبلد وهو قلب المدينة. كان هناك قسم ثالث وهو المناطق ذات الغالبية الكردية تحديداً أحياء الأشرفية والشيخ مقصود وبني زيد. كانت هذه المنطقة خاضعة للأكراد دون أن تتدخل في الصراع الدائر، وقد ضمت عدداً كبيراً من النازحين. اختفت هذه المنطقة تدريجيا لتصبح غالبيتها تحت سيطرة الثوار بعد معارك طاحنة، فأصبح الشيخ مقصود وبني زيد وجزء كبير من الأشرفية من حلب المحررة، بينما بقي قسم من حي الأشرفية بيد النظام حتى الآن.

المناطق التي كانت تشكل الحد الفاصل بين المنطقتين أصبحت تدريجيا شديدة الخطورة بعد المعارك العنيفة التي كانت تشهدها، فقام النظام بمنع المرور من قسم إلى آخر باستثناء معابر قليلة، والتي تناقص عددها ليتوقف على معبر واحد وهو معبر كراج الحجز الشهير، والذي سنتحدث عنه لاحقا.

بالطبع إن شخصاً مثلي سيسير مرتاحاً في القسم المحرر، وسيسعى جاهداً إلى عدم الوجود في القسم المحتل، إلا أنّ الظروف في بعض الأحيان تجبرك على الذهاب إلى ذلك القسم. كان علي التوجه كل فترة إلى مناطق النظام لأمور تتعلق بالوظيفة، إضافة إلى أنني طالب في جامعة حلب التي بقيت في

القسم المحتل كذلك. ولا ننسى أن منزلي كان في حي من أحياء حلب المحتلة. فكان علي التردد على ذلك القسم رغم أن وجودي بين عناصر الجيش والأمن والشبيحة يشعرني بتهديد حريتي وحياتي.

في حي الحمدانية غرب حلب كان الوضع أسوأ الأحياء المحتلة، فكان الحي الرابع ثكنة عسكرية ضمت العديد من الدبابات والمدافع وعناصر النظام. كان ذهابي إلى هناك يعني مغامرة كبيرة لم أجرؤ عليها، وخصوصاً بعد ما جرى على حاجز دوار الـ 606. فرغم تحذير الكثيرين من الاقتراب من الحي، إلا أني قررت زيارة بعض الأصدقاء..!

لدى مغادرتي الحي وصعودي باص الحمدانية، طلب منا أحد العناصر الموجودين على حاجز الـ 606 بطاقاتنا الشخصية. كانت زاوية بطاقتي مكسورة منذ فترة طويلة، وعندما رآها العنصر سأل: مين محمد؟! أجبته أنا. طلب مني الترجّل، ومن سائق الباص المضي.

بالكاد كانت ساقاي تحملانني في تلك اللحظة، فما شعرت به ليس كأي خوف شعرت به سابقاً. كان لدي العديد من الأسباب للشعور بالرعب، إلا أن السبب الذي كاد يصيبني بالإغماء هو بطاقة الذاكرة التي أحملها في موبايلي، إذ كانت ملأى بصور الدمار في المناطق المحررة نتيجة القصف، ويظهر صوتي يقول بوضوح:

"آثار الدمار في المناطق السكنية بعد أن قصفتها قوات النظام" بالطريقة التي اعتاد الناشطون الإشارة إلى محتويات تسجيلاتهم فيها. كان هذا المقطع يكفي لأن يتهمني عناصر الأمن بكل ما يملكون من تهم في مخيلاتهم. كانت مشاهدة العنصر للتسجيل سيفضي إلى العديد من الاحتمالات لن يكون العودة إلى المنزل من ضمنها، ولن يكون الموت بالتأكيد أسوأها.

كادت كل تلك المخاوف تمزق تفكيري، وعقلي رغم أني قبل ربع ساعة، نزعت البطاقة ووضعتها في جيبي. كان مجرد التفكير بما يمكن أن يحدث لو أن البطاقة بقيت في الجهاز يصيبني بالرعب حتى بعد حوالي سنة من ذلك اليوم. كان لدي أسباب أخرى للخوف، وهي مذكرة التوقيف التي دائماً ما احتفظت بها منذ أن أعطوني إياها في السجن، للتباهي في بعض الأحيان، وللتصدي لبعض فذلكات وتجاوزات الثوار في أحيان أخرى. وبالطبع كوني

معتقلاً سابقاً كان يعني أني قد أكون في أي قائمة للمطلوبين لدى قوات الأمن. أقل الأسباب التي كنت أخشى أن تسبب لي مكروهاً هي الهوية المكسورة التي كانت سبباً كافياً للاعتقال أو للإهانة التي لم أنتبه إليها إلا بعد ذلك الموقف العصيب. فلم أعان سابقاً هذه المشكلة حتى في فرع الأمن العسكري، ولدى مروري من أمام العديد من حواجز النظام. يبدو أن هذا الأمر قد بدئ بتطبيقه منذ فترة قريبة من ذلك اليوم.

أول ما طلبه العنصر هو هاتفي الجوال. بدأ يتفحّص محتوياته دون أن ينتبه إلى نزع بطاقة الذاكرة. سألني بعدها فيما إذا كان لدي برنامج السكايب، فأجبته بالنفي دون أن أعرف أن الجهاز يحتوي هذا البرنامج أو العكس، فلم أكن أستخدمه في مراسلاتي، ولا أعرف من أين كنت سآتي للعنصر بحساب سكايب وكلمة سر إذا كان موجوداً في جهازي. بعد لحظات توقف عن تفحص الجهاز وعاد يوقف السيارات المارة من أمام الحاجز، فعرفت أنه لا داعي للقلق مما يحتويه الموبايل.

بدأ العنصر باستفزازي، وراح يكرر تهديده باعتقالي بسبب الهوية المكسورة، وبأنه لا يستطيع تركي أذهب، وبأن الموضوع قد خرج من يده. دافعت عن نفسي بالقول:

إني موظف وعرضت عليه بطاقة الوظيفة وقلت له:

إن دائرة النفوس مغلقة منذ زمن في القرية، وبأن الحواجز التي أمرّ بها يومياً لم تعترض على الهوية المكسورة. رفض كل محاولاتي، وبدأ يهدد بأنه يمكن أن يفعل بي ما يشاء. لم أردّ عليه وخصوصاً أن بطاقة الذاكرة مازالت في جيبي. رأيت نظرة التعاطف الكبيرة معي من ركاب السيارات التي كانت تمر على الحاجز، ولسان حالهم يقول "الله يحميه ويستره". بعد قليل أوقف الحاجز ذاته سيارة شاب في الثلاثين من عمره، وطلب منه الترجل. فعل الشاب ما أمره محاولاً أن يحتفظ بابتسامته قدر الإمكان، لكن هذه الابتسامة تحولت إلى نظرة لم أشاهدها إلا على وجه زكريا لحظة اعتقاله، يوم بركان حلب. كان الشاب صيدلانياً من عائلة معرّاوي.

بعد نحو نصف ساعة قدم بيك آب دبل كبين، وترجل منه أربعة رجال يثير مجرد النظر إليهم الرعب، وكأنهم خرجوا للتو من فيلم "سيد الخواتم"،

ولأن ذلك العنصر الذي أوقفنا ظهر كالحمل الوديع أمامهم بعد أن كان "يطول ويقصر" قبل قليل. توجهنا برفقة ذلك العنصر إلى أحد الرجال بعد أن ترجلوا وبدا أنه المسؤول عن الحاجز. أعطاه هوية الشاب معرّاوي، وسأله "هادا مو مطلوب سيدي؟" أجابه العنصر المسؤول بأن يأتي به فوراً ويحتفظ بسيارته. بدا أن السيناريو الأسوأ قادم بعد أن أعطاه هويتي معللاً أنها مكسورة. سأله بعد أن نظر إلى مكان القيد فيما إذا كان موبايلي نظيفاً فأجابه بالإيجاب، فقال المسؤول: "خلي ينقلع". كانت أجمل تقليعة حصلت معي في حياتي كلها. مضيت لأستقل الباص، وأنا لا أكاد أستطيع المسير، لعنت من كان السبب في هذا الموقف الذي عاناه الكثير غيري لمجرد كسر هوياتهم. كنا شعباً ضائع الهوية حتى لو كانت في جيبه. بعد ما عشته رميت يمين الطلاق بالثلاثة على المناطق المحتلة.

مزيد من الإشكاليات

كان دخول الجيش الحر إلى المدينة ضربة كبيرة لقوات النظام، إذ فقدت أكبر مدن البلاد سكاناً واقتصاداً وصناعة وتجارة، وطالما تردد في أوساط الإعلام المؤيدة والمعارضة للنظام بأنها ستبقى وفيّة له. فشكلت حلب منذ سيطرة الجيش الحر على غالبية أحيائها ثقباً أسود كان يبتلع التعزيزات التي يرسلها النظام إلى المدينة، فسجلت أرقاماً قياسية بعدد القتلى والمنشقين عن قوات النظام في معارك المدينة، فضلاً عن الأعداد الكبيرة من الآليات المدمرة والطائرات المسقطة، بعد تطور كبير في قدرات الجيش الحر ودفاعه الجوي على صعيد الرشاشات الثقيلة التي ازدادت أعدادها بشكل لافت، إضافة إلى محاصرة الثوار لمطارات المدينة العسكرية، وشل حركة الطيران منها وإليها. تقدم النظام في بعض المناطق إلا أن تقدمه لم يزدد عن التقدم الذي كان الثوار قد أحرزوه.

أقصد بهذا الوضع حين كتابة هذه الأسطر أواخر عام 2013.

مع انتقال المعركة بشكل كبير إلى قلب مدينة حلب توالى سقوط ما تبقى من الريف بقبضة الجيش الحر بعد انكفاء قوات النظام إلى داخل المدينة محتفظة ببعض نقاط يعدّها هامة لوجستياً. بلدتي التي ولدت وانتقلت للعيش فيها بصفة نصف نازح تحرّرت في شهر آب عن طريق سيطرة مسلحين من الجيش الحر عليها، فأهلها في ذلك الوقت لم يجرؤوا، ويا لخيبة الأمل الكبيرة على التظاهر ليقوموا بتحريرها عسكرياً. العملية كانت هادئة جداً ودونما إطلاق نار أو إسالة دماء، كونها كانت مرتبة بنوع من التنسيق أو أخذ علم مسؤوليها. فقسم من العناصر انشق ورافق الثوار، وآخر، كمدير الناحية، التحق بناحية قريبة ليعود، ويعلن انشقاقه لاحقاً.

فتح تحرير مناطق واسعة من المدينة وريفها الباب على مصراعيه لعناصر النظام من أبناء هذه المناطق للإسراع إلى الانشقاق والتوجه فوراً إلى المناطق المحررة. تغيرت العقلية فيما يتعلق بهذا الموضوع وخصوصاً بعد تزايد الخطر

على عنصر النظام مع تأخره بالانشقاق عن زملائه، وأظن أن غالبية سكان المناطق المحررة حضر حفل استقبال ذوي المنشق لابنهم الذي قد يكون غاب لأشهر طويلة. شخصيا حضرت الكثير منها حيث تسمع الزغاريد وتطلق رصاصات الفرح في الهواء وتوزع الحلوى في بعض الأحيان.

لكن مع هذا التقدم العسكري في المدينة كانت هناك أمور عظيمة لم تظهر للعلن ولا يجب إغفالها، فعلى صعيد ثورة حلب المنشودة كان التأثير كارثياً. فدخول الجيش الحر إلى المدينة كان في مرحلة حاسمة من ثورتها السلمية. فكما رأينا كانت حلب تشهد تحولاً متسارعاً باتجاه الثورة، وكانت مسألة وقت حتى تثور المدينة بكامل سكانها وتتحرر من الاحتلال الأسدي. وأقصد هنا تحرّر الإنسان قبل تحرير الأرض، فما قام به الجيش الحر كان تحريرا للأرض الذي أراه عملاً يجب أن يتبع تحرير الانسان. فما الفائدة الآن من تحرير مناطق لم يفهم سكانها معنى الثورة وليسوا مستعدين للمشاركة بها، إذ أنهم مازالوا يرونها عملاً عبثياً لا نتيجة ترجى منه. وأظن أننا بتلك الخطوة المستعجلة من الجيش الحر خسرنا جزأً كبيراً من الحاضنة الشعبية للثورة، كان كفيلاً وفي أشهر قليلة من الحراك السلمي بانضمامها إلى الثورة. ولا يخفى على أحد أهمية الحاضنة الشعبية التي تقدم للثورة من مقاتلين وإعلاميين وأطباء، والأهم من كل ذلك الممولين للعمل الثوري. فكانت الغالبية العظمى من المقاتلين من خارج المدينة، من الريف الحلبي والإدلبي تحديداً. فظهرت عملية التحرير وكأنها احتلال لإحدى قواعد النظام.

بالطبع لم نكن نريد أنْ تبقى حلب في أيدي قوات النظام، إلا أننا كنا نرغب في أن تمر بالمراحل الثورية كافة، وأن تأخذ كل مرحلة وقتها إلى أن نصل إلى مرحلة الكفاح المسلح. أسباب كثيرة جرى تداولها حول قيام الثوار بهذه العملية، إلا أن حماستهم ورغبتهم بنصر سريع أهم أسبابها، ولعل أشخاصاً فاعلين بين الثوار يطلعوننا على أسباب أخرى، كتدخل دول خارجية، أو كما توقع أحدهم بأن ثوار الريف أرادوا أن يقطعوا الطريق على ثورة المدينة الكبرى التي قد تستحوذ على اهتمام الجميع بسبب ثقلها المحلي والإقليمي.

انتقال المعركة إلى داخل المدينة الذي تحدثنا عنه حمل تأثيراً مدمراً عليها، فعمليات القصف بدأت ولا يعرف أحد متى تنتهي. قذائف الطائرات

والدبابات والمدافع وراجمات الصواريخ العادية والبالستية بدأت بالتساقط على الأحياء السكنية في المدينة على مدار الساعة وفي جميع أيام الأسبوع. كانت تلك خدمة لا يمكن أن يقدمها إلا نظام الأسد لمواطنيه. فلا يمكنك الآن وأنت تسير في أحياء حلب المحررة، أن تنظر إلى أي مكان دون أن تقع عينك على جزء مدمر منه، إن لم يكن مدمراً بالكامل. كان السكان المدنيون يدفعون فاتورة باهظة لقاء تحرير مناطقهم. بعضهم يدفعها مرحباً كونها ثمناً لا بد منه، وأكثرهم يدفعها مرغماً لأنه لم يفهم حقيقة هذه الثورة وغاياتها، فكل ما رآه عمليات سرقة ونهب و"تشويل". هكذا كان الأمر يبدو لكل إنسان غير متابع لتفاصيل الأمور. ومع السيطرة على أيٍّ حي كان الثوار يخوضون معارك شرسة، بينما ينتشر اللصوص ليسرقوا أملاك الدولة في البداية، ثم تمتد أيديهم إلى أموال الناس! وثمة خطف للأفراد لقاء مبالغ مالية دعماً للثورة كما يزعمون.

عاني الحلبيون في ذلك الوقت الأمّريين. فمع خطر الموت الذي أحاط بهم بفعل القصف اليومي، كان عليهم أن يتحملوا مجموعة لصوص يرتدون لباس الجيش الحر ويرفعون شعاراته ويهتفون بهتافاته، إلا أن جبهاتهم كانت أموال الناس وممتلكاتهم، إضافة إلى تسلّط هؤلاء على الناس بكثرة أوامرهم ونواهيهم وتصرفاتهم التي لا تختلف أبداً عن تصرفات أزلام النظام. فكانت تجري عمليات تعذيب للمدنيين لأسباب شتى، فضلاً عن الاعتقالات اليومية، وفرض "خوّات" على أصحاب المحلات والمنشآت. وأمور أخرى كثيرة كالرشوة والمحسوبية والشتائم التي أعادت الوضع إلى ما كان عليه أيام النظام، بل إلى أسوأ من ذلك، فالنظام كان فساده منظماً، ويختلف عن حالة الفوضى العارمة التي كانت تشهدها الأحياء المحررة.

في تلك الظروف أصيبت الثورة بمقتل، أو بتعبير آخر فقدت عذريتها. فالناس بعد كل ما عانوه، لعنوا الثورة واليوم الذي ولدت فيه. من كان لديه إمكانية مغادرة البلد قام بذلك، ومن لم يستطع أخذ حسبه الله وجلس متكيّفاً مع الموت والخراب.. فإما أن يموت أو يموت له عزيز أو يهدم له بيت أو يخطف أو يشارك بتخليص عزيز مخطوف. ولا أظن أن أحداً في هذا البلد لم يصبه شيء من هذه الأمور، ولا أستغرب وجود الكثيرين ممن عاشوها كلها.

* * *

في الفترة ذاتها بدأ يظهر اسم جديد على الساحة ثار حوله الجدل، وكثر حوله الكلام. إنها "جبهة النصرة" التي لم تكن معروفة في ذلك الوقت كما نعرفها الآن وأقصد بالآن أواخر عام2013. في البداية كانت إحدى الأسماء الكثيرة التي يتداولها الناس في المعارك المتوسّعة مع النظام. بدأت بعض وسائل الإعلام تنعتها بالتطرف وبتبعيتها للقاعدة! إذ تضم عديد المقاتلين الأجانب. حاولنا أن نعرف عنهم المزيد من التفاصيل إلا أنهم كانوا، وخصوصاً في بداية نشاطهم منغلقين على أنفسهم، وكل ما عرفناه أن أميرهم أبا محمد الجولاني مجاهد سوري في تنظيم القاعدة. لا يرفعون علم الاستقلال بل لهم رايات تحمل عبارة: "لا إله إلا الله محمد رسول الله". كانوا مقاتلين شرسين مدربين ومنظمين، ولعلهم أقوى فصيل مسلح في الثورة السورية.

بعد فترة قليلة من نشاطهم في سورية وضعتهم الولايات المتحدة على قائمة الإرهاب، وتبعها مجلس الأمن. شكل ذلك استفزازاً للسوريين، فالسرعة التي صنفت فيها النصرة، والتوافق الدولي، يدفع للتساؤل عما يجري بين الدول الفاعلة والمفعول بها، وعدم توفر السرعة والحزم والتوافق على نظام قتل مئات الآلاف من المدنيين في مجازر تستمر منذ ربيع الـ 2011.

بالطبع أثار وجودها بين الثوار جدلاً كبيراً إذ كانت تصديقاً للكذبة التي استمر النظام يرددها، وهي أنه يواجه عصابات تنتمي إلى القاعدة ويحارب أجانب من مختلف بلدان العالم.

بالنسبة لي كان الكلام عن المقاتلين الأجانب فيه وجهة نظر، فلم نكن نعاني نقصاً بالرجال، بل إن ما طلبناه من مناصري الثورة السورية هو السلاح الذي نواجه به آلة النظام العسكرية. لكن للأسف من كان يريد أن يقاتل في سورية لم يكن بحاجة إلى إذن من أحد، ولا يستطيع أحد منعه في تلك الفوضى.

كانت الجبهة مثالاً للالتزام والاحتراف والتنظيم، وهذه سياسة اتبعوها لرفع شعبيتهم بين الناس، واستقطاب المقاتلين الذين صدموا بالتصرفات التي قام بها الكثير من ثوار الغفلة الذين لا يعرف أحد من أين ظهروا بعد تحرير غالبية مدينة حلب. وهذا ما لمسه الجميع مع توسع نطاق سيطرتهم التدريجي. بالمقابل كان تعاملهم قاسياً جداً مع عناصر النظام وشبيحته، فكان النظام يتلقى الضربات الموجعة منهم في المعارك، وكان الأسرى الذين

قاتلوا مع النظام دون أن يقبلوا الاستسلام غالباً ما تجري تصفيتهم. هذا الأمر تدريجياً لم يعد محصوراً بجبهة النصرة بل أصبح لدى كل مقاتل من مقاتلي.

كان وجود جبهة النصرة في صفوف الثوار السوريين هدية لا تقدر بثمن حصل عليها نظام الأسد مجاناً. فاستغل إضافة جبهة النصرة إلى قائمة الإرهاب ليصور أنّ معركته مع تنظيم القاعدة العدو الأول لكل دول العالم. كما استفاد من وجود المقاتلين الأجانب مع الجبهة رغم غالبيتها العظمى من السوريين، ليجند المرتزقة الشيعة بعد أن أصبح لهم بالفعل أعداء في الداخل. ومع الكثير من التضخيم الإعلامي الذي قام به النظام حول الأجانب، ارتفعت أعداد المقاتلين الشيعة إلى جانب النظام ما كان له الأثر الكبير في مسار الثورة السورية.

بالمقابل حصلت جبهة النصرة على هدية مماثلة من النظام السوري، فأدت المشاهد القاسية للمجازر التي يقوم بها إلى توجه العديد من الشباب المتحمس لنصرة السوريين بالقتال معه، فقامت بتجنيد العدد الكبير من هؤلاء الشباب لإعادة بناء مشروع القاعدة المتجدد كل فترة في منطقة مختلفة. إلى أدى وجودهم إلى تحميل الثورة السورية عبئا جديدا، وأوزاراً لم ترتكبها، وأضاف لها بعداً جديداً هي في غنى عنه. بالإضافة إلى الإشكاليات والعقد التي حملها منظروا القاعدة إلى سوريا والتي أدت إلى شق الصف، وإدخال الثوار في مهاترات وقضايا سياسية ودينية وتاريخية وعسكرية متراكمة على مدى مئات السنين.

نتيجة معارك الجبهة القوية ضد قوات النظام، وبسبب الموقف السلبي لكل القوى الفاعلة تجاه الثورة السورية حصلت على شعبية لا بأس بها لدى السوريين في المناطق المحررة، أدت إلى مزيد في الانقسام بينهم، فالكثير منهم ظن أن وجود جبهة النصرة في سوريا ستكون نهايته كارثية على الثورة وأن الغرب لن يسمح بالنهاية بوجودهم وتوسع نفوذهم في سوريا، وبالتأكيد سيكون الأسد الرابح الأول من ذلك.

* * *

تلا تلك المرحلة حملة إعلامية عالمية لتشويه صورة الثوار عبر بعض التقارير المتتالية من المنظمات الحقوقية التي اتهمت ما أسمته قوات المعارضة بارتكاب انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان في مختلف المناطق.

إضافة إلى التركيز على أحداث ذات بعد طائفي. فكان بإمكان خبر كإعدامهم لشبيحة النظام الذين ارتكبوا مجازر بحق المدنيين السوريين، أن يغطي على أخبار القصف اليومي بمختلف أنواع الأسلحة على المدنيين. الغريب أن هذه التقارير نزلت برداً وسلاماً على وكالات الأنباء ووسائل الإعلام والحكومات الغربية، التي تناقلت هذه الأخبار على نحو مكثف، ليتكرّس الوضع الجديد ويكون لدينا الآن طرفا نزاع ينتهكان القانون الدولي وحقوق الإنسان، بدلاً من نظام دكتاتوري وشعب يتحرر.

هذا التوجه الإعلامي الجديد عكس نظرة القوى العالمية للصراع الدائر. فحررت بذلك الدول الغربية والمنظمات الدولية نفسها من التزامها بنصرة الشعب السوري، متحدثة وموجهة كلامها دائماً إلى طرفي النزاع ليلتزما بالقانون الدولي. وتحول الحديث عن ثورة الشعب السوري ليصبح عن الحرب الأهلية التي تدور في سورية، وعن كونها جزءاً من حرب إقليمية هي جزء من صراع دولي على المنطقة.

كان التوافق الوحيد بين القوى العالمية حتى الآن حول القضية السورية هو مسألة التوازن بين طرفي النزاع إذ لا ينتصر طرف على الآخر، ريثما يتم التوافق على حل يرضي الجميع. ويبدو أن قراراً بإنهاء حياة هذا المولود الجديد قد اتخذ. فأصبحت تصريحات المسؤولين الغربيين ترتكز على الحل السياسي وعدم السماح للأزمة بالانتقال إلى دول الجوار، وعدم السماح للمتطرفين بالوصول إلى التنظيم في سورية، وعدم وقوع الأسلحة الكيميائية في الأيدي الخاطئة، وغير ذلك من أمور جانبية، وتناسوا أصل المشكلة التي يشكل استمرارها موتاً يومياً للسوريين. فلم تحل المساعدات الإنسانية مشكلة السوريين، ولم يخفف عنهم قلق "بان كي مون" المستمر، ولا الزيارات الاستعراضية لإنجيلينا جولي للاجئين. كان السوريون كالمصابين بالكوليرا وطبيبهم المجتمع الدولي يعطيهم أدوية للإنفلونزة.

بالطبع لا أنكر ارتكاب الثوار للكثير مما يعدّ انتهاكاً لحقوق الإنسان كالإعدامات الميدانية للجنود وللشبيحة بعد وقوعهم في الأسر، وكتعذيب عناصر النظام. إلا أن الشيء بالشيء يذكر، فلا يجب أن نأخذ الأمور بمعزل عن ظروفها ومسبباتها، ولا يمكننا بأي حال من الأحوال أن ننشغل برد الفعل

ونترك الفعل. **هل سأل أحدكم نفسه ما الذي دفع السوريين ليصبحوا على تلك الوحشية، ويرتكبوا ما ارتكبوه؟ الأمر بسيط وطبيعي، ويمكن لأي إنسان منكم أن يتحول إلى وحش لو تعرض لما تعرض له السوريون. هل سحب أحدكم أطفاله أو بقايا أطفاله من تحت الأنقاض؟ هل عُذب عاريا في أقبية النظام وهو يتوسل لمعذبيه أن يجهزوا عليه؟** هل ديس على رأسه من قبل شبيح وأطلقت الشتائم على دينه وربه وعرضه؟ هل سرقت ونهبت محتويات منزله وبيعت في حارات المؤيدين بأبخس الأثمان؟ هل حرق منزله لمجرد التسلية؟ هل اغتصب الجيش الباسل أخته أو زوجته أمام عينيه؟ هل حوصرت مدينته وقطع عنها الماء والغذاء؟ هل اضطر لأكل أوراق الشجر والقطط والكلاب؟ كل هذا وما يسمى المجتمع الدولي يطالب الطرفين للجلوس إلى طاولة الحوار.

هموم

للسوريين في تلك الأيام هموم تظهر للخارج عبر وسائل الإعلام ويضيع أكثرها في زحمة أحداث أخرى، قد تظهر أكثر أهمية مما يمر فيه يومياً. الأكيد في ذلك الوقت أن حياة السوري أصبحت هما متواصلاً أو تراكماً للهموم قد ينسى الهام منها أمام الأهم. فما الهم والمصيبة التي يمكن أن تحجز لنفسها حيزاً في تفكير السوريين، إذا عرفنا أن جل تفكير أكثرهم محصور في مهمة البقاء على قيد الحياة ليوم آخر. بالطبع تختلف الهموم بين الناس تبعاً لمناطق سكنهم وأماكن وجودهم في المكان والزمان المناسب أو غير المناسب. كذلك تختلف المأساة فيما إذا كان السوري لديه عائلة يعيلها أو عائلة تعيله. وأصدقكم القول: إنه في ذلك الجحيم كثيراً منا تمنى إن يكون مقطوعاً من شجرة لا يحمل إلا مسؤولية نفسه. ومن البديهي أن يكون للهموم السابقة لانطلاق الثورة لكل إنسان أبعاد ومضاعفات أخرى في ذلك الوقت، فمن كان مريضاً بمرض مزمن أصبحت مسألة تأمين دواء له محفوفة بالكثير من خيبات الأمل. سأتكلم الآن عن أمثلة هموم السوريين والتي أترك لكم مهمة ترتيب أهميتها وحجمها بالمقارنة مع غيرها.

بالطبع لا يمكنني أن أبدأ بشيء من هموم السوريين قبل هم القصف الذي يطول غالبية مدن وقرى البلد. في البداية كانت الرشاشات الثقيلة المضادة للطيران ومن ثم قذائف الهاون ولاحقا قذائف الدبابات ثم مدافع الفوزديكا وراجمات الصواريخ ورشاشات الطيران المروحي والمقاتل، ومن ثم تطور الأمر لينزل على رأس السوريين كل ما يملكه الجيش السوري الخائن من ترسانة أسلحة التي دفع ثمنها من تستخدم ضده. لم تكن تلك المفارقة الوحيدة في هذا الصراع على أية حال. تم استخدام صواريخ الطيران الفراغية والصواريخ البالستية ذات القدرة التدميرية الكبيرة، التي بإمكان كل واحد منها أن يزيل عن الوجود عشرات المنازل بما فيها من سكان وذكريات.

أما السلاح الذي يسجل باسم النظام كبراءة اختراع فقد كان البراميل

المتفجرة، التي كانت ترميها المروحيات لتحقيق أكبر قدر ممكن من الضحايا بأقل قدر ممكن من التكلفة. كان النظام يسترخص أن يقتل الشعب السوري بأسلحة متطورة. فأتى بالبراميل المحلية التي ما هي إلا وعاء حديدي يحتوي على نحو 200 إلى 400 كغ من المتفجرات، وألوان من خردة الحديد. كان البرميل الواحد، يسبب إضافة إلى الدمار الكبير في المنازل، إصابات لا يمكن الشفاء منها، فمن أصيب بشظية برميل متفجر ونجا، بطريقة أو بأخرى، سيصاب بتشوهات أخرى كثيرة.

النظام كان يستهدف المدنيين مباشرة دون أن تقترب قذائفه في الغالب من مقرات الثوار العسكرية والمدنية المنتشرة في المناطق كافة. لا أدري تحديداً ماذا يستفيد عسكرياً من استهداف المدنيين. هل هو مجرد انتقام من كل ما هو خارج سيطرته بشراً وحجراً، أم هي سياسة تهدف لخلق حالة من الحنق والغضب على الثوار؟!

هذه الحالة من الغضب والكره للثوار كانت تزداد مع ازدياد القصف واستمرار سقوط المدنيين، إلا أن هذا الشعور كان مضاعفاً تجاه النظام. لكن متى كان النظام يعوّل على الحاضنة الشرعية أو الشعبية؟ لم يكن يعرف غير القبضة الحديدية، وما تبقى مسرحيات هزلية يرسلها للخارج.

كما لم يتوقف القصف بالرشاشات الثقيلة التي تقوم بها طائرات النظام مع حلول الظلام على أي ضوء يسير على أحد الطرقات ليلا، ما فرض نوعا من حظر التجوال على السيارات ليلا، ومن كان يرغب أن يستقل سيارته كان عليه أن يسير بدون أن يشغل الأنوار، ودون أن يصطدم بشخص آخر يسير مثله بدون أي مصدر للضوء.

بالمختصر، قضى السوريون جزءاً من حياتهم يهرولون هرباً من قذيفة سقطت قريباً أو مسرعين لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الضحايا. قضوه فرحاً بأي عاصفة تضرب المنطقة لتمنع الطيران من التحليق في هذه الأجواء، بينما كان إخوان لهم يتجمدون برداً في مخيمات النزوح بسبب العاصفة ذاتها. كما قضى أطفال السوريين أياماً يجمعون شظايا القذائف ليلعبوا بها، بعد أن أصبحت ثقافتهم تتمحور حول الميغ والسوخوي واللام 39 ومختلف أنواع الدبابات والمدافع.

عمليات القصف تطورت لتصل إلى مناطق يسيطر عليها النظام، ويقوم بها الثوار، وغالباً ما تصيب المدنيين في تلك المناطق، إما خطأ لدى استهداف مقر أمن، وإما عمداً كرد فعل على قصف النظام. وبالطبع لا يمكن أن نستثني النظام من هكذا عمليات! فعندما لا يقوم الثوار بهذه الحماقات كان النظام يفعلها. فهو أكثر المستفيدين من كل قذيفة تسقط فوق رؤوس المدنيين، بينما الثوار لا يبصرون هذه الحقيقة.، وكانوا بجهلهم يلعبون في فريق النظام.

* * *

إنّ أكثر ما أرّق السوريين في الفترة تلك، هو اختفاء أحد الأقارب أو الأصدقاء بطريقة غامضة أو غير غامضة، لجهة مجهولة أو معلومة. أسباب حالات الاختفاء كانت كثيرة ومتعددة تبعاً لعدد الجهات التي يمكن أن تقوم بمثل هذه الأعمال. فمن الممكن أن يكون النظام أو شبيحته هم من قاموا بذلك لأسباب مختلفة كتشابه الأسماء أو تقرير أمني. إن قيام النظام بعمليات الخطف خطير جداً، فمن الممكن ألا يعود المخطوف إلا بعد أشهر طويلة من التعذيب، لتصل في كثير من الحالات إلى الموت تحت التعذيب، وخصوصاً ممن تثبت علاقته بالثوار من مقاتلين وإعلاميين وهيئات مدنية. فالمعتقل شهيد حتى يثبت العكس. وأظن أن ما جرى معي في كوكب القرود هو خدمة خمس نجوم، إذ كانت حلب مدللة لدى النظام وكذلك أهلها، ويجري تلافي الأخطاء التي ترتكب في باقي المناطق.

بالتأكيد النظام ليس هو الجهة الوحيدة التي كانت تقوم بخطف الناس، فالثوار بدورهم قاموا بعمليات خطف عديدة لأسباب يعد بعضها مقبولا، مثل وجود دليل على تعامل شخص ما مع النظام أو نقل الأخبار له، والتسبب في اعتقال الكثير من الناس أو تسهيل عمليات القصف وتزويد النظام بالاحداثيات. لكنهم كانوا أحيانا يقومون بعمليات اختطاف لا مبرر لها، مثل علاقة القرابة بين المختطف وشبيح معروف أو ضابط كبير، للقيام بعملية تبادل للأسرى أو لإجبار الضابط على الانشقاق. كما قام الثوار أو المحسوبون على الثورة بعمليات خطف يندى لها الجبين، كخطف الناس وطلب الفدية مقابل إطلاق سراحهم والقيام بعمليات تعذيب تقارب عمليات النظام في هذا الخصوص. شخصيا لا يمكن أن أعدّ هؤلاء ثواراً وإن كانوا يرفعون أعلام

الثورة ويهتفون بشعاراتها. فثوار الغفلة قدموا للنظام مساعدة كبيرة. فالجميع يعرف نماذج الشبيحة ممن تركوا صفوف النظام لينضموا إلى الثوار بعد أن اشتد عودها.

إضافة لذلك كان لدينا اللصوص وقطاع الطرق الذين انتشروا في غالبية المناطق وقاموا بداية بخطف سيارات ومقتنيات السوريين ليقايضوا عليها بمبالغ مالية أو يحتفظوا بها لأنفسهم. ولاحقا بدؤوا بخطف الناس ليطالبوا بفدية مالية كبيرة تقدم إلى وسيط كفاعل خير حقيقي، أو شخص يمثل دور فاعل الخير في حين أنه يعمل بنفس الشبكة. غالباً ما تدرس حال المخطوف مسبقاً، فالأفضلية للميسورين القادرين على دفع مبالغ كبيرة. إضافة إلى حالات الخطف الطائفي التي كانت تجري في مناطق متعددة الطوائف، وغالباً ما تهدف إلى تجميع عدد كبير من المختطفين لتقوية عمليات تبادل الأسرى التي كانت تجري بين فترة وأخرى..!

صار واجباً على السوريين الحذر في تجوالهم، فلم يكن عليهم التنقل إلا على شكل قوافل صغيرة ومسلحة وخصوصاً ليلاً، حيث تهدأ الطرقات خارج المدن والقرى، وفي المناطق كافة.

* * *

النزوح أو اللجوء أو التهجير أحد أهم ما كان يعانيه السوريون منذ بداية الثورة والهموم التي تشغل بالهم. أظن أن أولى حالات النزوح واللجوء إلى دول الجوار كانت في مدينة جسر الشغور وريفها، بعد أن توجهت أعداد ضخمة من الدبابات والجنود لاقتحام المنطقة ووأد الثورة فيها. فقد توجه عشرات الآلاف إلى المدن والمناطق المجاورة خوفاً من بطش قوات النظام، بينما فر عدد قليل منهم إلى الأراضي التركية، وقامت الحكومة التركية باستقبالهم وبناء مخيم لهم. لاحقاً ومع استمرار الثورة واشتداد عمليات القمع والقصف والملاحقة، ازدادت أعداد اللاجئين بشكل كبير في الدول المجاورة لسورية ولاحقا في مختلف دول العالم. بينما قرر الكثير منهم النزوح إلى مدن أكثر أمناً في الداخل السوري. إلا أن أسباب النزوح كانت تلاحق أولئك باستمرار إلى المناطق التي نزحوا إليها، فدخل الكثير دوامة من النزوح غير المستقر.

ملايين السوريين عانوا النزوح واللجوء إلى دول الجوار تاركين خلفهم بيوتهم وأعمالهم وأرزاقهم ومشاريعهم وأحلامهم، مفارقين أحبة لهم. بعضهم سكن الخيام داخل وخارج سورية، وبعضهم استطاع الاستقرار في مكان ما وتأمين ما يكفي للعيش، وآخرون قرروا المغامرة وركوب البحر للوصول إلى الشواطئ الأوربية.استخدمت المدارس والجوامع والمؤسسات العامة لاستيعاب أعداد النازحين، وكثير من الناس قدموا بيوتهم مجاناً، بينما قام بعض الناس باستغلال أزمة النازحين لزيادة أسعار البيوت وإيجاراتها.

النظام السوري شن حملة إعلامية حقيرة ضد اللاجئين ليتهمهم بالتعامل مع الخارج، وأطلق عليهم الإشاعات عبر وسائل الإعلام لتشويه صورتهم. ولكن عندما شكل اللاجئون أزمة عالمية حاول النظم استغلال ذلك ليظهر اللاجئين ضحايا العصابات الإرهابية، بينما لم يجرؤ أي مسؤول في النظام على زيارتهم، ولا أظن أنهم سيجرؤون يوما على ذلك.

بالطبع الكثير من الدول والمنظمات والشخصيات قدمت مساعدات كبيرة للتخفيف عن اللاجئين من ظروفهم وخصوصاً في أيام الشتاء العاصف وتراكم الثلوج، إلا أن هذه المساعدات كانت دائماً غير كافية نظراً لعدد اللاجئين وحاجاتهم الكبيرة، إضافة إلى أن همّ اللاجئ الأول هو العودة إلى دياره وهذا لا يتحقق إلا بزوال الأسباب، وأولها إيقاف القصف العشوائي والاعتقال على الشبهة. فلطالما ابتز النظام معارضيه بأهاليهم.

لا نلوم بالطبع بعض الدول الضعيفة اقتصاديا كالأردن ولبنان لأنها لم تقدم مساعدات توازي حجم الأزمة، إلا أني ألوم دولاً كالمملكة السعودية التي كانت مساعداتها لا تقارن بحجم الضرر الذي تسببت نوعاً ما به للسوريين، بتأجيجها للصراع وليأخذ شكله الطائفي، ولتصبح الثورة السورية ساحة تصفية حسابات بينها وبين إيران. وأظن أن ما حدث للسوريين في دول الخليج من تضييق في موضوع الإقامات أمر غير مشرف أبداً.

* * *

ومن الطبيعي في مثل تلك الظروف أن يكون الهم الاقتصادي أحد أكثر الأمور التي صدعت رؤوس السوريين واستمرت تتفاقم مع استمرار الثورة. فالليرة السورية فقدت الكثير من قيمتها الشرائية، بسبب التضخم الحاصل

كنتيجة طبيعية للحرب في البلد، بالإضافة إلى تحويل الكثير من الناس مدخراتهم إلى عملات أجنبية يمكن الثقة نوعا ما بثباتها واستقرارها. فارتفعت الأسعار بشكل كبير أضر بالسوريين الذين كان راتبهم سابقا يكفي إلى نهاية الشهر من غير دين. كذلك فقد الكثير من العمال أعمالهم نتيجة إغلاق المعامل والمنشآت التي كان أمر تحييدها عن الصراع شبه مستحيل. كما أدى هروب رؤوس الأموال السورية إلى الخارج في وقت مبكر إلى تفاقم ذات الأزمة. وبالنسبة لمن استطاع الصمود في تلك الظروف كانت مسائل مثل تقطّع الطرق وصعوبة التنقل وصعوبة تأمين المواد، عوامل تؤدي إلى ارتفاع كبير في أسعار المنتجات فوق الارتفاع الذي سببه التضخّم في الاقتصاد.

ومع ارتفاع أسعار المواد كانت مسألة فقدان بعضها من السوق مؤرّقا كبيرا كذلك. مواد مثل المازوت والبنزين والخبز والطحين مرت عليها فترات طويلة أو قصيرة استحال تأمينها إلا بأسعار خيالية في السوق السوداء، ما ضاعف الأعباء الاقتصادية على الجميع.

كما تميزت تلك الفترة بانخفاض كبير في مستوى الخدمات المقدمة للسوريين. فالكهرباء كانت في أحسن الأحوال تأتي لساعات في اليوم، ولا حاجة للقول إن أكثر السوريين قد مرت عليهم أشهر متواصلة دون كهرباء. المياه تؤمن بصعوبة بالغة، وخصوصاً في المدن المكتظة. انقطاع الاتصالات شبه كامل. الخدمات الطبية تأثرت كثيراً وخصوصاً مع هجرة غالبية الأطباء السوريين إلى الخارج، بالإضافة إلى انخراط الكثير من المشافي في الصراع. بالمختصر كانت حياة السوريين الخدمية بدائية جداً وتشبه الحياة في بداية القرن العشرين. فكان على السوريين إعادة استعمال أمور كثيرة انقرضت كوابورات الكاز ومصابيحه، وتحضير الخبز يدوياً في البيوت. صار المواطن ينام باكراً ليستيقظ باكراً في الشتاء للاستمتاع بنور الشمس والاستفادة منه إنارة ودفئاً. وعلينا شكر اليابانيين الثلاثة الحائزين على جائزة نوبل للفيزياء لاختراعهم اللِّد الضوئي الذي يستخدمه السوريون اليوم.

* * *

في ظل كل ما ذكرنا من هموم ومشاكل واجهت السوريين، من الطبيعي تراجع أهمية التعليم إلى مراتب متأخرة. ففي بداية الأزمة لم يتأثر القطاع التعليمي إلا بشكل بسيط وخصوصاً في جامعة حلب كما فصّلنا سابقاً، إلا

أنه مع دخول السلاح، وتنامي عمليات القصف والخطف وقطع الطرقات والنزوح كان لا بد للأهالي من التفكير بعمق قبل إرسال أبنائهم إلى المدارس وخصوصاً الصغار منهم، فالكثير من طلاب الجامعات التحقوا بالثوار تاركين دراستهم غير قادرين على إتمامها أصلاً بسبب الوضع الأمني، كما حدث معي بالذات. استمر التعليم نوعاً ما في المناطق شبه الآمنة، إلا أن أكثر الناس استثنت عملية التعليم من حياتها في مثل تلك الظروف. وكان الأمر غاية في الخطورة على مستقبل البلاد إذ لا تظهر النتائج فوراً، وبالتأكيد لن نستطيع تجاوز النتائج المتوقعة إلا بعد عقود وأجيال.

* * *

السوريون لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام ظروفهم الجديدة فلا بد للحياة أن تستقيم. ساعدتهم الأرض بإمكانياتها وخيراتها. إذ تدبّر الناس في الريف الخبز في منازلهم، وأعيد تشغيل الأفران في العديد من المناطق بعد توفّر طحين القمح أحد أبرز المنتجات الزراعية التي تنتج في البلد، وخصوصاً بعد احتكار الثوار شراء هذه المادة من الفلاحين، وبيعها للأفران بأسعار مناسبة، وهذه كانت من أهم القرارات التي اتخذت، فلو سمح بإخراج الطحين لزاد سعره عشرات الأضعاف.

على صعيد النفط ومشتقاته أبدع السوريون في الاستفادة منه، فبعد تحرير غالبية آبار النفط من يد قوات النظام سيطرت عليها العشائر القريبة أو بعض الكتائب التي تركت الجبهات لتبيع النفط. فقد كان البئر الواحد يدر الملايين يومياً. في البداية استخدم السوريون النفط الخام للتدفئة على علّاته، فتخلصوا بذلك من برد الشتاء.

الأمر لم يقف هنا بل قام السوريون بمحاولات تكرير النفط محلياً. وتدريجياً أصبحت عمليات التكرير أكثر احترافاً لتنتج لنا مواد كالبنزين والمازوت والكاز بجودة تقارب جودة المصافي النظامية. وأصبح بالإمكان تشغيل السيارات والشاحنات ومولدات الكهرباء على الوقود المكرر محلياً، وتمكّن المزارعون من سقاية أراضيهم بتكلفة أقل من تكلفة الوقود النظامي. ولا ننس عدداً كبيراً من الناس عملوا في استخراج النفط، وتكريره، ونقله، وبيعه إذ أصبح النفط مصدراً مهماً للدخل.

أما الكهرباء والمياه وانقطاعهما لأشهر متتالية، فتأمينهما كان من أصعب مهام المواطن في تلك الفترة. لكن الكهرباء أمِّنت عبر مولدات مختلفة الحجم تعمل على وقود مكرر محلياً، قبل أن تؤمن شبكة الكهرباء العامة لغالبية المناطق، ولعدة ساعات في اليوم، وذلك بعد نوع من التنسيق بين النظام والثوار فرضته الحاجة الكبيرة للكهرباء. بالنسبة للمياه فقد استخرجت من آبار حفرت لهذا الغرض، لكنّها احتاجت لوجود التيار الكهربائي.

وكان أهم الأمور التي ميزت تلك الفترة وأضرت كثيراً بحياة المواطنين اليومية هي غياب أجهزة الدولة غياباً تاماً. وهذا أمر يصعب تعويضه عبر العمل العفوي والعشوائي الذي ميز الثورة منذ انطلاقتها، فجرت محاولات لتشكيل هيئات تسيّر أمور المواطنين كالمجالس المحلية والهيئات الشرعية، وغيرها من الجمعيات والتنظيمات الخاصة التي تميز عملها باجتهادات فردية، غالباً ما اصطدم بالواقع الصعب والمعقد على الصعيدين الاجتماعي والثقافي للمواطنين. كانت أبرز تلك المحاولات ما عرف بالهيئة الشرعية في مدينة حلب، وهي هيئة مدنية تعتمد الشرع الإسلامي دستوراً وقانوناً وتنظيماً لإدارة المناطق المحررة. كان لهذه الهيئة انجازات هامة، وتوسّع كبير على الأرض، ذلك بسبب قوة السلطة التنفيذية لديها ممثلة بأقوى الفصائل العسكرية العاملة في المنطقة. بالطبع كان هناك انتقادات دائمة لطبيعة عملها، ولبعض التصرفات التي تصدر عنها، إلا أني أظنها خطوة بدائية لا بد منها في ظل تلك الفوضى، وغياب السلطة في المناطق المحررة، وانتشار ما أشرنا له سابقا من تجاوزات كبيرة مارستها بعض الفصائل المسلحة التي تحمل راية الثورة.

أما فيما يتعلق بموضوع التعليم فقد أعيد افتتاح المدارس التي لم تتعرض للقصف بعد إخلاء النازحين منها. وسدّ النقص بالمدرسين عبر متطوعين من أبناء المنطقة.

في هذا السياق تطوعت كمدرس ابتدائي في إحدى مدارس القرية مساعدة للكادر التدريسي والانطلاق في العام الدراسي والمضي فيه قدر الإمكان. لكن رغم الجهود المبذولة لاستمرار العملية التعليمية بقي الوضع مأسوياً، فالخسارة التي لحقت بجيل أو اثنين من الطلاب لا تقدّر، ولا تعوّض

إلا بمرور عشرات السنين، فلا أمان في المدارس ولا في الشوارع، ولا في البيوت أيضاً، وجل ما كان يفكر فيه الإنسان هو البقاء حياً ليوم إضافي.

* * *

وبمناسبة الحديث عن الظروف السيئة التي صار يعيشها السوري أريد أن أقف على شريحة معينة منه، وهي إحدى أكثرها معاناة وتأثراً بالأزمة التي خلقتها الثورة السورية، ألا وهم العساكر العاملون في الجيش السوري وخصوصاً المجندين منهم. فقد كانوا قبل بدء الثورة يعيشون مأساة كان على كل مواطن عيشها، وتجربة مريرة كان لا بد لكل سوري من خوضها. فقد كانوا يعانون فساداً غير محدود إذ كانوا ينفقون خلال خدمتهم كرشاوى وهدايا ما لا يستطيع تحمله أيّ مواطن عادي، إضافة إلى معاملة الضباط السيئة المترافقة بالإهانات المذلة..!

بدأت الثورة في سورية دون أن يعرف عنها العسكريون إلا ما حشاه الضباط في رؤوسهم من معلومات، وهي بالطبع تدور في فلك النظام ونظرته للثورة. مع مرور الوقت كان على النظام لزاماً أن يستخدم الجيش في قمع المناطق الثائرة بعد أنْ فشلت قوات الأمن في ذلك. بدأت في تلك المرحلة أولى الانشقاقات، وكانت لعسكريين رأوا بأعينهم ممارسات النظام في المناطق التي اقتحمت، فلم تسمح لهم مبادئهم بالبقاء مع النظام. كان أولئك الجنود خيرة ما قدمته الثورة فهم أكثر من ضحى في سبيلها، وهم من كان نواة للجيش الحر بعد أن نذروا أنفسهم لحماية المظاهرات، وبطبيعة الحال حماية أنفسهم من بطش النظام فيما لو وقعوا بين يديه. وأستطيع أن أعد انشقاق هذه الفئة من العسكريين بمثابة انتحار حقيقي، فلا مكان يستطيعون اللجوء إليه، وكان عليهم أن يتنقلوا باستمرار بين المناطق المختلفة، وكثيراً منهم لجأ إلى الجبال والغابات ريثما يستطيع الخروج من البلد، أو الوصول إلى مناطق يسيطر عليها الثوار بعد أن تطورت أعمالهم وقدراتهم.

المرحلة الثانية من الانشقاقات قام بها عسكريون عادوا بعد فترة من الغياب إلى مدنهم وقراهم ليتفاجؤوا بمجازر وانتهاكات وقعت على أقاربهم ومعارفهم. لم يكن بالإمكان على أكثرهم الاستمرار في الخدمة، فلجؤوا إلى

خارج البلاد أو إلى مناطق الثوار. كانت هذه الفئة هي الأكثر حظاً لسهولة انشقاقها، إذ لم يكن عليهم إلا أن يحصلوا على إجازة من الخدمة ليتوجهوا فيها إلى مدنهم المحررة، ومن كانت مدينته أو منطقته غير محررة فإما أن يذهب خارج البلد أو ينتظر مبيّتاً الانشقاق إلى وقت مناسب.

فيما بعد ومع اشتداد المعارك وتراجع قوة النظام أصبح البقاء مع النظام يشكل خطراً كبيراً على الحياة، فالثوار أعدادهم وقواتهم ومناطقهم بازدياد مستمر، والبقاء مع الجيش مغامرة لا يمكن لأحد نكران خطورتها، وخصوصاً أن الأمل في تسريح قريب قد انتهى بعد تناقص أعداد الجنود بشكل مستمر، فالانتظار لن يجر بعده إلا موتا أو مزيدا من الانتظار. كان هذا سبباً في ازدياد أعداد الانشقاقات. لكن في تلك الفترة كان النظام ينشر عيونه بين الجنود لتولي أمر أي عسكري تخرج منه إشارة قد تدل على نية في الهروب، أو تعاطف ما مع "الإرهابيين" فضلا عن منع بات لكافة أنواع الإجازات. فأصبحت مهمة العسكري بالهروب خطيرة جدا تزداد خطورتها مع مرور الوقت وتناقص أعداد الجنود. الغالبية منهم قبلوا هذه المغامرة بعد الوضع المزري الذي وصلوا إليه بعد مرور أشهر طويلة من الاستنفار العسكري.

كان نجاح هذه المغامرة غير مضمون أبدا، وخصوصاً مع تدقيق شديد على أسماء الفارين على الحواجز المنتشرة بأعداد كبيرة في الكثير من المناطق. ولا يجب أن نغفل مستوى وعي العساكر المنخفض والذين تكون أعمارهم تحت العشرين سنة في الغالب. فكان بعضهم متهورا للغاية أو شديد الخوف وسيئ التدبير بحيث جر على نفسه عواقب وخيمة. وأعرف محاولات كثيرة للانشقاق باءت بالفشل نال محاولوها الإعدام الميداني، أو حُوّلوا إلى فروع الأمن ليتمنوا الإعدام الميداني ألف مرة في اليوم. بالطبع كان العسكري وأهله يعيشون أياما من الأرق والخوف والترقب بانتظار وصوله إلى بر الأمان والذي كان يستوجب الاحتفال والتهنئة للعسكري والأهل، وخصوصاً إذا ما عرفنا أن بعضهم قضى أياماً في الغابات أو البرية أو اشتبك مع قوات النظام، والكثير منهم قرر المغامرة، والمرور على حواجز النظام بوثائق مزورة.

شكلت هذه العمليات من الانشقاقات ضربة كبرى تلقاها النظام منذ بداية الثورة السورية. فعمليا كل انتصار حققه الثوار في بداية المعارك يرجع

فضله إلى هروب العساكر وانشقاقهم فما إن يبدأ القتال حتى يهربوا أو يسلموا أنفسهم للثوار، ما سهل كثيراً مهمتهم في اقتحام نقاط لا تحتوي إلا على عدد قليل من الجنود. إضافة إلى ما كان المنشقون يقدمونه من معلومات لوجستية للثوار كان لها دور حاسم في المعارك، فضلاً عن العتاد والأسلحة المختلفة التي كان العسكريون يهربون بها باتجاه الثوار لتستخدم تلقائياً ضد قوات النظام. الثوار بالمقابل تعاملوا مع عمليات الانشقاق بإيجابية، وكان من أهم أسباب انشقاق عناصر النظام أن الثورة تجبّ ما قبلها. كما أجبر الانشقاق النظام على الانسحاب من مساحات كبيرة منكفئاً إلى مناطق يحسن حمايتها والدفاع عنها، ما جعل قوات النظام في مرحلة ما محاصرة في أماكن تواجدها كافة.

حاول النظام تعويض نقص الجنود لديه عبر تطويع الشبيحة من المناطق العلوية التي لا تزال تحافظ على تأييدها له، إضافة إلى المتطوعين من المناطق التي ساهمت ظروفهم وطبيعة مصالحهم بالانضمام للقتال مع النظام، وخصوصاً في حلب التي لم تكن الثورة لتحظى بالشعبية التي وجدتها في بقية المدن. استفاد النظام من هؤلاء المتطوعين إلا أنهم لم يحققوا أي قفزة نوعية لدى قوات النظام لأسباب كثيرة.. منها: عدم وجود عقيدة قتالية تدفعهم للموت في سبيل قضية بشار الأسد، وإن وجدت، فإنها لم تكن لتوازي عقيدة الثوار التي ترتكز على الحق المشروع، وعلى الرغبة بالثأر من المجازر الوحشية التي مارسها النظام في المناطق الثائرة.

سابقا تحدثت عن أمور رافقت الثورة في بداياتها، كنا نستشعر الخطر من خلالها، أو نحذر من تفاقمها واستعصائها كالاحتقان الطائفي في المجتمع، وإشكالية وضع الأكراد في سورية. وأظن أنني في الفترة التي يمكن أن نكون عام 2013 بداية لها، كانت النتائج خطيرة بحيث فاقت توقعاتنا وتجاوزت كل ما حذرنا منه. وذلك حسب ما أعتقد يرجع إلى الطبيعة الوحشية التي أصبح عليها الصراع، ومعدل العنف الذي مورس على الشعب السوري بأبشع الطرق، وأقذر الوسائل. إذ سخّر النظام تلك القضايا لصالحه، بينما تفنن الثوار بشراء الأعداء، وأعماهم حقهم المشروع عن حيل الحرب وفن السياسة، واستمر رد الفعل يميز قراراتهم، وأعمالهم وعرف النظام كيف يجر الثورة إلى دوامات وبؤر لا تعرف كيف تخرج منها.

في المسألة الطائفية التي حذر الجميع من خطرها. وصل الاحتقان الطائفي إلى أعلى مستوى له وخصوصاً ضد العلويين الذين نجح النظام بإقناعهم بأهمية الدفاع عنه رابطاً مصيره بمصيرهم. ماحمّلهم كل ما قام به من مجازر وانتهاكات وخصوصاً تلك التي قام بها شبيحة من العلويين أنفسهم مستخدمين السلاح الأبيض في ذبح عشرات المدنيين، ومنهم أطفال ونساء في مدن الحولة والقبير والتريمسة وجديدة الفضل وغيرها. وعلى ذلك عدّ الشبيحة أهدافاً مشروعة أينما وجدوا، وتقريبا عُدّ كل علوي قادر على حمل السلاح شبيحاً محكوماً عليه بالإعدام حتى يثبت العكس. فتحولت هذه الحرب إلى حرب وجود بالنسبة إلى غالبية العلويين، ما زاد في لهيبها استعاراً وفي نهايتها ابتعاداً.

لم يقتصر الاحتقان الطائفي على العلويين إنما شمل الأقليات الأخرى، وإن كان بنسبة أقل. فلم يستطع أفرادها الخروج من بوتقة النظام، لأسباب لا أستطيع ذكر تفاصيلها الدقيقة، وبما أنني أعيش في منطقة بعيدة عن هذه التجاذبات لا مكنني الاطلاع الفعلي على الموضوع. إلا أني أبرر ما قام به

هؤلاء، فبطش النظام لم يترك أي مجال للحياد، فمجرد وقوفك موقف الوسط بين الثورة والنظام كان كافياً لأن ينالك ما ينال الثوار. بالطبع هذا الكلام لم يعد يراه الكثيرون من الثوار وخصوصاً بعد المجازر المروعة. إذ راحت أصابع الاتهام تطول الأقليات كافة، وهي التي وقفت متفرجة على المجازر وقصف البلد الذي ينتمون إليه على مدى سنوات دون أن يحركوا ساكناً، أو دون أن يصدر عن شخصيات تنتمي إليهم ذلك الموقف الحازم والظاهر بحيث ينفي ما قد يوجه إليهم من تهم.

شخصياً أرفض تقييم المجموعات ومحاسبتها بشكل جماعي، إلا أنني أرى ضرورة المحاسبة المنظمة والشفافة لو كان هناك إمكانية لذلك لكل من تسبب بمقتل إنسان بريء في سورية أو إلحاق الأذى به، دون أن أستثني أولئك الأشخاص المحسوبين على الثورة والذين قاموا بانتهاكات مماثلة. بالطبع هذه المحاسبة ضرورية لتستقيم الحياة بعد الثورة ويردم ما بين السوريين من هوّة، ويلتئم ما بينهم من جراح.

الاحتقان الطائفي الذي نتج عن الثورة السورية لم يقتصر على الداخل السوري، بعد النجاح المنقطع النظير للنظام السوري ومن قبله النظام الإيراني والنظام السعودي بالدفع بهذا الصراع ليكون جزءاً من الصراع السني الشيعي في المنطقة، والذي لعب الإعلام المتطرف لكلا الطرفين دوراً كبيراً فيه، بحيث توافد للقتال في سورية عشرات الآلاف من المقاتلين للقتال إلى جانب الثوار من جهة وإلى جانب النظام من جهة أخرى، بحيث سد النظام النقص الكبير في العناصر الذي سببه انشقاق العسكريين عنه، بينما كان الثوار أساسا يعانون من تخمة في المقاتلين ويلزمهم التسليح لمواجهة النظام، وهذا ما أكدنا عليه مرارا، فالنظام كان بحاجة إلى الرجال ليحقق التوازن مع الثوار الذين كانوا يحتاجون السلاح لتحقيق ذلك. وأنا على يقين أنه لو ترك السوريون وحدهم في هذا الصراع لانتهى منذ وقت طويل، بعد الانهيار في مؤسسات النظام العسكرية والأمنية، فما تبقى له من عناصر لا يمكنه نشرهم في مناطق واسعة، وهذا سبب انكفائه إلى مراكز المدن الرئيسة إلى اللحظة التي استطاع من خلالها تعويض رجاله من الخارج، فشكل بذلك نقلة نوعية بعملياته.

أما بالنسبة للأكراد فبعد أن كان الصوت الذي يدعو إلى مسار منفصل

لهم عن السوريين خافتا، راح يعلو باستمرار ليصبح هو المسيطر على الموقف الكردي العام ممثلا بقوات الحماية الكردية التي استلمت زمام الأمور في مناطقهم، وخاضت معارك كثيرة ضد الثوار بعد أن ثبت بما لا يقبل الشك تعاملها مع النظام، والذي أظن أن وعده لهم بالحكم الذاتي كان وراء هذا التحول والاندفاع الكبير لفصل مسار النضال الكردي عن النضال السوري، بحيث أصبح مطلب ممثلي الأكراد الرئيسي هو الحكم الذاتي ضمن الدولة السورية التي ستقوم بعد انتهاء هذا الأزمة التي تضرب المنطقة.

بالطبع لا ننسى الشرخ الأفقي الكبير الذي حصل بين السوريين بمختلف طوائفهم إذ قسم البلد إلى مؤيد ومعارض. في البداية كان هذا الانقسام مجرد اختلاف بالرأي، أما الآن فقد ترتب على كل متمسك بموقفه الكثير من المضاعفات، فباعدت المجازر المتوالية من قبل النظام وبعض ممارسات الثوار بين السوريين بحيث شكلت جرحا لا يمكن أن يلتئم في هذا الجيل على أقل تقدير. شخصيا قد لا ألوم من كره الثورة لممارسات خاطئة قام بها الثوار أو للويلات الكثيرة التي جرتها على السوريين، إلا أن ما لا يمكن أن أجد له مبررا هو كيف يقف بعض السوريين مع النظام، بعد كل ما قام به من حرق للبلد كما توعدنا دائماً. قد لا نستطيع أن نجد أجوبة لهذا التساؤل إلا بعد الاستعانة بخبراء نفسيين واجتماعيين ليقفوا على مثل تلك الحالات.

عموما الثورة تأثرت بكل ما ذكرنا كبير التأثر وأصابها بليغ الضرر، فبعد أن انطلقت لتحقيق الحرية والكرامة والمساواة للسوريين وتخليصهم من الظلم والاستبداد، تحولت في جزء منها إلى حرب أهلية بين السوريين، وإلى حرب إقليمية بين أبناء هذه المنطقة، ونوعا ما حربا عالمية بين القوى الكبرى. رغم ذلك هناك من بقي من رجال ونساء سورية ممن نذر نفسه ليقاتل ويناضل من أجل استعادة الحقوق الأولى، التي ضاعت في هذه الزحمة من الأطراف التي لا تمثل لهم سورية سوى ورقة من أوراق اللعب، أو جسرا للوصول إلى مشاريعهم وأحلامهم الخاصة، فلم يفقدوا فسحة الأمل التي ضاق عيش الكثير من السوريين بعد أن فقدوها، ولم ينسوا أن سورية تبقى أبدا وطنا واحدا لكل السوريين.

أيام مشهودة

على الصعيد الشخصي لم يشهد عام 2013 تلك الأحداث الكثيرة المرتبطة بالثورة. بل كانت فترة للمراقبة وفرصة لإتمام هذا العمل، حيث تم كتابة الجزء الأكبر منه في ذلك العام. فعلى صعيد الدراسة بقي يفصلني عن نيل شهادة الحقوق سبعة مقررات لم أستطع تقديمها بسبب الوضع الأمني وعدم وجود الإرادة والرغبة في إتمام الدراسة في تلك الظروف. ومن ناحية العمل انقطعت عن الدوام لصعوبة الذهاب إلى مناطق سيطرة النظام ليتم فصلي في وقت لاحق. رغم ذلك لم يكن ذلك العام خاليا مما يستحق ذكره في هذه القصة، وسأبدأ بذكرها مراعيا تسلسلها التاريخي كما هي العادة.

في البداية أريد أن أخبركم ما حضرته في يوم من أيام نيسان في مكان أريد أن أحتفظ به لنفسي، هو والأشخاص الذين قاموا به. ففي ذلك اليوم الربيعي قبل المغرب بحوالي الساعة، توجهت إلى تشييع أحد شهداء الجيش الحر الذي سقط في إحدى المعارك مع قوات النظام. أمام منزل الشهيد كان الناس مجتمعين للوقوف إلى جانب ذويه في تلك المحنة. أصوات إطلاق الرصاص كانت تملأ المكان وتصم الآذان إضافة إلى ولاويل النساء وزغاريدهن. حالة من الحزن على الفقيد الشاب كانت تعم المكان في الوقت الذي كانوا يقومون بتغسيله وتكفينه وتجهيز علم الاستقلال ليلفوه به. في ذلك الوضع وأنا واقف مسندا ظهري إلى حائط في الشارع المار من أمام منزل الشهيد، وقفت سيارة مكروباص تابعة للثوار يحجب زجاجها الغامق ما في داخلها. ترجّل عنصران من الجيش الحر يبدو أنهم رفقاء للشهيد من داخلها، بينما راح من بقي داخلها يكلمون شخصا ما "لوين بدك تهرب؟ على قبرص؟".

بكل بساطة من يمكن أن يحدثوه بتلك الطريقة وبتلك اللهجة الغاضبة والساخرة لا يمكن إلا أن يكون أحد عناصر النظام الذي يبدو أنهم قد قبضوا عليه. ولا حاجة للتفكير الكثير لمعرفة أنهم على وشك إعدامه. فهل يعدمونه هنا وسط الناس؟ لا أريد لأحد أن يرى ما سوف يجري. هناك أطفال وهناك

نساء وهناك من لم يعرف أساسا إذا كان هناك ثورة في هذا البلد، ولا نريد أن نخسرهم ونخسر تعاطفهم بفعل صدمة كهذه. لحظات قليلة فُتح بعدها باب السيارة الجانبي ونزل منها عدّة عناصر يجرون معهم شابا في العشرينات من عمره طويل القامة أسمر اللون معصوب العينين يرتدي سترةً من الجلد يلطخ جوانبها الطين. عرفنا لاحقا أنه القناص الذي قتل أربعة من أفراد الكتيبة بما فيهم الشهيد الذي كنا نحضر تشييعه. أول ما خطر في بالي دون أن أنطق به هو "لا يا شباب مو هون" إلا أن الجو كان شديد الاحتقان والتوتر وغير مناسب لذلك. عندما عرف الناس أن إعداماً سيجري أمام منزل الشهيد قام الكثير منهم بالانسحاب فوراً.

كانت لحظات عصيبة تجمّد فيها الدم في العروق ونفذ الأوكسجين من الهواء. طلب العناصر من الناس الابتعاد لمسافة كافية وتم التأكيد على ضرورة عدم التصوير. تباعد الناس والمتفرجون ليشكلوا شبه دائرة في منتصفها أحد العناصر والشبيح معصوب العينين تاك على ركبتيه. لم أستطع الابتعاد بسبب وجود الحائط الذي كنت أقف أمامه فبقي بيني وبين المعدم والمعدم ثلاثة أمتار. وقف قائد المجموعة وتلا حكم المحكمة بينما سكن الكون من حولنا، أو ربما هي آذاننا لم تعد تميّز إلا كلام ذلك القائد : "قال تعالى في قرآنه الكريم "ولكم في القصاص حياةٌ يا أولي الألباب لعلكم تتقون" و"قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين". صدق الله العظيم. حكمت المحكمة على القاتل الشبيح بالإعدام بعد أن قام بقتل أربعة من المجاهدين. كانت كل حواسي مركّزة على المشهد، وعمل عقلي بجهد كي لا ألتفت جانباً ساعة تنفيذ الحكم. طلب أحد الواقفين أن نسمع اعترافه، فسئل عما فعل إلا أنه لم يرد بأي كلمة أو فعل، وبدا وكأنه ميت قبل تنفيذ الحكم.

أمسك منفذ الحكم بيسراه شعر رأس الشبيح ورفع سكينته وصاح "الله أكبر" وبدأ بجزّه إلى إن فصلت تماماً عن جسده، ثم رفع الرأس عاليا ليراه الجميع وهو يهتف مكبّراً. على الأرض سقطت الجثة، وبوضوح ميزت وريديه اللذين كانا يضخان الدم من القلب الذي كان يخفق آخر خفقاته. راح بعض الشباب يهتفون بالتكبير، بينما كان الجميع ممن رأوا، وممن لم يروا ما جرى

مذهولين. الوجوه مصفرّة، والأفواه محكمة الإغلاق، والأمعاء مضطربة. بعد لحظات تابع الناس مراسم التشييع دون أن يغيب عن أحدهم التفكير فيما جرى ولو للحظة.

لم أعرف بماذا أفكر، ألهذه الدرجة من الوحشية وصل الشعب السوري؟ نعم وأكثر. هل القتل بالسكين يختلف عن القتل بالمسدس أو الرشاش أو المدفع أو الطائرة. أظن أن القتل يبقى قتلاً لا تفرقه الوسيلة بقدر ما يفرقه السبب. لا أريد أن أضع تبريرا لما جرى، ولست فخوراً بهذا الحادث وأمثاله، ولا يمكنني أن أصفه إلا بالجريمة، وكم تمنيت ألا تحتوي هذه القصة عليه. إلا أننا يجب أن نعرف أن تراكم سنتين من المجازر بالتأكيد لن تنتج لنا إلا شعبا لم يعد يفرّق بين قتل ذبابة وقتل إنسان. ومؤكد أن أحدا لن يتوقع أن يرحم السوريون مثل هذا الشبيح وخصوصاً من فقدوا ذويهم ومنازلهم جراء بطش النظام، فالرحمة بأمثالهم لا يقوم بها إلا الأنبياء، والثوار وبكل صراحة لم يكونوا أنبياء. فأي شبيح سيكون حتما مشاركا بشكل مباشر أو غير مباشر في أعمال القتل والقصف والتعذيب والنهب والاغتصاب التي تعرض لها السوريون، وحتما لن يردوا عليه بالورود والأرز. وذاك الشبيح كان قد قتل أربعة شهداء في معركة. هذا ما نحن متأكدون منه على الأقل. صحيح أني أطالب بمحاكمة عادلة لكل من اعتدى وأساء للسوريين، بحيث يأخذ كل صاحب حق حقه، إلا أن الأمور على وحشيتها كانت تجري للأسف على طبيعتها، وما قام به الثوار من إعدامات مماثلة لكل من تسبب في قتل السوريين لن ينقص من قيمة الثورة وما قدمه السوريون في سبيلها، كما لم تنقص آلاف عمليات قطع الرؤوس بالمقصلة من قيمة الثورة الفرنسية.

لم أتخيل يوما قبل بدء الثورة أني من الممكن أن أحضر موقفا مماثلا، إلا أن هذه الثورة كانت في كل يوم من أيامها ومرحلة من مراحلها تجعلنا نعيش ما نظن أننا لا يمكن أن نعيش أعظم منه يوما، فلا نلبث إلا أياما حتى نرى ما هو أعظم. ترى ماذا تخبئ لنا الأيام بعد كل ما حضرناه؟!

* * *

أما الأمر الثاني الذي أريد أن أتناول تجربتي معه في العام 2013 فهو معبر كراج الحجز أو معبر الموت في مدينة حلب. وهو المعبر الواقع في حي بستان

القصر ويفصله عن حي المشارقة، أي يفصل مناطق النظام عن مناطق الثوار.

مع بداية الحرب في مدينة حلب لم يكن هناك أي مشكلة في التنقل من مناطق خاضعة للثوار إلى مناطق يسيطر عليها النظام، وهذا ما تحدثت عنه سابقا من خلال تناولي لزياراتي المتكررة لمدينة حلب. فتنقلت من حاجز الشيخ السعيد التابع للنظام، إلى حي الشيخ السعيد حيث يوجد الثوار، ثم تحولت إلى قلب البلد الذي يسيطر عليه النظام، ثم اتجهت إلى حي صلاح الدين أهم معاقل الثوار، وبعدها ذهبت إلى الحمدانية المحتلة من قبل قوات الأسد. إلا أنه مع استمرار المعارك واستمرار اختراق الثوار لمعاقل النظام بالعمليات النوعية، اضطر الأخير إلى منع عبور المدنيين من وإلى المناطق التي يسيطر عليها الثوار، جاعلا من مناطق سيطرته حصناً محكماً له مدخل وحيد وهو طريق الشام، بالإضافة إلى معبر كراج الحجز الذي لا يسمح بمرور السيارات عبره.

الوضع كان على المعبر شديد الخطورة بسبب بسيط ومعروف، وهو قناص النظام المتمركز على مبنى الإذاعة الذي يشرف على المعبر، والذي كان وقتها عبارة عن شارعي الذهاب والإياب المقابلين لمبنى الإذاعة، في النقطة التي تلي مبنى لجنة فحص العاملين. أي ما يقدر طوله بحوالي الأربعين مترا على ما أظن. ذلك القناص كان يستهدف المدنيين دون سبب محدد، فلا وقت محدد لضرباته ولا عمر أو جنس محدد لضحاياه، فسقط على يدي هذا القناص الأطفال والرجال والشيوخ والنساء. لاحقا لذلك، امتد المعبر ليصبح نحو خمسمئة المتر بعد أن وضع النظام قناصته على بناء مقابل للمعبر من جهة المشارقة، فأصبحت هذه الأمتار أحد أكبر هموم المدنيين الذين لهم مصالح في طرفي مدينة حلب المتحاربين.

تضاعفت أهمية معبر كراج الحجز بعد إغلاق طريق الشام بسبب الاشتباكات في خان العسل. حيث كان سابقا يمنع إدخال المناطق الغذائية إلى مناطق سيطرة النظام. إلا أنه بعد إغلاق طريق الشام أصبح المنفذ الوحيد لأهالي حلب الخاضعين لسيطرة النظام، الذين اتجهوا مجبرين إلى ذلك المعبر لتأمين حاجياتهم من المناطق المحررة متجاهلين الخطر المتربص بهم في تلك الأمتار.

ساد لغط كبير بين عناصر الثوار المتحكمين بالحاجز والناشطين حول إمكانية السماح بالمواد الغذائية بالمرور إلى الطرف المحتل من حلب. فعلت

الأصوات وظهر الكثير من وجهات النظر، بين من يطالب بمنع أي شيء من الدخول كي لا يستفيد منه نظام الأسد، وبين من يؤكد أن سكان تلك المناطق هم أهلنا وحصارهم جريمة يجب ألا تستمر. نتيجة لذلك حصل تخبط كبير في التعامل مع المعبر، فيوماً يمنع مرور أي شيء، ويوماً آخر يسمح للمواد بالمرور وفي الغالب كانت توضع لوائح بالممنوعات والمسموحات.

من جانب آخر أصبح المعبر مورد رزق للكثير من الحلبيين، ففرق الأسعار بين الطرفين جعل المعبر موقعا مهما لتهريب المواد وبيعها بأسعار مضاعفة في الطرف الذي لا تتوفر فيه، فنشأ تلقائيا على طرفي المعبر أسواق تضم كل ما يمكن أن يتوفر من مواد يمكن أن يهتم بها ذلك الجزء الكبير من سكان المدينة الذي يعبر يوميا ذهابا أو إيابا. بالإضافة إلى عدد كبير من أصحاب العربات الذين كانوا ينقلون البضائع بين الطرفين مستغلين العدد الكبير جدا من العابرين. كان هناك أيضا أعداد من المتسولين الذين يعملون في المنطقة المرصودة من المعبر مستغلين خوف الناس من أن يختارهم القناص في إحدى نزواته.

أولى زياراتي للمعبر بعد أن بدأت فيه حالات القنص كانت مبكرة بحيث كان لا يتجاوز عرضه الأربعين مترا. مررت فيه دون أن أشعر بأي شيء غريب، أو حتى أن أعرف أين يقع هذا المعبر كوني كنت وحيدا في عبوري الأول. لكن في الزيارات اللاحقة والتي كانت بعد فترة طويلة من العبور الأول، كان الوضع مختلفا جدا، فأصبح المعبر طويلاً تفوق المنطقة المرصودة منه بالقناص خمسمئة المتر كما ذكرت، بالإضافة إلى حوالي ألف المتر التي يجب عليك أن تسيرها بسبب عدم توفر السيارات نتيجة الزحام الخانق في بداية ونهاية المعبر. كانت أعداد الناس كبيرة جدا، وأظن أن أكثر من خمسمئة عابر كان يمر في الدقيقة في وقت الذروة. كان العابر يتعرض على طرفي المعبر إلى ذل كبير، بسبب الأوامر والطلبات التي توجه إليه، وخصوصاً فيما يتعلق بالبضائع التي يتم نقلها ويجري تفتيشها في كثير من الأحيان.

في المنطقة المرصودة كان بالإمكان سماع أصوات إطلاق النار بسهولة دون أن تعرف إلى أين تتجه، ما شكل حالة كبيرة من الهلع والخوف لدى العابرين، وخصوصاً أولئك الذين كانوا يقومون بعبورهم الأول. كان هناك بشكل شبه يومي شهداء يسقطون بسبب استهدافهم من قناص النظام، إلا أني لم أشهد

أياً من ذلك في عمليات العبور التي قمت بها والتي تقترب من العشرين عبور. أثناء المسير في تلك المنطقة الحرام، والتي تفصل بين الثوار والنظام لا يمكنك بأي حال من الأحوال أن تتصرف بتصرف يمكن أن يلفت انتباه القناص، كالتوقف أو المشي بسرعة تزيد أو تنقص عن سرعة بقية العابرين، فإن كانوا يجرون فعليك الجري، وإن كانوا يمشون فعليك الالتزام بالمشي.

في إحدى المرات شاهدت في المنطقة المرصودة صديقا يسير في الاتجاه المعاكس، كنت قد علمت أنه تزوج قبل أسبوع. سلّم علي ورددت السلام وتوقفت كي أبارك له، إلا أنه بعد أن رآني وحياني بايماءة من رأسه استمر بالمسير دون أن ينظر خلفه، صرخت "يحيى..يا يحيى..أبو الشباب". تابع صديقي مسيره دون أن يتوقف أو يلتفت إلى الخلف. دفعني رجل بيده قائلا "امشِ ابن عمي قبل ما يطقك".

في عبور آخر كنت أحمل بعض الثياب ورواية "التائهون" لأمين معلوف التي صدرت حديثا. استوقفني أحد العناصر الملثمين على طرف الثوار وأراد أن يفتشني، رغم ألا أحد غيري طُلب منه ذلك في تلك اللحظة. كلمني بعربية فصحى ومكسرة عما أحمل في كيسي. قلت له:

إنها ثياب وكتاب، فسألني إذا ما كان الكتاب من كتب الدين فأجبته بالنفي فطلب مني المتابعة. كانت تلك أول مرة ألتقي بمقاتل أجنبي ينتمي إلى ما بات يعرف بدولة الإسلام في العراق والشام، والتي من المفترض أن أتحدث عنها في موقع قادم من هذا الكتاب.

في آخر عبور قمت به قبل أن أكتب هذه الكلمات، استوقفتني على حاجز النظام امرأة شبيحة لا يبدو منها إلا عيناها، وسألتني عما أحمل في الكيس الأبيض. توجهت إليها وقلت: إني أحمل جهازي موبايل. قالت لي "هدول ممنوعات.. هات ألف". لم أجرؤ على الرفض وأنا على بعد أربعة أمتار من الخروج من منطقة النظام، وخصوصاً أن الأجهزة لم تكن لي. علمت لاحقاً أنها كانت سوف تقبل لو أصررت على مئتي ليرة، إلا أني لم أكن في موقف يشجعني على الإصرار. كان المعبر مصدر رزق للعناصر الواقفة على الطرفين، وكانت تدخل عليهما مبالغ طائلة إذا عرفنا حجم تبادل البضائع الهائل بين طرفي المدينة. لم أكن بصراحة أميز أي فرق بين الثوار والنظام على الحاجز من حيث

ظلم الناس وسرقتهم. طبعا لا أتهم جميع الثوار بالسرقة أو ما شابه، إلا أن من ترك الجبهة واتجه إلى معبر بستان القصر فقد لوث نفسه وسجله بهذا الفساد.

رغم أن المشاة وحدهم هم من يستطيع العبور في المعبر، بعد أن حُرِّم المعبر على السيارات كما حُرِّم على المقاتلين. فقد كان يُنقل كل شيء مهما بلغ حجمه عبر المعبر. رأيت ثلاث ثلاجات يحملها أحدهم على عربة. عرفت كيف مرر أحدهم محرك شاحنة بعد تفكيكه وإعادة تجميعه في الطرف الآخر. تم نقل مرضى يتغذون على السيروم، وموتى ليتم دفنهم في مقبرة العائلة. بالطبع لم يكن حجم الأحمال مما يمر عبر المعبر بأكبر من حجم هموم الناس التي كانوا يحملونها مرغمين.

* * *

أحد أبرز الأحداث التي شهدتها مدينة حلب دون أن أكون حاضرا فيها، كان استهداف الطيران الحربي لجامعة حلب التي تقع تحت سيطرة النظام، في اليوم الأول للامتحانات بصاروخين موجهين في الخامس عشر من شهر كانون الثاني لعام 2013. استهدف أحدهما الشارع أمام كلية العمارة والآخر استهدف السكن الجامعي. خرج علينا التلفزيون السوري بعدة روايات متناقضة عن استهداف الإرهابيين لجامعة حلب، إلا أن أعدادا مؤلّفة شاهدت طائرة ميغ تنفذ الغارة، وما أستطيع أن أجزم لكم به هو أن الثوار ليس بحوزتهم طائرات قادرة على الطيران ذلك الوقت. سقط على إثر هذا الهجوم أعداد كبيرة من الطلاب والنازحين القاطنين في السكن الجامعي.

عن سبب هذا الهجوم اختلف الكثير من الناس، فبعضهم توقع أن خطأً في الإحداثيات أدى إلى خطأ في مكان الهجوم، وآخرون توقعوا أن النظام استهدف الجامعة لغرض عسكري ما لا أحد يعلمه. لكني أرى أن استهداف الجامعة كان لذات السبب الذي يدفع النظام لاستهداف المدن والقرى على امتداد سورية، وهو الانتقام ولا شيء إلا الانتقام. فجامعة حلب هي جامعة الثورة وهي التي كانت على الدوام شوكة في حلق النظام، والتي قام طلابها بتمزيق صور بشار الأسد ووالده أكثر من مرة ورفع علم الاستقلال على سارية علم الجامعة. وتوجيه ضربة مباشرة في وقت الذروة في أول يوم امتحاني في جامعة حلب لا يقوم به إلا من يعرف تماماً ماذا يفعل.

كذلك يعد من أبرز أحداث حلب هو ما جرى بين شهري شباط وآذار لذلك العام، حيث قام أهالي حي بستان القصر وعدة منظمات باستخراج جثث عشرات الشهداء من نهر قويق تم إعدام غالبيتهم برصاص بالرأس. كانت مشاهد مؤلمة لكل من شاهدها، وخصوصاً من ذهب ليبحث عن قريب له مفقود منذ مدة. غالبية الشهداء تم فقدانهم بطريقة غامضة في مناطق سيطرة النظام وبعضهم من المؤكد أنه كان في فروع أمن النظام. التكهنات والدلائل كانت كلها تشير إلى النظام ومخابراته. إلا أن أياً من هذه الجرائم لم يلق إلا الصمت المطبق من كل من كان المفترض به ألا يلتزم الصمت.

في هذه الثورة مرت الكثير من الأيام العظام والتي لم أتمكن من الحديث عنها لبعدي عن أماكن وقوعها، لكن ما جرى في الواحد والعشرين من شهر آب لعام 2013 لم يكن بالإمكان أن أنهي هذه القصة دون تناول ما حصل فيه. فمع الصباح الباكر استيقظنا على خبر هجوم بالسلاح الكيميائي استهدف عدة مناطق في الغوطة الشرقية والغربية في ريف دمشق. ألف وأربعمئة شهيد سقطوا في ذلك الهجوم غالبيتهم من الأطفال الذين استنشقوا غاز السارين. غالبيتهم ماتوا دون أن يشعروا بأي ألم أو ينزفوا أي قطرة دم، ولا نعرف إذا كان النظام يقصد بذلك الهجوم الرحمة بضحاياه.

هزت الصور العالم الذي نطق لأول مرة عندما قام النظام بما لا يمكن السكوت عنه، وتسابق المسؤولون الغربيون للتنديد بما جرى والتهديد بما سوف يجري. ملأت صور الضحايا شاشات التلفزة ومواقع الأخبار على عكس ما كان يجري في جرائم أخرى. بالطبع لم يكن كل هذا الحماس بسبب غيرتهم على الشعب السوري، إلا أن ما قام به نظام الأسد كان اعتداء عليهم وعلى هيبتهم وخطهم الأحمر الذي خطه الرئيس الأمريكي أوباما.

بالنسبة لنا طالما كان القتل جريمة سواء أكان بسكين شبيح أو بالرصاص أو بالمدافع أو بالصواريخ أو بالبراميل، وشهداؤنا لهم ذات القيمة ونفس التقدير أينما سقطوا وبأي سلاح استخدمه النظام لقتلهم. لكن فجأة أصبح الغرب ولي دم شهداء الكيميائي، وبدأت الدعوات للتدخل الفوري بعد هذا الانتهاك. أُتخذ القرار وبقي التنفيذ، وفجأة بدا أن النظام قد اقترف الخطأ الذي سيطيح به. أيام قليلة شعر فيها الناس أن النظام سيبقى قائماً حتى

سقوط أول صاروخ أمريكي عليه. خصوصاً بعد سحب الروس لرعايهم في سوريا، وإعلانهم بأن لا رغبة أو نية لهم في مواجهة التدخل المفترض. انهارت بشكل مفاجئ الليرة السورية ليرتفع سعر صرف الدولار الأمريكي من 200 ليرة إلى أكثر من 500 ليرة سورية في يوم واحد.

الغرب بدوره كان أمام معضلة يصعب حلها، فكيف سيتدخل دون أن يسقط النظام؟ كانت معادلة مستحيلة الحل بالنسبة للجميع ما عدا الروس، الذين سارعوا لسحب رعاياهم من سورية في البداية، ومن ثم تقديم حل يرضي الغرب وينقذ النظام السوري. تسليم السلاح الكيميائي أهم سلاح استراتيجي بيد النظام السوري مقابل عدم التدخل عسكريا. نزلت هذه الصفقة بردا وسلاما على جميع الأطراف ما عدا الشعب السوري، الذي تم لأجله تشكيل عدة لجان تحقيق مع بعض التصريحات هنا وهناك، لعله يقتنع أن الجمل تمخّض ولم يلد فأرا. في النهاية عادت الأمور إلى سابق عهدها. إلى ربهم ذهب الشهداء، وإلى إجرامه عاد النظام، وإلى صمته عاد العالم.

الجمعة السوداء

لكل منا حياته، ولكل منا في حياته أيام ولحظات وأحداث مميزة هي تلك التي تحتفظ بها ذاكرته. ولكل منا من بين كل تلك الأحداث مميز بين المميز. ولكل منا حدث هو الأكثر امتيازا في كل حياته. قد تحتاجون للوصول إلى آخر عمركم لتعرفوا أي يوم من بين عشرات آلاف الأيام التي عشتوها كان ذروة التميز. وأنا قضيت أيامي منذ انطلقت هذه الثورة أسجل يومي المميز ذاك، لأعود بعد فترة قصيرة لأشطبه لصالح يوم أعظم. إلا أن يوم الجمعة الذي صادف السابع والعشرين من شهر أيلول من ذلك العام كان ذروة تلك السلسلة الشاقة كلها. ولا أعرف ماذا سيحمل ذلك اليوم الذي سيكون أعظم منه! . فلا يمكنني الآن، إلا أن أقسّم حياتي وحياة الكثيرين غيري إلى قبل تلك الجمعة وبعدها. فلا أنا بقيت ذات الشخص ولا الناس هم ذاتهم بعد ذلك اليوم. وكم فكرت في أن أخصص لذلك اليوم كتاباً يستقل به، ففيه ما يفوق حجم الكلمات وقوة الصيغ، وفيه ما يزيد عن عدد الحروف وطول الصفحات.

فبعد سنتين ونصف من الثورة يسر الله لقريتي ما لم ييسره لغالبية مدن وقرى البلد. كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، وجاء دورها فيما يبدو لتدخل تلك الدوامة التي طالما بقيت تحاذيها ولا تدور فيها. كل ذلك جعلها ملجأ لعدد كبير من النازحين الذين زادوا عدد سكانها إلى الضعف، فأصبحت مركزا تجاريا في المنطقة زاد في كثافة السكان فيها إلى درجة كبيرة. فكانت مضرب المثل بالأمان الذي عاشته، لكونها لم تشهد أي اشتباك مسلح ولم تتعرض للقصف إلا بما لا يستحق الذكر من بعض رشاشات الطيران وبعض قذائف المدفعية التي سقطت على أطرافها. بالإضافة إلى الأرزاق الكبيرة التي كانت تتدفق إليها بفعل ذلك الوضع. كل ذلك انتهى بلحظة لا تتجاوز طرفة العين في حوالي الثامنة والنصف من صباح الجمعة السوداء.

لم يحمل ذلك الصباح أياً من مقدمات الأفلام الأمريكية أو الروايات العالمية. ببساطة كنت لا أزال نائما، ولا يبدو أن شيئا غير اعتيادي قد حصل

وأنا نائم. فلم أعرف إذا ما كانت العصافير تزقزق كعادتها، أو إذا كان الأطفال يركضون بضحكاتهم البريئة في الشوارع، أو أن الشمس أشرقت من المشرق كعادتها. المهم أني استيقظت على ذلك الصوت الذي كثيراً ما سمعته في تسجيلات الفيديو التي تعرض قصف قوات النظام للسوريين في مختلف المدن والقرى. لكن كان الوقع مختلفا وصاعقا لدرجة أنه كان كافياً لإيقاظي من عميق نومي، ليلحقه صوت انفجار أوقفني بدون وعي على أقدامي بعد أن اهتز البيت وكأنه صندوق من الكرتون. لا حاجة للتفكير والتأويل. القرية تتعرض للقصف وعلي الصعود للسطح للمشاهدة.

على السطح بدا لي أثر التراب والدخان الكثيف يتصاعد من غرب البلدة على بعد ما يزيد على ألف متر من مكاننا. كان أهل القرية كلهم على الأسطح وكأنهم يحضرون مهرجانا. صرخت طالبا هاتفي الجوال لأصور آثار القصف. صورت حوالي ثلاثين ثانية بينما الجميع كان يتحدث عن مكان الضربة. الكثير قالوا إنها في المقرات، قاصدين بذلك مقرات الثوار المتجاورة غربي البلدة، بينما راحت أمي تقول إن سوق الجمعة قد يكون أصيب بسبب موقعه القريب. في الحقيقة لو كان القصف في مكان السوق لكانت النتائج أكثر كارثية. تجيبها زوجة عمي من السطح المقابل بأنهم نقلوا السوق إلى مكان آخر.

في تلك الأثناء وبعد مضي ثلاث دقائق تقريبا على عملية القصف بدأ الأمر يبدو شديد الخطورة. كنت أعرف ذلك مسبقا، إلا أني لم أكن أستطيع مقاومة مشاهدة ما يجري. كان هناك صوت طائرة مقاتلة في المنطقة، ليسمع بعد ذلك صوت حوامة. بحثت عنها جاهدا في السماء فلم أجدها. فجأة ظهرت سيارات تتجه بسرعة كبيرة باتجاه المستشفى على مدخل البلدة. يبدو أن هناك ضحايا وكل ما رجوته ألا يستهدفوا المستشفى كما فعلوا في مناطق كثيرة. بينما راح الشباب يجمعون بعض الشظايا التي سقطت جراء القصف ووصلت عندنا. استغرق كل ما حدث أقل من أربع دقائق. طلبتُ من أمي وأختي النزول بسبب الشعور بأن الوضع شديد الخطورة. كانت أمامي أختي وخلفي أمي، عندما نزلتُ أول درجتين لتقوم في تلك اللحظة القيامة.

شيء ما كان يصفر بصوت يعلو متسارعا ليصبح جعيرا، أو شيئا من هذا القبيل. كان عاليا لدرجة أنني لم أشعر أن شيئاً ما كان يسقط فوقنا من

السماء، بل شعرت أن السماء كلها تطبق علينا. نزلت درجتين ليحدث الانفجار المتصل بصوت تكسير لا ينتهي. شعرت بضغط يكاد يفجر جسدي وأحسست وكأن عشرة رجال يجرني كل واحد منهم إلى طرف. لحق الانفجار صوت طائرة مقاتلة يصم الآذان لتضرب برشاشها في مكان قريب. كان كل شيء يوحي بأن الساعة قد قامت. شعرت بجرح ما في ظهري فدخلت في سقيفة كانت بجانبي، بينما كانت الدنيا تمطر أحجارا وقطع حديد مختلة الأحجام. انعدمت الرؤية بحيث بالكاد رأيت أمي التي جلست على الدرج دون أن تستطيع الحراك من أثر الصدمة، بينما ميزتُ أختي تضع يديها على رأسها وهي تصرخ "يا أمي". طلبت منهما الدخول معي إلى السقيفة لعله ينتهي ما يجري.

في الأسفل كان كل شيء يمكن أن يُكْسر مكسوراً، وكل شيء يمكن أن يطير قد طار فعلا. الشبابيك لم ينكسر زجاجها فحسب، بل قُلعت من الجدران واستقرت في آخر الغرف. الأبواب تكسر كل ما كان مغلقا منها، بينما نجا كل ما كان مفتوحا. دخلت غرفتي فرأيت بيت عمي يظهر من شق فُتح بالجدار. أسلاك الكهرباء والهاتف تقطعت وسقطت على الأرض. لا إصابات في عائلتي والحمد لله وجرحي كان سطحيا وخفيفا، ولا زلت حتى الآن لا أعرف كيف جرحت بينما كنت أعطي وجهي لجهة الانفجار. حان الوقت الآن لنعرف ما يجري خارج الدار. جريت دون أن أستمع لطلبات أبي وأمي بالعودة إلى المنزل فصوت الطيران مازال يدوي في الجو.

أول ما ظهر لي في باب الدار ابن عمي وهو يجري ويقول إن غرفة في منزلهم تهدمت بالكامل. توقعت أن لا أحد قد أصيب منهم كونه ذكر الغرفة دون عائلته. سألته "وين وقع؟" فقال لي إنه في الدار المجاورة لهم، في بيت عمتي. جرينا باتجاه دارهم ليخبرني فادي أخي أن الجثث تملأ المكان. كان هناك بعض الشباب الذين وصلوا قبلي لينقلوا الموتى والمصابين. افترضت أنّا خسرنا العديد من الأحباب.

أول ما وقعت عيني عليه هي جثة لطفل في العاشرة من عمره بدون رأس وبدون قدم. عرفته، إنه أحد التوءمين من أولاد عمتي. تراه عبد الله أم أحمد. يا ربي وهل سيشكل هذا فرقاً بالنسبة لنا، أو بالنسبة إلى قاتليه.

غطيناه بينما جاء أبوه يبكي أحمد. لقد عرفه من ثيابه وراح يسأل عن بقية عائلته. كان هناك طفل آخر تهشم رأسه وجثة لطفلة ورجل ساقهم حتفهم إلى ذلك المكان. داخل دار عمتي كان واضحاً أن البرميل قد وقع فيها، والدار أصبحت غير تلك الدار. غرف تهدمت وسور بطول عشرة أمتار اختفى بالكامل، وعربة زراعية يقدر وزنها بالأطنان طُبقت وطارت من مكانها. دراجة نارية استقرت وعجلاتها للأعلى. كان الجو لا يزال مغبرا والرؤية ضعيفة بينما رحنا نجري فوق الأغنام وطيور الهندي والدجاج الميتة. دخلت إلى ما تبقى واقفا من بيت عمتي وأنا أصرخ علّني أجد من يجاوبني. تبعني أحدهم لا أعرف من هو. لم يكن لدينا الوعي لنعرف من كان يركض معنا وخصوصاً أن وجوهنا كانت بيضاء من الغبار. يا رباه هناك فتاة تحت الركام. أزلنا الأحجار من فوقها، وحملها أحدهم. إنها فاطمة شقيقة أحمد الشهيد ذات الستة عشر عاما. لم أر أثرا لأي دماء وظننت أنها ستنجو.

الطيران خلال كل ذلك لم يتوقف عن الإغارة على القرية. في الشارع كان الناس يركضون في كل الاتجاهات. بعضهم يجري فيتوقف ويجري في الاتجاه المعاكس ليعود ويتوقف ويغير الاتجاه. هناك من ترك أهله خلفه وراح يبحث عن مكان آمن هنا أو هناك.

عدت إلى المنزل حيث كان الجميع يجمع أغراضه للهروب. لكن إلى أين سننزح الآن؟ تم جمع ما يمكن حمله من أوراق هامة ونقود والتحضير للإنطلاق. لم يكن أحد يسأل عن أحد. خمس جثث في حارتنا والعديد من الجرحى من الأقارب. قبل الخروج أتت شاحنة تحمل خمسة قتلى من الأطفال. ميزت أحمد بسبب الغطاء الذي وضعناه عليه، وقلت للسائق إن البقية ليسوا لنا، فرد علي أحد الأقارب بأن هذه فاطمة. يا رباه ظننتها ستنجو. حملنا الجثث الخمس إلى منزل عمي الذي كان يتحضر لاستقبال العروس لابنه بعد يوم واحد من الجمعة السوداء. لكن أين بقية سكان الدار التي سقط فيها البرميل؟ الحمد لله أن الكثير منهم ذهبوا لنشر الذرة البيضاء التي حصدوها قبل أيام. وإلا كانت النتيجة ستكون مضاعفة وهي لحد ذلك الوقت ستة شهداء بينهم ابنا عمتي ولاحقا أم زوجها و الكثير من الجرحى بينهم عمتي التي أصيبت بإصابات غاية في الخطورة، طبعا هذا فيما يخص هذا البرميل فقط.

في المستشفى كان الوضع مأساويا، حيث بدأ العقل يعود إلى عمله الطبيعي ليقدر الخسائر. آباء وأمهات وأخوة وأبناء يبكون ضحياهم، ومتبرعون بالدم وصلوا بعد الطلب الكبير عليه. مشاجرات عديدة جرت بين بعض أقارب الضحايا والثوار الموجودين هناك، وشتائم بالجملة طالت الجيش الحر والثوار لأنهم برأيهم من تسببوا بالقصف. دخلت لأقف بجانب عمتي التي استطاعت النجاة رغم عشرات الشظايا التي أصابتها. لم تكن تعرف أنها فقدت ابنها وبنتها، ولم أكن أعرف من لديه الجرأة ليخبرها. أم زوجها ذات الثمانين عاماً نجت في ذلك اليوم لتفارقنا بعد شهرين، بسبب عدم استجابة جسمها للعلاج نتيجة العمر الكبير وتعدد أمراض القلب والسكر. كان همّ ما جرى كافياً ليقضي بسهولة على شخص بعمرها.

البلدة بكاملها كانت تسرع لتخرج، بينما لازال الطيران الحربي والمروحي يحلق. يارب ماذا يوجد هنا ليرسلوا لنا ثلاث طائرات؟ لقد كان أهل القرية مطمئنين بأنهم لن يقصفوا لأنهم ببساطة لم يفعلوا شيئا. وهل فعل كل من قُصف شيئا؟ غيرنا تعرض للقصف بالتدريج فمن الرشاش إلى الهاون إلى المدفع إلى الراجمة إلى الصواريخ إلى البراميل. أما هؤلاء المساكين الغافلون صدمتهم كانت مضاعفة بعد كل ذلك الاطمئنان.

على بعد ثلاثين أو أربعين متراً من مكان وقوفي سقط البرميل الثاني بين أربعة استهدفت القرية، مطلقا آلاف الشظايا التي مزقت كل ما مرت به من حجر وحديد وأجساد البشر. كان سقوطه في وسط الدار وأدى إلى تهدم غرفتين بالكامل، إلا أنهما لم تكونا مسكونتين إلا بأكياس الحنطة والشعير والتبن، وتهدم الكثير بشكل جزئي. لم يبق أي شيء في مكانه. ومن ينظر إلى الشكل الجديد التي اتخذته الدار ويعرف كيف كانت الحارة تعج بالواقفين والمتفرجين لاستغرب أن عدد الشهداء كان ستة فقط.

في منزل عمي جاؤوا بالأكفان لتكفين ما تبقى من أجساد الشهداء، بعد أن أخذ أهالي الشهداء الثلاثة الآخرين شهداءهم. اختلف بعضهم على ضرورة تغسيلهم لكونهم شهداء، والشهيد لا يغسل كما هو معروف. كانوا أطفالا خمستهم سقطوا مباشرة لحظة القصف، بينما كنا لا ندري ماذا جرى في باقي الحارات حيث كانت كل ثانية تحمل خبرا أو اسم ضحية جديدة.

البلدة كانت تفرغ من سكانها تدريجياً. افترش الغالبية الأرض حول البلدة بينما التجأ بعضهم إلى الأصدقاء والأقارب في القرى المجاورة. عاد بعض الهدوء للدماغ ليعيد التفكير بالقدر المتوفر من المنطق. هل حقا جرى ما جرى؟ هل حقا أنها أمطرت براميل متفجرة من السماء؟ هل حقا أني كنت قريباً من الموت لتلك الدرجة؟ هل حقا أرسلت لقصف الأطفال والنساء طائرة ميغ مقاتلة وطائرتان حوامتان؟ هل حقا حملت ابن عمتي مقطوع الرأس؟ يا رب كنت أعرف أن كل ذلك قد حصل مع غالبية السوريين، لكن أن يحدث ذلك لي فله طعم مختلف وإحساس لازلت أشعر به في كل خلية من جسمي، كما لازال في أذني صوت ذلك الشخص من القرية وهو يصرخ بكل ما لحنجرته من قوة "يا رب مانك شايف يارب؟ وين إنت يا رب؟".

أفاد إعلام النظام ذلك اليوم بأنهم استهدفوا مستودعاً للذخيرة التي يستخدمها الإرهابيون. ليس غريباً ما يقولونه بعد ما عرفناه عنهم، لكن طعم المرارة وحجم الصدمة تلقاها مؤيدوه من البسطاء الجهلة الذين لم يشككوا في رواية النظام ولو للحظة، والآن جاء ما لا يستطيع أحد أن ينكره. رغم أن الأخبار بدت تنتشر والإشاعات بدأت تتكاثر بعشرات الروايات التي يكاد يصل بعضها لمستوى الأساطير. "هناك ثلاث سيارات دخلوا القرية ليلاً وتفرقوا وجاءت البراميل في مكان مرورها". "هناك من استهدف الطائرة وهي تمر بالصدفة فطلبت المؤازرة". "الطائرات كانت متجهة للقصف في مكان آخر وحدث التباس فقصفت هنا". لم أناقش أو أجادل أحداً لأني أعرف أن أياماً قادمة، ليست بالبعيدة، ستجعلهم يعرفون ما جرى ويجري، وسيجري في هذه البلاد، وستجعلهم يعرفون أنهم إذا أغلقوا أعينهم كما فعلوا منذ بداية الثورة، فلا يعني أن لا شيء يجري.

في ليلة "الضربة" وما تلاها كان على سكان البلدة بما فيهم أنا بطبيعة الحال أن نعيش حالة من الرعب لم أشهد لها مثيلاً في حياتي. كان مجرد صوت الطائرة يدفعك إلى أن تحتمي تحت أي سقف وتضع رأسك تحت يديك، وفي بعض الأحوال أن تصرخ كالنساء. هذا الحال كان بالنسبة للرجال أما النساء والأطفال فحالة من الإرهاب لازالوا يعيشونها إلى الآن، بحيث كلما سُمع صوت طائرة بدأت النساء بالبكاء والأطفال بالصراخ، وكثيراً ما بلل الأطفال

ثيابهم مع مرور إحدى الطائرات. كلب الحراسة في دار عمتي لازال لليوم يدخل هاربا إلى المنزل ويختبئ داخل إحدى الغرف مع سماعه صوت الطائرة ويرفض الخروج حتى اختفاء صوتها.

جراء تلك الحالة التي لا يمكن علاجها مع مرور الطائرات اليومي واستهداف القرية بالرشاشات باستمرار.. كان لزاماً على الأهالي الخروج من القرية نهاراً عندما يكون الجو صحواً، متأملين أن تصدق تحليلاتهم بأن لا براميل في الليل. النزوح من القرية بشكل نهائي كان فكرة مطروحة، إلا أن البلدة كانت آخر مكان يمكن النزوح إليه في كل المنطقة، والآن علينا المفاضلة بين أخطار المناطق، والدراسة بتأنٍ لواقع كل المناطق الديموغرافي والجغرافي وبعدها وقربها عن الجبهات التي كانت بدورها متنقلة من مكان لآخر. بدأت حركة النزوح باتجاه الأراضي التركية، كونها أقرب مكان آمن يمكن قصده. لكن في النهاية لا أمان إلا برب الأمان.

بعد أيام قليلة بُدئ بإعادة إعمار الدار التي فقدت بالإضافة إلى عدد من سكانها عشرات من الماشية والطيور التي يربيها ويتاجر بها أهل القرية في العادة، بالإضافة إلى كميات كبيرة من الحنطة والشعير والتبن المخزن. عملية الإعمار هذه كانت تحمل صعوبات كبيرة بسبب الحالة النفسية لأهل القرية، وخصوصاً من تضرر من القصف بالإضافة إلى الحالة المادية التي أصيبت بمقتل بعد الضربة. كما أننا لا نعرف متى يخطر ل"أبو حافظ" أن يعاود الكرة من جديد. فلماذا أبني إذا كان هناك جيش يهدم؟ و لماذا أنجب وأربي الأطفال لأفجع بهم بتلك الطريقة؟ ولماذا أنا مجبر على أن أعيش حياة لا تحكمها إلا غريزة البقاء؟ وهل الحياة أفضل من الموت في كل الأوقات؟

المصيبة أن ما تعرضنا له كان يجري يوميا، وما نالنا ألا يوم من سنوات طويلة عاشها غيرنا. وفي نفس الوقت بالكاد تذكر مثل تلك الأخبار على وسائل الإعلام، بينما تتسابق ذات وسائل الإعلام للتركيز على خبر مثل إعدام الثوار لجنود كانوا يقاتلونهم، أو لدى سقوط بعض قذائف الهاون على مناطق سيطرة النظام لا يعرف أحد من أطلقها. بالطبع لن يدفعني كل ما جرى لأدافع عن أي خطأ أينما حصل، لكن كانت هناك مجزرة يومية تجري في سورية، وما تعرضنا له يحصل مثله وأسوأ منه في كل البلاد، بينما تمر أخبار

القضية السورية على وسائل الإعلام كما يمر خبر انتحار أحد الحيتان على أحد الشطآن، أو ولادة لنمر نادر في إحدى حدائق الحيوان. و لربما أخذ الجدل على السماح لزواج المثليين في فرنسا متابعة أكثر من بقايا أطفالنا التي كانت تطير في الهواء نتيجة القصف المستمر. كما تم نقل زفاف ولي العهد البريطاني من قبل آلاف المحطات لمدة ساعات، بينما لم يجد أحمد ورفاقه الشهداء أي قناة لتذكر أسماءهم على الأقل. ولحد الآن لازال هناك من يتساءل بسذاجة من أين أتى كل هؤلاء الإرهابيين.

رغم ما تعرضت له القرية بأكملها من نكبة وصدمة سيبقون يفكرون بها إلى أن يموتوا. كان على الحياة أن تستمر وتعود إلى طبيعتها، فالحياة ماشية لا تتوقف منذ أن بدأ التاريخ، وستستمر لنصبح نحن تاريخا يقرؤه من بعدنا. فبعد أقل من أسبوع على الضربة عاد الأهالي إلى منازلهم والناس إلى أعمالهم والتجار إلى تجارتهم. لملم من تضرر مباشرة بالضربة جراحه وأخذ حسبه ربه وأصلح ما يمكن إصلاحه. أقنع الكثيرون أنفسهم أنه خطأ لن يتكرر، مستفيدين من تأكيدات أقاربهم الذين لازالوا يعملون رجالا عند النظام. استمر كل شخص في القرية يروي كيف مرت عليه الضربة. أين كان يقف وماذا رأى وماذا فعل وماذا قال. كان لكل شخص روايته التي استمر في تبادلها مع كل من حضر أو لم يحضر الجمعة السوداء. حصل انقلاب نوعاً ما ضد النظام بعد ما جرى، فبعد كل هذا التأييد والموالاة للنظام ورغم كل المبررات التي أوجدوها لهذا القصف، إلا أن ما جرى كان فوق كل المبررات والأسباب.

تركيـــا

استمرت الحياة على تلك الشاكلة إلى أن أتى يوم السبت الثلاثين من تشرين الثاني، في حوالي الساعة الثالثة والنصف عصرا. كنت أجلس مع ابن عمي "على القبلي" لنكسب أشعة الشمس التي عادة ما تكون مكسبا في الشتاء. قطع حديثنا صوت حوامة بعيدة. وقفنا للبحث عنها في السماء. كانت متجهة من الشرق باتجاهنا مباشرة. بالطبع كانت بالكاد يمكن مشاهدتها بسبب الارتفاع الشاهق الذي تطير عليه تجنباً لمضادات الثوار الأرضية. دقائق قليلة من المراقبة لتصبح فوقنا مباشرة بحيث يصعب رؤيتها بدون أن نرجع ظهورنا إلى الخلف. تجاوزتنا بمسافة قليلة جداً لأتأكد أنها لم تقصفنا. هذا ما أكدته لابن عمي ليِسمع في تلك اللحظة صوت الصفير. "برميل" صرخت واتجهت إلى زاوية بين جدارين واضعاً رأسي تحت يدي وجالساً على الأرض. لحق الصفير صوت انفجار قوي هز كل ما يمكن أن يهتز، إلا انه يبدو بعيدا عن مكاننا. جريت إلى المنزل وأنا أرى الدخان يظهر غربنا مباشرة. تمنيت أن يكون خارج القرية. كالعادة ساد الهرج والمرج في القرية وراح الجميع يجمع أهله للخروج إلى الأراضي الزراعية. جاء الخبر بعد قليل. فجعت القرية مرة أخرى. رجل وثلاثة أطفال ضحايا البرميل. عرف الجميع لحظتها أن هذه القرية لم تعد صالحة للسكن.

بعد أن تأكدنا من أن الحوامة غادرت المنطقة توجهت إلى مكان سقوط البرميل، لأرى الصور ذاتها التي شاهدتها يوم سقط في حارتنا. ذات الدمار وذات الأشلاء، ونفس الصراخ والبكاء والرعب في عيون الناس. ثم توجهت مع بعض الشباب للمقبرة حيث كان الناس يتجمعون لحفر القبور للشهداء. في المقبرة كان حوالي ثلاثمئة شخص واقفين، منهم للمشاهدة ومنهم للمساعدة في الحفر كما هي العادة مع أي حالة وفاة في القرية. بعد عدة دقائق بدأ الأطفال يصرخون ويشيرون إلى حوامة في الجو. عندما وقعت عيني عليها عرفت أننا وجهتها. كانت تسير بخط مستقيم من الجنوب الشرقي باتجاهنا.

بدأت أطلب من الناس أن يشاهدوا الحوامة، وأن يتفرقوا فورا كي لا تُستهدف المقبرة وتحدث مجزرة كبيرة. راح الناس يجرون في كل الاتجاهات محاولين تقدير الجهة الأكثر أمنا. نسيت حتى أن أركب الدراجة النارية التي كانت معي وأنا أجري وأنظر إلى السماء كما يفعل كل من كان هناك. كان كل ذلك كابوسا من الذي نرى فيه أنفسنا نهرب من شيء دون أن نستطيع الابتعاد عنه. كان كل من في القرية تبدو له الحوامة فوق رأسه مباشرة. أسرعت لأجد ما يمكن أن يصلح كملجأ.

وجدت بناء من طابقين فدخلت إلى الطابق الأول فيه، لأجد عشرات ممن سبقوني. بدأنا بالتكبير والتشهّد فقد تكون تلك النهاية. كانت رغبتي كبيرة بالبقاء حيا، لإنهاء هذا العمل على الأقل. ثوان قليلة وبدأ الصفير ليلحق به الانفجار المعتاد. رحلت الحوامة مسرعة دون أن تعاود القصف. بدا مكان القصف شمال القرية قريبا من بيوت أقاربنا، إلا أني رجحت أنه لم يصب أحدا. أجبت على اتصال أمي التي كانت تبكي محاولة الاطمئنان علي. على الطريق كنت أسأل الناس عن مكان وقوع البرميل ليجيبني أحدهم بأنه وقع فوق دار ابن عمتي. يا رباه قبل يومين دفنوا جدتهم التي سقطت نتيجة الضربة الأولى قبل شهرين. أسرعت إلى هناك لأرى الدار مهدمة بالكامل، إلا أن الناس أخبروني أن لا أحد قد أصيب فيها، فقد شاءت العناية الإلهية أن تكون الدار خالية تماماً. العائلة كانت تتكون من الأب الذي يعمل في تركيا، وأم وأربعة أطفال كانوا متوجهين إلى الدار، إلا أن البرميل سبقهم بوقت قصير لحسن الحظ. لكن في الدار المجاورة سقط شاب من أقاربنا شهيدا، نتيجة إحدى شظايا البرميل التي اخترقت جسده.

بعد هذه التجربة عرف الجميع أن هذه البلدة لم تعد صالحة للسكن. فمجرد البقاء فيها يعني أن خطر الموت يحيط بك من كل جانب. وإن لم تمت فعلا فلا حياة يمكن أن تعيشها وأنت ترتجف لأدنى صوت قد تشك به، ولأي خبر تسمعه، ولأي ضحايا مجزرة تراهم على شاشة التلفاز قد تكون أنت مكانهم في اليوم التالي.

النية في الرحيل كانت مشتركة لدى غالبية أهل القرية. لكن الرحيل لن يكون أبدا بتلك البساطة، وعلى من يفكر به أن يفاضل بشكل جدي بين

مساوئه ومساوئ البقاء تحت القصف. فأين يمكن للناس أن تجد مكانا أكثر أمنا من هذه البلدة؟ فهذا الحال حال كل البلد إلا ما ندر. وإن وُجد المكان الآمن فكيف يمكن للناس أن تترك أرزاقها وأعمالها ودورها خلفها وتخرج؟ وإن خرجت فكيف ستعيش ومن أين ستنفق؟ وإن وجدت فإلي متى ستستطيع الصمود في وجه كل هذه الصعوبات؟

من كان لديه منزل في مناطق سيطرة النظام ذهب إليه مرغما، ومن استطاع الاستئجار استأجر. آخرون وغالبيتهم من الشباب فضلوا الذهاب إلى تركيا التي فتحت حدودها للسوريين. ولبعضهم قرر البقاء ومتابعة حياته دون الالتفات إلى ما تجلبه السماء، أو بدأ بحفر ملجأ تحت الأرض يأوي إليه هو وعائلته في حال بدأ القصف. والكثير من العائلات انقسمت وتشتتت بين هذه الخيارات، فجزء ذهب إلي حلب المحتلة وجزء إلى حلب المحررة وجزء سافر إلى تركيا وجزء بقي في القرية. أما الشيء الوحيد الذي بقي مشتركا بين أهل القرية فهوة لعنة من كان السبب في كل هذا التشرد والإجرام.

بالنسبة لي لم أكن أقل من أهل القرية حيرة فيما أعمل، والخيارات كلها كانت مُرّة. فلا أنا أستطيع العيش في مناطق النظام، وهذا كان أمرا لا مجال للنقاش فيه. والبقاء في القرية مغامرة لا وضوح لعواقبها. وذهابي إلى تركيا لن يحل المشكلة كوني لا أملك مصلحة أعمل بها، وكل دراستي لا قيمة لها في بلد لا نتكلم لغته.

لكن بعد تفكير طويل قررت تجربة حظي في تركيا التي كنت أرغب في زيارتها لكثرة ما تحدثنا عنها مع كل من ذهب هناك. بالإضافة إلى أني كنت أريد أن أجرب العبور إلى الأراضي التركية بطريقة غير مشروعة كما يفعل الكثير من السوريين، لأدوّن في رأسي ما يمكن أن يغني هذه القصة.

* * *

رحلتي إلى الأراضي التركية كانت بطريقة غير شرعية كما ذكرت كوني لا أملك جواز سفر. إلى الحدود التركية أقلتنا سيارة نقل عام. فمنذ تحرير تلك المناطق أضحت هذه الحدود من أهم خطوط نقل السيارات العامة. قبل وصولنا المتأخر إلى مدينة حارم حيث كان مقررا العبور عبر معبر الحامضة، فوجئنا بأن الطريق مغلق بسبب الاشتباكات التي كانت تجري بين الكتائب

بسبب أمر له علاقة بتهريب المازوت إلى الداخل التركي. كانت هذه النقطة إحدى أبرز الأماكن التي يتم التهريب عبرها. نصحنا المهربون بالاتجاه إلى "الحلّة" التي كانت وسيلة نقل تشبه القارب الصغير تنقل الناس بين ضفتي نهر العاصي، الذي كان يشكل الحدود بين تركيا وسورية في المناطق القريبة من مدينة سلقين.

بعد حوالي الساعة والنصف وصلنا إلى نقطة حجي باشا. كان الظلام قد حل وعمليات النقل قد توقفت، وحتى ضوء القمر غاب تلك الليلة وتركنا لهواجسنا، وخصوصاً من كان لديه أطفال ونساء يرافقونه في ذلك العبور. كل ذلك دفع المهرب إلى ابتزازنا بالمبلغ الذي يتطلبه منا لإيصالنا إلى مدينة الريحانية. بعد مساومة طويلة بيننا وبين "أبو الليل" أحد تجار البشر الذين استغلوا حاجة الناس للعبور، اتفقنا على سعر ألفين وخمسمئة ليرة للرجال و ألفين للنساء والأطفال. امتلأت الحلة بالبشر والحقائب والهموم، وتم نقلنا على دفعات على ألحان نقيق الضفادع وصوت المياه الجارية برفق في تلك المنطقة. كانت غالونات المازوت تطفو فوق المياه وتسير مع النهر ليلتقطها مهرب من الجانب التركي.

عندما وصلنا إلى الأراضي التركية كان علينا المسير مع حقائبنا حوالي ألف متر. لا أعرف لماذا مشيت كل تلك المسافة وأنا أردد أنشودة "سوف نبقى هنا"، رغم أننا لم نستطع أن نبقى هناك إلى أن يزول الألم. بعد كل ذلك المسير كان بانتظارنا سيارة تشبه سيارة الإسعاف لتأخذنا إلى الريحانية. تكدسنا فوق بعضنا وانطلقت السيارة مسرعة فوق أحد الجبال، لنصل بعد حوالي خمس وأربعين دقيقة إلى الريحانية. إلا أن كل هذه المعاناة يمكن وصفها بالبسيطة، إذا ما عرفنا أن عبورنا كان غير شرعي وفي توقيت غير مثالي، ولا يمكن بأي حال من الأحوال مقارنته بالعبور في معبر كراج الحجز على سبيل المثال.

في الداخل التركي لم تغب الدهشة عن وجوهنا أبداً. وهي ذات الدهشة التي تبدو على وجه أي مهاجر قادم من العالم الثالث إلى بلد مثل تركيا. الفرق كبير في كل شيء. البناء والشوارع والخدمات والحضارة والنظام الذي يسير عليه هذا البلد، والأهم من كل ذلك - كما شاهدت لاحقا - الإنسان وكيف يعامل نفسه، وكيف يعامل أخاه الإنسان.

توجهت إلى غازي عنتاب حيث كان ينتظرني ماهر وأبو عدنان بعد طول فراق. لم أفاجأ بعدد السوريين الذين كنت ألقاهم في تلك المدينة، فقربها من الحدود وحجمها الاقتصادي والصناعي جعلها قبلة للهاربين من الجحيم على الطرف الآخر. إضافة إلى وجود غالبية الهيئات المتعلقة بالمعارضة السورية، والمنظمات الإغاثية والهيئات الإعلامية في تلك المدينة. كما لم يفتني ملاحظة التشابه الكبير بين عنتاب وحلب وخصوصاً في المدينة القديمة. وكأنهما شقيقتان احتضنت إحداهما الأخرى بعد كل ما أصابها.

أسبوع قضيته في عنتاب خرجت فيه بانطباع يفوق بكثير ما كنت أعرفه عن هذا البلد وما يقدمه للسوريين. كان هناك احتضان شعبي ورسمي لكل سوري. فلم يقيد الأتراك دخول السوريين إلى بلادهم، بل وسعوا من استقبالهم داخل المخيمات و خارجها. بالإضافة إلى السماح للسوريين الذين لا يحملون جوازات سفر بالعمل والسكن بدون أي مساءلة. بل على العكس تماماً كانت تبدو مساعدة السوري واجباً يجب تنفيذه وفرضا يجب القيام به، وكل مخاطر أو مشاكل يمكن أن تنتج عن هذا الوضع كانت شيئا يمكن أن يهون أمام واجب ضيافة السوريين. فتحمل الأتراك خطورة بقاء الحدود مفتوحة أمام حركة النزوح بتلك الطريقة والتي يمكن أن تؤثر على أمنهم القومي. بالإضافة إلى عمليات التهريب التي كانت تجري من وإلى داخل الحدود والتي أضرت كثيراً بالاقتصاد التركي. كما لا ننسى المشاكل التي تسبب بها بعض السوريين هناك كنتيجة طبيعية لوجودهم الكثيف في المدن التركية، وفي ثقافة وحضارة غريبة عنهم، وعدم حمل أغلبهم إقامة نظامية تحملهم مسؤولية أي جرائم قد يرتكبونها.

أما في الجانب المتعلق بالثورة كانت كذلك جمهورية تركيا هي الأكثر مساعدة للثوار، فهي التي استقبلت الجنود والضباط المنشقين عن نظام الأسد كافة، وسمحت لهم بإدارة العمليات من أراضيها، وقدمت كافة التسهيلات اللوجستية للثوار. كما قامت بالتكفل بالعلاج لأي مصاب قادم من المعارك داخل سورية. كذلك استضافت غالبية مقرات ومؤتمرات الهيئات السياسية والمنظمات التي انبثقت عن الثورة.

بالفعل قدم لنا الأتراك نموذجا يجب أن يعمم على دول العالم كافة في

كيفية التعامل مع اللاجئين في الأزمات الإنسانية. وإذا ما قارنا ما قام به الأترك بما قدمته دول تعد شقيقة أو صديقة، فسيكون عارا على الكثير منها، ولا يصل بأي حال من الأحوال إلى حجم البروبوغاندا التي كانت تروج للمساعدات التي كانت تقدمها هذه الدول للسوريين.

كان لزاما علي في ذلك الوقت البحث عن عمل، لضمان استطاعتي العيش بعيدا عن المخيمات، لكن ذلك اصطدم بكوني لا أملك مهنة أستطيع العمل بها، وكل ما تعلمته في بلادي يعد كلاما بكلام في بلد لا يتحدث سكانه اللغة الإنكليزية، وهذا كان من أكثر ما فاجأني لدى الأتراك. والعمل لدى جهات تابعة للمعارضة هناك كان بحاجة إلى "واسطة" كبيرة في ظل شح فرص العمل في مثل تلك الجهات.

في خلال وجودي في مدينة غازي عينتاب ساقتني الصدفة لملاقاة ثلاثة شباب متجهين للجهاد في سورية. موسى مهندس الحواسيب وعبد السلام من كوسوفو ومحمد طبيب أمريكي من أصل باكستاني كانوا يبحثون عمن يأخذهم إلى داخل الحدود. بعد حوالي ساعتين من الحديث بلغة انكليزية مكسرة أعجبت كثيراً بحماسة هؤلاء الشباب، الذين تركوا عائلاتهم لنصرة المظلومين في سورية. صحيح أني أعتبر تأثير المقاتلين الأجانب سلبيا على الثورة كما ذكرت سابقا، إلا أني لم أجد الوقت المناسب لشرح هذا التأثير لهم. لم أراهم متطرفين بأفكارهم، ولم أر أي ارتطباط لهم بالقاعدة، بل حركتهم المشاهد اليومية لقتل الأطفال وانتهاك كل ما يمكن انتهاكه من محرمات، وبدافع أخوة الدين توجهوا للمشاركة في القتال في سورية. عانقونا مطولا قبل أن يستقلوا السيارة التي كانت ستأخذهم إلى الحدود.

انطباع غريب خلفه لقائي القصير بهؤلاء الشباب. فماذا هم ذاهبون ليفعلوا في بلدي؟ وماذا أفعل أنا بعيدا عنها؟ ألم تعد هذه الحرب حربنا؟ أليس من حق كل إنسان حر أن يذهب ليدافع عن المظلومين في أي مكان في العالم؟ ألم يفعل ذلك أرنستو تشي غفارا وهو الآن رمز من رموز هذا العالم؟ أليس من حق كل إنسان يملك بعض المنطق أن يهرب من الجحيم داخل الحدود السورية؟ ألم يعد هذا الصراع عديم المعالم، ويتداخل فيه الحق والباطل كما يتداخل الجسد والروح؟ أخياري الصحيح أم خيارهم؟ أكلنا مخطئون أم كلنا

مصيبون؟ جهد كبير بذلته لأميز الصواب الذي يجب أن أقوم به.

لم أجد حلا إلى تلك الفوضى من التساؤلات، إلا أني قررت أن أعود إلى سورية ولا أعرف إذا كان ما اتخذته صواباً. لا كي أحمل السلاح، إلا أني يجب ألا أخرج منها إلا مرغماً، وأنا لازلت في مرحلة غير المرغم على الخروج. وعلى هذه الزيارة إلى تركيا أن تقتصر على السياحة وأن تنتهي بأقرب وقت.

العودة

كانت العودة عن طريق منطقة بالقرب من معبر باب السلامة الحدودي وبالطبع بطريقة غير شرعية. في كثير من الأحوال يِسمح للسوريين غير النظاميين بالعودة إلى سورية عبر المعبر النظامي، إلا أنه في ذلك اليوم لم يكن متاحا حسب ما بدا لي. لم أكن أعرف لماذا كل هذا التشديد على السوري الذي يعود إلى الحرب والدمار على الطرف الآخر من الحدود. الجواب عرفته في ذات اليوم، وهو عمليات التهريب الكثيفة عبر الحدود والتي لا تكاد تنقطع من أي نقطة من نقاط الحدود السورية التركية. توجهت أنا وبعض الشباب باتجاه السياج الشائك علّنا نجد منفذا. كان علينا أن نسير أقل من كيلومتر واحد في كروم الزيتون. لكن واجهتنا مشكلة ليست بالبسيطة بسبب الأرض التي كانت موحلة جداً بعد انتهاء العاصفة الشهيرة "ألكسا" والتي ضربت المنطقة قبل أيام. كان المشي صعباً وما سيجري بعد قليل أكثر صعوبة.

فبعد وقت قليل من السير التقينا مع عائلة مؤلفة من أب وأم وثلاثة أطفال، أخبرونا بأن العسكري التركي سمح لهم بالمرور بعد تفتيش متاعهم والتأكد من أنهم ليسوا من المهربين. عندما بدا لنا السياج الفاصل شاهدنا العسكري التركي يقف ويطلب من أمثالي من العابرين بالاتجاه السوري العودة أدراجنا، وآثار عربات الجيش التركي كانت واضحة في الأرض الزراعية. كنا حوالي عشرة شبان مشينا قليلاً بموازاة الحدود إلى أن وجدنا ثغرة جديدة في السياج، ولا يبدو أن أي عسكري تركي يقف قريباً. بدأنا بالجري الذي كان بالغ الصعوبة بسبب الحقائب التي نحملها، والأرض الموحلة التي غاصت فيها أقدامنا بسهولة. كنت آخر الواصلين إلى الثغرة، وعندما وصلت إلى الخندق المحاذي للسياج سمعت صوت إطلاق نار في الهواء. عبرتُ الثغرة ومشيت في الجانب السوري منهكاً وضاحكاً. فكيف يظن مطلق النار أن السوريين بعد كل ما عاشوه يمكن أن يوقفهم طلق ناري في الهواء.

في الأراضي السورية لم أقم بالسجود وتقبيل التراب الغالي لأني ظننت أنه

سيكون تصرفاً مبتذلاً أمام مجموعة من المهربين الذين كانوا ينتظرون العبور إلى الجانب التركي، لكنني حقيقة رغبت بذلك. انتقلنا باتجاه مدينة حلب مروراً بقرى الريف الشمالي. وصلت إلى دوار الحيدرية الذي تعرض قبل يومين لهجوم بربري بطيران النظام والبراميل المتفجرة، في بداية لمسلسل لم ينته حتى الآن، أي بعد شهرين ونصف من القصف الهمجي الذي كان يتسبب بمقتل حوالي مئة شهيد يومياً في مدينة حلب. بالطبع كلهم من المدنيين والكثير منهم أطفال ونساء، ولم يكن سقوط قتلى من الثوار إلا من قبيل الصدفة. هذا المسلسل الذي كنا نتابع صوره اليومية، دون أيّ ردة فعل لن تساوي بالتأكيد حجم ما يحدث، لأنه لا شيء يمكن أن يساوي حجم ما يحدث، إلا أننا كنا نريد أن يقول أحد ما كلمة واحدة لنشعر بوجوده على الأقل.

* * *

في تلك المرحلة ما بين نهاية عام 2013 وبداية الـ 2014 كانت أكثر الأمور شغلاً للبال وإثارة للجدل هي الحديث عن مؤتمر جنيف 2، وعن الدولة الإسلامية في العراق والشام.

جنيف 2، يأتي في إطار سلسلة من الحراك السياسي الخارجي لوضع حد للنزاع والعنف في سورية كما يردد الجميع. إلا أنه، ووفق ما ثبت لنا، كان مجرد سلسلة من شراء الوقت وتخدير السوريين وغير السوريين المهتمين بالقضية السورية، عبر تجاهل المشكلة الرئيسة وأصل الصراع والهروب إلى أمور ثانوية لا هدف منها، سوى إظهار المجتمع الدولي وكأنه جاد وماض في وضع حد لما يجري. كان هناك إجماع عالمي على ضرورة الحل السياسي عبر التفاوض بين وفدي النظام والمعارضة. لا أعرف بأي منطق أو عقل أو دين كانوا يريدون من السوريين الجلوس للتفاوض مع من يقوم يومياً وعلى مدار الساعة بحملة قتل وتدمير لكل من لا يسبح بحمده. كانت الرسالة واضحة. علينا الرضوخ للحل الذي اتفقت عليه القوى الكبرى، وعلى رأسهم الروس والأمريكان، وهو غير واضح المعالم حتى الآن، وهنا مشكلته الكبرى.

كان هناك إشكاليات كبيرة قبل بدء مثل هكذا مفاوضات. فوفد النظام غير مستعد لتقديم أي تنازل لأن النظام دخل منذ البداية ليربح الكل أو لا

شيء. وجمعت المعارضة جمع الزيت بالماء، فكل فريق منهم يتبع دولة ما أو مجموعة دول. أما القوى المقاتلة وحتى غير المقاتلة على الأرض السورية، فلا تحسب أي حساب للمعارضة الخارجية بل إن الكثير من الفصائل أعلنت العداء الصريح لكل من يجلس مع النظام.

كان السوريون ينظرون إلى جنيف 2 وهذا الحديث المكثف حوله، كمن ينظر إلى قشة وهو على وشك الغرق. نعرف جيداً أنَّها لن تحل لنا المشكلة، ولكن ليس لدينا خيار آخر ننتظره. كانوا بمؤيديهم ومعارضيهم ينتظرون حلاً يوقف دوامة العنف. لكن مع النظر بواقعية إلى مدى التعقيد الذي بلغته الأمور في سورية وحولها، لم يكن ممكناً الشعور بتفاؤل ما تجاه هذا الحراك الدبلوماسي. ولم يستطع أحد من الدول المؤيدة أو المعارضة لنظام الأسد أن يمنعه من استهداف المدنيين بشكل مباشر بالتصفية والتعذيب والقصف والحصار المميت. هذا كان باختصار أكثر نتائج الصراع الذي أثر على السوريين. فإن لم يكن باستطاعتكم التوافق على حل تفرضونه على النظام والمعارضة، فلماذا لا تضغطون عليه ليترك المدنيين بحالهم، وليبقى طرفا الصراع في صراعهم إلى أن يملّا، أو أن يفني أحدهما الآخر.

* * *

أما الأمر الآخر الذي ظهر بقوة في نهاية عام 2012 في الواجهة وتطور يومياً حتى بداية عام 2014، هو إشكالية دولة الإسلام في العراق والشام، وهم مقاتلون يتبنون إيديولوجية القاعدة كمقاتلي جبهة النصرة لأهل الشام، التي تضم أفراد تنظيم الدولة قبل انفصالهم عنها.

نسب إلى الدولة الإسلامية الكثير من التجاوزات والجرائم والتهم، إلا أنني أظن أنها ليست لب المشكلة، بالنسبة لنا كسوريين، وأنا على يقين أن تهماً مشابهة يمكن توجيهها إلى الثوار أو المحسوبين على الثورة في تلك الفترة. كانت المشكلة تكمن في مشروعهم الذي يسعون لتحقيقه، وهو إعلان دولة إسلامية في المناطق التي يسيطرون عليها يطبق فيها حكم الشرع الإسلامي. بالطبع لا تعترف هذه الدولة بأي جنسيات أو حدود، وبطبيعة الحال القوانين والأعراف العالمية. بل ستكون مرتكزاً لحربهم المقدسة للسيطرة على العالم. وهذا المشروع دون الخوض في صوابه وخطئه، لا يقوم إلا بانتهاء مشروع

الثورة التي ضحى السوريون لأجلها بنحو مئة ألف شهيد موثقين حتى ذلك الوقت، فالصدام يبدو حتمياً بين المشروعين.

إضافة لذلك كان تدفق المقاتلين الأجانب بذلك العدد الكبير لإقامة هذه الدولة في سورية والعراق دافعاً ومبرراً كافيا للمقاتلين الشيعة للقتال إلى جانب نظام الأسد. فبعد أن كانوا بالمئات أصبح عددهم بعشرات الآلاف استلموا القتال في الخطوط الأمامية للنظام بعد أنْ أوشك على الانهيار بفعل نفاذ المخزون البشري لديه.

كما أدت الحساسية المفرطة بين الدولة الإسلامية وكل ما هو علماني أو مرتبط بالدول الغربية وحتى العربية إلى إلحاق كبير الضرر بالسوريين، الذين ارتبطت قضيتهم بتلك الدول. فقامت الدولة بملاحقة الشخصيات الغربية التي قدمت لسورية لأهداف إغاثية وطبية أو إعلامية. نفهم أن المخابرات الغربية ستخترق أمثال هؤلاء للوصول إلى قادة التنظيم، إلا أن عملياتهم تلك منعت الكثير من المساعدات من الوصول إلى السوريين. كما أنّ ملاحقتهم للصحفيين الأجانب منعت وصول أي صحفي غربي أو حتى عربي من الدخول إلى سورية. فخسرنا بذلك التغطية التي كانت تقوم بها وسائل الإعلام الغربية لعمليات القصف والانتهاكات، وتركت للهواة من ناشطين فقط، وأصبح النظام يقصف مطمئناً، ولا من يلاحقه غير كامرات الهواتف النقالة.

بدأ انتشار عناصر الدولة الإسلامية في مدينة الرقة التي لم يعد للنظام أي وجود فيها. ولاحقاً انتشروا في غالبية المناطق المحررة في الرقة والحسكة ودير الزور وحلب وإدلب. أقاموا في المناطق التي تولت إدارتها هيئات مدنية لتنظيم الأمور هناك، والحكم في النزاعات التي تنشأ بين الناس. كما أقاموا معاهد شرعية لتعليم الدين الإسلامي وفق نظرتهم له. وتصدوا بحزم للصوص وقطاعي الطرق الذين انتشروا في حالة الفوضى. فاستقطبوا بذلك تعاطف الناس الذين عانوا من جرائم اللصوص الذين لا رادع لهم ولا سلطة تحد من سطوتهم. كان نظامهم القضائي مناسباً لمن لا يعارض أفكارهم، ولا يقف بوجه مشروعهم. أما من يقوم بذلك فسيكون مصيره الإعدام في غالب الأحيان. وهذا ما رأيته في قريتي خلال فترة من سيطرتهم عليها.

كانت "الدولة" تتمتع بهيبة كبيرة، سبقت قدومها إلى القرية، إضافة إلى

أنهم يعلنون تطبيق شرع الله الذي لا يجرؤ أحد على مخالفته. قامت الهيئة التي تشرف على البلدة بتولي أي قضية تصل إليها حتى لو كانت قليلة الأهمية. فاسترد غالبية الدائنين ديونهم من مدينيهم المستعصين منذ سنوات، وحلت الكثير من الخلافات على التخوم التي تفصل الأراضي الزراعية، وغيرها من الأمور المشابهة. حفظت الدولة الأمن، وحققت العدل للمدنيين وهو غاية المراد من أي دولة قد تتشكل. لكن على النقيض كما قلنا لم تكن الدولة أو عناصرها ليرحموا من يخاصمهم أو يقف في طريق مشروعهم، إذ تناله مباشرة تهمة الكفر أو الشرك أو الردة، ما يبرر استباحة دمه وملكه.

من المواقف التي حضرتها بنفسي معهم هو لقاء جمعنا بالأمير أبي عبيدة الذي أظنه سوري الجنسية، لنقوم بتسليمهم مبنى حكومي والتأكد من محتوياته. اطّلع الأمير، وأحد عناصره على الموجودات، وأكد أنهم سيستمرون بتشغيلها، معللاً بأنهم يريدون إقامة دولة والدولة بحاجة إلى كهرباء وهاتف وماء وكل شيء. إلا أن ما حصل في ذلك اللقاء اتهام الأمير لي بالردة كوني أدرس الحقوق، وطالبني بالعودة إلى الله والتوبة عن الحقوق التي تحكم بغير ما أنزل الله. وكان يستند إلى الآية 44 من سورة المائدة "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون". لهذا الموضوع كلام كثير كنت أرغب التحدث فيه، لكنهم لا يمنحون مجالاً لمناقشة ما يعتقدونه.

في لقاء آخر مع الأمير ذاته لتسليم جهاز الإنترنت الفضائي والكاميرا التي تسلمها زكريا بوصفه الإعلامي التابع للمجلس المحلي. برّر الأمير ذلك بأن كل ما هو لنظام الأسد، وكل ما جاء عن طريق الائتلاف الوطني هو غنائم لصالح الدولة الإسلامية بما فيها المساعدات الغذائية التي تأتي للتوزيع على المحتاجين. وإذا كنت لا أتهمهم بسرقة هذه الحصص لتوزيعهم إياها على من يحتاجها، إلا أنهم يعدونها ملكاً ولا يحق لأحد أن يوزعها إلا بمعرفتهم.

كان في المقر التابع للدولة ما يقارب من عشرة عناصر يقرأون في مصاحف يحملونها. كان المركز غاية في النظام، تمتد سجادات من النوع الفاخر في كل المبنى، مما أدى لاضطرارنا لخلع الأحذية التي كنا ننتعلها. لدى خروجنا لم أجد الحذاء الخاص في الخارج فسألت العناصر مستفسرا. جاء أحد العنصر الذي انتعل الحذاء بالغلط معتذرا وطالبا مني مسامحته على فعله دون

استئذاني. كان طلبه أقرب للتوسل، فعلقت على طلبه "سامحتك يا شيخ".

أحد المميزات التي كانت تميز الدولة الاسلامية في تلك الفترة هو الأموال الطائلة التي يصرفونها لاستقطاب العناصر والموالين، إضافة إلى شراء كل ما يتوفر لديهم من سلاح.

لم يطل الأمر حتى بدأت الصدامات بين الجيش الحر والدولة الإسلامية، بفعل محاربتها اللصوص وقطاعي الطرق ممن يمارسون الجرائم باسم الجيش الحر فيرفعون راياته ويقاتلون معه أحياناً. ليمتد لاحقاً استهدافهم الكثير من الفصائل الصغيرة التي يسهل القضاء عليها مع اتخاذ باقي فصائل الثوار موقف الحياد السلبي. كان ابتلاعهم للفصائل الصغيرة يزداد طرداً مع ازدياد قوتهم التدريجي. ولاحقاً ازداد احتقان مقاتلي الجيش الحر من الدولة الإسلامية التي سيطرت على المدن والبلدات المحررة، ولم تسمح لأي جهة أخرى بالعمل معها. بدأت تحدث صدامات في مناطق مختلفة، وبدأت الدعوات لعقد صلح بين الدولة والجيش الحر، وتشكيل محاكم محايدة للقضاء بالنزاعات الناشئة، إلا إن الدولة رفضت التقاضي إلا بقضاتها ومحاكمها.

استمر الاحتقان لتنفجر الأمور بعد إعدام الدولة الإسلامية لأحد أمراء حركة أحرار الشام لخلاف ما بينهم. طالبت الفصائل الدولة بتسليم القاتلين ومحاكمتهم أمام محكمة مستقلة، إلا أنها رفضت، لتبدأ حرباً حقيقية بينها وبين تشكيلات الجيش الحر كافة، ولاحقاً، جبهة النصرة ضد الدولة الإسلامية. راح ضحية هذه الحرب الكثير من الطرفين، وأدت إلى انقسام المناطق المحررة إلى مناطق تتبع الثوار وأخرى للدولة الإسلامية، ولا تزال هذه الحرب مستعرة بالتوازي مع محاربة نظام الأسد إلى هذه اللحظة. ليزداد بذلك الوضع السوري أشدّ تعقيداً.

خارجياً لم يكن لهذه الحرب بين الثوار وتنظيم الدولة أيّ صدى يمكن أن يساوي حجم الصراع الجديد، بعد أن صدع رؤوسنا المسؤولون الغربيون بالمتطرفين في صفوف المعارضة.

عندما أمطرت براميلا

مع بداية العام الجديد أصبحت الأمور في حلب أكثر مأسوية بسبب القصف المتواصل بالبراميل المتفجرة. حضرت من ذلك المسلسل يومين من أكثر الأيام التي أثرت فيّ، وأقصد الأحد والاثنين الثاني والثالث من شهر شباط من عام 2014.

في ذلك اليوم كنت مضطراً للذهاب يوم الأحد إلى مناطق النظام، رغم أني كنت مطلوباً لتأدية الخدمة الإلزامية، إلا أن العبور من معبر كراج الحجز كان ممكناً للازدحام الشديد فيه ولانشغال عناصر النظام بسرقة التجار، وناقلي البضائع. طريق حلب يأخذ نحو خمس إلى ست ساعات من قريتي، وكان أقل من نصف ساعة، ولاحقاً أقل من ساعة عبر طريق الشام، ومن ثم حوالي ثلاث ساعات عبر مدخل حلب الشرقي بعد انقطاع كل الطرق السابقة. الآن علي الدخول من المدخل ذاته، إلا أنه كان عليّ العبور من ريف حلب الجنوبي إلى الغربي إلى الشمالي إلى الشرقي، لأصل إلى الكراج جنوب المدينة. كل ذلك بسبب الاشتباكات القديمة مع جيش النظام على بقية مداخل حلب المغلقة، والاشتباكات الجديدة مع تنظيم الدولة. الطريق كان يمر بالعديد من القرى التي أذكر منها الزربة وكفرناها والأتارب ودارة عزة وعفرين ورتيان وبيانون والشيخ نجار للدخول إلى مدينة حلب، ولكم أن تتخيلوا حجم تلك المعاناة.

لكنّ هذه المعاناة لم تكن لتشكل شيئاً أمام ما يجري في حلب. على الطريق رأينا رتلاً من مئات السيارات تحمل الناس والأطفال وأثاث البيوت والهموم المتراكمة. كان منظراً مؤلماً، وخصوصاً حين نعرف أن هؤلاء الناس ما كانوا ليخرجوا من منازلهم لو أنهم وجدوا مكاناً أفضل، إلا أن وضعهم لم يعد يحتمل، فلا يمكن أن يظلوا منتظرين براميل الموت..

مع دخولي أحياء حلب الشرقية للمدينة بدتْ طائرة الموت على ارتفاع كبير إذ لا يمكن لأي مضادات أرضية أن تطولها. كانت عيون الجميع في

الشوارع معلقة بها. حاولنا قدر المستطاع أن نبقي أعيننا على الحوامة عندما كانت السيارة تتقدم في شوارع حلب، فلا أظن أن أحداً منا كان يرغب أن يظهر اسمه على شريط قناة "حلب اليوم". وبطبيعة الحال كانت عيوننا لا تخطئ الدمار الهائل في مدينة بدت وكأن زلزالاً أصابها.

مع وصولنا إلى منطقة طريق الباب كانت الحوامة فوقنا، لكنّ مكاننا لن يكون هدفاً لها إذ هي ليست فوق رؤوسنا مباشرة. كنت أراقبها عندما رمت أحد البراميل. كان أول برميل أشاهده بعيني يسقط من الطائرة. قلت للركاب:

إنها ألقت أحد براميلها، فظنّ الجميع أنّ البرميل سيسقط في مكان وجودنا، فقام الركاب بقذف أنفسهم من السيارة بينما راح السائق يقود كالمجنون. توقفنا قليلاً حتى ابتعدت الطائرة وتابعنا المسير.

لدى وصولي إلى معبر كراج الحجز لفّني شعور بالرعب كوني كنت مطلوبا للخدمة في الجيش كما قلت، رغم أن المرء لا يحتاج دائماً إلى سبب ليتم اعتقاله في تلك المناطق. ما لفت انتباهي أكثر كان حجم النزوح الكبير باتجاه مناطق سيطرة النظام، فكان المشهد ذاته الذي رأيته في مدخل حلب الذي دخلت منه. ذات الناس وذات الأحمال وذات الوجوه العابسة. كان شعورا باليأس الكبير يتسبب به اعتقاد الناس ألا ملجأ لهم من القتل إلا القاتل. للأسف كان اعتقادا صائبا بنسبة كبيرة بعد أن تخلى الجميع عن هؤلاء المساكين. من الطرف الآخر لم يبد التأثر على أحد من مناظر البراميل التي ترى بالعين المجردة، ولا أظن أن أحدا يجرؤ أن يبدو متأثرا، حتى من تضرر بها. عدت أدراجي إلى حلب المحررة بعد ساعتين، ليكون ذلك آخر عبور لي في معبر كراج الحجز الذي تم إغلاقه نهائيا بعد يومين من قبل قوات النظام.

بعد ليلة قضيتها في منطقة الجلّوم في حلب القديمة في منزل مصطفى. توجهت إلى جسر الحج للعودة للقرية. جسر الحج كان قد استهدف لأكثر من مرة بالبراميل وقبل أسبوع سقط في وسط الكراج صاروخ من طائرة مقاتلة تسبب بمقتل العشرات من السائقين والركاب، والكثير منهم حرق، وهو حي. في الحقيقة كانت المنطقة بين جسر الحج ومدخل حلب الشرقي أخطر منطقة مأهولة في السكان في العالم ذلك الوقت. رافقني مصطفى إلى

الكراج الذي أصبح مكانه تحت جسر السيارات لتلافي قدر الإمكان خطر البراميل المتفجرة. مع وصولي إلى تحت الجسر مباشرة دوى انفجار هائل بالقرب منا. كان برميلا قد سقط على بعد خمسين متراً من مكان وقوفنا، في المكان الذي كنا نمر بقربه قبل دقيقة واحدة. لم يكن هناك وقت للذهول والتفكير بالقدر الذي كنا قريبين فيه من الموت، لأنه لم يبتعد لتلك المسافة التي تسمح لنا بالتفكير بفارق المسافات وترتيبات القدر. كالسباع هرع عناصر الدفاع المدني إلى مكان سقوط البرميل، لينقذوا من يمكن إنقاذه، لكنهم عادوا بعد وقت قليل ليطمئنونا أن أحدا لم يصب بإصابات خطيرة بذلك البرميل.

انطلقنا مسرعين قدر الإمكان، وخلال المسافة التي تخطيناها للخروج من المدينة سقط ثلاثة براميل أخرى بالقرب من خط سيرنا، أحدها كان قريبا بحيث عبرنا من خلال الغبار الكثيف الذي ينشره البرميل والحطام. رأينا سيارة مسرعة تحمل طفلا يغطي وجهه الغبار والدماء، إلا أني أرجو له النجاة بعد ما رأيته يبكي بشدة كدليل على الحياة التي تصارع لتبقى في جسده. رؤوس من بقي من الناس كانت دائماً مرفوعة، لا لشيء يفخرون به إنما لا يريد أحدهم أن تغيب الحوامة عن عينيه، ليتخذ ما يمكن اتخاذه من تدابير السلامة في حال كان نصيبه أحد البراميل.

مبكياً كان منظر المدينة وأنت ترى إلى أحوال السكان المتبقين، إلى هلعهم وخوفهم من المجهول وبخاصة هؤلاء النازحين الذين تركوا بيوتهم للدمار والسلب، وذكرياتهم للحسرات. لا يمكن لأحد أن يحبس دمع عينيه إلا من خرج عن جنس البشر، ولا أعرف أي جنس من الكائنات ذلك الذي تسبب بهذه الأهوال. مليون شخص أو أكثر تركوا المدينة، والله وحده يعلم أين توزعوا. كان تساؤل يدور في عقولهم تفصح عنه عيونهم. أليس من مات، وتوزعت أشلاؤه على الجدران والشوارع بأكثر حظاً منا، نحن الذين نموت مع كل برميل مئة ميتة، ومع كل مجزرة ألفاً؟

لم يكن هذا هو التساؤل الوحيد الذي يمكن أن يخطِر على البال. كان هناك دوامة من الأسئلة لا أحد يجيب عليها. لماذا وُجد هؤلاء الثوار ومضاداتهم التي لا تصل إلى الطائرة؟ لماذا وجدت هذه الدول وراداراتها

وأقمارها الاصطناعية، ولا يبدو عليهم أنهم يعرفون بما يجري؟ لماذا وجدت كل تلك الوكالات والقنوات التلفزيونية، ولا نرى لأنفسنا مكانا في أي شريط إخباري؟ أي علم عسكري يدفع أحدهم لاستهداف مباشر لمستشفى أو مدرسة أو جامع أو فرن أو كراج، واستهداف عشوائي لباقي المدينة؟

سلكت الطريق الطويل ذاته لدى عودتي إلى إلقرية ولم يزل ذهني مشغول بتلك المشاهد. آلاف العائلات في رتل لا بداية له ولا نهاية هاربة من القصف. أطفال تبكي وأخرى تضحك.. نساء يحملن ما استطعن حمله. رجال يحملون هموماً جعلتهم يتمنون لو أنهم لم يولدوا كيلا يحصل معهم ما حصل. أناس يجرون إلى موقع البرميل راجين أن يكسبوا أجراً في إنقاذ شخص ما. أذكر تماماً كيف كان البرميل يهوي من المروحية، وأعرف تماماً أن أناساً في تلك اللحظة قد صعدوا إلى ما هو أعلى منها. براميل تنزل وأرواح تصعد، كان حال حلب على مدى الشهرين الماضيين.

في القرية وبعد يوم من عودتي لم يبد أن الوضع مختلف عن حلب المدينة. فمع الصباح الباكر كانت هناك غارة لطيران الميغ على مدخل القرية الغربي. سارع الناس كعادتهم للنزوح إلى الأراضي الزراعية حول القرية. بعد حوالي الساعة كانت هناك غارة ثانية بصاروخين في المكان ذاته، أحدهما لم ينفجر. ظننا وقتها أن الفلم قد انتهى، إلا أنّه مع حلول الساعة الثانية والنصف تقريباً شاهدنا مروحية تتوجه غرباً، وتبعد جنوباً. فجأةً غيرت الحوامة اتجاهها نحو القرية مباشرة. لم أفكر بالهرب بعد كل ما شاهدته في مدينة حلب، إذ أصبح بإمكاني النظر إلى الحوامة، وهي فوق القرية مباشرة، ومعرفة مدى خطورة المكان الذي أقف عليه، بعد أن كنت لا أجرؤ على مجرد النظر إلى السماء، وهي تقترب منا.

عند وصول الحوامة إلى سماء القرية راقبها من كان يقف معي لنشاهدها كيف ستلقي البراميل فوقنا. وهل لديها شيء آخر سوى البراميل؟! لم يستطع أحد تمييز أيّ برميل بسبب أشعة الشمس، توقعت أن يصل البرميل، في حال رميه، سريعاً. نزلت بنظري إلى الأسفل لأرى البرميل يهوي بسرعة فائقة. صرخت مشيراً إليه، ليختفي مع وصوله الأرض. وصلنا لحظتها صوت صافرة لا زلت أبحث عن شبيه لها فلم أجد، يمكنكم الاستعانة بمقاطع الفيديو الكثيرة

التي تصور تساقط البراميل للتعرف عليها. دوّى الانفجار بشدة، وعلت تكبيراتنا التي ذكرتني بتكبيرات بداية الثورة التي كانت تخرج من حناجر صادقة، وجوهر نظيف، قبل أن تصبح موضة. توالى تساقط البراميل ليصل عددها إلى خمسة لم ينفجر أحدها. سقط أربعة منها على مدخل القرية الغربي وأحدها على المدخل الجنوبي. تضررت بعض الأبنية، وأسلاك الكهرباء، وبعض المحاصيل الزراعية، فالأهالي أخلوا القرية بعد غارات الميغ.

لا أعرف إذا كان من حسن أو من سوء الحظ أننا بدأنا اعتياد البراميل المتفجرة. فأنا شخصياً لم أكن لأجرؤ على النظر مباشرة إلى الطائرة التي تحلِّق فوقنا، فأسارع إلى أقرب مخبأ، صرت أقف لأتفرج على تلك البراميل، وأظنّ بأنني سأسارع لاحقاً إلى تصويرها، لحظة سقوطها، وأخشى أن تكتمل يوماً ما معي السلسلة التي مر بها الكثيرون، لأنضم إلى القافلة اليومية التي تنطلق من حلب باتجاه الجنة. هذا الاعتياد على تساقط البراميل، قد يبرر سكوت العالم المطبق، فإذا كنا قد اعتدنا فلماذا لا يعتادون؟!

النهاية

الآن وعند الساعة الثانية عشرة والنصف من بعد منتصف ليل السبت الخامس عشر من شباط عام 2014، كان اليوم الذي كنت أسعى للوصول إليه منذ أن قررت البدء بهذه القصة كموعد لإنهائها. وهو اليوم الذي يلتقي فيه التسلسل التاريخي لأحداثها مع اليوم الذي أعيشه بالفعل.

كان هذا العمل حلماً منذ البداية، ولا زال حلماً حتى ننشره يوماً ما. فعليّ عمل كثير يتطلب مراجعة ما كتبته وتعديله حذفاً وإضافة، فأنا مسؤول عن كل حرف ذكرته. فلم أتخيل أبداً أن تكون مسألة كتابة كتاب بهذا التعقيد.

لا أعرف حقيقة فيما إذا كنت قد كتبت ليلة من ألف ليلة، أم أني قدمت أكثر من ذلك لكل من يريد أن يعرف عن هذه الثورة. أعتذر مسبقاً عن كل شيء أخطأت فيه، أو أسأت تقديره، أو أعطيته أهمية زائدة، أو قللت من أهميته. أعرف جيّداً أن هناك أموراً عظيمة لم أتناولها جيداً أو أني لم آت عليها، والسبب أني لم أكن حاضراً فيها، وأترك تلك المهة على عاتق من كان حاضراً ليكون الأحق بوصفها وتقديمها إلى العالم.

لا أعرف إذا كنت سأحتاج لكتابة جزء ثان، فهذا يعتمد على تطور الأحداث، ومرور مزيد من الوقت المليء بما يمكن تقديمه لكم، أنتم البعيدون عن الثورة مكانياً، وزمانياً في السنوات التي ستلي انتهاءها.

ربما لم يولد بعد أغلب قراء هذا الكتاب الذي لازلت أظن أن أهميته والحاجة له ستكبر مع مرور الوقت وتقدم السنين. أنتم تحديداً أرجوكم أن تعوا وتعرفوا ما مر في هذه البقعة من الأرض في هذا الزمان. فالتاريخ بدأ يزور، ونحن مازلنا أحياء، ولا أدري بماذا سيخبرونكم عن الثورة السورية في المستقبل.

-تمت-

عشناها هناك في أرض ليست ككل أرض، وتحت سماء ليست كأيِّ سماء..
عشناها هناك حياة ليست كالحياة..
عشناها هناك حيث لا شيء كأيِّ شيء..
فلا البشر ولا القدر ولا الموت كانوا كأيِّ بشر أو قدر أو موت..

عشناها هناك حين ضاعت البدايات واختفت النهايات، وتفرّق الواحد، وتشتت المراد، وتهافتت الأسئلة، وانعدمت الإجابات.

عشناها هناك حيث صحَّ غير الصحيح، وصار الدم ماءاً، وبكى الرجال، ومات الناس من الجوع، رغم أنهم قالوا في الأمثال عكس ذلك.

عشناها هناك قمة السعادة وقمة الحزن، قمة الأمل وقمة اليأس، قمة اليقين وقمة الشك، قمة القوة، وقمة الضعف، قمة الجهاد، وقمة العبث.

عشناها حيث كان كل أمر خيراً وشراً، وكل قرار صائباً ومخطئاً، وكلِ كلام دعاءً وكفراً، وكل رأي حلالاً وحراماً. لا أعرف الآن، أتراه ربنا يرحمنا أم يعذبنا؟ أتراه يُدْخلُنا جنةً أم ناراً؟

رغم كل ذلك عشناها وتعودنا، لكن عليكم أن تعلموا أننا إذا كنا تعودنا فأبداً لا يعني أن الأمر عادي، وإذا كنتم لم تروا فأبداً لا يعني أن الأمر لم يحدث، وإذا كنتم لم تضغطوا الزناد فأبداً لا يعني أنكم لم تقتلونا.



ISBN 978-9933-577-13-1
9 789933 577131

تصميم الغلاف: @TULIP_CO